ثورة الفقر (١)

كنوز الفقراء

نور الدين أبو لحية

دار الكتاب الحديث

موقع المؤلف: /http://noursalam.free.fr
بريد المؤلف: nouresalam@hotmail.com

الطبعة الأولى

دار الكتاب الحديث – القاهرة –
للطباعة والنشر والتوزيع

الفرع	العنوان	الهاتف	الفاكس	البريد الالكتروني
القاهرة	ص.ب ٧٥٧٩ البريدي ١١٧٦٢ مدينة نصر – ٩٤شارع عباس العقاد	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٠	٠٠٢٠٢٢٢٧٥٢٩٩٢	dkh_cairo@yahoo.com
الكويت	١٣٠٨٨ شارع الهلالي برج الصديق ص.ب ٢٢٧٥٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٣٤	٠٠٩٦٥٢٤٦٠٦٢٨	ktbhades@ncc.moc.kw
الجزائر	ص ب ٠٦١ درارية الجزائر عمارة ٣٤	٢١٣٥٤١٠٥	٢١٣٥٣٠٥٥	dkhadith@hotmail.com

من القرآن الكريم

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (الضحى:٣)

﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام:٥٢)

﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام:٥٣)

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ (لأعراف: من الآية١٣٧)

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (القصص:٨٢)

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧)

تنبيه

نحب أن ينتبه قارئ (رسائل السلام) لما يلي:

١ ــ بما أن الغرض من هذه الرسائل هو أن تكون مدرسة لتعليم السلام، وما يتطلبه السلام من معارف.. فقد اهتممنا في أصلها بما يحقق هذا الغرض، و لم ننشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش..

فلذلك يحتاج من يتعلم من هذه الرسائل مراجعة ما ورد في الهوامش والاهتمام بها باعتبارها معلومات أساسية تيسر عليه فهم وتحصيل ما يرد في أصل الرسائل من معلومات.

٢ ــ أننا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر ما عدا ما يتعلق بالنصوص المقدسة من القرآن الكريم والحديث الشريف.. أما سائر النصوص، فتوثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها هذه الرسائل.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

٣ ــ قد يعترض بعض أدباء الأدب الواقعي على كثير مما يرد في هذه الرسائل مما لا يمكن انسجامه مع الجانب الفني الواقعي.. كحفظ أبطال الرسائل للنصوص الطويلة مع كون بعضهم من العامة البسطاء.

ونحن نقدر هذا النقد..

ولكنا ننبه إلى أن الغرض من هذه الرسائل ليس الأحداث التي نسوقها، وإنما الجانب العلمي منها.. وإنما ذكرنا هذه الأحداث لنمزج المعلومة التي قد تكون جافة بما ييسر تحصيلها من التشويق والمتعة.

ولذلك إذا تعارض التشويق مع المعلومة قدمنا المعلومة عليه بناء على اعتبارها الأصل.

المقدمة

كنت مهموما حين زارني هذا المرة ــ ككل مرة، من غير ميعاد ولا استئذان ــ قال لي: تبدو على سحنات وجهك هموم الحزن القاتل.

قلت: ومن لا يهتم في هذا الزمان؟

قال: ألا تعلم أن الهم عدو السلام؟

قلت: ومن لي بأن لا أهتم؟..وهل أمري بيدي؟.. إنما أنا كعصفورة عصفت بها الرياح، فلما هدأت سقطت في شباك أطفال يسومونها سوء العذاب، فإن نجت منهم، هم بها نسر ليطعمها أصغر أولاده.

قال: نعم.. لك أن لا تهتم.

قلت: كيف؟

قال: بعلم السلام.. أنسيت أني معلم السلام.

قلت: وما علاقة ما أنا فيه بالسلام؟

قال: ما سبب همك؟

قلت: رأيت اليوم مشهدا فتت قلبي واعتصره، فذرفت من دمعي أنهره.

قال: وما رأيت؟

قلت: فقير مكسور الجناح.. هو تماما كالعصفورة التي حدثتك عنها، ولكني مع ذلك لم أحزن لهذا.. إنما حزنت على شللي بين يديه، فلم أستطع أن أقدم له أو أؤخر.. ومع ذلك لم أحزن لهذا.. إنما حزنت للنظرات القاسية التي كانت تتوجه إليه، وكأنه ممرور أو مجذوم، أو كأنه شيطان من الشياطين لا يعبس إلا في وجهه.

قال: ولذلك قلت لك: لن تنجو من همك إلا بتعلم السلام.

قلت: كيف؟

قال: لأن الحزن الذي يعتلج في صدرك سهام تحارب بها رحمة ربك، ادخل في أعماق وجدانك، وقل لي ماذا ترى؟

دخلت أعماق وجداني، فرأيت ظلمات قاسية هبت منها، فناداني، التفت، فإذا هو أمامي، قال لي: اسألها: ما محلك من أعماقي، ومن أدخلك في سراديب وجداني؟

سألتها، فتكلمت بلا حرف ولا صوت، قالت: أنا الاعتراض على حكمة الحكيم، ورحمة الرحيم، وجود أكرم الأكرمين.

قلت: فأي محل تملئين، ولأي سر تسترين؟

قالت: أستر حقائق الجود، وخزائن اللطف، لأنشر أوهام الهم والحزن.

قلت: وما المخرج منك؟

قالت: أنا أضعف من أن أدلك على المخرج، هو ذا المعلم أمامك، فاسأله.

التفت إلى المعلم، فقال: اخرج من أعماقك، وهيا بنا إلى أعماق الفقير الذي اهتممت له، وحزنت عليه، واعترضت على حكمة الحكيم ورحمة الرحيم بسببه، لتستخرج من أعماقه (كنوز الفقراء)

قلت: لا طاقة لي بالتجول في أعماق الناس.

قال: دعك من هذا، فالقدرة منه لا منك، والأمر بيده لا بيدك.

ثم التفت إلي، وقال: لا تنس قلمك، فسننطلق من أعماق ذلك الفقير الذي حزنت له لنسطر رسالة جديدة من رسائل السلام، تمسح الحزن عن آلام الفقراء، وتدلهم على الكنوز التي يدفنونها بأوهامهم وأحزانهم واعتراضهم.

***

لم يكن أمامي إلا الخضوع لأمره، لكني قلت له من غير أن أشعر: هل نستقل سيارة للوصول إليه، أو نبحث في دفاتر المعدمين عليه؟ فإني رأيته ولكني لا أعرفه.

قال: أغمض عينيك، وافتحهما لتراه أمامك، أو لترى نفسك أمامه، فقد قال الحق تعالى:﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾(النمل: من الآية٤٠)

ما إن فتحت عيني بعد إغماضها حتى رأيته، لست أدري، هل أتى به إلي، أم حملني إليه!؟

قال لي: انظر إليه جيدا.

قلت: نعم لقد نظرت إليه، فنشر من الحزن ما كان كامنا، ومن الهم ما كان مدفونا.

قال: انظر إليه، ولا تنظر إلى ثيابه، فالثياب كفن الإنسان، لا روح الإنسان.

نظرت إلى سحنة وجهه، فإذا بها شاحبة قد اعتصرتها الأيام، وكأنها أكلت لحمه وعظمه، و لم تبق له إلا جلدة شاحبة تستر جمجمته.

قلت: لقد نظرت، فما زادتني رؤيتي له إلا هما.

قال: انظر إليه إنسانا لا جمجمة، ألم تعلم أن الإنسان كل لا يتجزأ، وحقيقة لا تتعدد؟

نظرت إليه مجموعا، فلم أزدد إلا هما، لقد رأيت قواما شاحبا، ورجلين كعودين يقوم عليهما هيكل لو شاء النسيم العليل أن يهوي به لفعل.

ضحك، وقال: لم تزدد إلا هما.

قلت: كأني بك تمزح بي، طلبت منك أن تمسح همي، فزدتني هما على هم.

قال: لا بأس عليك سيمسح همك، اصبر، وإلا قلت لك ما قيل لموسى عليه السلام:﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾(الكهف: من الآية٦٧)

قلت، وقد أصابتني رعدة من أن يفارقني كما فارق الخضر موسى عليه السلام:﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾(الكهف: من الآية٦٩)

ثم خطر على بالي موقف موسى عليه السلام مع الخضر، فسألته: هل أنت الخضر؟

قال: دعك من هذا، فقد قلت لك بأني النقطة التي تحت الباء.. وانظر إلى ذلك الذي ملأت قلبك غما من أجله، لتنجلي أحزانك.

نظرت، فإذا بذلك الظل الذي لا قوام له، والشبح الذي لا ظل له، يبتسم ابتسامة دونها ابتسامة الملوك، ويصيح ملء فيه:(الحمد لله رب العالمين صاحب الفضل العظيم.. أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا.. ومن كل شيء أعطانا)

كانت كلماته كألحان عذبة.. تفوح بروائح عطرة.. تشرق مثل لآلئ البحر المكنون..

جلس إلى صبية له تبدو عليهم علائم السرور، ومخايل النجابة، فحدثهم وداعبهم وضحك إليهم وضحكوا له.

لم يكن في بيته شيء يستدعي افترار الثغر عن الابتسامة، إنما هو جدار بال، وفراش بسيط، وفي زاوية البيت فأس ورفش، لست أدري ما علاقتهما بالبيت، وما علاقة البيت بهما.

قال لي المعلم: اذهب إلى هذا الذي اهتممت له، واسأله ما يشكو، وما يطلب، وسأحقق له ــ بفضل الله ــ طلبته.

فرحت، فلعل في قدرات المعلم ما يرفع جداره، ويرفه فراشه، ويدسم طعامه، ولم أدر إلا وأنا أخاطب الفقير بقولي: ما الذي تفتقده؟ وما الذي تريده؟ فإن عجزت عن إعطائك في الصباح، فقد وجدت من يعطيك في المساء.

التفت إلي باهتا، وقال: وما الذي ينقصني حتى تكمله؟ وما الذي يعوزني حتى توجده؟

قلت: المال والثراء، والقصور والمراكب، واللباس الجميل.. والطعام اللذيذ.

ضحك، وقال: عن أي لعب تتحدث؟

قلت: أي لعب!؟.. أنا لا أتحدث عن لعب، بل أريد نقلك من الفقر الذي تعيشه إلى الغنى الذي لا تحلم به.

قال: ومن أخبرك بأني فقير؟

قلت: جلد وجهك، وأسمال ثيابك، وجدار بيتك.. كل ما فيك ينم عنك.

ضحك، وقال: ألم يقل لك المعلم: انظر إلى الإنسان، لا إلى أشياء الإنسان؟

قلت: أتعرف المعلم؟

قال: كلهم يعرفونه، وكلهم ينكرونه؟

قلت: كيف؟

قال: يدعوهم، فلا يستجيبون.. ويمد يده إليهم، فيقبضون أيديهم.. يصيح فيهم، فيصخون آذانهم، ويملأون الأرض لغوا لكي لا يسمعوه، ويملأوها ضبابا لكي لا يروه.

قلت: إلام يدعوهم؟

قال: إلى مدائن الغنى التي خبئت فيها كنوز الفقراء.

قلت: وهل دخلت إليها؟

قال: لم أخرج منها، بل أنا ثري من أثريائها.

قلت باسما بسخرية مختلطة بهيبة: أنت ثري؟

قال بجرأة: نعم، وأرجوا من فقرائكم الذين يدفنون أنفسهم في ناطحات السحاب، ويكفنون أرواحهم في جلود الحرير، أن يلتحقوا بمدائن الغنى لينهلوا من كنوزها ما يغنيهم عن مد اليد بالسؤال.

قلت مبتسما: أتتهم أغنياء العالم بالتسول؟

قال: وهل هناك متسول محترف أكثر منهم؟

قلت: بل هم الذين يمدون أيديهم للمتسولين بالعطاء.

قال: وهم الذين يمدون أيديهم لكل شيء بالفقر.

قلت: أهم يفتقرون إلى كل شيء!؟

قال: نعم، لأن من لم يستغن به يفتقر إلى كل شيء، ألم تسمع قول الحكيم:(ماذا وجد من فقدك)!؟

قلت: بلى، وهو القائل:(وماذا فقد من وجدك)

قال: ما أكثر ما تحفظون، وما أسرع ما تنسون.

هزني عتابه، وشعرت أني بين يديه كنملة بين يدي فيل، فقال لي: بل أنت كتلميذ بين يدي أستاذ، أو تائه بين يدي مرشد.

قلت: مرشد؟.. إلى أي طريق؟.. وفي أي متاهة؟

قال: أنا المرشد الذي يسير بالسالكين في مدائن الغنى، ليملأ خزائنهم بكنوز الفقراء.

فقلت:﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾(الكهف: من الآية٦٦)

قال لي: لست معلم السلام، ذلك معلم السلام، الذي شرب من عيون السلام.

قلت: وهل يمكن أن أشرب منها؟

قال: تلك رحلة طويلة، فلا تسأل عن شيء حتى يأتي زمانه، ألم تسمع قول الخضر عليه السلام:﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾(الكهف:٧٠)؟

فجأة.. لم أجد أمامي شيئاً، لست أدري هل انصرفا عني أم انصرفت عنهما.

***

في الغد جاني معلم السلام، وقال لي: خذ قلمك وقراطيسك، فسنرحل إلى مدائن الغنى لنجمع كنوز الفقراء.

سال لعابي، وحلمت بالثروة التي حرمت منها، وصحت من غير أن أشعر: أهي كنوز كثيرة؟

فقال: لقد ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(التكاثر:١) حتى نسيتم الحقائق.

قلت: لقد خلق الله الأعداد، فنحن نشتاق إلى الأعداد.

قال: أربعة كنوز.

قلت: من الذهب أم من العقيق؟

قال: هي أغلى من الذهب والعقيق.

سال لعابي من جديد، وقلت: كلها من صنف واحد.

قال: لكل كتر منها جواهره الخاصة.

قلت: فما الكتر الأول؟

قال: كتر يغنيك عن الكل، إن تقلدته حسدتك اللآلئ، وذهب بريقه الذهب، وانفضت عن محاسنها الفضة.

قلت: فما اسمه؟

قال: كتر (الاستغناء)، بريقه يمتد من العرش إلى الفرش.

قلت: وما الكتر الثاني؟

قال: كتر يملأ كل جوف، ويسد كل خلة، ويغطي كل حاجة، بريقه يمتد من الأحشاء إلى الأعين.

قلت: فما اسمه؟

قال: كتر (القناعة) ألم تسمع بأن القناعة كتر لا يفنى؟

قلت: فما الكتر الثالث؟

قال: كتر يرفع هامتك بين الناس، فتدوس بقدميك سواري كسرى وقيصر، فلا تحن رقبتك إليها، وتتساقط أنواع اللآلئ والجواهر بين يديك، فلا تمد عينك إليها.

قلت: فما اسمه؟

قال: كتر (الاستعفاف).. ذاك الذي يغنيك عن الطواف.

قلت: عن الطواف بالبيت؟

قال: عن الطواف ببيوقم.

قلت: فما الكتر الرابع؟

قال: كتر يحرك جوراحك، ويثير فضائلك، ويجعل من عرقك لآلئ دونها لآلئ الجيد الحسان.

قلت: ما اسمه؟

قال: كتر (الفضل) من حازه استغنى وأجر، يمتد بريقه ليشمل الآفاق، ويخترق أجره السبع الطباق.

قلت: فما سر كون هذه الكنوز أربعة، لم لم تكن خمسة أو ثلاثة؟

قال: لأن الفقير ينحصر فقره في هذه الأربع، فهو يبدأ من شعوره بفقره وحزنه عليه، فيسلمه ذلك للحرص والطمع، وهو ما يدفعه إلى السؤال والشحاذة، أو يدفعه إلى العمل والكسب.

قلت: وهذه الجواهر تسد منافذ الخلل التي حصلت للفقير؟

قال: كما يسد الطبيب منافذ العلة للمريض.. أرأيت لو كان جرحك بيدك، أيعالج الطبيب رجلك؟

قلت: بل يدي.

قال: فكذلك عالج الحكيم الأوحد علل الناس، فعالج الشعور بالفقر والحزن عليه بالاستغناء بالله، وعالج الطمع والحرص بالقناعة، وعالج السؤال والشحاذة والانحناء أمام الجيوب بالاستعفاف، وعالج القعود عن الثورة على الفقر بالحث على طلب فضل الله بما شرع الله.

قلت: ولكن البعض يذكر حلولا أيسر، وأبسط؟

قال: فما يذكرون؟

قلت: يذكرون العمل والكسب والزكاة..

قال: والذي لا يكسب ولا يعمل ويحرم من الزكاة.. ماذا يفعل؟.. هل يظل أسير أحزانه.. هل نقول له: أنت محروم من فضل الله، ومن بركات الفقر الذي ابتليت به؟

ثم ما الفرق بين هذه الحلول والحلول التي وضعها البشر للبشر، أنساوي طب البشر بطب رب البشر؟

***

قلت: وهل في هذه الكنوز جواهر كثيرة؟

قال: في كل كنز أربعة جواهر.. كل جوهرة منها بثروة العالم جميعا، بل بثروات العالم جميعا.

ثم انصرف عني أو انصرفت عنه، وفي فمي ابتسامة تشع من أعماق قلبي، وأمل يناطح الجوزاء، قلت لنفسي:(أنا الآن على عتبة الغنى، فوداعا أيها الفقر)

صاح من أعماقي:(هات قلمك، وتعال لندخل مدائن الغنى، ونستخرج كنوز الفقراء)

***

لست أدري، هل سرت معه، أم حلقت في الأجواء، أم غصت في أعماق مجهولة.. لم يطل الوقت.. مجرد طرفة عين، فإذا بي أمام مدينة عظيمة، كل ما فيها عقيق وجواهر.. تربتها كالمسك الأذفر، صحت: أفي الجنة أنا؟

قال: لا، أنت على الأرض.. وعلى جزء ضئيل من الأرض.

قلت: وهذا الجمال؟

قال: كنت لا تراه، فأزحنا الغشاوة عن عينيك؟

نظرت إلى الأجواء، فإذا منارات عالية، عليها رايات كتبت عليها أسماء الكنوز، كما تكتب على المحلات.

قلت لمعلم السلام: عهدي بالكنوز تخبأ، وتدفن، فلا يهتدى إليها إلا بضروب الحيل، ألم تقرأ جزيرة الكتر؟

قال: تلك كنوزهم، أما هذه فكنوزنا.

قلت: وما الفرق بين كنوزكم وكنوزهم؟

قال: كنوزهم كنوز الأغنياء من ملكها ملكته الأشياء، وكنوزنا كنوز الفقراء من ملكها استغنى برب الأشياء.

قلت: ولكني لا أرى للفقراء وجودا؟

قال: لأنهم أبوا إلا أن ينافسوا الأغنياء في كنوزهم، وقد صحت فيهم، فلم يسمعني أحد.

تذكرت صياحه الذي سمعت بعضه في (ابتسامة الأنين)، فقلت له: إن صياحك لا يكاد يسمع أحدا، وبالكاد أستطيع أن أسمعك لأكتب ما تقول.

قال: لأني أخاطب القلوب، والقلوب يؤذيها الصياح.

قلت: فلم لا تسمع الآذان؟

قال: لأن الآذان، تطرب للكلام، ولا تسمع الكلام، الحق أقول لك: من لم يسمع بقلبه فهو أصم، ألم تسمع قول الحق تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٧١)

قلت: فمن هؤلاء؟

قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الأنعام:٣٩)

قلت: ألا يمكن أن نخترع أجهزة نسمعهم بها، فنحن في عصر الاختراعات؟

ضحك، وقال:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾(يونس:٤٢)

***

هذه الرسالة من رسائل السلام تلخيص لما دار في تلك الرحلة العجيبة والجميلة والمفيدة التي قادني فيها معلم السلام، لأنهل من كنوز الفقراء.

وقد كتبت أحداثها كما حدثت بدقيقها وجليلها، وأقرني معلم السلام على ذلك، وفي إقراره ما يكفي لطمأنيتي.

أولا ـــ كتر الاستغناء

في صباح جميل في مدائن الغنى، قمت بصحبة معلم السلام لنبحث عن كنوز الفقراء.

كانت المدينة جميلة، كل ما فيها هادئ وقوي ومثير.. أرى الناس، وكأني لا أراهم، أحيانا يخيل إلي أنها خالية، وأحيانا أراها مكتضة لا يكاد المار يستطيع أن يسير في شوارعها.

لم تكن هناك أي رائحة للجوع، ولا أي رائحة للتخمة، ولم أر مع طول سيري في شوارعها متسولا واحدا، ولا فقيرا واحدا.

فتعجبت، وسألت معلم السلام: ألسنا نبحث عن كنوز الفقراء؟

قال: بلى، ذاك ما خرجنا من أجله.

قلت: فأين الفقراء، فإني لا أبصر إلا الأغنياء، أهم يزاحمون الفقراء كنوزهم في هذه الدار أيضا؟

قال: بل الفقراء هم الذين يزاحمون الأغنياء كنوزهم، فلذلك لا تراهم هنا.

قلت: لو أذنت لي لأحضرت معي عمي، فهو فقير جدا قد عضه الفقر بنابه.

قال: لقد صحت فيه وفي أمثاله منذ آلاف السنين، فأبى الدخول إلى هذه المدائن، أتدري ما يقول الناس عن هذي المدائن؟

قلت: وما يقولون، شأني معهم تشويه كل نعمة، وإفساد كل صالح.

قال: يضحكون منها، ويستهزئون بها، ويسخرون من أهلها.

قلت: فهل رأوها؟

قال: وكيف يرونها، وأعينهم مغمضة؟

قلت: نطلب منها فتحها.

قال: ألم تسمع قول الحق تعالى:﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾(يونس: من الآية٤٣)، وقوله:﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِم﴾(النمل: من الآية٨١)، وقوله:﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(الزخرف:٤٠)

قلت: نعم، فهمت لقد قلت مثل هذا عن السمع، اصبر علي يا معلم، فإني أحيانا يبطئ فهمي.

قال: ذلك لخوفك على ما ملأك قومك به من أوهام؟

قلت: كيف، أنا لا أخاف قومي.

قال: ولكنك تخاف على معارفهم التي نشروها فيك.

قلت: لماذا أخاف عليها؟

قال: لأنك ــ مثلهم ــ تتصور العالم بصورة واحدة، فتخشى أن تكر معارف الحقيقة على صور العالم.

قلت: فما الضير في هذا؟

قال: يصبح علمك جهلا، وحقائقك دعاوى.

قلت: فما المخرج من ذلك؟

قال: السلام.

قلت: لماذ السلام؟

قال: لأنه يحيلك صفحة بيضاء، يمكن أن يكتب فيها كل شيء، أو يحيلك مرآة صافية تحمل الحقائق ولا تشوهها.

نظرت فجأة فإذا بي أمام باب قصر منيف، كل ما فيه لطيف وشريف، لست أدري هل كان مرفوعا في الفضاء بأعمدة لا ترى، أم كان موضوعا على زجاج صاف كالهواء كأنه:﴿ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرِ﴾(النمل: من الآية٤٤)، فصحت: يا لله، ما أحلى هذا القصر، لمن هذا القصر؟

قال: لأغنياء الروح.. هنا يخبأ كتر الاستغناء.

قلت: فهل يمكن الدخول إليه؟

قال: أجل، ولكن بشرطه، فالبواب يمنع من لم يتحقق بشرطه.

قلت: وما شرطه؟

قال: أن تكون فقيرا.

قلت: أنا متوسط الحال، لست فقيرا، ولست غنيا.

قال: ليس هناك إلا الفقراء والأغنياء.

قلت: ولكنك قلت، بأنه قصر الأغنياء، فكيف لا يدخل فيه إلا الفقراء؟

فقال: من افتقر إلى الله أغناه، ومن نزل على الله آواه، ومن مد يده لله أعطاه، ومن مد يده إلى غيره قلاه.

مددت يدي، وقلت: فها أنذا أمد يدي إلى الله.

قال: إياك ودنس التشبيه، مد يد روحك، لا روح يدك.

مسح معلم السلام على صدري، فأحسست قلبي يردد قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ

الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(فاطر:١٥)، وقوله:﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾(محمد: من الآية٣٨)

شعرت وكأني الفقر عينه، لا أملك شيئا.. لا متاعا ولا منافع.. حتى حلة الوجود شعرت بأنها تخلع مني، فإذا بي في العالم الذي لم أكن فيه شيئا مذكورا.

نظر إلي، وقال: ادخل الآن، فقد تحققت بشرطه.

***

دخلت القصر المهيب، كل ما فيه في منتهى الجمال، ولكن آثار الحالة التي استشعرتها حال دخولي جعلت بصري صاحب همة واحدة، فلم يزغ و لم يطغى.

غير أن بصري تسمر في فتى مهيب الطلعة، جميل المحيا، خلته أول الأمر يوسف عليه السلام، وقد أوتي شطر الحسن، لكني نظرت إلى ثيابه، فقلت: يوسف عليه السلام أزهد من أن يلبس مثل هذه الحلل والحلي، لعله أمير من أمراء هذ القصر.

تقدمت إليه، أو تقدم إلي، هزني الفضول، فسألته: من أنت؟

قال: أنا المرشد.

قلت: ألهذا القصر مرشد؟ إذن هو يشبه فنادق قومي.

ثم تمتمت بيني وبين نفسي:(شيء جميل.. حضارة عريقة.. حتى المرشد السياحي يوجد في قصورهم)، ثم قلت له: منذ متى وأنت تشتغل مرشدا سياحيا في هذ القصر؟

قال: مرشد سياحي!؟.. ما معنى هذ الكلمة.. ما بك؟ ألا تعرفني؟

قلت: هذه أول مرة أتشرف بلقائك فيها.

قال: كيف؟ ألم نلتق أمس؟

قلت ــ وكأني أريد تقليد أسلوب المعلم في الكلام ــ: في عالم الذر، يوم﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُم﴾(لأعراف: من الآية١٧٢)

قال: لا، بل الأمس القريب.

قلت: لا.. لا أذكر ذلك.

قال: ألم أخبرك أني مرشد في مدائن الغنى للباحثين عن كنوز الفقراء؟

تذكرت ذلك الفقير الذي حزنت له، فقلت: أنت أنت!؟ ولكن وجهك وقوامك وحديثك ولباسك..

قاطعني، وقال: ألا زلت تنظر إلى أكفان الإنسان، ذلك قناعي، ألا يلبس قومك أقنعة تنكرية؟

قلت: أجل، وهم يلهون بذلك ويلعبون.. ولكن أي قناع تنكري هو لك: أهذا الذي أراه امامي، أم ذلك الذي رأيته أمس؟

قال: كل ما تراه أقنعة.. أما الحقيقة، ففوق ذلك كله.

لم أفهم ما قال، ولكني طلبت منه أن نبدأ في جمع جواهر هذا القصر المهيب.

قال لي: أربعة جواهر، فاحمل حقائبك، وهات قلمك، وتعال.

قلت: لم القلم؟

قال: ألست مع المعلم؟

١ ـــ لست معزولا

أكبر حزن يعيشه الفقير هو شعوره بالعزلة، وأنه فرد شاذ في هذا الوجود، لا قيمة له إلا كقيمة الحجارة والتراب، بل أحيانا يشعر أن الحجارة والتراب أهم منه، فلذلك يحسد التراب الذي يعمر بساتين الأغنياء، والحجارة التي تبني قصورهم.

قال لي معلم السلام، وهو يشير إلى نور صرف رأيته أمامي: هذه جواهر قوله تعالى:﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾(الضحى:٣)

ثم قال: هذه أول جوهرة ينالها الفقير عندما يدخل قصر الاستغناء بالله.

قلت: وما اسم هذه الجوهرة.. أهي الكبريت الأحمر أم الأصفر أم الأكهب، أم هي العقيق، أم هي الزبرجد أم..؟

قال: هذه جوهرة ليس لها اسم من كل هذه الأسماء، وهي أجمل من كل هذه الأسماء، إن اسمها (لست معزولا)

كتمت ضحكة في قلبي، وقلت في نفسي: ما هذا الاسم الغريب، لعله مثل الأسماء التي نتفنن بها في الأطعمة كقولنا:(كل واسكت)

قال لي: ليست هذه (كل واسكت) إنها:(لست معزولا)

قلت: لا يهمنا اسمها، وإنما تهمنا قيمتها، وقد قال ذلك البخيل الذي ذكره الجاحظ:(أعطني المال، وسمني بأي اسم شئت)

قال: فأنت الآن في الطريق الصحيح، إن قيمتها عظيمة، فهي تحمل بشرى وعزاء من الله رب كل شيء ومليكه لقلوب الفقراء، فتمسح عن أعينهم الهوان الذي يرميهم الناس به.

إنها تبشر من تناولها بأن الناس وإن أبعدوه، فإنه ليس بعيدا عن الله، وإن كانوا قد رموه، فإن لطف الله يحتضنه.

قلت: ولكني لا أرى الناس يبعدون الفقير، ولا أراهم يطردونه.

قال: قد لا يطردونه، ولكنهم يحرمونه.

قلت: من فتات موائدهم.

فقال: لا من فتات موائدهم فحسب، بل من موائد الله.

قلت: أريد شواهد على ذلك، فأنت تعلم أني لا أقبل إلا بشاهد عدل من الكتاب أو من السنة.

قال: إن شواهد هذه الجوهرة هي أشعتها، كما أن شاهد الشمس هو ضياؤها، فخذ هذه

الأشعة الأربعة، فكل شعاع منها يكشف ظلمة، وينير طريقا.

الشعاع الأول

قلت: فما الشعاع الأول؟

قال: ألم تسمع الحق تعالى، وهو يقول:﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنعام:٥٢)

قلت: بلى قرأته.

قال: وفهمته؟

قلت: أجل، في هذه الآية ينهى الله تعالى عن التفكير الطبقي الذي كان يعمر أفئدة المشركين، وكأنهم أرادوا أن ينعم ﷺ ببعض الامتيازات لطبقة الاغنياء ويفضلهم على طبقة الفقراء، اذ كانوا يرون في جلوسهم مع الفقراء منقصة لهم.

ويبدو أن هذا تكرر منهم وكثر إلحاحهم على رسول الله ﷺ إلى أن جاء هذا الأمر الإلهي الذي لا يخاطب رسول الله ﷺ فقط، بل يخاطب كل الأمة.

وقد روي في سبب نزول الآية ما يدل على هذا، فعن ابن مسعود ﷺ قال: مر الملأ من قريش برسول اللّه ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا يا محمد: أرضيت هؤلاء من قومك؟ أهؤلاء الذين منَّ اللّه عليهم من بيننا؟ أنحن نصير تبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردهم نتبعك، فترلت هذه الآية:﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾(الأنعام: من الآية٥٢)

قال لي: نعم ما قلت، ولكن نهي الله تعالى رسوله ﷺ عن متابعة المشركين، وأمرهم له بالحرص على هؤلاء الفقراء، ووصيته بهم وثنائه عليهم، ولو على حساب بعض المكتسبات الظرفية، ألا يدل على شيء؟

قلت: على ماذا غير ما ذكرت، وما ذكر المفسرون؟

قال: ما محل الشخص الذي تحرص عليه، وتغير أن يطرد أو يهان أو يرمى، ولو كان في ذلك حصول مضرة لك.

قلت: أنا لا أفعل هذا إلا مع أحب الناس إلي، فمن الصعب أن أفرط في مكاسبي إلا إذا قهرني الحب على ذلك.

قال: فالله تعالى الذي يوصي نبيه ﷺ بهؤلاء، ويأمره بالحرص عليهم، ألا ينطبق عيه ما قلنا!؟

قلت: بلى، هي إشارة جميلة.

قال: بل سلوى عظيمة تطرب لها نفوس الفقراء، وأغنية جميلة تبشرهم بأنهم، وإن رموا وطردوا فإنهم عند الله بمكان..

قلت: فهل هم رسول الله ﷺ بطردهم حتى نهي عن ذلك؟

قال: لقد قف شعري مما قلت، كيف يكون هذا؟ إن رسول الله ﷺ أعظم من أن يفعل ذلك، وكل سنته وحياته ترفض هذا.

قلت: فقد رووا في ذلك خبرا، فقد روى ابن أبي حاتم، قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدوا رسول اللّه ﷺ مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقّروهم في نفر من أصحابه فأتوه فخلوا به، وقالوا:(إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلسا تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت)، قال:(نعم)، قالوا:(فاكتب لنا عليك كتاباً)، قال: فدعا بصحيفة ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل بالآية، فرمى رسول اللّه ﷺ بالصحيفة من يده، ثم دعانا فأتيناه)[1]

قال: ليس كل ما يروى بصادق، وقد كان النبي ﷺ تنزل عليه الآيات تخبر بمواقف الأنبياء من هذا، فكيف يتصور أن يقع منه هذا أو غيره؟

قلت: فما تفسير توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ؟

قال: ومن قال: إن هذ الخطاب موجه لرسول الله ﷺ.

قلت: لكونه جاء بصيغة المخاطب المفرد، وهو يعني من نزل عليه القرآن الكريم؟

قال: وهل القرآن الكريم أنزل لأجل محمد ﷺ فقط، ألم يقولوا:(اقرأ القرآن الكريم، وكأنه أنزل عليك)

قلت: فما سر الخطاب بصيغة المفرد؟

قال: في ذلك إشارة لمخاطبة نفوس الأفراد، وكأن الله تعالى ينهى كل فرد على حدة من أن يطرد هؤلاء.

قلت: ولكن أصل الخطاب موجه لرسول الله ﷺ.

قال: وهل كل خطاب موجه لرسول الله ﷺ يعني أنه قد حصل منه ما يستوجب ذلك الخطاب؟

---

(١) ابن ابي حاتم وابن جرير من حديث أسباط بن نصر.

قلت: ذاك هو الأصل.

قال: فما تقول في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾(الأحزاب:١).. فهل أطاع النبي ﷺ الكافرين والمنافقين؟

قلت: لا، لقد قف شعري مما قلت.

قال: فلا تلمني إذا قف شعري مما رويت.

الشعاع الثاني

قلت: لقد ورد مثل هذا مع سائر الرسل ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ، بدءا من نوح u، فقد قال تعالى على لسانه:﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾(هود: من الآية٢٩)، وفي ذلك دلالة على سنة قديمة خاطئة تقيم المرء على أساس ثروته.

قال: لقد قال الله تعالى بعد تلك الآية:﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(هود:٣٠)، أتعلم وجه الإشارة فيها؟

قلت: يخبر تعالى عن مقالة نبيه نوح u، وأنه قال:(من يصونني منه تعالى ويدفع عني حلول سخطه إن طردهم وأبعدهم عني)، فالاستفهام هنا للإنكار، أي لا ينصرني أحد من ذلك، وفي الكلام ما لا يخفى من تهويل أمر طردهم.

قال: أتدري السلوى التي يحملها هذا الكلام لقلوب الفقراء؟

قلت: ما هي غير ما ذكرت؟

قال: تصور الدرجة التي يحتلها النبي في سلم الكمال.

قلت: هي درجة عظيمة لا يمكن تصورها.

قال: أيمكن تشبيهها بدرجة الوزراء!؟

قلت: وأين تقع الوزارة أمام النبوة؟

قال: فإذا أرسل الملك إلى وزيره يهدده بالعزل أو بالسقوط والانهيار أو بالهزيمة بسبب عامي من الناس، ألا يكون لذلك العامي محلا عظيما في نفس الملك!؟

قلت: أجل، لأن تفريط الملك في وزيره الذي هو ساعد من سواعده لا يكون إلا بسبب وجيه، وأمر خطير.

قال: فكذلك هذا، ولله المثل الأعلى.. واحذر رعونة التشبيه وأكداره، فقد أرسل الله ملك الملوك إلى الأنبياء الذين يعملون بأمره يحذرهم من المساس بهؤلاء البسطاء.

قلت: وذلك لا يكون إلا لمكانة العظيمة التي أقامها الله لهم.

قال: مقابل المكانة التي وضعها البشر لهم، فقد قال تعالى عن موضع الفقير في دنيا البشر على لسان نوح u:﴿ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(هود: من الآية٣١)

قلت: نعم، فقد أخبر الله تعالى أن موقف البشر من هؤلاء المحرومين هو الازدراء، وهو

الاحتقار.

قال: أتدري لم نسب الله تعالى الازدراء إلى الأعين، مع أن الحاسة لا يتصور منها أن تعييب أحد؟

قلت: لأنها سبب الازدراء، فلرؤيتهم لهم بتلك الحالة احتقروهم، فالإنسان مكرم لمظهره، ومنبوذ به، وقد أحسن الشاعر حين قال:

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريهِ ... وفي أثوابِه أسد مزيرُ
ويعجبُكَ الطريرُ فتبتليه ... فيخلفُ ظنكَ الرجلُ الطريرُ
فما عُظْمُ الرجالِ لهم بفخرٍ ... ولكن فَخْرُهُمْ كَرَمٌ وخَيْرُ
لقد عَظُمَ البعيرُ بغيرِ لبٍ ... فلم يستغنِ بالعظمِ البعيرُ
يصرِّفهُ الصبيُّ بكلِّ وجهٍ ... ويحبسُهُ على الخَسْفِ الجرير

وقال أبو العتاهية:

ومن يَكُ ذا سعةٍ في الغِنَى ... يعظّمْ ومن يفتقْر يُحتقَرْ

وقال المعري:

كن من تشاءُ مهجاً أو خالصاً ... وإِذا رزِقْتَ غنى فأنت السِّيدُ
واصمتْ فما كثرَ الكلامُ من امرئٍ ... إِلا وظنَّ بأنه متزَّيدُ

وقال عبد الوهاب المالكي:

بغدادُ لأهلِ المالِ صالحةٌ ... وللمفاليسِ دارُ الضَّنْكِ والضيقِ

غدوتُ أمشي مضاعاً في شوارعِها ... كأنني مصحفٌ في بيتِ زِنديقِ

وقال..

قاطعني، وقال: كف عن هذا، لكأني بك تريد أن تحول مجلسنا مجلس شعر لا مجلس سلام، ألم تقرأ قوله تعالى:﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٤)

قلت: ولكن الرسول ﷺ كان يحب الشعر، وأنشد بين يديه.

قال: ولكنه لم يقله، ألم تسمع قول الحق تعالى:﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾(يّـس:٦٩)

قلت: أفي ذلك دلالة على ما نحن فيه!؟

قال: أجل، لأن الشعراء الذين ذموا المظهر هم الذين امتدحوه، فلو سايرتهم لرموك كل مرة في واد من أودية الغواية أو الرشد، فقد قال تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾(الشعراء:٢٢٥)

قلت: أجل.. أجل.. لقد قال عروة بن الورد يذم الفقر ويزدري الفقراء:

دعيني للغنى أسعى فإِنني ... رأيتُ الناسَ شرُّهمُ الفقيرُ

وأبعدُهمْ وأهونُهمْ عليهمْ ... وإِن أمسى له حَسَبٌ وخَيْرُ

ويقصيه النديُّ وتزدريهِ ... حليلتُهُ وينهرُه الصغيرُ

ويلفى ذو الغنَى وله جَلالٌ ... يكادُ فؤادُ صاحبِهِ يطيرُ

قليلٌ ذَنْبُهُ، والذنبُ جَمٌّ ... ولكن للغنى ربٌّ غَفورُ

وقال مالك بن حريم الهمذاني:

أنبئتُ والأيامُ ذاتُ تجاربٍ

وتبدي لكَ الأيامُ مالسْتَ تعلمُ

بأن ثراءَ المالِ ينفعُ ربَّه

ويثني عليه الحمدَ وهو مذمَّمُ

وأن قليلَ المالِ للمَرْءِ مفسدٌ

يحزُّ كما حزَّ القطيعُ المحرَّمُ

يرى درجاتِ المجدِ لا يستطيعُها

ويقعدُ وسطَ القومِ لا يتكلَّمُ

وينسب إلى علي ﷺ:

بليتُ صروفَ الدهرِ ستين حجةً

وجرَّبتُ حالَيْهِ من العُسْرِ واليسرِ

فلم أرَ بعد الدِّيْنَ خيراً من الغنى

ولم أر بعد الكُفْرِ شراً من الفَقْرِ

وقال..

قاطعني، وقال: لكأني بك سقطت في وادي الشعر.. عد لما نحن فيه.

قلت: أجل، لماذا نسب الله الازدراء للأعين؟

قال: لأن المزدرين من هؤلاء الأغنياء لا ينظرون إلى الحقائق، بل يكتفون بالخيوط الواهية التي تكفن بها الحقائق.

قلت: أفي ذلك دعوة لشيء ما؟

قال: نعم.. دعوتان.

قلت: لمن؟

قال: للفقير والغني.

قلت: ما حظ الفقير من الآية؟

قال: أن لا ينشغل بما هو فيه من الفقر الذي ازدراه الناس بسببه، بل يبحث عن مواطن الغنى التي لا يبصرونها.

قلت: وما حظ الغني؟

قال: أن لا يجعل حكمه على الناس قاصرا على ما تمليه عينه، فقد تدله أذنه أو جوارحه الأخرى أو قلبه على كمالات في الفقير ينتفع بها في الدنيا والآخرة.

ثم انصرف عني أو انصرفت عنه..

الشعاع الثالث

قال لي: هل أزيدك إشارة أخرى تؤكد ما ذكرناه من إشارات؟

قلت: بلى، فالتفصيل طريق التحقيق.

قال: ماذا تفهم من قوله تعالى:﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس:١ ــ ١٠)

قلت: هذه الآيات الكريمة تتحدث عن قصة رسول الله ﷺ مع ابن أم مكتوم، فقد ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول اللّه ﷺ كان يوماً يخاطب بعض عظماء قريش، وقد طمع في إسلامه، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم، وكان ممن أسلم قديماً، فجعل يسأل رسول اللّه ﷺ عن شيء ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه، وأقبل على الأخر، فأنزل اللّه تعالى هذه الآيات تعاتب رسول الله ﷺ

قال: وماذا تفهم منها أيضا؟

قلت: كأن الله تعالى في هذه الآيات ينهى نبيه ﷺ عن تخصيص بعض الناس بالدعوة دون بعض، بل يجب أن يساوي فيها بين الشريف والضعيف، والفقير والغني، والسادة والعبيد، والرجال والنساء، والصغار والكبار.

قال: كلام جميل، ثم ماذا تفهم؟

قلت: ذاك ما أفهم.

قال: إن إنزال عشر آيات قرآنية من أجل رجل بسيط فقير أعمى قلاه الناس وهجروه، ألا يدلك على المكانة العظيمة التي يتبوؤها هذا الفقير من الله!؟

قلت: بلى، بل يدل على ذلك نصوص من السنة، فقد كان رسول الله ﷺ يكرم عبد الله بن أم مكتوم، ويقول إذا رآه:(مرحبا بمن عاتبني فيه ربي)، ويقول: هل لك من حاجة، واستخلفه على المدينة مرتين، وكان مؤذنا له.

ثم التفت إلى المعلم، وقلت له: ولكن لماذا جاء تقرير هذه الحقيقة عن طريق عتاب النبي ﷺ، فقد قرأت كلاما قاله الفخر الرازي أزعجني؟

قال: وما قال ــ رحمه الله ــ؟

قلت: لقد قال مبررا سبب عتاب الله لنبيه ﷺ بقوله:(لعل هذا العتاب لم يقع على ما صدر

من الرسول ﷺ من الفعل الظاهر، بل على ما كان منه في قلبه، وهو أن قلبه ﷺ كان قد مال إليهم بسبب قرابتهم وشرفهم وعلو منصبهم، وكان ينفر طبعه عن الأعمى بسبب عماه وعدم قرابته وقلة شرفه، فلما وقع التعبيس والتولي لهذه الداعية وقعت المعاتبة، لا على التأديب بل على التأديب لأجل هذه الداعية)

قال: لقد قف شعري مما قلت، لا ينبغي أن يدون هذا في تفسير للقرآن الكريم، رسول الله ﷺ أجل شأنا من أن يقع منه هذا، لماذا لا تطهروا كتب التفسير من مثل هذه الأقوال؟

قلت: إن تطهير التفاسير من مثل هذه الأقوال قد يجعلها صغيرة الحجم.

قال: أو تملأونها بالأخضر واليابس، والحق والباطل من أجل أن تقر أعينكم بضخامتها!؟

قلت: ولكن بشريتنا تحب التكاثر، هذا طبع فينا لا ننفك عنه، ألم تقرأ قول الحق تعالى:﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(التكاثر:١)!؟

قال: فاملأوها بمثل قول سيد ــ رحمه الله ــ

فجأة لاح نور عظيم بهت له، فإذا بي أرى سيدا أمامي بقامته وطلعته، فقلت: أنت سيد.. عرفتك، ولكني أراك شابا قويا جلدا، كيف هذا؟

لم يلتفت إلي، والتفت إلى المعلم، قائلا: هل طلبتني؟

قال المعلم: نعم، اقرأ عليهم ما كتبته في قوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُول وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(الحج:٥٢)

أراد سيد أن يتحدث فاستوقفته، قلت: لا أقبل هذا إلا بشاهد، كيف يأتي سيد وقد صلب، واستشهد.

قال المعلم: ألم تسمع قوله ﷺ:(إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا فيتحدثان، فيتكئ هذا ويتكئ هذا فيتحدثان بما كان في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان تدري أي يوم غفر الله لنا؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله عزَّ وجلَّ فغفر لنا)[1]

قلت: صدق رسول الله ﷺ، ولكن ذلك في الجنة.

قال: ألم تعلم أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، فهذه من تلك.

شدهت قليلا أحاول أن أقتنع بما قال، ولكن صوتا جميلا رن في أذني، التفت فإذا سيد

---

(١) الحافظ البزار عن أنس وقال: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد.

يقول، وكأنه يقرأ من كتاب من كتب الغيب:(إن الرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند الله فيتبعوه.. ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة والرسل بشر محدودو الأجل. وهم يحسون هذا ويعلمونه. فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق)[1]

قلت: فصل، ومثل، فنحن لا نفهم إلا بذلك.

قال سيد: يودون مثلا لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتا لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة!

ويودون مثلا لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة!

ويودون. ويودون. من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها..

قلت: هذا ما يريدون، فما يريد الله؟

قال سيد: يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر. فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غير المشوب بضعف البشر وتقديرهم.. هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق. فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو من هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف، وتبقى مثل الدعوة سليمة لا تخدش، مستقيمة لاعوج فيها ولا انحناء..

قلت: وما علاقة الشيطان بكل هذا؟

قال سيد: ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات، فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، والقاء الشبهات حولها في النفوس.. ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة. كما حدث في بعض تصرفات الرسول ﷺ وفي بعض اتجاهاته، مما بين الله فيه بيانا في القرآن..

---

(١) الظلال: ٢٤٣٣/٦.

بذلك يبطل الله كيد الشيطان، ويحكم الله آياته، فلا تبقى هنالك شبهة)[1]

كان سيد ينطق بهذه الكلمات من ذاكرته، وكأنه يقرأ من كتاب، وفجأة انصرف دون أن نشعر، كما دخل دون أن نشعر، التفت للمعلم، وقلت: يا معلم، كيف حفظ سيد هذا النص الطويل، أكان يحفظ الظلال؟

قال: دعك من هذا، فنحن كالمرائي ترتسم فينا الموجودات، ولا نحفظها.. عد لما نحن فيه.

قلت: لقد ذكر بعضهم سؤالا أرجو أن تجيبني عنه.

قال: هات سؤالك، بشرط أن لا يكون جدلا، فأنت تعلم بغضي للجدل، وأن لا يكون عبثا فأنت تعلم احترامي للجد، وقد قال تعالى:﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾(مريم: من الآية١٢)

قلت: بل هو عين الجد..

قال: اسأل.

قلت: ألا ترى أن في ذكر ابن أم مكتوم باسم (الأعمى) تحقيرا لشأنه، أو هو من التنابز بالألقاب التذي نهينا عنه؟

قال: رويدك، فالقرآن الكريم لم يترل لأهل مكة، والآية لا تتعلق فقط بابن أم مكتوم، وتصور معي لو أن الحق تعالى قال:(عبس أن جاءه ابن أم مكتوم)، ما الفائدة التي تجنى من هذه الآية؟

قلت: سيبحث الناس حينها عن قبر ابن أم مكتوم ليجعلوه مزارا يستغيثون به، ويتوسلون إلى الله بترابه.

قال: وسائر الفقراء والمحرومين الذي جاء القرآن الكريم ليسليهم؟

قلت: تكون لهم سلوى بابن أم مكتوم.. لقد عهدت قومي إذا أرادوا أن يكرموا فئة يحضرون ممثلين عنها، فيكون إكرام الممثلين إكراما للفئة.

قال: ذلك لبخلهم.

قلت: أو لقلة ذات يدهم، فقد قيل لأعرابية:(بخلت) فقالت:(لم أبخل، ولكن زادي بخل)، ونحن نقول:(الجود بالموجود)

قال: ولكن القرآن الكريم كلام الله، والله هو الكريم الجواد، فلذلك كان من رحمة الله أن كان الكلام عاما ليحتضن كل فقير ومحروم.

---

(١) الظلال: ٢٤٣٣/٦.

قلت: ألهذا السر لا نرى أسماء أعلام كثيرة في القرآن الكريم؟

قال: لهذا السر قيل لنا:(اقرؤوا القرآن الكريم وكأنه أنزل عليكم)، ولهذا السر كان المؤمن يسمع القرآن الكريم ولا يقرؤه.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قال: إن قرأه قرأه بلسانه، وفي لسانه طبعه ووصفه، وإن سمعه سمعه به ومنه.

قلت: فصل لي ذلك.

قال: ذلك في رسالة أخرى من رسائل السلام[1].

ثم انصرف عني أو انصرفت عنه.

---

(١) انظر: رقية السلام.

الشعاع الرابع

قلت: فما الشعاع الرابع؟

قال: ما كفارة الظهار؟

قلت: لقد نص عليها قوله تعالى:﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(المجادلة:٤)

قال: وما كفارة من انتهك حرمة شهر رمضان متعمدا؟

قلت: لقد نص على ذلك في حديث أبي هريرة ﷺ قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكت! قال:(ما لك؟) قال:(وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ:(هل تجد رقبة تعتقها؟) قال:لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال لا، قال: فهل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال لا، قال: فسكت النبي ﷺ فبينا نحن على ذلك أتى النبي ﷺ بعَرَق فيه تمر، والعَرَق المكتل، قال: أين السائل؟ فقال: أنا، قال خذ هذا فتصدق به، فقال الرجل: على أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها – يريد الحرتين– أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهلك)[1]

قال: فما كفارة من حنث في اليمين المعقدة؟

قلت: لقد نص على ذلك قوله تعالى:﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(المائدة:٨٩)

قال: فما كفارة صيد المحرم؟

قلت: لقد نص على ذلك قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾(المائدة:٩٥)

قال: فما ترى في هذه النصوص جميعا؟

---

(١) البخاري ومسلم.

قلت: أراها أنواعا من العقوبات رتبها الله تعالى على بعض المخالفات.

قال: أحسن من ذلك أن تعبر عنها بالتنبيهات.. فالله تعالى ينبه عباده ويؤدهم ولا يعاقبهم.

قلت: أجل.. يمكن أن تقول ذلك.. ولكن ما علاقة هذا بهذا الشعاع.. فنحن نبحث عن تخليص المساكين من العزلة.. ولا نبحث في العقوبات أو التنبيهات.

قال: هذه التنبيهات تحمل تنظيمات تشريعية تخلص الفقراء من العزلة التي قد يضربها عليهم الأغنياء.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد كان في إمكان الشارع أن يرتب غرامة مالية على كل ذنب من الذنوب تدفع لبيت المال الذي يتولى دفعها للفقراء.. أو كان في إمكانه أن يجعل نفس العقوبة، ولكن يجعلها في مسكين واحد.

قلت: يمكن أن يكون ذلك.. بل قد قيل به.

قال: فما قيل؟

قلت: يقولون بجواز إعطاء نصيب الستين لشخص واحد[1]؟

قال: من قال ذلك فقد أخطأ، ولا ينبغي الخروج عن ظاهر النص، واسمع لهذا الفقيه العظيم من فقهاء الإسلام، وحرصه على اتباع ما ورد في النص.

التفت فإذا برجل عليه سيما العلماء المجتهدين، خطر في بالي أنه الشافعي.

وإذا به ينطق من غير إن أسأله قائلا: لا يجزئه أن يطعم أقل من ستين مسكينا كل مسكين مدا من طعام بلده الذي يقتاته حنطة أو شعيرا أو أرزا أو تمرا أو سلتا أو زبيبا أو أقطا، ولو أطعم ثلاثين مسكينا مدين مدين في يوم واحد أو أيام متفرقة لم يجزه إلا عن ثلاثين، وكان متطوعا بما زاد كل مسكين على مد، لأن معقولا عن الله عز وجل إذا أوجب طعام ستين مسكينا أن كل

---

(١) ذهب الحنفية إلى جواز إعطاء الطعام لمسكين واحد، قال السرخسي:« لو أطعم الطعام كله مسكينا واحدا لم يجـــزه في دفعة واحدة ؛ لأن الواجب تفريق الفعل بالنص فإذا جمع لا يجزيه إلا عن واحد ، كالحاج إذا رمى الحصيات السبع دفعة واحدة ، ولو أعطاه في ستين يوما أجزأه عندنا ، ولا يجزئه عند الشافعي رحمه الله تعالى ؛ لأن الواجب عليه بالنص إطعام ستين مســـكينا ، والمسكين الواحد بتكرار الأيام لا يصير ستين مسكينا فلا يتأدى الواجب بالصرف إليه وشبه هذا بالشهادة ، فإن الشاهد الواحد وإن كرر شهادته في مجلسين لا يصير في معنى شاهدين. ولكنا نقول فيما هو المقصود المسكين الواحد بتجدد الأيـــام في معـــنى المساكين ؛ لأن المقصود سد الخلة ، وذلك يتجدد له بتجدد الأيام فكان هو في اليوم الثاني في المعنى مسكينا آخر لتجدد ســـبب الاستحقاق له ؛ ولأن الإطعام يقتضي طعاما لا محالة فمعنى الآية فالطعام طعام ستين مسكينا وقد أدى ذلك ، وبه فارق الشهادة ؛ لأن المقصود طمأنينة القلب هناك ، وبتكرار الواحد شهادته لا يحصل هذا المقصود ، ولم يذكر ما لو فرق الفعل في يوم واحـــد ، ولا إشكال في طعام الإباحة أنه لا يجوز ، إلا بتجدد الأيام ؛ لأن الواحد لا يستوفي في يوم واحـــد طعـــام ســـتين مســـكينا » المبسوط:١٨/٧.

واحد منهم غير الآخر، كما كان ذلك معقولا عنه في عدد الشهود وغيرهما مما أوجب، ولا يجزئه أن يعطيهم ثمن الطعام أضعافا، ولا يعطيهم إلا مكيلة طعام لكل واحد ولا يجزئه أن يغديهم، وإن أطعمهم ستين مدا أو أكثر لأن أخذهم الطعام يختلف، فلا أدري لعل أحدهم يأخذ أقل من مد، والآخر أكثر لأن رسول الله ﷺ إنما سن مكيلة الطعام في كل ما أمر به من كفارة[1].

قال المعلم: أرأيت هذا الحرص على ما ورد في ظاهر النص؟

قلت: نعم.. ولكنا لا نكتفي عموما بظواهر النصوص، فللشريعة أرواحها ومقاصدها.

قال: إن أرواحها ومقاصدها في نصوصها، فهل يمكن لأحد أن يضع روحه في جسد غيره؟

قلت: ذلك لا يمكن.

قال: ولكنكم تقولونه، فالنص هو جسد الشريعة والمقاصد روحها، ولا يمكن للمقاصد إن تتحقق إلا بأرواحها.

قلت: والقياس والاستحسان و..

قال: إن صح قولنا به.. فلايصح في هذا المحل الذي ورد به النص.

قلت: أراك — يا معلمي — حريصا على هذه الجزئية البسيطة.. فما سر ذلك؟.. وما علاقته بما نحن فيه؟

قال: لقد جعل الله كفارة الظهار وغيره إطعام ستين مسكينا ليكون البحث عن المساكين المستحقين جزءا من الكفارة.

قلت: وما فائدة ذلك العناء الذي يجعل الشخص يبحث عن هؤلاء المساكين؟

قال: في بحثه عنهم تعرف منه عليهم.. وفي تعرفه عليهم وتكافله معهم تخليص لهم من العزلة التي قد تفرض عليهم.

قلت: وعيت هذا.. وهو حل تشريعي مثالي يقوي ما ورد من التوجيهات.

***

ما قلت هذا حتى شعرت بجوهرة كريمة تنزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قلت في نفسي حين نزولها: نعم.. إن الفقير في الحقيقة لا يؤلمه فقره، بقدر ما يؤلمه نظرات الناس وموقفه من نفسه.. لا يؤلمه جوعه وبرده فقد يصيب الغني من الجوع ما يصيب الفقير،

---

(١) الأم:٥/٣٠٣.

وقد يصيب الفقير من الشبع ما يصيب الغني.

فلذلك إن رُفع هذا الوهم، وقيل للفقير: فقرك ليس علامة إبعاد.. كما أن غنى جارك ليس علامة ود، فكلاهما ابتلاء رباني لتمحيص القلوب، كما قال تعالى:﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾(الفجر:١٦) أي ليس كل من وسعت عليه وأعطيته أكون قد أكرمته ولا كل من ضيقت عليه وقترت أكون قد أهنته، فالإكرام أن يكرم الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبته ومعرفته والإهانة أن يسلبه ذلك.

فإن هذه المعرفة تسد منافذ الهوان التي يشعر بها، فالهوان أخطر من الجوع، والكرامة أعز من الشبع، وقد قالت العرب في أمثالها:(تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها)[1]

وقال أوس بن حارثة لابنه مالك فيما يوصيه به:(يا مالك، المنية ولا الدنية، وشر الفقر الخضوع، وخير الغنى القنوع)

---

(١) أي لا تسترضع فتأخذ على ذلك الأجر، وليس صحيحا ما يقوله بعضهم:« تجوع الحرة ولا تأكل ثدييها »، يذهبون إلى أنها لا تأكل لحم الثدي، وإنما هو ولا تأكل بثدييها، انظر: أدب الكاتب: ٣١٩.

٢ ـــ قد تكون مختارا

صعد بي المرشد طابقا آخر في قصر الاستغناء، فإذا بي أشاهد لافتة مكتوبا عليها: هنا محل جوهرة عزيزة اسمها (قد تكون مختارا)

سألت المرشد عنها، فقال: أنا المرشد، ولست المعلم، اسأل معلم السلام.

أجابني من غير أن أسأله: لا يكفي أن تشعر بأنك لست مطرودا لتمتلئ بالسلام والسعادة؟

قلت: فما الذي ينقص الفقير حتى يشعر بسكينة أعظم، وسلام أتم؟

قال: أن يشعر بأن في إمكانه أن يكون مختارا ومفضلا وعظيما.. أن يشعر أن بإمكانه أن يصير غنيا غنى أبديا، لا ظرفيا؟

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك، فأنت تعرف عجزي عن التجريد.

قال: يزعم قومك أنهم حرروا العبيد؟

قلت: نعم.

قال: ويزعمون أنهم تساووا معهم في الإنسانية.

قلت: ذلك مما لا شك فيه.

قال: أيسمحون لهم بخوض الانتخابات الرئاسية؟

قلت: نعم.

قال: ولكن لا يسمحون لهم بتوليها.

قلت: نعم، يؤكد ذلك الكثير.. فما مضرب هذا المثل؟

قال: إن هؤلاء زعموا أنهم لا يطردونهم، ولكنهم في نفس الوقت لم يقربوهم، وفرق كبير بين أن لا أطردك، وبين أن أضع في إمكانياتك أن تقرب.

قلت: فهل في النصوص إشارة إلى هذا.

قال: إن هذ الجوهرة النفيسة تكتسب أشعتها من الكتاب والسنة، وسأذكر لك هنا أربعة أشعة كل شعاع منها يطفئ ظلمة ويحيي نورا.

الشعاع الأول

قلت: فالأول منها.

قال: قوله تعالى:﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾(هود:٢٧)

قلت: فما محل الإشارة منها.

قال: لا تحل الإشارة إلا بعد العبارة، ولا يعرف الباطن إلا بعد إدراك الظاهر، فما الذي تفهمه منها؟

قلت: الله تعالى في هذه الآية يخبر عن الشبهات التي وقفت حجابا حاجزا بين الملأ المتمالئين[١] على الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ الذين ملأوا القلوب هيبة والمجالس أبهة ــ وبين الوصول إلى الحق، وهي ثلاث شبهات:

أما الأولى، فكون نوح عليه السلام بشرا مثلهم، والتفاوت بين آحاد البشر يمتنع انتهاؤه إلى حد يصبح الواحد منهم واجب الطاعة لجميع العالمين.

أما الثانية، فكونه ما أتبعه إلا أراذل[٢] من القوم كالحاكة وأهل الصنائع الخسيسة، فقد تصوروا أنه لو كنت صادقا لاتبعك الأكياس من الناس والأشراف منهم.

وهذ الشبهة كان لها خطر عظيم عندهم يفوق الشبه جميعا، فلهذا حكى الله عنهم قولهم:﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾(الشعراء: من الآية١١١)

أما الشبهة الثالثة، فقد قررها قوله تعالى:﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾(هود: من الآية٢٧)، أي لا نرى لكم علينا من فضل، لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل فإذا لم نشاهد فضلك علينا في شيء من هذه الأحوال الظاهرة فكيف نعترف بفضلك علينا في أشرف الدرجات وأعلى المقامات[٣].

قال: وبم رد نوح عليه السلام على هذه الشبه؟

قلت: بما قصه علينا القرآن الكريم من قوله تعالى:﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٨) أي لو

---

(١) أي يتظاهرون عليه، ويحاربونهم.

(٢) قال الواحدي: الأرذل جمع رذل وهو الدون من كل شيء في منظره وحالاته ورجل رذل الثياب والفعل. والأراذل جمع الأرذل، كقولهم أكابر مجرميها، وقوله ﷺ:« أحاسنكم أخلاقا» فعلى هذا الأراذل جمع الجمع.

(٣) انظر: التفسير الكبير.

كنت على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة وهي الرحمة العظيمة من اللّه به وبهم، فخفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ولا عرفتم قدرها بل بادرتم إلى تكذيبها وردها، هل أغصبكم على قبولها وأنتم لها كارهون.

ثم التفت إلى خوفهم على أموالهم أن يطلبها منهم، وإلى ازدرائهم إلى من معه، فقال:﴿ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾(هود:٢٩)

ثم ذكر لهم خوفهم من الله إن طردهم، فقال:﴿ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(هود:٣٠)

ثم بين عجزه وضعفه عن تلبية طلباتهم، وبين افتقاره لله في العلم ببواطن من معه أو ما أعد لهم في خزائن الله، فقال:﴿ وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾(هود:٣١)، فهو يخبرهم أنه رسول من اللّه يدعو إلى عبادة اللّه وحده، ولا يسألهم على ذلك أجراً، ثم هو يدعو الشريف والوضيع، فمن استجاب له فقد نجا.

ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن اللّه، ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه اللّه عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشرٌ مرسل مؤيد بالمعجزات.

ويخبرهم بأن ما في نفوس من تصوروهم أراذل من قومه فاحتقروهم وازدروهم لا يعلم حالهم عند الله فإن كانوا مؤمنين، فلهم جزاء الحسنى.

قال: وما موضع الإشارة من حكاية قول نوح عليه السلام بتفاصيله مع قومه؟

قلت: علي العبارة، وعليك الإشارة، فبين لي كيف تكون هذه الآيات سلوى وعزاء للفقراء والمستضعفين؟

قال: إن أول من يستنشق الروائح العطرة لهذه الآيات هم الفقراء والمستضعفون والأراذل.

قلت: كيف؟ والرسل إنما جاءوا للتوحيد، لا لتسلية الفقراء والمحرومين.

قال: أجل، وهذا ما يعطي الإشارة حقها، فانشغال النبي بالدفاع عن المستضعفين، وبيان قيمتهم وحرمتهم ومكانتهم عند الله، ألا يدل ذلك على الموضع الذي يحتله هؤلاء!؟

قلت: وضح ما تريد.

قال: ألا تستشهدون باقتران العمل الصالح مع الإيمان في أكثر آي القرآن الكريم على فضل العمل الصالح لاقترانه بالإيمان الذي هو أشرف الأعمال؟

قلت: بلى.

قال: ألا تستشهدون بعظم حق الوالدين لاقترانهما بتوحيد الله وعبوديته؟

قلت: بلى، فقد جاء ذلك في غير موضع من القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾(البقرة: من الآية٨٣)، وقالتعالى:﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾(النساء: من الآية٣٦)، وقالتعالى:﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾(الأنعام: من الآية١٥١)، وقالتعالى:﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾(الاسراء: من الآية٢٣)

قال: فكذلك هنا.. أسألك سؤالا آخر؟

قلت: سل.

قال: كم لبث نوح عليه السلام في قومه؟

قلت: هو ما نص عليه القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً ﴾(العنكبوت: من الآية١٤)

قال: فكم المدة التي كان يتكلم فيها مع قومه؟

قلت: وهذا أيضا وارد في القرآن الكريم، فقد قال تعالى حاكيا عنه:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً﴾(نوح:٥)، وكأنه عليه السلام لاجتهاده في الدعوة إلى الله لا يسكت ليلا أو نهارا.

قال: فكم ترى يكون قد تكلم من الكلمات؟

قلت: لو كتب كلامه كتبا لملأ بها سهول الأرض وجبالها.

قال: فاختيار الله تعالى لهذه الكلمات المدافعة عن المنبوذين ليذكرها في القرآن الكريم، ألا يدلك على المكانة التي لهم؟.. لا عند نوح عليه السلام فحسب، بل عند الله، لأن القرآن الكريم لم يترل ليؤرخ لقوم نوح عليه السلام وإنما أنزل ليذكر الحقائق العظمى التي ينبني عليها الوجود.

***

قلت: ولكن ما سبب إقبال الفقراء على الحق وإعراض الملأ أغنياءهم وكبراءهم عنه؟ ولماذا يكون هؤلاء الأراذل المستضعفون أسرع الناس إلى الحق، فقد قال تعالى في الآيات السابقة:﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾(هود: من الآية٢٧)؟

قال: أرأيت جواز دخولك إلى هذه القصور؟

قلت: نعم، إنه جواز الافتقار.. ولكن ما علاقته بهذا لأمر؟

قال: لأن الفضل صدقة الله ، والصدقات لا تكون إلا للفقراء والمساكين، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾(التوبة: من الآية٦٠)

قلت: ولكن ما وجه الإشارة في هذه الآية، فإني لا أفهم منها إلا أنها تعدد أصناف المستحقين للزكاة؟

قال: هي كذلك، ولكن الذي قالها يتصدق أيضا.

قلت: لا أقبل هذا إلا بشاهد.

قال: ألم تسمع قوله ﷺ:(من نام عن حزبه وقد كان يريد أن يقوم به، فإن نومه صدقة تصدق الله بها عليه، وله أجر حزبه)[1]، وعن يعلى بن أُمية قال: سألت عمر بن الخطاب ﷺ قلت له قوله تعالى:﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾(النساء: من الآية١٠١)، وقد أمن الناس، فقال لي عمر ﷺ:عجبتُ مما عجبتَ منه، فسألت رسول اللّه ﷺ عن ذلك فقال:(صدقة تصدق اللّه بها عليكم فاقبلوا صدقته)[2]

قلت: فالله إذن يتصدق، وهذه النصوص مثبتة لذلك، بورك فيك فقد انشرح صدري.. ولكن ما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قال: علاقته عظيمة، فالأغنياء الذين سماهم القرآن الكريم ملأ امتلأوا بغناهم وما لديهم من أشياء، فلذلك لا يستطيعون تقبل صدقات الله التي تمتلئ بها خزائنه، والتي تفيض على كل الوجود، بينما الفقراء، يشعرون بفاقتهم الذاتية، وفراغهم العظيم، فلذلك كانوا مستعدين لصدقات الله، ولذلك بمجرد أن يشع نور من أنوار الله يكونون أسرع الناس إليه.

ثم التفت إلي، وقال: أتعلم سر اشتراط جواز الافتقار للدخول إلى قصور مدائن الغنى؟

قلت: لا..

قال: لأنك لو دخلت ممتلئا، فلن ترى ما ترى فيها من الجمال والكمال والسعادة والسلام.

عجبت، وقلت: أتعني أنه لو دخل الآن معنا ثري لن يرى شيئا مما أرى؟

قال: قد يرى ما ترى أو أكثر مما ترى.

قلت: كيف؟ لم أفهم.

قال: ليست العبرة بكونه ثريا، بل العبرة بشعوره بثرائه، فقد ترى الفقير مستعليا، وترى

---

(١) أبو نعيم في الحلية عن عمر.

(٢) مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه.

الغني متطامنا، ولهذا قد يتحقق الغني بالافتقار الذي يؤهله لدخول هذه القصور، وقد يحرم الفقير الذي ملأ عيني قلبه بما عجز عن تحقيقه لجيوبه.

قلت: فعينه بصيرة، ويده قصيرة.

قال: ويدل لذلك قوله ﷺ:(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولاينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)[1]

قلت: فالافتقار إذن هو السبب في مبادرة هؤلاء المستضعفين إلى الحق، فالافتقار إذن نعمة أهلتهم لاختيار الله لهم.

---

(١) النسائي عن أبي هريرة.

الشعاع الثاني

نبهني معلم السلام من شرودي، وأخذ يرتل بصوته الجميل الخاشع قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾(الأنعام:٥٣)

قلت: هذا هو الشعاع الثاني، فما وجه الإشارة فيه؟

قال: لا تحل الإشارة قبل العبارة، ولا يحل التأويل قبل التفسير.

قلت: أما التفسير، فعلي، فالله تعالى في هذه الآية يخبر عن القصد من بلائه واختباره لعباده، فهو يبتليهم بالفقر والغنى، ومن النتائج التي تنتج عن ذلك البلاء أن يقول المستكبرون المتعالون:﴿ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾، فرد الله تعالى عليهم بكونه أعلم بالشاكرين.

قال: أما وجه الإشارة، والعزاء للمستضعفين، فهو ما يحمله قوله تعالى:﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾، فإن الله تعالى يعلل مننه على عباده الذين قربهم بكونهم من الشاكرين.

قلت: لم يكون فضل الله وجميل اختياره مرتبطا بالشاكرين؟

قال: أرأيت لو أنعمت على بعض إخوانك بنعم، وقدمت لهم خدمات أرهقتك، فنظر بعضهم إليك شزرا، وانصرف.. وقال بعضهم:(ما هذه الخدمات الحقيرة، والعطايا الصغيرة).. وجاء بعضهم فقبل يديك، ومسح على رجليك، وقال:(نحن في خدمتك، فجزيت عنا كل خير).. أي هؤلاء تفضله بعد ذلك بالعطاء إذا سنحت لك السوانح ودر عليك اللطف؟

قلت: الشاكرين.. لا شك في ذلك، فكيف يمتد عطائي للجاحدين، بل إني لو استطعت أن أسلبهم ما أعطيتهم، وأخرج طعامي من بطونهم أو أحوله سما لفعلت.

قال: وكذلك الحق تعالى مع كرمه العظيم، فإنه قد يسلب هؤلاء نعمهم،كما قال تعالى عن قرى سبأ لما أعرضوا عن شكر الله:﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾(سبأ:١٦)

قلت: فما علاقة ذلك بالمستضعفين، أليس الشكر مطلوبا من الأغنياء، والصبر مطلوبا من الفقراء؟

قال: بل الشكر والصبر مطلوب منهما جميعا.

قلت: لم أفهم.

قال: لأن الشكر والصبر عبادتان لا تختلفان عن الصوم والصلاة، فهل قال أحد: إن الصلاة خاصة بالأغنياء، والصوم خاص بالفقراء.

قلت: نعم.. ولكن على ماذا يصبر الأغنياء والنعم لديهم متوافرة.

قال: على عدم استفزاز النعم لهم استفزازا يجعلهم يعبدون أنفسهم ولا يعبدون الله.

قلت: وماذا يشكر الفقراء؟

قال: أقل شيء يشكرونه أن الله لم يجعل لهم من الغنى ما يحول بينهم وبين تبصر الحق.

قلت: وهل يحول الغنى بين الإنسان وتبصر الحق؟

قال: أجل، ولذلك عقب الله تعالى الآية السابقة بقوله :﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾، فالغني قد ينشغل بالنعم، وما تتطلبه عن شكرها.

قلت: ألا تأتيني بشواهد على هذا، فإنها مسألة خطيرة لا تقبل إلا بشاهد.

قال: ألم تسمع إلى ربك، وهو يخبرك عن مواجهة المترفين لأنبيائهم؟

قلت: بلى، فالله تعالى يقول مبينا سنة ذلك:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(سبأ:٣٤)، وقالتعالى:﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾(الزخرف:٢٣)، وقالتعالى:﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾(المؤمنون:٣٣)

قال: ألم تسمع إلى ربك، وهو يربط بين مصير القرى والمترفين، بل يبين أن المترفين هم سبب هلاك الأمم والحضارات؟

قلت: بلى، فالله تعالى يقول مبينا هذا القانون:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾(الاسراء:١٦)

قال: ألا تعلم السبب الذي جعل الترف حائلا بين المترفين والحق؟

قلت: ما هو؟

قال: الترف، فالمترف مستغرق في ترفه مستعبد له، وقد قال تعالى:﴿ فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (هود:١١٦)، فالمترفين استهواهم ترفهم، فاستعبدهم من دون الله.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ:(تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي، وإن لم يعط تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش)

قال: أكمل الحديث لتدرك نواحي الفضل التي يحتويها الفقر والضعف.

قلت مكملا الحديث السابق:(طوبي لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن في الساقة كان في الساقة إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع)[1]

قال: أتدري ما سر هذا الاقتران؟

قلت: ما هو؟

قال: أما الأول، فإنه لانشغاله بترفه، وما يتطلبه ترفه عمي عن الكون جميعا، وعمي عن رسالته في هذا الوجود، وأما الثاني الذي لا يملك شيئا، فقد كان فقره سببا في رؤيته الأشياء على حقيقتها.

قلت: فهمت، ولكن أريد مثالا موضحا.

قال: ارأيت إن وضع مترف من المترفين في قصر عظيم، له في كل لحظة زينة جديدة، وطعام جديد، فهو دائما في ظل الجديد، أكان يمكنه أن يجد الوقت لرؤية السماء، أو شعاب الوادي، أو فيافي الصحراء، أو تأمل النجوم في الليل.

قلت: لا يمكنه ذلك، فلن يخرج من قصره العامر ليصيبه غبار الفيافي.

قال: فكذلك هؤلاء المترفين الذين عصبوا أعينهم بخيوط الحرير، وكبلوا أقدامهم بقيود الذهب، ووضعوا على رقابهم أغلال اللآلئ.

قلت: والمستضعفين؟

قال: لقد أخبر ﷺ أنه أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، فهو لا يبالي بشيء، ولا يخاف شيئا.

قلت: ولهذا السبب إذن كانت رؤية الفقير للحقائق أيسر.

قال: ولهذا يقول تعالى لهؤلاء المترفين في الآخرة مستهزئا:﴿ لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾(الانبياء:١٣)، وقال معللا سر ما حصل لهم:﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾(الواقعة:٤٥)

قلت: فالفقر إذن بما يرفعه من الحواجز نعمة تيسر الوصول للحق، وتوفر سبل السلوك إليه.

---

(١) البخاري عن أبي هريرة.

الشعاع الثالث

غرقت متفكرا في الأثر الذي سيحدثه في نفسي الشعاع الثالث لهذه الجوهرة النفيسة، فإذ بصوت المعلم، وهو يرتل بخشوع:﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(لأعراف:٧٥ ـــ ٧٦)

قلت: هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان عن مواقف قوم صالح عليه السلام من رسالته، أما المستضعفون، فآمنوا به، وأما الملأ من المتكبرين فظلوا على كفرهم.

قال: أتدري ما سر إيمان المؤمنين؟

قلت: لقد عرفنا بأن سر ذلك هو الافتقار.

قال: ذلك ما أرشد إليه الشعاع السابق، أما هذا، فيدلنا على سر آخر.

قلت: ما هو؟

قال: إن مقابلة المستضعفين بالملأ المتكبرين يدل على أن المستضعفين قد تحققوا بالانكسار والتواضع الذي أهلهم ليظفروا بالاختيار الإلهي.

قلت: أللانكسار لله والتواضع كل هذه القيمة؟

قال: أجل كما أن المتكبر أعظم اليائسين من رحمة الله، فإن المتواضعين من أعظم الراجين لها.

قلت: ومن نطق بهذا الحكم الخطير؟

قال: ألم تسمع إلى قول الحق تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾(لأعراف:٤٠)

قلت: لقد شبه الحق استحالة دخول المتكبرين الجنة باستحالة دخول الجمل سم الخياط، (فجسم الجمل أعظم الأجسام، وثقب الإبرة أضيق المنافذ، فكان ولوج الجمل في تلك الثقبة الضيقة محالا)

قال: فلما وقف الحق تعالى دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط، وكان هذا شرطا محالا، وثبت في العقول أن الموقوف على المحال محال، وجب أن يكون دخولهم الجنة مأيوسا منه قطعا[1].

---

(١) الفخر الرازي.

قلت: هذا هو حكم المتكبرين وشاهدهم، فمن قال: إن الانكسار مقرب إلى الله، وما أرى الانكسار إلا نوعا من الذلة والهوان والضعف.

قال: ذلك عندما يكون مع السوى، أما معه، فإنه القوة والكمال والعزة، ألم تسمع قوله تعالى وهو يذكر هؤلاء الذين انكسرت قلوبهم عندما لم يجدوا ما ينفقون.

قلت: تقصد قوله تعالى:﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾(التوبة:٩٢)

قال: نعم، فهل هناك أعز من هذا الموقف، لقد ذهبت أقوام كثيرة مع رسول الله ﷺ وتحملوا الحر والعناء، ولكنهم لم يفوزوا بمثل هذا الثناء.

قلت: ألهذا إذن يذكر الأولياء كثيرا قيمة الانكسار وأثره، ويحضون مريديهم عليه!؟

قال: أجل، فافتح أذني قلبك لتسمع ما يقولون.

التفت، فإذا بي أرى جمعا من الأنوار، عليهم سيما الأولياء.

قال الأول: انكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وقال الثاني: معصية أورثت ذلاً وافتقاراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.

قلت: عرفتك أنت ابن عطاء الله.. أنا أحفظ حكمك حرفا حرفا.. ولكن أليس في قولك هذا دعوة للمعصية!؟

ابتسم، وقال: الطاعة المضمخة بسم الكبرياء قاتلة، والمعصية المشبعة بترياق الشفاء دواء.. واسأل المعلم، فمنه تعلمنا.

قال المعلم: لو قدم لك أحدهم عسلا مصفى، أكان محسنا لك؟

قلت: وأي إحسان أعظم من هذا؟.. إن العسل في بلادنا لا يكاد يظفر به إلا ببذل الأموال الطائلة.

قال: ولكنه لو خلط معه سما.

قلت: يكون حينها قاتلا سواء مت من عسله، أو لم أمت.

قال: هل يعتبر بذلك مجرما أم محسنا؟

قلت: وأي إجرام أعظم من جرمه، بل إن في غشه لي بتقديم العسل كمن يريد أن أثني عليه وهو يسفك دمي، أو كمن يرشوني ليقبض روحي.

قال: والذي يقدم لك طعاما مرا، ولكن ترياق الشفاء فيه، أيكون محسنا أم مسيئا؟

قلت: بل يكون محسنا غاية الإحسان.. ألم تسمع قوله ﷺ:(ماذا في الأمرين من الشفاء:

الثفاء والصبر)[1]، فقد وصفهما ﷺ بالمرارة، وهو يشير إلى ما تختزنه مرارتهما من العلاج[2].

قال: فإن العاصي الذي ينكسر لله خير من المطيع الذي يتألى على الله.

قلت: ولكن.. أليس في هذا حضا على المعصية؟

قال: إنما يكون حضا لو كانت المعصية مجردة، أما اجتماعها مع الانكسار فيدخل في قوله تعالى:﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾(هود:١١٤)، ويدخل في قوله ﷺ:(يا معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن)[3]

قلت: ولكن نفرا من قومي ينكرون مثل هذا الكلام، ويعتبرون صاحبه مبتدعا.

قال: فاستدع لهم ابن القيم.. فقد كان ناصرا للسنة معظما لها منافحا عنها.

قلت ضاحكا: وأين لي أن أجده حتى استدعيه؟.. ألا تعلم أنه دفن في المائة الثامنة؟

قال: هو ذا أمامك..

التفت فرأيت رجلا ربانيا تشع الأنوار منه يتحدث في شرح قوله ﷺ:(من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله)[4]

قال بحماسة ممزوجة بتواضع:(تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثما من ذنبه وأشد من معصيته لما فيه من صولة الطاعة وتزكية النفس وشكرها والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به.

ولعل كسرته بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسر القلب أنفع له وخير من صولة طاعتك وتكثرك بها والإعتداد بها والمنة على الله وخلقه بها.

فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله وما أقرب هذا المدل من مقت الله فذنب تذل به لديه أحب إليه من طاعة تدل بها عليه، وإنك أن تبيت نائما وتصبح نادما خير من أن تبيت قائما وتصبح معجبا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك أن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مدل، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا

---

(١) أبو داود في مراسليه والبيهقي.

(٢) انظر: ابتسامة الأنين، الجزء الثالث.

(٣) أحمد عن معاذ، ورواه الترمذي برقم (١٩٨٨) وأوله: اتق الله حيث ما كنت. عن أبي ذر وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد والدارمي والحاكم في الإيمان وقال على شرطهما. راجع تحفة الأحوذي (١٢٢/٦)

(٤) الترمذي.

الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر، فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر ووراء ذلك مالا يطلع عليه الكرام الكاتبون)[1]

قلت: أهذا كلامك يا ابن القيم!؟.. ولكن قومي يفترون عليك افتراء عظيما.

قال: هي ذي كتبي بين أيديكم، فانصحهم أن يقرؤوها.. يقرؤوها كلها بلا انتقاء.. فلا يكونوا كأهل الكتاب الذي قال الله تعالى في حقهم:﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(البقرة: من الآية٨٥)

قلت له: يا ابن القيم.. ما سر هذه القيمة التي أولاها الربانيون للانكسار؟

قال: اسأل معلم السلام، فهو معلمك.

ثم غاب عني كما دخل من غير أن ألمح دخولا أو خروجا.

قال لي معلم السلام: الانكسار هو باب من أبواب العبودية لا يختلف عن الافتقار.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: في الافتقار لا تملك شيئا، فأنت عين الحاجة.

قلت: وفي الانكسار.

قال: أنت عين المذلة.. فالإنسان قد لا يملك شيئا، ولكن تكون له عزة الملوك وكبرياء الملأ، وقد قال ﷺ:(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولاينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)[2]

قلت: فطريق إخضاع العزة الآثمة هو الانكسار، كما أن طريق إخضاع الاستغناء الكاذب هو الافتقار.

قال: وفي كل ذلك مقابلة لصفات الربوبية بصفات العبودية.

قلت: لم أفهم.

قال: الأستاذ من يعلم؟

قلت: الجاهل.

قال: والطبيب من يداوي؟

---

(١) مدارج السالكين: ١٧٧/١، وانظر: الوابل الصيب: ١٣.

(٢) النسائي عن أبي هريرة.

قلت: المريض.

قال: فمن جاء لطبيب ليذكر صحته وعافيته وجماله وقوته، هل يضع الطبيب عليه ترياقه ليداويه!؟

قلت: كلا.. بل يطرده من عيادته.

قال: لماذا؟

قلت: لصلافته وعزته الآثمة.

قال: فكذلك طرد المتكبرون.

قلت: ولذلك عولج، ورحم المنكسرون.

غبت عما حولي متأملا النتيجة التي وصلنا إليها من حوارنا، وهي نتيجة تسحق كل السعادة، فقد وقى الله الفقراء ما يحدثه الغنى والترف في أصحابه من كبراء، تذكرت حينها قوله ﷺ، وهو يتضرع إلى الله لا ليعطيه الغنى، وإنما ليرزقه المسكنة، قال ﷺ:(اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة)[1]

وتذكرت حينها قوله ﷺ وهو يخبر عن بني إسرائيل:(وكانت امرأة ترضع ابنا لها في بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة فقالت: اللهم اجعل ابني مثله! فترك ثديها وأقبل على الراكب وقال: اللهم! لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه، ثم مر بأمة فقالت أمه: اللهم! لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها وقال: اللهم اجعلني مثلها! فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقت زنت، و لم تفعل)[2]

---

(١) رواه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء إن فقراء المهاجرين رقم (٢٣٥٢) وقال: هذا حديث غريب، وتتمته فقالت عائشة لم: يا رسول الله؟ قال:« إنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا، يا عائشة لا تردي المساكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقربيهم فإن الله يقربك يوم القيامة » وأورده ابن الجوزي في الموضوعات فأخطأ.

(٢) البخاري ومسلم.

الشعاع الرابع

فجأة صحوت من غيبتي، لأسمع المعلم، وهو يرتل بصوته الخاشع قوله تعالى:﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ (لأعراف: من الآية١٣٧)

قلت: أهذا هو الشعاع الرابع؟

قال: أجل.. فما تفهم منه؟

قلت: في هذه الآية يخبر الله تعالى عن فضله على المستضعفين بتمكينهم من الأرض.

قال: وهي أعظم سلوى للفقراء.. فهي تنقلهم إلى الواقع لتخبرهم بأن حقائق إمكانية اختيارهم ليست فلسفة مثالية أو أحلاما جميلة، بل هي حقيقة يمكن تحقيقها في كل حين.

قلت: بم؟

قال: بالتحقق بحقائق الافتقار.

قلت: ولكن الافتقار قد يملؤهم بالهزيمة.. ويملأ نفوسهم بالعقد.

قال: افتقار العارفين، لا افتقار المحجوبين.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: افتقار العارفين قوة، وافتقار المحجوبين ضعف.

قلت: لم؟

قال: افتقار العارفين لله.. فلذلك يعطون من القوة ما لا يمكن مواجهته.. وافتقار المحجوبين للأكوان.. فلذلك لن يجدوا من الأكوان غير الخذلان.. ألا تعلم ما قال الشيطان للكفار الذين افتقروا إليه واستندوا لقوته؟

قلت: بلى.. فقد قال تعالى:﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(لأنفال:٤٨)

قال: فقد خذلهم أحوج ما كانوا إليه.

قلت: أجل.. فقد استندواإلى ركن غير ركين.

قال: كل من استند لغير الله، فقد استند لركن غير ركين.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(آل عمران:١٦٠)؟

قلت: بلى.. وقد رأيت من نصر الله لأوليائه ما يدل على هذا.

قال: فالفقراء المتوجهون لله منصورون بنصر الله، مؤيدون بمدد الله.. فلذلكهم مختارون سواء عزلهم الخلق أو قربوهم.

قلت: فلا فقر إذن.

قال: لا فقر إلا الفقر الوهمي الذي يعيشه المحجوبون.

***

شعرت عند سماعي هذا بجوهرة كريمة تتزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قلت في نفسي بعدها: نعم إن الفقير في الحقيقة لا يؤلمه فقره، بقدر ما يؤلمه فوات الفرص والمكاسب التي يرى الأغنياء يترلونها ويتهافتون عليها، بينما يبقى هو في المستنقعات يحلم بالجمال الذي لا يصل إليه، ولا يحلم بالوصول إليه، وهو يردد مع المعري:

هذا ما جناه أبي علي وما جنيت على أحد

فلذلك إن رُفع هذا الوهم، وقيل للفقير: فقرك لا يحول بينك وبين أي شيء، فيمكنك أن تتربع على أي عرش، وتتناول أي حق، بل يمكنك أن تجعل الأغنياء الذين ترمقهم بعينين حسودتين يغبطونك على ما حل بك من النعم.

بل يمكنك أن تقف بينهم شامخا جبارا يتطاولون للوصول إلى ما وصل إليه عنقك، ويتوثبون للتحقق بما أدتك إليه همتك.

ثم قلت في نفسي: ليت الفقراء يسمعون لمعلم السلام وهو يخرجهم من الأوهام، فينتقلون من الشعور بالنقص إلى الشعور بالقدرة على الكمال، ومن الشعور بالعجز إلى الشعور بالقوة التي لا تقف دونها الحواجز.

قال لي معلم السلام، وكأنه يسمع ما يدور في نفسي: أسمعهم قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(النساء:٩٧)

قلت: فما وجه الإشارة في هذا؟

قال: هذه أكبر صفعة ينالها المستضعف العاجز؟

قلت: كيف؟

قال: إن أوهامه تجعله يتصور أنه وإن صار ذنبا، فإنه لن يحرق مع الكبراء، لأنه كان

مستضعفا، وكانوا متكبرين، فالآية تقول له:(لن تعذر باستضعافك لأن الله تعالى أعطاك القوة التي تخرج بها من ضعفك)

قلت: فبماذا ينتفع منها؟

قال: برفع الهمة، والثورة على الاستضعاف، فالحقيقة المرة قد تكون كالدواء المر، فإنه وإن لم يكن لذيذا، لكنه مفيد.. لكنه دواء.

قلت: ولكن ما الذي يحول بين الفقراء والمستضعفين وتملك هذه الجوهرة الثمينة؟

قال: إنه الاتباع الأعمى الناتج عن فراغ عظيم.

قلت: تقصد عقدة النقص التي تجعلهم يرون أنفسهم أصفارا، فينمحون أمام الكبار.

قال: سم ذلك ما شئت، ولكن من عظم غير الله، وسكن لغير الله ابتلاه الله بالاستعباد لكل شيء.

قلت: أتذكر لهذا السبب شاهدا، فأنت تعرف مدى غرامي بالشواهد؟

قال: القرآن الكريم كله شواهد على ذلك، ولكن اسمع لما يقول الله تعالى:﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾(سبأ:٣٢)، وقالتعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾(سبأ:٣١)، وقالتعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(سبأ:٣٣)

قلت: قرأت هذه الآيات كثيرا.

قال: لا يكفي أن تقرأها.. لابد أن تسمعها.

قلت: فماذا تقول هذه الآيات، ومن تخاطب؟

قال: إنها تخاطب جذور أعماق الفقراء والمستضعفين، لتقول لهم:(إن الله لم يخلقكم أذنابا، بل خلقكم رؤوسا، فإن أبيتم إلا أن تكونوا أذنابا، فتحملوا ما يجركم إليه ذلك)

قلت: وما يجر إليه ذلك؟

قال: إن ربط شخص نفسه في ذيل خنزير نجس، أيمكن أن يبقى طاهرا؟

قلت: وكيف يبقى طاهرا، إن النجاسة لاحقة به لا محالة.

قال: فكذلك من رمى نفسه في أتون المجرمين، فإنه لا ينبغي أن يلوم أحدا إن احترق.

قلت: ألهذا يجمع الله تعالى في دار العدل الكبراء مع المستضعفين؟

قال: لأن المستضعفين أبوا إلا أن يبيعوا أنفسهم للكبراء.

قلت: إن هذه المعاني خطيرة، وهي تحض على الثورة.. ثورة الفقراء والمستضعفين.

قال: والثورة هي بداية السلام، فلا يمكن أن تتحقق بالسلام، وأنت تقنع بالعجز.

قلت: ولكن الثورة تحتاج سلاحا.

قال: فقد أعطى الله الفقراء القدرة على حمل السلاح.

قلت: ليواجهو به الكبراء والمستعلين؟

قال: ليواجهوا به قبل ذلك الظلام الذي يعمر أعماقهم، والخراب الذي يملأ نفوسهم، فمن الخطأ أن تلوم جارك على شيء تفعله في بيتك، ومن البهتان أن تنقلب على رؤسائك، ولا تنقلب على أهوائك.

***

قلت في نفسي: ولكن هل هناك من الأقوياء من فهم تلك المعاني الجليلة، وأدرك سر هذه الجوهرة العظيمة؟

ناداني من أعماقي: الأولياء والصديقون.

قلت: ما بهم؟

قال: فازوا بهذه الجوهرة الثمينة، كما فازوا بكل جواهر الوجود.

قلت: فهل من نماذج.

قال: افتح عينيك، وسلهم.

قلت: من؟.. ألست أنت معلمي؟

قال: لقد طلبت نماذج، والنماذج ينطق أصحابها، وهاهم أولياء الله بين يديك، فسلهم.

ما فكرت في أن أسأل عن مكانهم حتى وجدت قطعا من النور المتلألئ تقف أمامي:

قال أولهم[1]: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وقال الثاني: جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له: تخطّ، لو كنت غنياً لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء.

---

(١) يحيى بن معاذ.

وقال الثالث: ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري، ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله.

وقال الرابع: جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألح عليه الرجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم؟ لا أفعل ذلك أبداً.

٣ ــ ماذا وجد من فقدك

صعد بي المرشد طابقا أعلى في قصر الاستغناء، فإذا بي أشاهد لافتة مكتوبا عليها:(هنا محل جوهرة عزيزة اسمها (ماذا وجد من فقدك)

سألت المرشد عنها، فقال: أنا المرشد، ولست المعلم، اسأل معلم السلام.

أجابني من غير أن أسأله: لا يكفي أن تشعر بأنك لست مطرودا، ولا يكفي أن تشعر بأن في إمكانك أن تكون مختارا، لتمتلئ بالسلام والسعادة؟

قلت: فما الذي ينقص الفقير حتى يشعر بسكينة أعظم وسلام أتم؟

قال: أن يشعر بأن كل ما في يد غيره من الأغنياء والمستعلين هباء أو كالهباء، أو سراب أو كالسراب؟

قلت: وما فائدة هذا الشعور، وما علاقته بالاستغناء، وما علاقته قبل ذلك كله وبعده بالسلام؟

قال: لأن شعور الفقير بثروة الغني، يجعله عبدا لها، أو عبدا له.

قلت: كيف يكون ذلك، ولا بد من ذلك.

قال: فرق بين أن تراها، وبين أن تعتبرها.

قلت: لا أرى فرقا بينهما.

قال: إذا كنت في صحراء واسعة، ودب ثعبان الظمأ ليستل روحك، ورأيت سرابا بعيدا، هل تراه أو تعتبره؟

قلت: أراه، ولكني لا أعتبره.

قلت: وماذا لو اعتبرته؟

قلت: سأظل تائها في الصحراء، أبحث عنه، ثم لن أصل إليه أبدا.

قال: لم؟

قلت: لأنه غير موجود، والبحث عن غير الموجود عناء.

قال: فكذلك ثروات الأغنياء التي تراها.

قلت: ما الجامع بينهما؟

قال: إن نظرت إلى ما في أيديهم كما نظرت إلى السراب، ضحكت عليهم، وسخرت منهم، و لم يستعبدوك.

قلت: قرب لي المثال، فإني كما تعلم منغمس في أوحال الكثافة يشتد علي التجريد.

قال: أرأيت إن كان لك جار.. هو فقير.. ربما يكون أفقر منك.. ثم جاء بجوهرة مغشوشة، فعلقها في جيد امرأته، أو جاءك بكنز يلمع كالذهب، ولكنه ليس ذهبا، ثم ذهب يتعالى عليك، ماذا كنت تفعل؟

قلت: أرحمه، أو أضحك عليه.

قال: أكنت تتمنى أن يكون لك مثله؟

قلت: لا، لأنه لا يملك إلا السراب والهباء، ثم يغالط نفسه به.

قال: كيف يغالط نفسه به؟

قال: لأنه إذا جاء وقت الحاجة لن يغني عنه ذهبه شيئا.

قال: إذن هو كذلك السراب الذي ﴿ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً ﴾(النور: من الآية٣٩)

قلت: أجل.. هو كذلك.

قال: فأغنياء العالم الذين تمتلئ قلوب الفقراء حسدا أو نقصا عند رؤاهم، هل تغنيهم أموالهم وذراريهم وقصورهم شيئا وقت الحاجة.

قلت: أما في الدنيا، فنعم.

قال: ما الدنيا إلا أيام تروح وتنقضي، فبعد الدنيا.

قلت: لا تنفعهم، فلم أر أحدا تدفن كنوزه معه.

قال: أرأيت لو دفنت كنوزه معه، هل تغني عنه من أمره شيئا؟

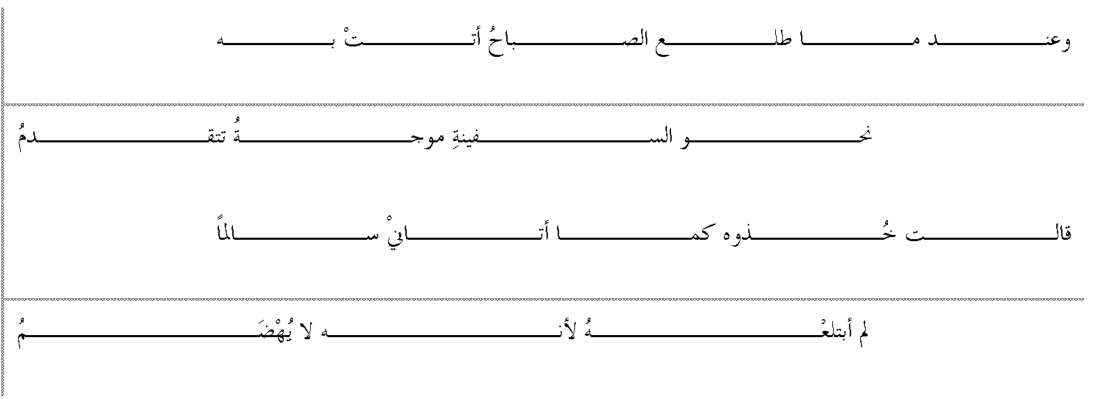
قلت: كيف تغنيه، وهو لن يطول به المقام حتى يأكله الدود، فيصير هيكلا عظميا ينخره التراب.

قال: أرأيت لو حنطوه، وحفظوا جثته وزينوها بالحلي والحلل التي جمعها، أكان ذلك يغني عليه شيئا؟

قلت: كيف يغني عليه، وهو رمة بالية، والحمار يظل حمارا، ولو كسي وزين ما زين، ألم تقرأ قول شوقي:

ســــــــــقطَ الحِمـــــــــــــارُ مـــــــــــن الســــــــــــفينةِ في الـــــــــــدجى

فبكـــــــــــــى الرفـــــــــــــاقُ لفقـــــــــــــدِهِ وتَرَحَّمـــــــــــــوا



وعند ما طلع الصباحُ أتتْ به ... نحو السفينةِ موجةٌ تتقدمُ

قالت خُذوه كما أتانيْ سالماً ... لم أبتلعْهُ لأنه لا يُهْضَمُ

والعجوز تظل عجوزا، ولو دست إلى العطار كل سلعة بيتها:

عجوزٌ ترجِّي أن تكون فتيةً ... وقد غارَتِ العينانِ واحدودبَ الظهرُ

تدسُّ إلى العطارِ سلعةَ أهلِها ... ولن يصلحَ العطارُ ما أفسدَ الدهرُ

و..

قال: لكأني بك تعود إلى طبعك، لقد قلت لك: هذا مجلس سلام لا مجلس شعر، فخبرني ما فائدة هذا المال الذي لا تجده أحوج ما تكون إليه؟

قلت: وما البديل؟

قال: أن تبحث عن المال الذي تجده في كل وقت.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قال: الأول سراب، والثاني ماء، ومن أجهد نفسه مع السراب لن يصل إلى الماء.

قلت: وكيف أصل إلى الماء؟

قال: بالبحث عن رب الماء، ألم تقرأ قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسَابِ﴾(النور:٣٩)

قلتَ: فمن فقد الله؟

قال: لم يظفر إلا بالسراب، ولهذا كانت هذه الجوهرة جوهرة:(ماذا وجد من فقدك)

قلت: هذا جزء من حكمة ابن عطاء الله.

قال: هذه حكمة من حكم الوجود، وسنة من سنن الكون، و﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾(الأحزاب: من الآية٦٢)

قلت: أريد الشواهد، فأنت تعرف أني لا أقبل إلا الشواهد.

قال: البصيرة خير الشواهد.

قلت: وكلام الله نور البصيرة.

قال: إليك هذه الأشعة الأربعة.

الشعاع الأول

قلت: فما الشعاع الأول؟

قال: هو الشعاع الذي يضيء من سراج قوله تعالى:﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾(الكهف:٤٢)

قلت: هذه قصة هلاك مال رجل غره ماله.

قال: لم يغره ماله فقط، بل استعبده من دون الله، ألم تسمع قوله بعد ندمه:﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾(الكهف:٤٢)

قلت: فما في هذا من أشعة هذه الجوهرة؟

قال: هذا الشعاع يقول لك: كل ما امتلكته من غير الله فان أو سيفنى.

قلت: لا شك في هذا.. فهذه حقيقة من حقائق الأبد، فقد قال تعالى:﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(القصص:٨٨)

قال: وقال تعالى:﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٦ ــ ٢٧)

قلت: فما الأثر الذي يحدثه سماع هذه الآيات؟

قال: لا يتعلق بالهالك إلا هالك.. ولا يتعلق بالفاني إلا الفاني.

قلت: وكلنا هالكون، فلذلك ترانا نتعلق بالهالكين.. فهل علينا لوم في ذلك؟

قال: نحن هالكون، ولكن فطرنا مملوء ة بحب الحياة، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى﴾ (طـه:١٢٠)

قلت: بلى.. فما في هذه الآية من فطرة الخلود؟

قال: لولا أن الله ملأ فطرة الإنسان بحب الخلود ما جاءه الشيطان من هذا الباب.

قلت: صدقت.. فالشيطان لا يرتع إلا فيما يحمله الإنسان من معاني.. فهو يبحث عنها ليقلب حقائقها.

قال: ولهذا.. فإن من أراد الحياة الخالدة يحتاج إلى التعلق بالخالد الذي لا يموت، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾(الفرقان:٥٨)، ففي الآية إشارة صريحة إلى هذا الشعاع الذي يخرجك من الأكوان ليربطك برب الأكوان.

قلت: ألهذا نرى النصوص الكثيرة تخبر عن هلاك الأموال، وذهاب العز عن أهله، كقوله تعالى عن أصحاب الجنة:﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾(القلم:١٩ ــ ٢٠)

قال: لقد كان ما حل بتلك الجنة من من أكبر نعم الله عليهم.

قلت: كيف تقول هذا؟.. هذه عقوبة، وليست نعمة.

قال: كل نعمة تحجبك عنه عقوبة.. وكل عقوبة توصلك إليه نعمة.

قلت: صدقت.. فلولا أن الله تعالى ابتلاهم بهذا البلاء، لما قالوا:﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾(القلم: من الآية٢٩)

قال: إن غلة هذه المقولة أعظم من كل غلة كان يمكن أن يظفروا بها.

قلت: فالله يقلب الأمور بعباده ليتعرفوا عليه، ويصلوا إليه.

قال: أجل.. ألم تسمع قول ابن مسعود ﷺ:(لكلِ فرحةٍ تَرْحة، وما مُلِيءَ بيتٌ فرحاً إلا مُلِيءَ تَرحاً)، ومثله قال ابن سيرين:(ما كان ضحكٌ قَطٌ إلا كان من بعده بُكاء)

قلت: لقد روي في هذا أن هندا بنت النُّعمان قالت: لقد رأيتُنا ونحن مِن أعزِّ الناس وأشدِّهم مُلكاً، ثم لم تَغِبِ الشمسُ حتى رأيتُنا ونحن أقلُّ الناس، وأنه حقٌ على الله ألا يملأ داراً خَيْرة إلا ملأها عَبرة.

وسألها رجلٌ أن تُحَدِّثه عن أمرها، فقالت: أصبحنا ذا صباح، وما فى العرب أحدٌ إلا يرجونا، ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا يرحمُنا.

وبكت أختها حُرَقَةُ بنت النُّعمان يوماً، وهي فى عِزِّها، فقيل لها: ما يُبكيكِ، لعل أحداً آذاك؟ قالت: لا، ولكن رأيتُ غَضارة فى أهلى، وقلَّما امتلأت دارٌ سروراً إلا امتلأت حُزناً.

وقال إسحاق بنُ طلحة: دخلتُ عليها يوماً، فقلتُ لها: كيف رأيتِ عبراتِ الملوك؟ فقالت: ما نحنُ فيه اليومَ خيرٌ مما كنا فيه الأمس، إنَّا نجِدُ فى الكتب أنه ليس مِن أهل بيت يعيشون فى خيْرة إلا سيُعقَبون بعدها عَبرة، وأنَّ الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بَطَن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت:

فَبَيْنَــــــا نَسُــــوسُ النَّــــاسَ وَالأَمْــــرُ أَمْرُنَــــا

إذا نَحْــــنُ فِــــيهِمْ سُــــوقَةٌ نَتَنَصَّــــفُ

فَــــأُفٍّ لِــــدُنْيَا لاَ يَــــدُومُ نَعِيمُهَــــا

تَقَلُّــــــــبُ تَــــــــارَاتٍ بِنَــــــــا وَتَصَــــــــرُّفُ

قال: أرأيت لو أن الله لم يرحمهم بما رحمهم من هذا البلاء أكانت تقول هذه المرأة ما قالت؟

قلت: لا أحسبها تقول ذلك.. بل لا أحسبها إلا ستنظم أبياتا كأبيات عمرو بن كلثوم التي قال فيها:

مَلأْنَــــــا البَــــــرَّ حَــــــتى ضَــــــاقَ عَنّــــــا، كَــــــذاك البَحــــــرَ نملَــــــؤهُ سَــــــفِينَا

إذا بَلَــــــغَ الفِطَــــــامَ لَنَــــــا رَضِــــــيعٌ، تَخِــــــرُّ لَــــــهُ الجَبَــــــابرُ سَــــــاجِدِينَا

لَنَــــــا الــــــدُّنيا، وَمَــــــنْ أَضــــــحَى عَلَيهــــــا، ونَــــــبطِشُ حــــــينَ نَــــــبطِشُ قَادِرِينَــــــا

الشعاع الثاني

قلت: فما الشعاع الثاني؟

قال: هو الشعاع الذي يضيء من سراج قوله تعالى:﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(القصص:٨٢)

قلت: فما في هذا الشعاع من حقائق هذه الجوهرة؟

قال: هذا الشعاع يقول لك: إن لم تشهد هلاك مالك، فستشهد هلاكك، وفي هلاكك هلاك مالك.

قلت: وضح لي ما تقصد.

قال: ما الغرض الذي تطلبه من الأموال؟

قلت: الانتفاع بها، والاستفادة منها.

قال: أرأيت إن منعت من هذه الاستفادة، وحرمت من هذا التمتع!؟

قلت: حينها سأعتبر نفسي خاليا من المال، حتى لو عمرت كنوز الدنيا خزائني.

قال: فهذا الشعاع يخاطبك من هذا الباب ليترع من قلبك عبودية الذهب والفضة، ويترع من الفقير شوقه الذي استعبده للذهب والفضة.

قلت: يخاطبه بمنطق الفناء الذي خاطبه به الشعاع السابق.

قال: أجل.. فما أكثر الخلق الذين لم يشهدوا هلاك أموالهم.. وكل الخلق شهدوا هلاكهم عن أموالهم.

قلت: فهل من فرق بينهما؟

قال: في التحقيق لا فرق بينهما.. فسواء ذهب مالك عنك، أو ذهبت أنت عن مالك.

قلت: أي عزاء يحمله هذا المعنى للفقراء.. ألسنا نبحث عن سلوى الفقراء؟

قال: هذا المعنى يخلص الفقراء من عبودية الشعور بالفقر للأشياء ليزج بهم في عبودية الافتقار لله.

قلت: فكيف نتحقق به؟

قال: بذكر الموت.. فما حل الموت في كثير إلا قلله، ولا في قليل إلا كثره.

قلت: أسمع هذا اللفظ كثيرا فما معناه.

قال: هذا اللفظ يخاطب الفقراء ليقول لهم: إن ما عندكم كثير يكفيكم، فلا تحزنوا.. ويقول للأغنياء: إن ما عندكم قليل، فلا تغتروا به.

قلت: إن هذا يضاد الحقيقة.. فما عند الفقراء قليل، وبه صاروا فقراء.. وما عند الأغنياء كثير، وبه وجبت عليهم الزكاة.

قال: نحن نتكلم في الحقائق لا في الرسوم.. فمن نظر إلى مايسد الحاجة، فالقليل كثير.. ومن نظر إلى مايسد طمعه فالكثير قليل.

قلت: فذكر الموت إذن عزاء للفقراء.

قال: وتربية للأغنياء.

قلت: أجل.. وقد سمعت الشعراء يرددون هذا المعنى كثيرا.

قال: فارو من أشعارهم ما يملأ قلوب الفقراء عزاء، وقلوب الأغنياء عبودية.

قلت: قال إصْبَغ بن الفَرَج: كان بنَجْران عابد يَصِيح في كلِّ يوم صَيحتين بهذه الأبيات:

قَطَعَ البقاءَ مَطالعُ الشمسِ ... وغُدوُّها من حيث لا تُمْسي

وطلوعُها حمراءَ قانيةَ ... وغُرِوبُها صفراءَ كالوَرْس

اليومُ يُخبر ما يجيء به ... ومَضى بفَضْل قَضَائه أمس

وقال آخر:

زينت بيتك جاهلاً وعَمَرْتَه ... ولعلّ غيرَك صاحبُ البيتِ

مَنْ كانت الأيامُ سائرةً به ... فكأنه قد حلّ بالموت

والمرءُ مُرْتَهنٍ بسوْفَ ولَيْتني ... وهلاكُه في السَّوف واللَّيْت

للهّ دَرُّ فتى تَدَبّرَ أمرَه ... فغَدَا وراح مُبَادِرَ الفَوْتِ

وقال صريع الغواني:

كم رأينا من أناس هَلَكوا ... قد بَكَوْا أحبابَهم ثم بُكُّوا

تَرَكُوا الدُّنيا لِمَن بعدهُم ... وُدُّهم لو قَدّمُوا ما تَركوا

كم رأينا من مُلوكٍ سُوقة ... ورأينا سُوقةً قد مَلَكوا

وقال الصَّلَتان العَبْدِيّ:

أَشابَ الصغِيرَ وأَفْنى الكبيـ ... ـرَ كرُّ الغَداة ومَرُّ العَشِي

إذا ليلة أَهْرَمت يومَها ... أتى بعدَ ذلك يومِ فَتِي

نَروح ونَغدو لحاجاتِنا ... وحاجةً مَن عاشِ لا تنقضي

تَموت مع المرء حاجاتُه ... وتَبْقَى له حاجةَ ما بقي

وكان سُفيان بن عُيينة يَسْتحسن قولَ عَدِيّ بن زَيْد:

أينَ أهلُ الدِّيارِ مِنْ قَوْم نُوح ... ثم عادٌ من بعدها وثَمود

بينما هُمْ على الأسرة والآن ... ماطِ أفضت إلى التُّراب الخُدود

وصحيحٌ أمْسى يعُودُ مريضاً ... وهو أدنى للموت ممَّن يَعود

ثم لم ينقض الحديثُ ولكنْ ... بعد ذا كلِّه وذاك الوَعِيد

وقال أبو العتاهية في وَصْف الموت:

كأن الأرْض قد طُويت عَليَّا ... وقَد أُخْرِجْتُ مما في يَديّا

كأن قد صِرْتُ مُنْفَرِداً وحيداً ‏   ‏ ومُرْتَهناً هناك بما لَديّا

كأنّ الباكياتِ عليّ يوماً ‏   ‏ ولا يُغني البُكاء عليّ شيَّا

ذكرت مَنِيَّتِي فنعمتُ نفسي ‏   ‏ ألا أَسْعِدْ أُخَيَك يا أُخَيّا

وقال:

سَتَخلق جِدَّةٌ وَتَجُود حالُ ‏   ‏ وعِنْد الحق تختبر الرجالُ

وللدُنيا ودائعُ في قُلوب ‏   ‏ بها جَرَت القَطِيعة والوِصَال

تَخَوَّفُ ما لَعَلَّكَ لا تَراه ‏   ‏ وترْجُو ما لعلك لا تنال

وقد طلع الهِلالُ لَهدْم عُمْري ‏   ‏ وأفْرَحُ كلَّما طَلع الهِلال

وقال ابن عبد ربه:

أتَلهو بين باطِيَةٍ وزيرِ ‏   ‏ وأنت من الهلاك على شَفِير

فيا مَن غَرّهُ أملٌ طَويلٌ ‏   ‏ يُؤَدِّيه إلى أجل قَصِير

أتَفْرَحُ والمَنِيّة كلَ يوم ‏   ‏ تريك مكان قبرك في القبور

هي الدّنيا فإنْ سَرتكَ يوماً ‏   ‏ فإنَّ الحُزْنَ عاقبةً السُرُور

سَتسْلَبُ كلَّ ما جَمعْت منها ‏   ‏ كَعَارِيةٍ تَرَدُّ إلى المُعِير

وتَعْتَـــــاضُ اليَقـــــينِ مـــــن التَّظَنِّـــــي | وَدَارَ الحـــــق مـــــن دار الغًـــــرور

ولأبي العتاهية:

مـــــا أقْـــــرَبَ المـــــوتَ منَّـــــا | تَجَـــــاوَزَ اللهُ عنـــــا
كأنـــــه قـــــد سَـــــقَانا | بِكأسِـــــهِ حيـــــثُ كُنَّـــــا

وقال:

نَعـــــى لـــــكَ ظـــــلَّ الشَّـــــبَاب المَشِـــــيبُ | ونادتْـــــكَ باســـــمٍ سِـــــوَاكَ الخُطُـــــوبُ
فكُـــــن مســـــتَعِدًّا لرَيْـــــب المَنُـــــون | فـــــإنَّ الـــــذي هـــــو آتٍ قريـــــب
وقَبْلَـــــكَ داوى الطبيـــــب المَـــــرِيض | فعـــــاش المَـــــرِيضُ ومـــــات الطَّبِيـــــب
يَخـــــاف علـــــى نَفْسِـــــه مـــــن يَتـــــوب | فكَيْـــــف تـــــرى حـــــالَ مـــــن لا يَتـــــوب

قال: حسبك، فقد ملأت هذا القصر شعرا.

الشعاع الثالث

قلت: فما الشعاع الثالث؟

قال: هو الشعاع الذي يضيء من سراج قوله تعالى:﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِسَاسَ ﴾(طـه: من الآية٩٧)

قلت: هذه الآية تتحدث عن عقوبة السامري.. ولا أرى فيها أي سلوى للفقراء، ولا أي تربية للأغنياء.

قال: اسمعها بعين الحقائق لتبصر الشعاع الذي ينطلق منها.

قلت: ليس في طاقة أذني أن تسمع غير الحروف والأصوات.

قال: أهذه هي عقوبة السامري؟

قلت: أجل.. لقد عاقبه الله بمرض يحرمه من المجتمع.. فهو لا يود أن يمس أحدا، أويلاقي أحدا.

قال: فعندما أراد الله أن يعاقب السامري بما تقتضيه فطرته من مخالطة المجتمع، هل أزال المجتمع وحرمه منه.

قلت: لا.. المجتمع كان موجودا على مرمى بصره.

قال: فهل قبض الله روحه ليحرمه من رؤية المجتمع؟

قلت: لا.. بل بقي موجودا.

قال: ولكن كيف حرم من المجتمع مع أنه كان في المجتمع؟

قلت: لقد ذكرت لك أنه ابتلي بمرض يحرمه من المجتمع مع أنه في وسطه وبين أفراده.

قال: فافهم سر هذا الشعاع من هذا المعنى.

قلت: كيف؟

قال: لقد عرفت في الشعاعين السابقين أن المال الذي استعبد الأغنياء والفقراء إما أن يذهب أو يذهب بصاحبه.

قلت: أجل.. وهذا الشعاع؟

قال: يقول لك:قد تبقى مع المال.. ولكنه لن ينفعك.. بل ستمتلئ حسرة وأنت تنظر إليه.

قلت: أأصير كالعيس في البيد يقتلها الظمأ؟

قال: أجل.. ولو كان الماء فوق ظهورها محمول.

قلت: نعم.. إني كثيرا ما ألاحظ هذا.. فالأشياء قد تكون موجودة، وبوفرة.. ولكنا لا نجد أي متعة، ونحن نتناولها.

قال: لأن التلذذ ليس بالأشياء.. وإنما بما يخلقه الله فيك من السكينة التي تستقبل التلذذ وتتمتع به.. اللذة من الله لا من الأشياء.. فقد تأكل كسرة يابسة، ويضع الله في لسانك من التلذذ بها ما لا تجده في أشهى المأكولات.

قلت: صحيح هذا..

قال: بل هوحقيقة يشير إليها، بل يصرح بها قوله تعالى:﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً

عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(الانبياء:٦٩).. فالله تعالى لم يطفئ النار، وإنما جعل في إبراهيم u من السكينة والإيمان ما تتحول به النار بردا وسلاما.

قلت: صحيح هذا.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله تعالى:﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(لأنفال:٤٣)،فالله تعالى جعل في هذه الرؤيا ما يطمئن القلوب ويملؤها بالثقة.

قال: ليس الأمر قاصرا على الرؤى، بل هو شامل للواقع.. لكل واقع.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(لأنفال:٤٤)

قلت: أجل.. لقد وعيت هذا..

قال: فاعبر منه إلى سائر الحواس.. فالله الذي يتصرف في الأعين يتصرف في اللسان والآذان وفي كل جوارح الإنسان ولطائفه.

قلت: أيمكن إذن أن يرزق الله الفقراء بمعيشتهم البسيطة من الراحة واللذة والسلوان ما لا يجده الأغنياء؟

قال: أجل.. فالخلق خلق الله.. واللذات نعم من نعمه، يوزعها لمن يشاء، وكيف يشاء.

قلت: ألا علاقة لها بالأشياء؟

قال: لا علاقة لها بالأشياء.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(الزخرف:٣٣ ـــ ٣٥)؟

قلت: بلى.. سمعتها.. فما علاقتها بهذا؟

قال: إن الله يخبرنا بأن السعادة ليست في الأشياء..

قلت: أهي مثل قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طـــه:١٢٤)؟

قال: أجل.. وقد عبر عن هذا الضيق بالضنك ليشير إلى أن حياة هؤلاء قد تكون واسعة من حيث الأشياء.. ولكنها ضيقة، بل ضيقة جدا من حيث بركات الأشياء، وما فيها من أصناف اللذات.

الشعاع الرابع

قلت: فما الشعاع الرابع؟

قال: هو الشعاع المستمد من قوله تعالى على لسان الذي يكتشف حقيقة الأشياء التي كان يزهو بها في الدنيا:﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ (الحاقة:٢٨ ـــ٢٩)

قلت: فما يقصد هذا الشعاع؟

قال: هذا الشعاع يذهب الزهو الذي يملأ قلوب الأغنياء، وهم ينظرون إلى أموالهم، فيستلئون استغناء بها عن الله.

قلت: فما يقول لهم؟

قال: يقول لهم: إن هذه الأموال التي شغلتكم عن الله لن تنفعكم أحوج ما تكونون إليها.

قلت: لقد ضرب الله لذلك مثلا في القرآن الكريم، فقال تعالى:﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(البقرة:٢٦٦)

قال: أجل.. فهذا قد ذهب عنه ماله أحوج ما كان إليه.. أتدري ما مثله؟

قلت: ما مثله؟

قال: مثل رجل أفنى عمره في بناء سفينة ضخمة وضع فيها جميع جهده وجميع ما يحتاجه.. وضيع في سبيلها كل شيء.. لكنه ما إن توسط البحر اللجي حتى نبع من وسطها عيون أغرقتها وأغرقته معها.

قلت: ما أجدره لو ملأ نفسه بالراحة، وحفظ علاقاته.

قال: هو تمنى لو حصل منه ذلك، ولكن لات ساعة مندم.

قلت: لقد أخبر تعالى عن الحال التي يكون عليها هؤلاء في زحمة الأهوال، فقال:﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (المعارج:١١ـــ١٤)

قال: وقد أخبر عن النتيجة التي يتقنع بها الأغنياء والفقراء الذين أفنوا أعمارهم بحثا عما لا يغنيهم، فقال:﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (لأعراف:٤٨)، وقال:﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الحجر:٨٤)، وقال:﴿مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾(الشعراء:٢٠٧)، وقال:﴿ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الزمر:٥٠)، وقال:﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(غافر:٨٢)، وقال مخبرا عن عم رسول الله ﷺ:﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾(المسد:٢)

قلت: فما في هذا الشعاع من السلوى للفقراء والتربية للأغنياء؟

قال: يقول لهما: لا تنشغلا بهذا الغنى الوهمي عن الغنى الحقيقي.. فما تجمعونه من أموال، أو ما تخزنون عليه من أموال لايساوي حسنة واحدة في ميزان رجل مؤمن.

قلت: إن هذا يجعل الأغنياء والفقراء يتسابقون إلى الحسنات..

قال: وحينذاك يذهب زهو الغني وكبرياؤه وغفلته.

قلت: والفقير..!؟

قال: لا يضر الفقير شيء مثل الغني الجاحد.. فإن آمن الغني اغتنى الفقير.

قلت: لم؟

قال: لأن ثروة الغني سينتفع بها الفقير.. وحق الفقير لا يتسلط عليه الغني.

قلت: نستطيع بهذا أن نمحو الفقر والغنى.

قال: أجل.. بالتنافس على الخير يزول الغنى والفقر.. فالفقير من خفت موازيته من حسنات الله.

قلت: لقد ذكرتني بحديث في الزمن الأول.. زمن السلف الصالح.. حين كان الناس ينظرون إلى ما تكتب الملائكة لا إلى ما تكتب الخزنة، فقد روي أن ناسا قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال:(أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به: إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة)، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال:(أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)[1]

***

ما قلت هذا حتى شعرت بجوهرة كريمة تنزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قلت في نفسي حين نزولها: نعم.. إن الفقير في الحقيقة لا يؤلمه فقره، وإنا يؤلمه شعوره بأن غيره يملك ما لا يملك، فهو ينطوي على حسد لا شعوري يجعله يمتلئ حزنا وأسفا.

---

(١) مسلم.

فإذا علم هذا الفقير أن الكل فقير، وأن أبواب الغنى الحقيقي مفتوحة للجميع، وأن ذلك الغني الذي يتألم لغناه ما هو إلا فقير من الفقراء.. بل قد يكون أذل الفقراء وأحوجهم، فإنه سيعيش ممتلئا بغناه سعيدا بغناه.

لست أدري كيف خطر على بالي إبراهيم بن أدهم، وقد كان من أهل النعم بخراسان؟ فبـــينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم: أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم. قال: فشبعت؟ قال: نعم، قال: ثم نمت طيباً؟ قال: نعم. فقال إبراهيم في نفسه، فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

وذكرت عامر بن عبد القيس حين مر عليه رجل، وهو يأكل ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى. قال: من رضي بالدنيا عوضاً عن الآخرة.

وذكرت محمدا بن واسع حين كان يخرج خبزاً يابساً فيبله بالماء ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

٤ ــ ماذا فقد من وجدك

صعد بي المرشد طابقا أعلى في قصر الاستغناء، هو قمة طوابقها، فلاحت أنوار عظيمة جميلة لا يمكن وصفها كادت تخطف بصري، قلت للمعلم:(ما هذا؟

قال: هذه منطقة:(قدس الأقداس)، فاحرص على الأدب، ﴿ فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾(الكهف: من الآية٧٠)

قلت:﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾(الكهف:٦٩)

ارتد إلي طرفي، فأبصرت جوهرة لا يمكن وصفها.. نورها يكاد يغمر كل شيء، بل كدت أحس أني شعاع من أشعة نورها، سألت المرشد عن هذه الجوهرة العزيزة، فقال: هذه جوهرة:(ماذا وجد من فقدك)

قلت: ما معنى ذلك؟

قال: أنا المرشد، ولست المعلم، اسأل معلم السلام.

أجابني من غير أن أسأله: لا يكفي أن تشعر بأنك لست مطرودا، ولا يكفي أن تشعر بأن في إمكانك أن تكون مختارا، ولا يكفي أن تشعر بأن كل ما يملك غيرك سراب وهباء، لتمتلئ بالسلام والسعادة؟

قلت: فما الذي ينقص الفقير حتى يشعر بسكينة أعظم وسلام أتم؟

قال: أن يشعر بأنه يملك كل شيء، وأنه لا ينقصه شيء.

قلت: وما فائدة هذا الشعور، وما علاقته بالاستغناء، وما علاقته قبل ذلك كله وبعده بالسلام؟

قال: لأن افتقاره إلى أي شيء يعني دوام حاجته وفاقته ونقصه، والاستغناء يقتضي الغنى المحض.

قلت: فما علاقة ذلك بالسلام.

قال: لأن الفقر نقص وضعف، والسلام لا يجاور الضعفاء، وأعظم الضعف الكفر، ألم تسمع قوله ﷺ:(كاد الفقر أن يكون كفرا)[1].. أتفهم وجه الإشارة في هذا الحديث؟

قلت: أفهم معناه الظاهر، وهو ما يستدل به قومي في حربهم للفقر.

قال: أما معناه الخفي الذي قد يغفلون عنه، فهو أن الفقر يعني عدم الشعور بنعم الله، وعدم

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢ / ١٠٨)، وقال: في سنده يزيد الرقاشي ضعيف، ورواه الطبراني بسند فيه ضعيف عن أنس مرفوعا.

الشعور بها يعني كفرانها وجحودها.
قلت: فالفقر إذن كفر؟
قال: الفقير الذي تملكه الأشياء، ولا يملك الأشياء.
قلت: فكيف يملك كل شيء؟ ومن لديه الطاقة لأن يملك كل شيء؟ ذلك الله فهو ملك كل شيء ومالك كل شيء.
قال: ومن عرف الله ملك كل شيء.
قلت: لم أفهم.
قال: من عرف الله والاه وناصره وأحبه وعبده.. أليس كذلك؟
قلت: بلى.
قال: ومن والى الله والاه، ومن أحبه أحبه، ومن نصره نصره.. أليس كذلك؟
قلت: بلى.
قال: فمن كان كذلك أيحتاج شيئا من الله، فيبخل عليه به؟
قلت: معاذ الله.
قال: فمن لم يعز عليه شيء، ولم تطلبه نفسه شيئا إلا وجده، ألا يعتبر واجدا لكل شي مالكا لكل شيء!؟
قلت: ربما، ولكن الملك شيء، والانتفاع شيء آخر.
قال: وما فائدة الملك غير الانتفاع؟
قلت: لم أفهم ما تقصده.
قال: أرأيت لو ملكت آلاف القصور، وكانت لك آلاف المطاعم، ثم انقبضت نفسك أو سدت شهيتها، أو حالت الحوائل بينك وبين التهام ذلك الطعام الذي أعد لك، أكنت تفرح بامتلاكك له؟
قلت: لا أظنني سأفرح، بل ربما أحسد آخر طباخ يأكل فضلات ذلك الطعام الذي حرمت منه.
قال: فقد فهمت إذن.
قلت: وماذا فهمت؟
قال: بأن العبرة في الانتفاع لا بالملك.
قلت: ولكن ما علاقة ذلك بهذه الجوهرة النفيسة.

قال: نور هذه الجوهرة يمتد في الصدور ليشعرها بأن مجرد وجود الله والتعرف عليه والوصول إليه والقرب منه كاف في الحصول على الغنى التام الذي لا يفتقر صاحبه إلى شيء.

قلت: فما أنوار أشعتها؟

قال: أشعتها كثيرة، ولكن يكفيك هنا هذه الأربع.

الشعاع الأول

قلت: فما الشعاع الأول؟

قال: مريم ــ عليها السلام ــ

قلت: ما شأنها؟

قال: اسمع ما يقوله تعالى في حقها:﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران:٣٧)

قلت: هذه الآية أعرفها، فما محل الشاهد منها؟

قال: أرأيت لو أن ملكا يملك كل مزارع الدنيا ومصانع أغذيتها طلب من فلاحيه وعلمائه أن يأتوه بفاكهة واحدة من الفواكه التي كانت تأكلها مريم ــ عليها السلام ــ وهي في محرابها، أكانوا يطيقون؟

قلت: كلا، فطعامهم من الشهادة، وذلك من الغيب، وما أبعد البون بين الغيب والشهادة.

قال: فمريم ــ عليها السلام ــ أغنى منهم؟

قلت: في هذه الحالة، يمكن أن نقول: نعم.

قال: وفي غيرها، يمكن أن تقول: نعم أيضا، لأن الذي أعطى الطعام يمكن أن يعطي غيره.

قلت: فما سر هذا؟

قال: سأضرب لك مثالا يوضح لك هذا: لو رأيت بستانا جميلا، فيه من الفواكه والثمار ما فيه، ونازعتك نفسك إلى ثماره، فما هو أقرب طريق إلى ذلك؟

قلت: أقرب طريق إلى ذلك أن أستأذن صاحبه في الأخذ منه.

قال: ولو أنك تقربت من صاحبه من غير أن تطلب منه شيئا، ثم وفرت من الأسباب ما يجعلك حبيبا في عينيه وقلبه.

قلت: سيغدق علي حينها ثمارا كثيرة وفواكه لذيذة.

قال: فلو كان تقربك أعظم، وكان هذا البستان الذي يملكه ذلك الغني جزءا من مائة ألف جزء من بساتينه؟

قلت: حينها سيعطيني البستان جميعا، بل ربما يعطيني بساتين أخرى أفضل وأعظم.

قال: فهكذت فعلت مريم ــ عليها السلام ــ

قلت: وماذا فعل أغنياء قومي الذين يتيهون بغناهم؟

قال: اغتنموا ظلام الليل، فسطوا على شجرة من أشجار ذلك البستان، فاقتطفوا ثمرة من ثمارها، ثم اقتتلوا فيما بينهم أيهم يملكها.

قلت: لقد كان في إمكانهم أن يأخذوها في ضوء النهار، وبدون أن يقتتلوا؟

قال: لأنهم لم يتعلموا السلام.. لقد تعلموا أن لا ينالوا شيئا إلا بالصراع.

الشعاع الثاني

قلت: فما الشعاع الثاني؟

قال: شعاع المعية.

قلت: فما شعاع المعية.

قال: إنه شعاع ينبع نوره من قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام:﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء: من الآية٦٢)

قلت: هذه الآية تخبر عن موقف موسى عليه السلام عندما خرج بصحبة بني إسرائيل، فاشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(الشعراء:٦١)

وحينها قال موسى عليه السلام:﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء: من الآية٦٢)

قال: وحينها ماذا حصل؟

قلت: بمجرد أن قالها أمره اللّه تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، فنجا موسى عليه السلام ومن معه أجمعون.

قال: وماذا حصل لفرعون؟

قلت: ما قصه القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (لأنفال:٥٤)

قال: فكيف انتصر موسى عليه السلام على فرعون؟

قلت: بقوة الله وتأييده، فلم يكن لموسى عليه السلام حينها أي قوة تمنعه من بطش فرعون.

قال: ولم يكن له كذلك أي مفر، فالبحر أمامه، والعدو وراءه.. ولكن لماذا خاف قوم موسى عليه السلام فقالوا:﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(الشعراء: من الآية٦١)، بينما لم يهتز لموسى عليه السلام عصب، ولم يخفق له قلب.

قلت: لإدراكه أن الله معه.

قال: ومن كان الله معه هل تقاومه جيوش الدنيا؟

قلت: كيف يكون ذلك، والله رب الدنيا ورب جيوشها، بل إن الله يرسل أضعف جنوده ليحفظ من يشاء، ويهلك من يشاء.

قال: فمن كان صاحب جيش عرمرم يحميه أينما حل، وأينما ارتحل من دون أن يكلفه شيئا لا طعامه ولا شرابه ولا أجرته، أيعتبر فقيرا؟

قلت: بل هو في درجة أعلى من الغنى.. إنه في درجة الملوك.

قال: بل هو في درجة أعلى من الملوك.

قلت: كيف؟

قال: جيوش الملوك يحركها الطمع في أجر الملوك، وقد يستفزها الطمع فتنقلب على الملوك، فيعيش الملك في حمايتها خائفا من جنايتها.

قلت: ومن كان في حماية الله وجنود الله.

قال: تكون نصرته بحسب كينونته معه، وأمنه بحسب حضوره مع الله.. ألم تسمع إليه ﷺ وهو في أحرج المواقف التي مر بها، وهو في غار ثور، ولو أن أحدا من الشركين رمى ببصره لرآه، ماذا قال حينها ﷺ؟

قلت: قال ما قصه علينا قوله تعالى:﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٤٠)

قال: أتعلم قدر البشارات التي يحملها قوله تعالى:﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾

قلت: إنها بشارة عظيمة ولا شك.

قال: ولكن لا يمكن تصورها.. إنها جواز حماية من الله لرسوله ﷺ، ومن كان الله معه كانت جنود الدنيا جميعا معه، قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾(الفتح:٧)

قلت: ما أكثر ما يملك رسول الله ﷺ إذن من جنود.

قال: بل ما أعظم ما يملك كل مستغن بالله فقير إلى الله من جنود، ألم تسمع قول الحق تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد:٧)

قلت: ومن كان الله في نصرته لا يغلب.

قال: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(آل عمران:١٦٠)

قلت: ومن تخلى الله عنه لا ينصر، ولو ملك جميع جيوش الأرض.

قال: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾(الملك:٢٠)

قلت: فمن وجد الله إذن لا يستغني بالرزق فقط، بل يستغني بالحماية والرعاية والحفظ.

***

تأملت ما يحمله هذا الشعاع من بشارات، وتذكرت مواقف الأنبياء والأولياء الذين لم تتزعزع قلوبهم، وهم يرون المشانق منصوبة لهم.

تذكرت إبراهيم ﷺ، وهو يلقى في المنجنيق ليرمى به إلى ما أضْرَم له أعداء الله من النار، فلم يتحرك قلبه، ولم ترتعد فرائصه، بل بقي كالطود الأشم لا تزعزعه الرياح، بل سرت السكينة من باطنه إلى ظاهره إلى ما حوله، فأطفأت ببرودتها وسلامها نار النمروذ وزبانيته.

جمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها، واشتعلت واشتدت، حتى أن الطائر كان يمر بجنباتها فيحترق من شدة وهجها.

ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه في المنجنيق مغلولا، وغفلوا أن يقيدوا سكينته، أو عجزوا أن يقيدوها.

وحينذاك ضجت السموات والأرض ضجة واحدة: ربنا! إبراهيم ليس في الأرض أحد يعبدك غيره يحرق فيك فأذن لنا في نصرته.

وكان الله يعلم ما في قلب إبراهيم، فقال ــ كما يروي المفسرون ــ:(إن استغاث بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك وإن لم يدع غيري فأنا أعلم به وأنا وليه)

فلما أرادوا إلقاءه في النار، أتاه خزان الماء – وهو في الهواء – فقالوا: يا إبراهيم إن أردت أخمدنا النار بالماء. فقال: لا حاجة لي إليكم.

وأتاه ملك الريح فقال: لو شئت طيرت النار. فقال: لا.

ثم رفع رأسه إلى السماء فقال:(حسبي الله ونعم الوكيل)

وحينها جعل الله من هذا الذي أرادوا حرقه به بردا وسلاما وبشارة.

الشعاع الثالث

قلت: فما الشعاع الثالث؟

قال: إنه شعاع ينبع نوره من قوله تعالىعلى لسان امرأة فرعون:﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾(التحريم: من الآية١١)

قلت: فما فيه من الاستغناء بالله؟

قال: ألا ترى أنها طلبت الجار قبل الدار؟

قلت: أجل.. وقد كان ذلك من أدبها.

قال: ليس ذلك من الأدب فقط.. بل قد عبرت عن حقيقة من الحقائق الكبرى.

قلت: فما هي؟

قال: لا لذة للجنة.. ولا لأي شيء من غير الله.. فلولا الله، وحضور الله لكانت الجنة خرابا على أهلها.

قلت: أجل.. فقد سمعت الله، وهو يتوعد الجاحدين بالحجاب، فيقول:﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾(المطففين:١٥)..

قال: ولهذا قال العارفون:(ليس خوفنا من نار جهنم، ولا رجاؤنا للحور العين، وإنما مطالبنا اللقاء، ومهربنا من الحجاب)

قلت: أهم يستهينون بالجنة، أم تراهم يحتقرون النار؟

قال: لا.. ولكن معنى هذه الحقيقة شغلتهم عن كل شيء، فلم يتصوروا سعادة من دون الله.. ألا ترى المحبين كيف يغفلون عند رؤية محبيهم عن الآلام التي تحيط بهم!؟

قلت: أجل.. وقد عانيت بعض ذلك.

قال: فما وجدت؟

قلت: وجدت ما قال الشاعر:

وفي فؤاد المحب نار جوى   أحر نار الجحيم أبردها

قال: فهل تستنكر ذلك؟

قلت: كيف لي أن أستنكر ما أعلمه من نفسي.. إن نار الفراق إذا استولت على القلب غلبت النار المحرقة للأجسام، فإن نار الفراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، ونار جهنم لا شغل لها إلا مع الأجسام.. وألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد.

وليس هذا في الآخرة فحسب، بل في الدنيا شهادات كثيرة عليه، (فقد رؤي من غلب

عليه الوجد، فغدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة القدم وهو لا يحس به لفرط غلبة ما في قلبه، وترى الغضبان يستولي عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب، واحتراق الفؤاد أشد من احتراق الأجساد، والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه فليس الهلاك من النار والسيف إلا من حيث إنه يفرق بين جزأين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام، فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطه تأليف أشد إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشد إيلاماً)[1]

قال: صدق الغزالي.. فقد عبر عن هذه الحقيقة خير تعبير.

قلت: كل الربانيين عبروا عنها.

قال: أتدري سر لهج أهل الجنة بالتسبيح؟

قلت: لقد ورد النص على لهجهم بالتسبيح، قال ﷺ:(يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاء كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس)[2].. فما سر ذلك؟

قال: سر ذلك أنه لا لذة لشيء يخلو من ذكر الله.. فلذلك يكون تسبيح أهل الجنة بمثابة النفس عندنا.. ولولا التنفس لم نتنعم بطعام ولا شراب ولا متاع.

قلت: ألا نستطيع أن نعمم هذا على ارتباط الكثير من التصرفات العادية بذكر الله.

قال: أجل.. فالعارفون لا يفهمون من هذه الأوامر والسنن إلا ذلك.. أما الغافلون، فيعتبرونها من التكاليف التي تنوء بها ظهورهم.

قلت: أذكرنا لله نعمة إذن؟

قال: وهل يرتاح المحب إلا لذكر حبيبه؟

قلت: لقد ذكرتني باعتباره ﷺ الصلاة قرة عينه.

قال: أجل.. فالصلاة هي الموعد الذي يلقى فيه الحبيب حبيبه.

قلت: أرأيت لو حيل بين أرواح الأولياء الطاهرة، وبين هذه العندية؟

قال: يعدم كل موجود، ويفنى كل حي، وييبس كل مخضر.. ألا تعلم ما قال حاديهم؟

لم أدر إلا وأنا أقول: أجل.. فقد قال أبو مدين:

فلـــــــــــــولا معـــــــــــــانيكم تراهـــــــــــــا قلوبنـــــــــــــا

---

(١) إحياء علوم الدين.

(٢) مسلم.

إذا نحـــــــــن أيقـــــــــاظ وفي النــــــــــوم إن غبنـــــــــا

لمتنـــــــــا أســـــــــى مـــــــــن بعـــــــــدكم وصـــــــــبابة

ولكـــــــــن في المعـــــــــني معـــــــــانيكم معنـــــــــا

الشعاع الرابع

قلت: فما الشعاع الرابع؟

قال: هو شعاع ينبع من نور قوله تعالى:﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(التوبة: من الآية٤٠)

قلت: فما في هذا الشعاع من حقائق الاستغناء؟

قال: لقد حزن أبو بكر ﷺ في ذلك الموقف الشديد.. فذكره النبي ﷺ بمعية الله وحضوره، فانتفت أحزانه.

قلت: قد مر معنا هذا المعنى في شعاع المعية.

قال: تلك معية النصرة.

قلت: وما هذه المعية؟

قال: معية الوجود.

قلت: فما معية الوجود؟

قال: أرأيت لو أن رجلا له ولد هو أحب الناس إليه لا يستطيع فراقه مع أنه لا ينتظر أي نصرة منه.. ثم غاب ولده غيابا طويلا جعله يكاد ييأس منه، ثم ظفر به.. ما هو أعظم ما يسليه إن أصابته الأحزان؟

قلت: إن رؤيته لولده أو تذكيره به أكبر ما يملأ قلبه مسرة وفرحا.

قال: فكذلك الأمر في هذا.. ولله المثل الأعلى.

قلت: ولكن الله حاضر لم يغب.. فكيف تضرب هذا المثال؟

قال: هو حاضر لم يغب.. ولكن القلوب هي الغافلة الغائبة.. فلذلك إن ملأها الله بالإيمان والمحبة، فلن تتأسف على شيء تفقده:

لكل شيء إذا فارقته عوض   وليس لله أن فارقت من عوض

قلت: أجل.. لقد ذكرتني بصنوف من الحكمة ذكرها الأولياء، ونشر عطرها الصالحون.

قال: فما قالوا؟

قلت: لقد ذكروا في الإشارة عن الله تعالى:(لا تركنن إلى شئ دوني فإنه وبال عليك وقاتل لك، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك، وإن آويت إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال وقفناك معه، وإن آنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت الخلق وكلناك إليهم، وإن اغتررت

بالمعرفة نكرناها عليك.. فأي حيلة لك، وأي قوة معك.. فارضنا لك ربا حتى نرضاك لنا عبداً)

وسئل أبو سليمان الداراني ﷺ عن أفضل ما يتقرب به إلى الله، فقال:(أقرب ما يتقرب به إلى الله أن يطلع على قلبك، وهو لا يريد من الدنيا والآخرة سواه)

وقال شاعر الصالحين في ذلك معبرا عما يختلج في صدورهم:

من عرف الله فلم تغنه	معرفة الله فذاك الشقي
ما يصنع العبد بعز الغنى	والعز كل العز للمتقي

وقال الغزالي فيما يروى عنه:

كانت لقلبي أهواء مفرقةٌ

فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده

وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للناس دنياهم ودينهم

شغلاً بذكرك يا ديني ودنيائي

قال: فالغارقون في بحر هذا الحب لا يرون غير محبوبهم، وهو لا يغيب عنهم أبدا.. فلذلك لا يشعرون بالفاقة التي تملأ نفوس الخلائق.

قلت: أجل.. وقد قال قائلهم:

ومـــــــــــــــــن عجـــــــــــــــب أني أحـــــــــــــــــن إلـــــــــــــــيهم

وأســـــــــــأل عنـــــــــــــهم مـــــــــــــن أرى وهـــــــــــــم معـــــــــــي

وتطلبـــــــــــــــــهم عـــــــــــــــيني وهـــــــــــــــم في ســـــــــــــوادها

ويشـــــــــــتاقهم قلـــــــــــــــي وهـــــــــــم بـــــــــــين أضـــــــــــلعي

قال: فبشر الفقراء بأن يجعلوا غناهم بالله.. وبشر الأغنياء بما فاتهم من الحظوظ بابتعادهم عن الله.

قلت: إذا بشرتهم جميعا تساوى الأغنياء والفقراء!؟

قال: من شعر بفقره للأشياء لن يصل إلى الله.. ومن شعر بغناه عن الله مات في أودية الفقر.

***

ما قال هذا حتى شعرت بجوهرة كريمة تترل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قال: فقد أدركت سر النعم ولباها.. ألا تعلم معنى النعم؟

قلت: بلى.. فالنعم هي الفضل العظيم الذي يمن الله به على عباده.

قال: فمن وصف الله به في القرآن الكريم؟

قلت: لقد وصف الله به أصنافا من الناس.

قال: فمن هم؟

قلت:هم أولا غير المغضوب عليهم ولا الضالين، كما قال تعالى:﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة:٧)

قال: فمن هم المغضوب عليهم، ومن هم الضالون؟

قلت: هم اليهود والنصارى ومن سار سيرهم.

قال: ألا ترى فيهم الأغنياء؟

قلت: ولكنهم بمنطق القرآن الكريم ليس لهم حظ من هذه النعم.. فهم فقراء من هذه الزاوية.

قال: فلماذا تودون أن تكونوا مثلهم؟

قلت: نحن ننظر إلى الزخارف لا إلى الحقائق.

قال: فعد بنا إلى المنعم عليهم لترى حقائق النعم وأصناف المنعم عليهم.

قلت: إن المنعم عليهم في القرآن الكريم ليسوا أثرياء العالم الكبار، وإنما هم حفنة من من عباد الله الصالحين الذين قد يحتقرهم الخلق لبذاذتهم، وقد يرمونهم بالتخلف لسوء حالهم، ولكن الله أنعم عليهم، وأطنب في ذكرهم، فذكرهم إجمالا في قوله ﷻ:﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ (النساء:٦٩)

وذكرهم تفصيلا في مواضع من القرآن الكريم ليكونوا نماذج عن أثرياء العالم الحقيقيين، ليجعل القدوة والأسوة بهم، بدل التأسي بمن يعتبرهم الخلق قادة الغنى وملوك الثروة.

قال: فاذكر لقومك من التفاصيل ما يفهمون به الغنىالحقيقي.

قلت: منهم يوسف ﷺ نبي الله الذي اجتباه الله وعلمه المفاهيم الحقيقية للأشياء، فكان ذلك التعليم هو النعمة التي لا تعادلها نعمة، قال ﷻ:﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(يوسف:٦)

ومنهم المسيح ﷺ الذي لم يكن يملك من الدنيا بيتا يقله، ولكنه رزق من إكرامات الله ما لا يحلم به أغنى أغنياء العالم، قال ﷻ:﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة:١١٠)

ومنهم رجلان كانا من بني إسرائيل ووقفا مع موسى ﷺ في الوقت الذي خذله قومه، فكان وقوفهما ثروة لا تنضب، وغنى لا فقر بعده، قال ﷻ:﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(المائدة:٢٣)

ومنهم زيد بن حارثة الفقير البسيط، والذي أنعم الله عليه بصحبة رسول الله ﷺ، في الوقت الذي حجب عن تلك الصحبة الكثير من أرباب الجاه والمال، وقد ذكر الله ﷻ نعمته عليه، بل

سماه باسمه فقال ﷻ:﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾(الأحزاب:٣٧)

ومنهم الشهداء الذين ينفي عنهم الخلق اسمي الفقر والغنى، ويضعهم الكثير في خانة العدم، يذكر الله ﷻ غناهم الذي لا يقارن به غنى بشر ﷻ:﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران: ١٧١)

ونماذج الأغنياء في القرآن كثيرة، كل نموذج منها يعيد للإنسان قيمته الحقيقية المرتبطة بسلوكه وتفكيره ومشاعره، لا بثروته وكنوزه وأمواله.

ثانيا ــ كنز القناعة

خرجت من قصر الاستغناء، وقد جمعت ثروة طائلة من جواهره النفيسة..سرت مع المعلم في أرجاء مدائن الغنى بحثا عن قصر جديد، لجمع جواهر جديدة.

فجأة وقفنا أمام قصر مهيب، كل ما فيه جميل، مستغن بما فيه عن المدينة وأهل المدينة، وكأنه معزول عنها تماما، سألت المعلم عن سر هذا القصر، فقال: هذا قصر القناعة، والقنوع مكتف بما عنده، لا تمتد عيناه لغيره.

دخلت القصر، فقد كان معي جواز الافتقار، وإذا بي أرى مرشد القصر في حلة جميلة وطلعة بهية لا تقل عن حلة وطلعة مرشد قصر الاستغناء، فتقدمت إليه، وسألته، محاولا إظهار خبرتي بتلك القصور، قلت له:(أنا لي علاقة طيبة بالمرشدين، وقد صحبت في الأيام السابقة مرشدا، ليتك رأيت ما يتمتع به من طاقات)

قال: بلى.. أعرفه.

قلت: أهو قريبك إذن أم صديقك، فالحرفة الواحدة تجعل أصحابها أصدقاء رغم أنوفهم.

قال: أنا أعرفه لا لصداقة بيننا..

قلت: إذن هو قريبك.. ولكن الشبه بينكما بعيد.

قال: ليس هو قريبي، بل..

قاطعته قائلا: فكيف عرفته إذن؟

قال: أنا هو..

بهت متأملا صورته محاولا إيجاد شبه بينهما، ثم قلت: أهو أنت محبة ومودة، أم هو أنت شحما ولحما.

قال: ما بك يا هذا، ألا ترى الإنسان إلا شحما ولحما!؟

قلت: اعذرني، فأنا من قوم يقولون مثل هذا الكلام، ولكن اصدقني ما المعنىالمجازي في قولك:(هو أنا)

قال: ليس هناك معنى مجازيا، كل ما في الأمر أني هو، وهو أنا.

قلت: والصورة مختلفة!؟

قال: ألم تسمع عن سوق الصور؟

قلت: بلى، قرأت ما رواه المحدثون عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:(إن في الجنة لسوقا ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها

)[1]

قال: فهذا من ذاك.

قلت: ولكن ذاك في الجنة، ونحن في الدنيا.

قال: ولكن.. ألم تسمع بأن الأولياء تعجل لهم جنانهم في الدنيا، ألم تسمع قول من قال:(في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة)؟

قلت: بلى.

قال: فهذا كذلك من ذاك.

ثم التفت إلي، وقال معاتبا: دعك من الأقنعة، واقنع بالحقيقة، وهلم لتجمع كنوز القناعة، ولا تنس قلمك.

***

التفت إلى المعلم، وقلت: كم طوابق هذ القصر، وكم جواهره؟

قال: أربع: التدبير، والاقتصاد، والكفاية، والأمن.

قلت: فما سر كون هذه الجواهر أربع.. أهو مجرد غرام بالأربع؟

قال: لأن القناعة علاج الطمع والحرص.

قلت: وما في ذلك؟

قال: لأن الطمع والحرص ناتج عن أربع علل، كل علة منها تداوى بأشعة جوهرة من الجواهر.

قلت: فما هي، وما سر انحصارها؟

قال: الطمع والحرص ناتجان من فراغ عظيم يجده الطامع والحريص، ألا ترى أن حروف الطمع جميعها جوفاء.. هي تشبه تماما نفس الطامع..

قلت: لعل النبي ﷺ أشار إلى ذلك بقوله:(لو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب)[2]

قال: صدق ﷺ، فقد أشار إلى علة الحرص والطمع أتم إشارة.

قلت: وهذه الصفة.. ما علاقتها بالعلل الربع؟

---

(١) الترمذي، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) البخاري ومسلم والترمذي.

قال: إن الفراغ الذي يعانيه الطامع يجعله حريصا على ملئه، كما أخبر ﷺ بأنه إن كان له واديان، وملأ بهما جوفه، يشعر بأن جوفه لا زال يحتمل المزيد، فيظل حبيس فقره وحاجته وطمعه.

قلت: وهذا إلى ما يؤدي.. لا زلت حريصا على سر الأربع.

قال: يؤديه ــ أولا ــ إلى اختلاط في تصرفاته ، وجشع في تناول الأشياء، مثله كمثل من أدخل سوقا مملوءا بالكنوز، ثم أعطي ساعة ليجمع منها ما يشاء.. فتراه في تلك الساعة، وقد اختلط عليه أمره.. لا يدري كيف يتصرف.. ولا ماذا يجمع؟.. ولا أين يضع؟

قلت: هذا صحيح، فبم يعالج هذا؟

قال: يعالج بالتدبير والتنظيم والتثبت.

قلت: فما العلة الثانية؟

قال: الفراغ الذي يعانيه يجعله يسرف في تناول الأشياء، لأنه يعتقد أن جوفه لا زال يحتمل المزيد، ألا ترى الشره كيف يأكل فوق حاجته إلى أن يصاب بالتخمة، لا لكونه جائعا، ولا لكون مشتهيا، وإنما للمرض الذي يعانيه!؟

قلت: مرض فراغ الجوف.

قال: وهو مرض لا يقل خطورة عن كثير من الأمراض التي يحرص قومك على طلب علاجها.

قلت: فبم يعالج هذا؟

قال: بالاقتصاد، ألم تسمع أن الاقتصاد نصف المعيشة!؟

قلت: فما العلة الثالثة؟

قال: الفراغ الذي يعانيه الطامع والحريص يجعله يطلب أشياء كثيرة لا حاجة له إليها حرصا على ملأ فراغه، هو كمن يريد أن يملأ حفرة عميقه، فوضع فيها التراب، فلم يكف، فوضع فيها الحجارة، فلم تكف، فراح يضع المزابل والقمامات.

قلت: فما وجه التشبيه في هذا؟

قال: هذا الذي كان طمعه سبب فقره، فلم ينظم حياته، ولم يدبر معيشته، ولم يقتصد.. سيؤديه ذلك لا محالة لمزبل الناس وقماماتهم وأيديهم ليملأ جوفه.

قلت: فبم تعالج هذه العلة؟

قال: تعالج بالكفاية والزهد.

قلت: ولكني سمعت أن الزهد داء لا دواء.. ودخيل على الدين لا أصيل.

قال: ذلك ما أسمعك قومك.. أما الحقيقة فهي أن الزهد هو باب الكمال، ومفتاح الغنى.

قلت: ولكنه يدعوني إلى الجوع.

قال: بل يدعوك إلى أن تقتصر من حياتك على ما يكفيك ويغنيك، فلا تمتد عيناك لغير ما جعل الله لك من حاجات.. أريد أن أسألك سؤالا.

قلت: سل.

قال: لماذا يخيط نساجو قومك السراويل برجلين فقط، ولماذا يكتفون بصناعة قدمين للأحذية.

ضحكت وقلت: وهل رأيت رجلا بثلاثة أرجل أو بأربعة أقدام؟

قال: لو فقهوا سر هذا لما وجد في الدنيا فقير واحد؟

قلت: كيف؟

قال: لأن سبب الفقر هو استيلاء الغني على مائدة الفقير ليضيف إلى مائدته أصنافا جديدة، ولو أنه زهد واكتفى بما يحتاجه، ولم تمتد عيناه لمائدة أخيه لعاش الجميع بالكفاية.. فالله تعالى أنزل من الأرزاق ما يكفي الجميع.. ألم تسمع الحق وهو يقول:﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾(فصلت: من الآية١٠)

قلت: فالزهد والكفاية إذن علاج لمرض الفقر.

قال: بل سم لقتله، ورصاصة في نحره، وحربة في صدره.

قلت: ولكن هناك من يسيء فهمه.

قال: إساءة الفهم لا تقلب الحقائق.. أرأيت لو أن الناس أجمعوا على أن الشمس برتقالة كبيرة وضعت في الفضاء، لغرامهم بالبرتقال، أكان ذلك يغير من حقيقة الشمس؟

قلت: لو كان ذلك كذلك لأجمعوا على أن حجارة الجبال كلها عقيق وزبرجد وجواهر، وأن تربة الأرض كلها دراهم ودنانير.

قال: فلا تسمع لما يقال.. وابحث عن الحقيقة.. واكتف بها.

قلت: أين؟

قال: في نور البصيرة، وبصيرة النور.. في كتاب ربك.. وفي الفطرة التي نور الله بها بصيرتك.

قلت: فما العلة الرابعة؟

قال: الفراغ الذي يعانيه الطامع والحريص يجعله خائفا على المستقبل، وكأن الذي رزقه اليوم قد يحرمه غدا.. أو كأنه أمام رب مزاجي يتصرف بحسب ذوقه، لا بحسب ما تتطلبه حاجات عباده.

قلت: فإلى ما يؤدي هذا؟

قال: يؤدي إلى نسيان الحريص ليومه، وانشغاله بيده، فهو لا يقول:(أنا لدي اليوم ما يكفيني، فأنا غني بفضل الله)، بل يقول:(ليس لدي في غد ما يكفيني.. فأنا فقير)

قلت: لقد أشار ﷺ إلى ذلك بقوله:(ابن آدم عندك ما يكفيك، وأنت تطلب ما يطغيك، ابن آدم لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع، ابن آدم إذا أصبحت معافى في جسدك آمنا في سربك[1] عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء)[2]، وفي حديث آخر أو في لفظ آخر، قال ﷺ:(من أصبح منكم آمنا في سربه معافى في جسده وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا)[3]

قال: هذا حديث عظيم.. لو عملتم به لقهرتم الجوع، وقتلتم الفقر.

قلت: كيف؟

قال: لأن خزائن الأغنياء مملوءة بطعام الفقراء.

قلت: لماذا؟

قال: لأنهم يخافون أن تغور مياه الأرض، أو تجف منابع السماء، أو تقوم أعشاب الأرض وأشجارها بإضراب، فلا تنبت كلأ ولا تثمر ثمرا.

قلت: ولكن الحاجات ليست طعاما فقط، والفقير عندنا قد يجد ما يأكل، والغني لا يشح عليه بذلك.. ولكن هناك مشاكل أخرى.. هناك السكن، وهو أخطر المشاكل.

قال: والغني لا يكتفي من المسكن بما يؤويه كما لا يكتفي بالطعام بما يكفيه.

قلت: لقد ذكرتني بحديث لا أعلم مدى صحته، يقول فيه ﷺ:(يا أيها الناس! أما تستحيون! تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تعمرون، وتأملون ما لا تدركون، ألا تستحيون من ذلك)[4]

قال: أرأيت لو أن الأموال المبذولة في قصور الأغنياء بنيت بها مساكن بسيطة للفقراء، أكان ذلك يعالج ما تسميه بمشكلة السكن.

---

(١) السرب: بكسر السين وسكون الراء: المأوى.

(٢) ابن عدي والبيهقي عن ابن عمر.

(٣) البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة عن عبيد الله بن محصن.

(٤) الطبراني والديلمي.

قلت: بل يكفي لبناء مساكن فارهة لا بسيطة.
قال: فحرصكم إذن هو الذي أوقعكم في الفقر، لا فضل الله.
قلت: فما علاج هذه العلة الرابعة.
قال: الأمن.
قلت: وما الأمن؟
قال: الثقة في فضل الله، والرضى بتقدير الله وتقسيمه وأن تعيش يومك وتسأل الله لغدك.
قلت: فكيف أتحقق بهذه الأدوية الأربع.
قال: بأن تملأ جوفك بهذه الأدية الأربع.
قلت: وأين أجدها؟
قال: في هذا القصر، وبالتعرض لأشعة جواهره، وتفهم أسرار حقائقه.

***

تأملت ما قاله، فإذا بخاطر جميل يلوح لي يملؤني نشوة ويترع بعض الكدر، لقد قلت لنفسي:(إن أكثر من تراهم من الفقراء الذين تحزن لهم ليسوا فقراء وإنما هي أجوافهم التي جعلوها كهاوية عميقة لا يملؤها شيء)

وتذكرت حينها قوله ﷺ:(ليس الغنى عن كثرة العرض[1]، ولكن الغنى غنى النفس)[2]

وذكرت حكيم بن حزام رضي الله عنه حينما سأل رَسُول اللَّهِ ﷺ ثلاث مرات فأعطاه فيها جميعا، ثم قال له ناصحا:(يا حكيم إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس[3] بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس[4] لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع؛ واليد العليا خير من اليد السفلى)

وقال حكيم يبين أثر هذه التربية على نفسه، فقلت: يا رَسُول اللَّهِ، والذي بعثك بالحق لا أرزأ[5] أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا.

قال الرواة: فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه فأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسم اللَّه له في الفيء فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ

---

(١) بفتح العين والراء هو: المال.
(٢) البخاري ومسلم.
(٣) سخاوة النفس هي: عدم الإشراف إلى الشيء والطمع فيه والمبالاة به الشره.
(٤) إشراف النفس: تطلعها وطمعها بالشيء.
(٥) يرزأ براء ثم زاي ثم همزة: أي لم يأخذ من أحد شيئاً. وأصل الرزء: النقصان: أي لم ينقص أحداً شيئاً بالأخذ منه.

حكيم أحداً من الناس بعد النبي ﷺ حتى توفي[1].

وتذكرت قوله ﷺ وهو يبين منبع من منابع الفلاح:(قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنعه اللّٰه بما آتاه)[2]

وعلمت أن المراد بالفلاح هنا ليس ما نتوهمه من قصره على الآخرة، بل المراد به النجاح في كلا الحياتين: الحياة الدنيا والآخرة، فالله رب الدنيا والآخرة.

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) مسلم.

١ ـــ جوهرة التدبير

وقفت مع المعلم أمام أول جوهرة من جواهر كتر القناعة، لأملأ جوفي بأشعتها، قال لي المعلم:(هذه جوهرة نفيسة.. حقيقتها تخلق بأخلاق الله)

قلت: هذا كلام خطير، فما علاقة القناعة والفقر بصفات الله؟

قال: أليس الله هو المدبر؟

قلت: بلى، ولكن تدبير الله مختلف، فخزائن الله لا تنفذ.. وخزائننا محدودة مقدرة.

قال: وهذا ما يزيد في عمق الإشارة.

قلت: لم أفهم.

قال: ألم تسمع قوله ﷺ لسعد عندما رآه يتوضأ، ويسرف في الوضوء:(ما هذا السرف يا سعد؟)، فقال سعد:(أفي الوضوء سرف؟)، فقال ﷺ:(نعم، وإن كنت على نهر جار)

قلت: بلى، ولكن ما علاقة ذلك بالإشارة؟

قال: لأن النبي ﷺ أراد أن يبين لنا أن الإسراف لا يرتبط بكم الأشياء، وإنما هو خلق، فقد تجد الفقير يسرف، والغني يقتصد.

قلت: هذا صحيح وواقع، ولعله من أسباب الفقر، ولكن ما علاقته بالإشارة؟

قال: إن الله تعالى يملك كل شيء، ومع ذلك دبر الكون تدبيرا محكما بحيث لا نجد زيادة ولا نقصا في أي محل.

قلت: أهذا ما يشير إليه قوله تعالى:﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾(فصلت:١٠)؟

قال: ومن هذه الآية يتخلق المؤمن بخلق التدبير الذي يملأ جوفه بالحق لا بالباطل، وبالخير لا بالشر.

قلت: كيف، فلا أرى في الآية ما يشير إلى هذا، بل هي تتحدث عن عظمة الربوبية وتصرفها في الكون.

قال: إن الله قدر أقوات الأرض في أربعة أيام.

قلت: وهي ليست كأيامنا.. هي..

سمعت حركة بجانبي، فإذا بسيد قطب، يقف أمامي، والنور يشع من فمه، وهو يقول:(إنها بلا شك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها، وليست من أيام هذه الأرض. فأيام هذه الأرض إنما هي مقياس زمني مستحدث بعد ميلاد الأرض. وكما للأرض أيام، هي مواعيد دورها حول

نفسها أمام الشمس، فللكواكب الأخرى أيام، وللنجوم ايام، وهي غير أيام الأرض. بعضها أقصر من أيام الأرض وبعضها أطول.

والأيام التي خلقت فيها الأرض اولاً، ثم تكونت فيها الجبال، وقدرت فيها الأقوات، هي أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر، لا نعلمه، ولكننا نعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة)

قلت: هل يمكن تصوير حقيقة ذلك ليتوضح الغامض، وينجلي المستور؟

قال سيد: أقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها هي الأزمان التي مرت بها الأرض طوراً بعد طور، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها. وهذه قد استغرقت – فيما تقول النظريات التي بين أيدينا – نحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا!

قلت: كيف عرفوا ذلك؟

قال المعلم: ألم يقل الله تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾(العنكبوت: من الآية٢٠)

قلت: وهل ساروا، وبأي أرجل ساروا، والتاريخ زمان لا مكان؟

قال سيد، والبسمة على فمه: هذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض بوساطتها.

قلت: أريد توضيحا أكثر.

أشار المعلم، فإذا بشخص يشبه من كنت أراهم يطوفون بالجبال ليس لهم هم إلا جمع الحجارة، قال لي المعلم: هو ذا الخبير امامك، فاسأله.

تعجبت أن يكون ذلك خبيرا، ولكني ائتمرت بأمر المعلم، فسألته عن تأثير دراسة الصخور في تقدير عمر الأرض بوساطتها.

فقال: أنا هاتون صاحب مبدأ جيولوجي هام فقد قررت في القرن الثاني عشر أن الحاضر مفتاح الماضي، وأن البحث في صخور الأرض يمكننا من عمل نتيجة زمنية تبين مقياس الحقب الجيولوجية القديمة.

وقد حصلت على لقب لورد لإعلاني هذا المبدأ العلمي.

قلت: إن مبدأك هذا ما يشير إليه قوله تعالى:﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾(العنكبوت: من الآية٢٠)، فالتعبير القرآني بالسير في الأرض يشير إلى البحث في

الطبقات الجيولوجية للأرض لنتعرف على نشأة الأرض.

ثم التفت إلى المعلم، وقلت: ولكن ما علاقة هذه بتدبير الله، ثم ما علاقة تدبير الله بتدبيرنا، وقبل ذلك ما حقيقة هذا التدبير؟

التفت المعلم إلى خبير لست أدري في أي ميدان من ميادين العلم، فقال: هو ذا الخبير أمامك، فاسأله.

قلت له وقد ظهر فجأة: كيف قدر الله أقوات الأرض؟

قال: من الهواء نستمد أنفاسنا، من أكسجينه، ومن الهواء يبني النبات جسمه، من أكسيد كربونه، ونحن نأكل النبات ونأكل الحيوان الذي يأكل النبات. ومن كليهما نبني أجسامنا.

بقي من غازات الهواء النتروجين، أي الأزوت، فهذا لتخفيف الأكسجين حتى لا نحترق بأنفاسنا. وبقي بخار الماء وهذا لترطيب الهواء. وبقيت طائفة من غازات أخرى، توجد فيه بمقادير قليلة هي – في غير ترتيب – الأرجون، والهيليوم، والنيون، وغيرها. ثم الإدروجين، وهذه تخلفت – على الأكثر – في الهواء من بقايا خلقة الأرض الأولى ؛.

والمواد التي نأكلها والتي ننتفع بها في حياتنا – والأقوات أوسع مما يؤكل في البطون – كلها مركبات من العناصر الأصلية التي تحتويها الأرض في جوفها أو فى جوها سواء. وعلى سبيل المثال هذا السكر ما هو؟ إنه مركب من الكربون والايدروجين والاكسجين. والماء علمنا تركيبه من الادروجين والاكسجين.. وهكذا كل ما نستخدمه من طعام أو شراب أو لباس أو أداة.. إن هو إلا مركب من بين عناصر هذه الأرض المودعه فيها..

قال لي المعلم: وبالإضافة إلى هذا، فإن الله تعالى دبر للأرض من الأقوات في جوفها ما تتنعمون به الآن مما لم يظفر به أسلافكم.

قلت: ولعل من يأتي بعدنا سيظفر بأقوات لم نظفر بها نحن.

قال: إن ذلك لكائن، فقد قال ﷺ وهو يحدثنا عما يختزنه المستقبل من أحداث:(ثم يرسل اللّه عز وجل مطراً لا يكِنّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَةِ، ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك ودِرِّي بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقِحْفِها، ويبارَك في الرِّسل حتى إن اللِّقْحَةَ من الإبل لتكفي الفئام من الناس، و اللِّقْحَةَ من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللِّقْحَةَ من الغنم لتكفي الفخذ من الناس)[1]

ثم تمتم بينه وبين نفسه:(ومن رحمة الله أن ستره عليكم كما ستر على من قبلكم)

---

(١) مسلم.

قلت: لم؟ فالله هو الجواد الكريم.

قال: لأنه لو أظهره لما تركتم منه أخضر ولا يابس.

قلت: لقد ذكرتني بما فعل عمر ﷺ من تدبير لحفظ أرزاق المسلمين، كل ذلك يستنبطه من القرآن الكريم، فقد قرأ قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٦٠)، ثم قال: هذه لهؤلاء.

ثم قرأ قوله تعالى:﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(لأنفال:٤١)، ثم قال: هذه لهؤلاء.

ثم قرأ قوله تعالى:﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الحشر:٧) إلى أن بلغ قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر:٩)، ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو بسرو حمير نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه)[1]

قال المعلم: فقد تخلق عمر ﷺ بأخلاق الله، فحفظ أقوات الأمة، وقسمها بما قسمها الله.

قلت: لم أفهم إلى الآن كيف يكون التدبير خلقا من أخلاق الله.

قال: كيف تدبر المرأة الحكيمة شؤون بيتها؟

قلت: تحاول أن تحول من القليل كثيرا، ومن الصغير كبيرا، وتنظم مصاريف البيت بحيث لا تصل إلى ضرورة، ولا تضطر إلى حاجة.

قال: أريد توضيحا أكثر لما تقول.

أحسست بانشراح لتحولي معلما، فاندفعت أقول: أرأيت لو أن عائل البيت لم يكن يتسوق ــ لفاقته أو لضرورة ــ إلا يوما واحدا في الأسبوع، فأتى بما يكفي ذلك الأسبوع، فما هي المدة التي ينبغي أن تتعامل معها المرأة المدبرة لذلك الرزق الذي سيق لها؟

قال: أسبوع.

---

(١) ابن جرير.

قلت: هذا ما تفعله المرأة الحكيمة المدبرة، أما الخرقاء، والتي هي سبب فقر زوجها، فإنها قد تضعه جميعه في القدر في يوم واحد.

قال مندهشا: وسائر الأسبوع، ماذا تفعل فيه؟

قلت: تقترض من جيرانها، أو تضطر زوجها للسؤال والشحاذة.

قال: فسبب الفقر إذن قد يكون سوء التدبير.

قلت: هذا صحيح.

ثم التفت، وقلت: ولكني إلى الآن لا زلت مصرا على سؤالي.

قال: تقصد العلاقة بين تدبير الله وتدبير العبد.

قلت: أقصد سر كون التدبير تخلقا من أخلاق الله.

قال: لقد ذكرت لك بأن الله دبر أقوات الأرض في أربعة أيام، أي أن هذه الأقوات تنزل بقدر معين، بل إن القرآن الكريم سماها أقواتا، والقوت هو الرزق المحدود المعتدل.

قلت: فذلك يشبه إذن تدبير المرأة الحكيمة.

قال: بل إن تدبير المرأة الحكيمة هو الذي يشبه هذا التدبير، فهي متخلقة بأخلاق الله.

قلت: ما ذكره الخبراء لي يصعب على كثير من قومي فهمه، فهل وضحت أكثر.

قال لي: هو ذا خبير أمامك يشرح لك.

التفت فإذا خبير يحمل صورة رضيع مندفع ينظر إلى الصورة، ويشير إليها ويشرح بحماسة من غير أن أسأله:(.. وفي اليوم التالي للميلاد يبدأ اللبن في التكّون، ومن العجيب أن يزداد مقدار اللبن الذي يفرزه الثدي يوماً بعد يوم، حتى يصل إلى حوالي لترين و نصف لتر في اليوم بعد سنة، بينما لا تزيد كميته في الأيام الأولى على بضع أوقيات.

ولا يقف العجب عند كمية اللبن التي تزيد على حسب زيادة الطفل، بل إن تراكيب اللبن كذلك تتغير نسب مكوناته و تتركز مواده، فهو يكاد يكون ماء به القليل من النشويات و السكريات في أول الأمر، ثم تتركز مكوناته فزيد نسبته السكرية و الدهنية فترة بعد أخرى، بل يوماً بعد يوم بما يوافق أنسجة وأجهزة الطفل المستمر النمو.

ويأخذ الرضيع حاجاته من اللبن الذي يتغير من وقت إلى آخر، و كلما زاد تراكيز مكوناته، كلما سبب ذلك نمو الأسنان التي تظهر لتهيئة الطفل لأن يتناول الطعام.

و الأسنان نفسها عجب من العجب، فهي تختلف من قواطع في وسط الفم و قرب فتحته لقطع الطعام، إلى أنياب بجانبها للمعونة في تمزيقه، ثم أضراس صغيرة فكية على كل جانب لهرس

و طحن الطعام)

تركته منشغلا بشرحه، وسألت المعلم: نعم لقد دبرالله رزق الرضيع تدبيرا حكيما، ولكنه وكل تدبير حياتنا نحن الكبار لنا، فليته دبرها كما يدبر الرضيع.

قال: لو كان الأمر كذلك لما احتجتم إلى شيء.. ولكن البلاء الذي اقتضته خلافتكم اقتضى أن يوكل بعض من رزقكم لبعض.

قلت: ليس بعض رزقنا فقط، بل كل رزقنا، فنحن تحت رحمة الأغنياء.

قال: لو كان كل رزقكم بيد الأغنياء لما عشتم لحظة واحدة.

قلت: كيف؟

مد يده إلي، فأغلق فمي وأنفي، فصحت بيدي، وقد كدت أختنق: لماذا تحاول قتلي، ألست تلميذك؟ وهل أخطأت في شيء؟

قال: لقد أجبتك عن سؤالك.

قلت: كيف تجيبني، وأنت تخنقني.

قال: تصور لو أن هؤلاء الأغنياء الذين تتوهمهم قد ملكوا رزقك، فمنعوك منه، ملكوا هذا الهواء الذي تتنفسه، أكنت تعيش بعده لحظة واحدة؟

قلت: كلا.. إلا إذا استعبدوني لمصالحهم.

قال: فاسمع لما يقول الخبراء عن تدبير الله للهواء.

التفت فوجدت خبيرا لا يقل عن سابقه حماسة، وهو يحمل خريطة تفوق حجمه، وهو يقول من غير أن أسأله:(.. إن الهواء الذي فوق الأرض مكون من الأوكسجين و النتروجين و الأرجون و النيون و الكنسيون و الكريبتون، وهو يحتوي بخار الماء، و كذا ثاني اوكسيد الكربون بنسبة ٣/١٠٠ من ١%، أو نحو ثلاثة أجزاء من ١٠٠٠٠. والغازات النادرة تظهر نفسها في شكل الألوان الحمراء و الزرقاء و الخضراء بلافتات الإعلان، أما الأرجون الذي يوجد في الهواء بنسبة ٦/١٠ في ١% فإنه يعطينا النور الساطع الباهر الذي تتقدم به المدينة حيث يستخدم.

و يوجد النتروجين بنسبة ٧٨% تقريباً في الهواء، في حين تحدد نسبة الأوكسجين عادة ب٢١% و الهواء، في جملته يضغط على الأرض بمعدل خمسة عشرة رطلاً تقريباً على البوصة المربعة من السطح بمستوى البحر. والأوكسجين الذي يوجد في الهواء هو جزء من هذا الضغط، وهو بمعدل نحو ثلاثة أرطال على البوصة المربعة.و كل الباقي من الأوكسجين محبوس في شكل

مركبات في قشرة الأرض، وهو يكون ٨/١٠ من جميع المياه في العالم.

والأوكسجين هو نسمة الحياة لكل الحيوانات التي فوق الأرض، وهو لا يمكن الحصول عليه و لنا الآن أن نسأل: كيف أن هذا العنصر ذا النشاط البالغ من الوجهة الكيماوية، قد أفلت من الاتحاد مع غيره و ترك في الجو بنفس النسبة تقريباً، اللازم لجميع الكائنات الحية أو كان الأوكسجين بنسبة ٥٠% مثلاً أو أكثر من الهواء بدلاً من ٢١% فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لابد أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر.

و لو أن نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى ١٠% أو أقل، فإن الحياة ربما طابقت نفسها عليها في خلال الدهور، و لكن في هذه الحالة كان القليل من عناصر المدنية التي ألفها الإنسان ـــ كالنار مثلاً ـــ تتوافر له. و إذا امتص الأوكسجين الطليق، ذلك الجزء الواحد من عدة ملايين من مادة الأرض فإن كل حياة حيوانية تقف على الفور)[1]

تركته غارقا في شرحه، ثم التفت إلى المعلم، وقلت: من رحمة الله أنه دبر لنا هذا الأمر الخطير وإلا لما اطقنا العيش لحظة واحدة.

قال: وأزيدك مثالا آخر لتمتلئ بتدبير الله، فتتخلق به، فالمعرفة بذر الشوق.

التفت، فوجدت خبيرا آخر، تظهر عليه سيما الأطباء يقول بهدوء خلاف من سبقه:(في جسم الإنسان، علاوة على هذه المواد الكيماوية المعقدة والمختلفة الأنواع، ميكروبات و جراثيم و بكتريا، إذا زاد عدد النوع النوع منها عما هو مقدر لها، أو قل عمل تنوع آخر، أو اختلفت لسبب ما نسبة هذه الأحياء بعضها لبعض، لهلك الجسم.

وهذه الأحياء تفرز افرازات، وتقوم بنفسها بتحويل الغذاء العسر إلى يسر، و الصعب إلى سهل، و المعقد إلى بسيط و الضار إلى نافع، و الكيماوي إلى دم، و لتعرف ماهية هذه الحياء يكفي أن تعلم أن العلماء قد قدروا عدد الموجود منها بالمعدة بحوالي مائة ألف في السنتيمتر المكعب الواحد)

التفت إلى المعلم، وقلت: نعم إن الله هو المدبر، ولولا تدبيره لهلك الخلق جميعا.

قال: فخذوا من تدبير الله، وتخلقوا به، لتحفظوا وجودكم، وتقتلوا الفقر الكافر الذي يتربص بكم ويستعبدكم.

قلت: أي فقر يتربص بنا، ونحن نختزن ثروة العالم، ألم تعلم ما أفاء الله على بلاد المسلمين

(١) كتاب العلم يدعو إلى الإيمان أ. كريسي مورسون رئيس أكاديمية العلوم في واشنطن.

من ثروات النفط.. الذهب الأسود؟

قال: إن الله لم يرزقكم ذلك الذهب لتعلقوه على أعناق الحسان، وتهدروه في المواخير، وإنما لتنصروا به المستضعف، وتملأوا به البطون الخاوية، وتطعموا به الأفواه الجائعة، وتحملوه معكم لتنصروا دين الله، وترفعوا راية الله.

قلت: ولكن راية الله نرفعها على أجسادنا وجماجمنا.

قال: قبل أن ترفعوها على جماجمكم ارفعوها على أموالكم وأرزاقكم، فالله دعا إلى الجهاد بالمال والنفس، لا بالنفس فقط.

قلت: صدقت، فإنه ما يأتي الجهاد في القرآن الكريم بالنفس إلا ويقترن بالجهاد بالمال، قال تعالى:﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾(النساء:٩٥)، وقالتعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(التوبة:٢٠)

قال: بل يقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس.

قلت: وهل في ذلك سر؟

قال: لأن من قدم نفسه سوف لن يستطيع تقديم ماله.

قلت: كيف؟

قال: لأنه لا يستطيع أن يتكسب.

قلت: فماذا تريد هذه الآيات أن تقول إذن؟

قال: تريد أن تقول لكم: ابذلوا جميع جهودكم الخيرة، ثم اجعلوا خاتمتها موتكم في سبيل الله، أو هي تقول لكم:(قبل أن تموتوا في سبيل الله، حاولوا أن تحيوا في سبيل الله)

قلت: لأجل هذا إذن قال ﷺ:(خير الناس من طال عمره وحسن عمله، وشر الناس من طال عمره وساء عمله)[1]

قال: بل ورد في حديث آخر ما هو أعظم من هذا، قال ﷺ:(ليس أحد أفضل عند الله عز وجل من مؤمن يعمر في الإسلام، لتكبيره وتحميده وتسبيحه وتهليله)[2]

---

(١) أحمد والترمذي، وقال: حسن صحيح، والحاكم عن أبي بكرة.

(٢) أحمد وعبد بن حميد عن طلحة.

قلت: ولكن ما علاقة هذا كله بالتدبير.. ألم نخرج إلى الاستطراد، وأنت تعلم عيوبه؟

قال: لا.. ذاك تدبير الطعام، وهذا تدبير الحياة.. والحكيم هو الذي يدبر لمستقبله كما يدبر لبطنه، ويدبر لنشأته الآخرة كما يدبر لنشأته الدنيا.

قلت: نعم، فقد أخبر ﷺ عن كيفية تدبير المؤمن لآخرته فقال:(إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة)[1]

قال: وهذا يشبه تدبير الإنسان لأمر دنياه بحيث يحاول الموازنة بين حاجاته، فيسد بعضها ببعض.

قلت: ما أعظم ما تشير إليه النصوص من معان.. ولكن..

***

ما قلت هذا الكلام حتى شعرت بجوهرة كريمة تتزل أعماق صدري، تنجلي من نورها بعض الظلمات.

قلت في نفسي بعدها: لو أن أكثر الفقراء الذين ملأوا أنفسهم هما وحزنا، وملأوا العالم بكاء وعويلا، لو عرفوا كيف يتعايشون مع حالتهم، واطمأنوا بها، كما يتعايش المرضى مع أمراضهم، فيتناولون من الحمية ما يسد فاقتهم لانتفى فقرهم وعادت إليهم كرامتهم و لم يحجبهم اعتراضهم.

بل إن من الأغنياء من يبتليه الله بالمرض، فيعيش في حمية قاسية دونها حمية الفقراء، فما أهمية امتلاء جيوب الأغنياء، وخواء بطونهم.

ثم لماذا لا يعتبر الفقير بما يحصل لهؤلاء، فيحمد الله لكون حميته بسبب خارجي، لا بسبب داخلي، ولكونها ممكنة الزوال لا مستقرة فيه، وبكونها لا تؤثر في سير حياته ولا سلامة عقله ولا طمأنينة ضميره.

ثم تذكرت الأغنياء المترفين الذي دعاهم جزعهم وهلعهم وحرصهم إلى تدبير لا يكفيهم فقط، بل يكفي أمما من الناس، فمن الأغنياء في العالم من له ثروة توازي ميزانيات دول بحالها، ثم هو لا يقنع بكل ذلك، بل يفعل ما قاله ﷺ:(لو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ثم يتوب الله على

---

(١) البخاري والنسائي عن أبي هريرة.

من تاب)[1]

(١) البخاري ومسلم والترمذي.

٢ ــ جوهرة الاقتصاد

صعدت مع المعلم طابقا آخر في قصر القناعة، فوجدنا شعاعا عظيما متلألئا، سألت المرشد عنه، فقال: هذه جوهرة نفيسة من جواهرالقناعة، اسمها الاقتصاد.

قلت: نحن نعرف هذا الاسم، فهو الذي يسير سياسات العالم، ويحكم على شعوبها بالتقدم والتأخر.

قال: ذلك من تحريفكم للمعاني، لأن اقتصادكم يقوم على أهوائكم وتغليب مصالحكم، مبتوتا عن الأخلاق والمثل.

قلت: ذلك شأن كل شيء عندنا.. فما الاقتصاد عند أهل السلام؟

قال: اقتصاد أهل السلام يقوم على توزيع ثروات الله لخلق الله بما يتوافق مع مصالحهم جميعا، فلا نجيع بطنا لنشبع بطنا، ولا نفرغ جيبا لنملأ جيبا، ولا نبيد أمة لتعيش أمة أخرى على تراب جماجمها، وتملأ أنهارها من خالص دمائها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن الله خلق رزق الخلق ليكفي الخلق، أليس هو الكافي والحسيب!؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى:﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(الزمر: من الآية٣٦)، وقالتعالى:﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾(آل عمران:١٢٤)

قال: ولكنكم ــ للفراغ الذي تشعرون به في أجوافكم ــ اعتديتم على الأرزاق التي جعلها الله لغيركم.

قلت: كيف ذلك، وهل يملك أحد أن يأخذ رزق أحد؟

قال: أجل.. ألا يعتبر السارق معتديا على رزق غيره، آخذا له بطريق الحرام؟

قلت: أجل، ولهذا عاقبه الشرع بتلك العقوبة الخطيرة، ليقول له: هذه اليد لم أخلقها لك لتأخذ رزق غيرك، بل لتأخذ رزقك، وتسعى لرزقك.. ولكن ما علاقة هذا بذاك، فأغنياؤنا لم يستولوا على أرزاق غيرهم، بل كسبوها بالطرق الصحيحة التي أقرها الشرع.

قال: ولكنهم صرفوها في غير ما شرع الله، فأجاعوا بطونا كثيرة ليملأوا الفراغ الذي تشعر به أجوافهم.

قلت: أشيوعي أنت؟ إني أسمع في صوتك نبرة شيوعية.

قال: الشيوعي يهدم القصر، ليبني على أطلاله الكوخ، والذي يهدم مصارع، والمصارع لم

يتعلم السلام.. وأنا معلم السلام.

قلت: فالرأسمالية في نظرك إذن أشرف؟

قال: الرأسمالية لاتهدم القصر ولا الكوخ، ولكنها تمارس كل الحيل لتجعل من حجارة الكوخ لبنات جديدة تزين بها القصر.

قلت: وأنت.. وأهل السلام؟

قال: أنا لا أهدم القصر ولا الكوخ، لأني صاحب سلام، ولكني أطلب من صاحب القصر أن يزين الكوخ لكي لا يشوه جمال قصره، وليحفظ التناسق في الكون.

قلت: أليس في طلبك صراع واعتداء على الحرية الشخصية لصاحب القصر؟

قال: لا.. لأنه لولا الكوخ ما بني القصر.

قلت: وهؤلاء الذين هدموا الكوخ أو القصر ما سر هدمهم له.. وهم يزعمون أنهم أعيان اقتصاد.

قال: لأنهم نظروا إلى أجوافهم الفارغة.. و لم ينظروا إلى الحقيقة.. فأحالهم ذلك إلى الإسراف.

قلت: وما الإسراف؟

قال: هو مجاوزة الاعتدال والتوازن الذي طبع الله بهما الأشياء جميعا، فلذلك لا ترى فيها أي فطور.

قلت: صدق الله العظيم:﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾(الملك:٣)

قال: إن لم يكفك ذلك لتبصر هذه الحقيقة، فـــ ﴿ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٤)

قلت: لكأني بك تريد أن تقحمني في ما أقحمتني فيه في الطابق السابق، فتزعم لي بأن الاقتصاد خلق من أخلاق الله.

قال: ما قلت ذلك، فلا نسمي الله إلا بما سمى به نفسه.

قلت: فقد قال:﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾(السجدة: من الآية٥)، و لم يقل:(يقتصد)

قال: ومع ذلك فهو يحب المقتصدين، ويبغض المسرفين، فإن لم تقصد التشبه به، فتشبه بما يحبه.

قلت: كيف يحب المقتصدين؟

قال: ألم تسمع إلى الحق تعالى، وهو يقول:﴿ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام: من الآية١٤١)، وهو يحض على تناول نعمه من غير إسراف، قال تعالى:﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(لأعراف: ٣١)

وقد يأخذ الإسراف أسماء أخرى، كلها لا يحبها الله، ولا يحب أهلها، قال تعالى:﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة: ١٩٠)، فالمعتدي قد تجاوز حد الاعتدال إلى الظلم، فصار مسرفا، ولذلك تقوم الحروب بسبب الإسراف.

والإسراف نوع خطير من الفساد لا يحبه الله، قال تعالى:﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾(البقرة:٢٠٥)

قلت: وقد أخبر تعالى بأن المبذرين إخوان الشياطين، قال تعالى:﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾(الاسراء:٢٧)

قال: إن القرآن الكريم ــ هنا ــ يجعل التبذير والكفر في سلة واحدة، أتدري لم؟

قلت: لم؟

قال: لأن المسرف لا يعرف نعم الله، أو أن إسرافه يجعله يلتهم الأشياء التهاما يشغله عن معرفة مصدرها، فلذلك لا يبالي المسرف ما ملأ جوفه أمن حلال، أم من حرام، ولا يبالي أفيه منفعة، أم فيه مضرة، ولا يبالي ما عاقبة ما يتناوله أسجن أم زنزانة أم موت.. كل همه أن يملأ جوفه.

قلت: فالمسرف إذن يضر مصالحه.

قال: لا يضر مصالحه فقط، بل يضر مصالحه، ومصالح المجتمع، ومصالح الدنيا، ومصالح الآخرة.

قلت: فهلا تفصل لي مظاهر هذا الإضرار، فإن قومي لا يخافون من شيء كما يخافون على مصالحهم.

قال: سنتحدث عن مضار الإسراف وضرورة الاقتصاد في حفظ المصالح الخاصة والعامة، فالفقر فقر افراد وفقر مجتمعات، ومن الخطأ أن نعالج الفرد، ونترك المجموع للأوبئة تلتهمها.

المصالح الخاصة

قلت: فلنبدأ بأثر الإسراف في هدم مصالح النفس؟

قال: إن الله تعالى خلق لنفس الإنسان التي هي جسم وروح طاقات معينة وحدودا محددة، فمن جاوزها وقع في الإسراف.. قل لي: لو أن جهازا من أجهزتكم الكهربائية يحتاج فقط إلى فرق كمون قدره ١٢ فولت، فأوصله شخص بتيار كهربائي قدره ٣٨٠ فولط، ما يكون مصيره؟

قلت: التلف.

قال: فإن الله خلق لأجسامكم وأرواحكم التي هي حقيقتكم حدودا معينة، فمن جاوزها حصل له التلف، لا من الله، بل بما كسبت أيديكم، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾(الرحمن:٣٣)

قلت: أجل.. ويستدل البعض بهذا على إمكانية غزو الإنسان للفضاء.

قال: ولكن الله تعالى قال بعدها:﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنْتَصِرَانِ﴾(الرحمن:٣٥)، أتدري لم؟

قلت: لعل في هذا تنبيها للمخاطر التي تعترض الإنسان إن فكر في سلوك هذا السبيل.

قال: لأن الله تعالى خلق الأرض للإنسان، ولم يخلق له أي كوكب آخر، فإن فكر في الخروج منها حصل له ما حصل للعبد الآبق، أو ما حصل للفراش المتهافت على النار، يحسبه لؤلؤا أو ياقوتا.

قلت: هذا قد يحصل في المستقبل، وقد يراد بالآية غير ما فهمنا، ولكن أريد معرفة أنواع الضرر التي يحملها الإسراف على مصالح الإنسان في جسمه وروحه.

قال: أما روحه، وهي حقيقته، فقد وضع الله لها قانونا تسير عليه، فإن جاوزته وقعت في الإسرف.

قلت: ألهذا يرد ذكر الإسراف في القرآن الكريم في غير المأكل والمشرب؟

قال: لكل ما يضر الجسد الظاهر قرين يضر الجسد الباطن، ولكل ما يضر الروح الظاهرة مثال يضر الروح الباطنة، فالروح كالجسد، لكليهما صانع واحد.

قلت: لقد كنت أحتار في هذا، فأقول: كيف اعتبر الله فعل قوم لوط إسرافا، فقال تعالى:﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾(لأعراف:٨١)

قال: لأن الله تعالى خلق حدودا للذة تتناسب مع حاجات الإنسان ومصالحه، فالخروج بها كما خرج قوم لوط، أو كما خرج قومك، إسراف عظيم.

قلت: قومي ليسوا سدوما ولا عمورية؟

قال: سدوم وعمورية مجرد ناديين صغيرين من نوادي حضارتكم.

تصبب عرقي حياء، وقلت: نعم، إن قومي أسرفوا كثيرا في هذه الأنواع من الانحراف حتى ابتدعوا ما عجزت عنه سدوم وعمورية.

قال: فكيف تزعم احترامهم للاقتصاد.

قلت: الاقتصاد عندهم لا علاقة له بهذا.. بل دوره الوحيد ملء خزائن الكبراء، وإفراغ جيوب الضعفاء.

قال: ومع ذلك فإنهم لو احترموا هذا النوع من الاقتصاد، لحقق لهم مصالح ما يعرفون من الاقتصاد؟

قلت: كيف؟

قال: إن أكثر ما يحزن له الفقير من بني قومك أنه لم يكن له من الشهوات ما يتمتع به الغني.

قلت: هذا هو مقياس الفقر عندنا.

قال: ولم لا ينظر الفقير إلى ما عنده من المتاع الذي قد لا يوجد مثله في قصر كسرى وقيصر!؟

قلت: كيف هذا؟

قال: أليس في بيت أكثر الناس مذياعا يسمع به أخبار العالم، ومصباحا يضيء عليه أرجاء بيته؟

قلت: بل أشياء كثيرة لا تنقل له الأصوات فقط، بل الأصوات والصور.. ولكن ما علاقة هذا بالمصالح الاقتصادية؟

قال: لأن أخطر ما يفرغ جيوب المستضعفين هو ذلك الاستهلاك العشوائي لكل الأشياء، فيعيشون في نهم لكل شيء، ولا يظفرون بأي شيء، ولو أنهم تماسكوا وقبضوا أيديهم قليلا، وقتروا نوعا من التقتير لوفروا لأنفسهم من السعادة والاستقرار ما يوفر لهم من السعادة ما تعجز عنه اللعب التي يتفانون في جمعها.

قلت: فلنفرض أنه حصل ذلك؟

قال: سيرتفع شبح الفقر، وسيسعد الناس جميعا لا بعض الناس.

قلت: ولكن ذلك قد يجعل خزائن الأغنياء متوقفة في حدود معينة لا تتجاوزها.

قال: ولكنها حدود تكفيهم وترضي نهمهم.

قلت: ولكن نهمهم لا حدود له، ألم تقرأ علي قوله ﷺ:(لو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان ولو كان له واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ثم يتوب الله على من تاب)

قال: ولكنا لو أطعنا هذا النهم لجعلنا الأرض جميعا مزرعة في يد غني واحد، وجعلنا أهلها جميعا عبيدا بين يديه.

قلت: هذه حقيقة.

قال: وهذا مبدأ الصراع.

قلت: لهذا صارعت الشيوعية.

قال: ولهذا تصارع الرأسمالية، وكل من يصارع يهلك.

قلت: الشيوعية سقطت، ولكن الرأسمالية في أوج عنفوانها.

قال: والرأسمالية سقطت في أوج عنفوانها؟

قلت: كيف؟

قال: ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا.

قلت: ويأتيك بالأخبار من لم تزود.. هذا شعر وأنا أريد نور البصيرة أو بصيرة النور؟

قال: إن الله تعالى توعد المجتمعات المسرفة بالخراب.

قلت: أين؟وكيف؟

قال: سنعرف ذلك عند الحديث عن مضار الاسراف العامة، أما لآن فنحن في مضار الإسراف الخاصة.

قلت: عرفت ضرر الإسراف على مصالح الروح، فما مضاره على مصالح الجسد؟ فقومي أحرص على أجسادهم من كل شيء.

قال: لقد ربط الحق تعالى بين تناول الشهوات وبين الاقتصاد في مواضع من القرآن الكريم، فقال تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام:١٤١)

قلت: لقد ذكر تعالى في هذه الآية ما أنعم به على عباده من نعيم، فالله هو الذي خلق انواع

البساتين والمزارع الحاوية على أنواع الأشـجـار والنباتات ، فمنها ما يعتمد في موقفه على الاعمدة والعروش حيث تحمل ما لذ وطاب من الـفـواكه والثمار، وتخلب بمنظرها الساحر العيون والألباب ، ومنها ما لا يحتاج الى عريش ، بل هو قـائم على سوقه يلقي بظلاله الوارفة على رؤوس الادميين ، ويسد بثماره المتنوعة حاجة الانسان الى الغذاء.

قال: وبعد أن أغرى الحق تعالى عباده بتناول هذه الشهوات بين لهم ضوابط تناولها، وهي ثلاثة: الأكل منها والإنفاق والاقتصاد.

قلت: كيف يكون الأكل ضابطا من ضوابطها، وهو ضرورة؟

قال: ليرد على الذين حرموا ما أحل الله، واعتقدوا الكمال في التعفف عما رزق الله من الطيبات، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(لأعراف:٣٢)

قلت: تقصد الزهاد.

قال: لا.. الزهاد من الأولياء، والأولياء يفهمون عن الله ويأتمرون بأمر الله، وإنما أقصد الرهبانية التي قال الحق تعالى فيها:﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ (الحديد: من الآية٢٧)

قلت: ولكن من زهاد هذه الأمة من وقع في مثل هذه الرهبانية.

قال: فلا نسميه زاهدا.

قلت: فماذا نسميه؟

قال: راهبا، كما سماه القرآن الكريم.

قلت: فما الضابط الثاني؟

قال: ترك الإسراف، لأن من أكل فوق حاجته كان كمن يريد أن يملأ خزان وقود سيارته بربطه بعين ماء مغدقة، أو ببئر متدفق.

قلت: لعل هذا ما يشير إليه قوله ﷺ:(المؤمن يأكل في معي واحد والمنافق يأكل في سبعة أمعاء)[1]

قال: أتدري سر ذلك؟

---

(١) البخاري وغيره، وقد ورد في سبب ورود هذا الحديث أن ثمامة لما كان في الأسر جمعوا ما كان في أهل النبي ﷺ مـن طعام ولبن فلم يقع ذلك من ثمامة موقعا فلما أسلم جاءوه بالطعام فلم يصب منه إلا قليلا فتعجبوا فقال الـنبي ﷺ:« إن الكـافر يأكل في سبعة أمعاء وأن المؤمن يأكل في معي واحد »

قلت: وما سر ذلك؟

قال: لأن المؤمن ـــ حقيقة الإيمان ـــ ممتلئ ثقة بفضل الله، فلا يشعر بالفراغ الذي يشعر به الكافر والجاحد والذي لم يكتب الإيمان في قلبه.

قلت: ألهذا إذن قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾(محمد: من الآية١٢)، أي هم في دنياهم يتمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام، خضماً وقضماً ليس لهم همة إلا في ذلك.

قال: ولهذا ربط الله تعالى بين الإسراف والكفر كما مر معنا، فالكافر لا يرى في النعمة ما يراه المؤمن من فضل الله، فينشغل بتناولها كما تنشغل البهائم بالرعي.

قلت: ولكنا نرى السمنة في بلاد المسلمين فاشية، بل تكاد تبز غيرها من الأمم، فكيف يرتبط المفر بالإسراف؟

قال: نحن نتحدث عن الحقيقة، ولا يهمنا من تلبس بها أو عري عنها، وقد ورد في النصوص إنكار السمنة، فلا ينبغي غض الطرف عنها لكون الأمة مصابة بها، فالحق أحق أن يتبع.

قلت: تقصد قوله ﷺ:(إن خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يكون من بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن)[1]

وقالت عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ:(أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشبع فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم)

قال: ما أعظم هذه الحكمة.. إن هذا القول من عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ يجعلها أستاذة أساتذتكم، فالشبع يورث السمن، والسمن يضعف القلوب، ويحرك الشهوات.

قلت: وقد قال عمر ﷺ مثلها كلاما جميلا، وحكما جليلة، قال:(إياكم والبطنة في الطعام والشراب، فإنها مفسدة للجسم مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة وعليكم بالقصد فيهما فإنه أصلح للجسد وأبعد عن السرف وإن الله تعالى ليبغض الحبر السمين وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه)

قال: صدق عمر ﷺ، هذا هو الاقتصاد، وهؤلاء هم أساتذته.

قلت: فالسمن إذن ظاهرة خطيرة.. ولكنا يمكن أن نتخلص منها بالرياضة، بل هناك أدوية كيمياوية يكفي دهن الجلد بها ليتخلص من الدهون الزائدة.

قال: ولماذا يدخلها أصلا حتى يبحث عن مخرجها؟

---

(١) الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين.

قلت: إنها شهوة المطعم، فهل حرم الله لذائذ الأطعمة؟

قال: أكلما اشتهى أحد شيئا أكله، ألم تسمع قوله ﷺ:(إن من الإسراف أن تأكل كل ما اشتهيت)[1]

وتجشأ بعضهم عند رسول الله ﷺ فقال له:(أقصر عنا من جشائك، إن أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا)[2]

ثم إن الله برحمته أذاق اللذة الغني والفقير، ألم تسمع ما قال بديع الزمان؟

التفت، فإذا بديع الزمان يقول[3]:(إن من كمال كرم الله سبحانه وتعالى، أنه يُذيقُ لذّة نعمه لأفقر الناس، كما يذيقها أغناهم، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان.

نعم ان اللذة التي ينالها فقير من كسرة خبز أسود يابس بسبب الجوع والاقتصاد تفوق ما ينالـه السلطان أو الثري من أكله الحلوى الفاخرة بالـملل وعدم الشهية النابعين من الاسراف)

قلت: يا بديع الزمان، ولكن الله رحمنا بهذه الشهوة، فلولاها لهلكت أجسادنا، فهي من مقتضيات الحكمة الإلهية.

قال: الاقتصاد والقناعة منسجـمان انسجاماً تاماً مع الـحكمة الإلـهية، اذ يتعاملان مع القوة الذائقة معاملة الحارس، ويقفاها عند حدّها، ويكافئانها حسب تلك الوظيفة.

أما الإسراف فلأنه يسلك سلوكاً مـخالفاً لتلك الـحكمة، فسرعان ما يتلقّـى المسرف صفعات موجعة، إذ تحدث الاختلاطات المؤلمة في المعدة التي تؤدي إلى فقدان الشهية الحقيقية نحو الأكل، فيأكلَ بشهية كاذبة مصطنعة بتنويع الأطعمة مما يسبب عسراً في الهضم.

***

قلت: فلنعد لما ورد في الآية[4] من ضوابط التعامل مع نعم الله، فقد ذكرنا الأكل والإسراف، فما محل الإنفاق في هذا المحل ولماذا ربط بالإسراف؟

قال: لأن المسرف في الأكل والشرب وتناول الشهوات لن يبقى له من المال ما ينفق منه، أو

---

(١) ورد في سنن ابن ماجة.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي.

(٣) خصص بديع الزمان اللـمعة التاسعة عشرة بالاقتصاد، وسماها « رسالة الاقتصاد »، قال في مقدمتها:« هذه الرسـالة تـحضّ على الاقتصاد والقناعة وتـحذّر من مغبة الاسراف والتبذير »

(٤) هي قوله ﷻ:﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام:١٤١)

يبقى له ما يدخره لنفسه التي لا تشبع.. أو هو في انشغاله بملأ الفراغ الذي يعاني منه لا يفكر في الإخراج بل يفكر في الإدخال، ولا يفكر في الإطعام، بل يفكر في الاستطعام.

قلت: ألهذا قال ﷺ:(طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثمانية)[1]

قال: ولكن هذا لا يكون إلا لمن مرن نفسه، فلم يدع الفراغ النفسي يؤثر فيه، ولا للشهوات أن تتحكم في سلوكه.

قلت: رحم الله عمر ﷺ فقد كان مثالا على هذا، وهو خليفة على المسلمين، فعن أنس بن مالك ﷺ قال: تقرقر بطن عمر بن الخطاب، وكان يأكل الزيت عام الرمادة وكان حرم عليه السمن فنقر بطنه باصبعه، وقال: تقرقر تقرقرك، إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيى الناس)[2]

قال: ذلك لأنه ملأ فراغه بالاهتمام لأمر المسلمين، فأنساه ما هو فيه ما يعانيه الناس من أجوافهم.

قلت: فقد قال أسلم: كنا نقول: لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هما بأمر المسلمين[3].

قال: ولهذا ارجع لقومك، وادعهم إلى الاشتغال بالله، وبأمر الله، فسيملؤون كل فراغ، فإن الشره يهرب إلى الطعام ليهرب من الحقيقة، ولو أنه امتلأ بها لكفته.

ألا ترى أنك في انشغالك بفرح أو حزن لا تكاد تستقر اللقمة في فمك حتى تنهض عن طعامك غير عابئ بلذته.

قلت: نعم، ذلك صحيح، وكل الناس يحصل منهم هذا.. لقد أرشدتني إلى دواء جديد للسمنة، فالسمنة عندنا ظاهرة خطيرة.

قال: ولكنكم تعالجونها ــ كشأنكم في كل شيء ــ بالاتجار فيها، فتنتجون العقارات والسموم، لتصوركم أن الإنسان مجموعة وظائف بيولوجية أو ظواهر فيزيائية لا حقيقة من الحقائق العليا.

قلت: فقد نهينا عن الإسراف، فما مضاره على أجسادنا؟

قال: ألم تعلم أن المعدة بيت الداء؟

---

(١) مسلم.

(٢) ابن سعد، وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر.

(٣) ابن سعد، وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر.

قلت: كما أنها بيت الدواء.

قال: هي بيت الدواء إن احترمت ما يدخل إليها، أما إذا لم تحترمه، فستكون بيتا لا لداء واحد، بل لأدواء كثيرة.

قلت: أأنت تقول إذن ما قال ابن سينا؟

قال: وما قال ابن سينا؟

قلت: لقد قال:

جمعـــــــتُ الطــــــبَّ في بيــــــتين جمعـــــــاً	وحُســـــن القـــــولِ في قِصَـــــر الكـــــلام
فقلّـــــل إن اكلــــــتَ وبعـــــد أكـــــل	تجنّـــــب، والشـــــفاءُ في الإنهضـــــام
ولـــــيس علـــــى النفـــــوس أشـــــدُّ حـــــالاً	مـــــن إدخـــــال الطعـــــامِ علـــــى الطعـــــام

قال: بل أقول ما قال طبيب الأطباء وحكيم الحكماء ﷺ:(ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه)[1]

قلت: فهذا كلام جميل، وقد قال ابن القيم تعليقا عليه:(مراتب الغذاء ثلاثة: أحدها مرتبة الحاجة، والثانية مرتبة الكفاية، الثالث مرتبة الفضيلة، فأخبر النبي ﷺ أنه يكفيه لقيمات يقمن صلبه، فلا تسقط قوته ولا تضعف، فإن تجاوزها فليأكل بثلث بطنه وهذا من أنفع ما للبدن وما للقلب فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا أورد عليه الشراب ضاق عن النفس وعرض عليه الكرب والتعب)[2]

قال: رحم الله ابن القيم، فقد آتاه الله العلم والحكمة، واسمع لهذا المثل الذي يضربه بديع الزمان.

التفت، فإذا به كقطعة نور تتكلم، قال:(لقد خلق الفاطر الحكيم جسم الانسان بما يشبه قصراً كامل التقويم وبما يماثل مدينة منتظمة الاجزاء، وجعل حاسة الذوق المغروزة في فمه كالبّواب الحارس، والأعصاب والأوعية بمثابة أسلاك هاتف وتلغراف (تتـــم خلالـــها دورة

(١) أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن المقدام بن معد يكرب.

(٢) الطب النبوي: ٢٠٥.

المخابرة الحساسة بين القوة الذائقة والمعدة التي هي في مركز كيان الانسان) بحيث تقوم حاسة الذوق تلك بإبلاغ ما حلّ في الفم من المواد، وتحجز عن البدن والمعدة الاشياء الضارة التي لا حاجة للجسم لها قائلة: ((ممنوع الدخول)) نابذةً اياها، بل لاتلبث أن تدفع وتبصق باستهجان في وجه كل ما هو غير نافع للبدن فضلاً عن ضرره ومرارته.

ولما كانت القوة الذائقة في الفم تؤدي دور الحارس، وان المعدة هي سيدة الجسد وحاكمته من حيث الادارة، فلو بلغت قيمة هديةٍ تُقدَّم الى حاكم القصر مائة درجة فان خمساً منها فقط يجوز أن يعطى هبةً للحارس لا اكثر، كيلا يختال الحارس وينسى وظيفته ويقحم في القصر كل مخلّ عابث يرشوه قرشاً اكثر.

وهكذا، بناءً على هذا السرّ، نفترض الآن أمامنا لقمتان، لقمة منها من مادة مغذّية – كالجبن والبيض مثلاً – يُقدّر ثمنها بقرش واحد، واللقمة الاخرى حلوى من نوع فاخر يُقدّر ثمنها بعشرة قروش، فهاتان اللقمتان متساويتان قبل دخولهما الفم ولا فرق بينهما، وهما متساويتان كذلك من حيث إنماء الجسم وتغذيته بعد دخولهما الفم ونزولهما عبر البلعوم.

بل قد يغذّي الجبن – الذي هو بقرش واحد – تغذية افضل وتنمية أقوى من اللقمة الأخرى.. إذن ليس هناك من فرق الاّ ملاطفة القوة الذائقة في الفم التي لا تستغرق سوى نصف دقيقة. فليقدر إذن مدى ضرر الاسراف ويوازن مدى التفاهة في صرف عشرة قروش بدلاً عن قرش واحد في سبيل الحصول على لذة تستغرق نصف دقيقة!

وهكذا فإن إثابة الحارس تسعة اضعاف ما يُقدّم الى حاكم القصر من هدايا تُفضي به لا محالة الى الغرور والجشع وتدفعه بالتالي الى القول: إنما أنا الحاكم. فمن كافأه بهبة اكثر ولذة أزيد دفعه الى الداخل، مسبّباً إخلال النظام القائم هناك، مضرماً فيه ناراً مستعرة وملزماً صاحبه الاستغاثة صارخاً: هيّا اسرعوا اليّ بالطبيب حالاً ليخفف شدة حرارتي ويطفيء لظى نارها)

قال لي المعلم: إن لم يكفك هذا، أو رأيت قومك لا يثقون في ابن القيم أو بديع الزمان، فاسأل الخبراء من عصرك، ألم تسمع إلى الحق، وهو يقول:﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾(الفرقان: من الآية٥٩)

التفت فإذا بي أرى خبيرا يظهر من سيماه أنه من المسلمين، فقد اندفع يشرح الحديث

السابق قائلا:(يشكل الجزء العلوي من المعدة جيب ممتلىء بالهواء يقع تحت الحجاب الحاجز وكلما كان ممتلئاً بالهواء كانت حركة الحجاب الحاجز فوقه سهلة وكان التنفس ميسوراً أما إذا امتلأ هذا الجيب بالطعام والشراب تعرقلت حركة الحجاب الحاجز وكان التنفس صعباً كما أن الصلب لا يستقيم تماماً إلا إذا كانت حركة المعدة مستريحة ولا يتم ذلك إذا اتخمت بالطعام)

ثم التفت، فرأيت خبيرا آخر[1] يقول:(.. الإسراف في الغذاء مضر بالصحة، لما يؤدي إليه بصورة مباشرة من اضطراب الهضم والتخمة، ولما يؤدي إليه بصورة غير مباشرة من أمراض فرط التغذية التي يقال لها اليوم" أمراض الرخاء " أو " أمراض المتخمة "، ومن أهمها " السكري " أو مرض السكر، وارتفاع ضغط الدم، وأمراض شرايين القلب المحدثة للذبحة والجلطة، وأمراض شرايين الدماغ المؤدية إلى السكتة والفالج، وما إلى ذلك. وبذلك تكون المعدة بيت الداء حقاً، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وتكون مسؤولة عن طائفة من أخطر الأمراض)

(١) فقه الصحة، الدكتور محمد هيثم الخياط، محاضرة ألقاها في المؤتمر الرابع للطب الإسلامي الذي عقد في كرا تشي سنة ١٤٠٥ للهجرة [١٩٨٤ للميلاد)

المصالح العامة

قلت: لقد عرفنا مضار الإسراف، ومحاسن الاقتصاد على المصالح الخاصة، فما ضرره على المصالح العامة.

قال: المصالح العامة هي المصالح الخاصة، وضرر الأفراد ضرر المجتمع، ألم يقل ﷺ:(المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه اشتكى كله، وإن اشتكى عينه اشتكى كله)[1]

قلت: ذلك للمؤمن، ونحن نتحدث مع الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم، فالمصالح العامة مصالح البشر جميعا.

قال: ألم يقل الحق تعالى لليهود، وقد كانوا كفرة:﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴾(البقرة: من الآية٨٥)، فقد عبر الحق تعالى عن قتلهم لبعضهم بعضا بقتلهم لأنفسهم.

قلت: نعم.. فما الأضرار المرتبطة بهذا الجانب.

قال: الهلاك الذي توعد الله به المسرفين، والهلاك إذا حل بقرية لم يميز صالحها من فاسدها، ولا طيبها من خبيثها.

قلت: تقصد ما ورد في القرآن الكريم من الإخبار بما حصل للمسرفين، كقوله تعالى:﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (الانبياء:٩)، وقوله:﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾(الذريات:٣٤)

قال: ولذلك قال تعالى:﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾(الشعراء:١٥١)

قلت: وما سر النهي عن طاعتهم، وما علاقة ذلك بهلاك الأمم؟

قال: سر النهي عن طاعتهم هو ما عبر عنه الحق تعالى بقوله في الآية التالية لتلك الآية:﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾(الشعراء:١٥٢)، فهم لا يكتفون بالإفساد فقط، بل يضيفون إليه ترك الإصلاح.

قلت: كنت أتصور أن ذكر الإفساد وحده كاف، فلماذا ذكر معه ترك الإصلاح؟

قال: لأن الإفساد قد يقع، فيأتي الإصلاح فيسد مواقع الفساد، ويحمي الخلق من أضراره، لكنه إن اجتمع الإفساد مع ترك الإصلاح كان ذلك الفساد شديدا.

قلت: فذلك يشبه قوله تعالى:﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾(هود:١١٤)

---

١ مسلم عن النعمان بن بشير.

قال: نعم.. ألم أقل لك إن السنن التي تحكم الأفراد هي التي تحكم المجتمعات، والسنن التي تحكم الدين هي التي تحكم الدنيا.. لأن ربها جميعا واحد.

قلت: فهمت ما تعلق بهذا في الدين، لأنه أمر غيبي، ولكني لم أفهم ما يتعلق بذلك من الدنيا، ومن مصالح الناس.

قال: قد وضع الله في جميع مصالح الدنيا من الفرص ما يصلح به المخطئ ما أفسده، فإن فعله سد منافذ الفساد ووقي المجتمع شر انحرافه، وإن ترك الإصلاح استقر الفساد، واشتد عوده، حتى يصل إلى درجة لا يمكن أن يصلح أبدا.

قلت: فهلا تضرب لي مثالا يوضح لي هذا المعنى.

قال: لو أن أحدهم رمى بعود ثقاب في غابة في حر شديد، أليس ذلك إفسادا؟

قلت: نعم، فللأشجار حرمة لا تقل عن حرمة البشر.

قال: فإن أسرع وأطفأها قبل أن تتمكن وتنتشر، ألا يكون بذلك قد واجه الفساد بالإصلاح؟

قلت: أجل، يكون قد عمل حسنة لتمحو أثر خطيئة.

قال: ولكنه إن تركها حتى انتشرت، وعمت الغابة، أكان يملك حينها القدرة على الإصلاح؟

قلت: لا.. بل يخرج الأمر من يده، بل قد يخرج الأمر من يد المطفئين أنفسهم.. فنحن نسمع الحرائق الهائلة التي تعجز الدول العظمىعن إطفائها.

قال: فلذلك أخبر الله تعالى عن المسرفين أنهم لا يفسدون فقط، بل يفسدون، ويتركون الإصلاح.

قلت: فليس ترك الإصلاح إذن مرادف للفساد؟

قال: ليس في القرآن الكريم مرادفات ولا تكرارا، بل في كل كلمة معنى جديد، وحقائق جديدة، ألم تسمع قوله تعالى في وصف كتابه:﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤٢)، والتكرار لغو، واللغو باطل، والقرآن الكريم متره عن اللغو.

قلت: فهمت هذا.. ولكن ما علاقة ذلك بالهلاك العام الذي يحيق بالمسرفين؟

قال: ألم تسمع رسول الله ﷺ، وهو يقول:(يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قيل: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال:(نعم، إذا كثر الخبث)[1]، فقد اعتبر ﷺ

---

(١) الترمذي عن عائشة.

كثرة الخبث سببا للهلاك العام.

بل أشار إلى هذا قوله تعالى:﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾(الاسراء:١٦)، فتأمير المترفين أو تكثيرهم مؤذن بهلاك القرى، وهل المترفون إلا المسرفون؟

قلت: اضرب لي أمثلة على هذا، لعلي أعي ما تقول.

قال: سأضرب لك على هذا أربعة أمثلة.

المثال الأول:

قلت: أعلم غرامك بالأربع، فهات المثال الأول.

قال: أنتم تسرفون في السيارات.

قلت: السيارات ضرورة، فهي من المراكب التي خلقها الله لنا، ألم يقل الحق تعالى:﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨)

قال: وكذلك الطعام، فهو من الخلق الذي خلقه الله لنا، ومع ذلك كان متعرضا للإسراف.

قلت: فما الإسراف في السيارات؟

قال: هذا الكم الهائل من السيارت بأنواعها المختلفة، وأثمانها المرتفعة، والتي لا يحتاج إلى أكثرها ألا تؤذي ــ بالخراب الذي تنشره في الجو ــ ملايين الرئات التي لا تتنفس هواء، وإنما تتنفس سموما.

قلت: هذا صحيح، فالبيئة في خطر، ولكن كيف يصلحون ليدرؤوا منافذ الفساد؟

قال: بترك الإسراف، فما حل الإسراف في شيء إلا أفسده، ألم تسمع قول الحق تعالى:﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤١)

قلت: نعم، فالله تعالى يرجع الفساد الذي ظهر في البر والبحر إلى ما كسبت أيدي الناس.

قال: وهذه الاختراعات الكثيرة التي تفخرون بها وتتكاثرون بها من هذا النوع من الإفساد، واسمع لما يقوله المختصون في ذلك.

فجأة ظهر خبير يظهر عليه سيما النصح والحرص[1]، يقول:(هذا التلوث خطر على صحة الإنسان. وما زالت الدنيا تذكر ما حدث في لندن عام اثنين وخمسين، يوم أدى الضخان القاتل

(١) هو الدكتور محمد هيثم الخياط في مؤتمر اتحاد الأطباء العرب في أوروبا، الذي، عقد بمدينة فرانكفورت في ألمانيا سنة تسع وثمانين، وعنوان المحاضرة:« صحة البيئة »

إلى موت أربعة آلاف نسمة ؛ وما حدث في دونورا، تلك المدينة الصناعية في غربي بنسلفانيا، حيث مرض نصف سكان المدينة ومات عشرون منهم بعد ضخان استمر خمسة أيام، وبقي الأحياء منهم يعانون من اعتلال في الصحة ؛ ثم ما حدث في مدينة نيويورك سنة ثلاث وخمسين حين مات مئتا نفس من جراء مستوى أكاسيد الكبريت والجسيمات المعلقة.

ولا يقل شأناً عن هذه الكوارث الصارخة، تلك الآثار الطويلة الأمد على سكان الأمصار من جراء تلوث الهواء، من علل تنفسية مزمنة كالنفاخ الرئوي والتهاب القصبات (الشعب الهوائية) ... إلى نقص القدرة على أداء التمارين الجسمية في الأصحاء من الكبار والأطفال على السواء.. إلى نسبة الوفيات من الأمراض الأخرى كالسرطان وأمراض القلب.. إلى ازدياد حدوث الربو وفرط التحسس وأمراض الجهاز التنفسي في الأطفال.

حتى إنهم ليقدرون ضريبة التلوث التي يدفعها سكان الولايات المتحدة كل عام بخمسة عشر ألف وفاة، وسبعة ملايين يوم مرض، وخمسة عشر مليون يوم ناقص الإنتاجية.

قلت: هذه آثارالتلوث عامة، فما علاقة ذلك بالسيارات؟

قال الخبير: مازال تلوث المدن في ازدياد مستمر، لاسيما بفعل وسائل النقل من سيارات وشاحنات تنفث عوادمها أكثر من نصف (٥٦%) ما يدنس الهواء، ثم من طائرات وقطارات وبواخر في أماكن وجودها.

ويلي وسائل النقل في الأهمية مصادر الاحتراق الأخرى الثابتة مثل محطات توليد الطاقة الكهربائية وأجهزة التسخين (٢٢ %)، تليها المصانع المختلفة (١٥%) ثم حرائق الغابات محاصيل المزارع (٥%) ثم محاصيل ترميد الفضلات الصلبة.

قلت: أفنحرم السيارات إذن على الناس؟

قال: لا:﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾(لأعراف: من الآية٣٢)، ولكن نكف شرهم على الناس بالإصلاح الذي أمر الله به، فلا تملك هذه المخترعات التي تجتمع فيها المصالح مع المفاسد إلا بشروط أهمها أن يصلح المفسد ما أداه إليه فساده.

قلت: أتقصد أن تغرم شركات السيارات والأفراد غرامات تصلح من البيئة ما فسد؟

قال: هذا لا يكفي، فالفساد ليس متعلقا بالبيئة وحدها، بل إن هذا المثال، وهو واحد من آلاف الأمثلة له علاقة بعقد الحياة جميعا.

قلت: فنأمرهم إذن بشراء دراجات هوائية كدراجتي تغنيهم عن العوادم وعما تخلفه العوادم.

ابتسم، وقال: إن قبلوا منك ذلك، فانصحهم به.

المثال الثاني:

قلت: فما المثال الثاني؟

قال: هو ما عبر عنه ﷺ بقوله:(وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان)[1]

قلت: هذا حديث عن علامة من علامات الساعة، فما علاقته بهذا؟

قال: وهل علامات الساعة إلا علامات لهلاك الأرض والأمم؟

قلت: ولكن هذه العلامات أخبار، وهي لا تحمل أي معنى تشريعي، فلا يستطيع أحد أن يستدل بهذا على تحريم التطاول في البنيان.

قال: نحن لا نتحدث عن الحلال والحرام.. فذلك للفقهاء.. ولكنا نتحدث عن أثر هذا النوع من الإسراف في الخراب والفساد والهلاك.

قلت: فلا أرى في هذا أي فساد، بل هو العمران والحضارة والرقي، فلولا التقدم العلمي الذي وصلت إليه البشرية ما حققنا هذه المنجزات؟

قال: ولكن النبي ﷺ لم يقل:(يطيلون البنيان) وإنما قال:(يتطاولون في البنيان) وهو ما فعلتموه، فوقعتم في الإسراف.

قلت: أتقصد أن التفاخر في التطاول في البنيان هو الإسراف لا إطالة البنيان؟

قال: نعم، وهو ما نطق به ﷺ، فليس محرما أن يطيل الشخص بنيانه، وقد قال تعالى في بنيان الجنة:﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾(الزمر:٢٠)، ولكن المحرم أن يتطاول في البنيان.

قلت: وما الفرق بينهما ما دامت النتيجة واحدة؟

قال: لا.. ليست النتيجة واحدة، فالمتطاول في البنيان قد يبني ما لا حاجة له إليه، لأن غرضه ليس ملأ جوفه الفارغ فقط، وإنما ليظهر انتفاخ جوفه أمام جيرانه.

قلت: ذكرتني بقول ابن رشيق القيرواني:

ممـــــــــا يزهـــــــــدني في أرضِ أنـــــــــدلسٍ	سمـــــــــاع مقتـــــــــدرٍ فيهـــــــــا ومُعْتضِـــــــــدِ
ألقـــــــابُ مملكـــــــةٍ في غـــــــير موضـــــــعِها	كـــــــالهرَّ يحكـــــــي انتفاخـــــــاً صَـــــــوْلَة الأســـــــدِ

---

١ البخاري ومسلم.

المثال الثالث:

قال: صدق شاعركم، وقد كانت تلك الألقاب المنتفخة التي أسرف فيها حكام الأندلس سببا في خراب الأندلس.

ابتسمت وقلت: وهل في الألقاب أيضا إذن إسراف؟

قال: نعم.. وأعظم إسراف.. أليست واجهات المحلات هي الألقاب التي تعرف بالمحلات؟

قلت: نعم.

قال: فكذلك الألقاب هي التي تعرف بأصحابها، وتدعو إليهم، ألستم توزعون الألقاب كما تشاءون، فتسمون الجاهل بالحكيم، والفاسق بالفنان، والمرابي برجل الأعمال؟

قلت: بلى.

قال: ولا تكتفون بألقاب الدنيا، فتضيفون إليهم ألقاب الآخرة وأجزيتها؟

قلت: كيف؟

قال: ألا تقولون عن الداعر الفاسد الذي يسب الله في ظلام الليل وضوء النهار إذا مات:(تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنانه) فلم ترضوا أن تسكنوه الجنة حتى أسكنتموه فسيحها.

قلت: أجل، وما في ذلك؟

قال: ألم تسمع ما روي عن أم العلاء – وكانت بايعت رسول اللّه ﷺ قالت:(طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون ﷺ، فاشتكى عثمان فمرَّضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه، فدخل علينا رسول اللّه ﷺ، فقلت:(رحمة اللّه عليك أبا السائب شهادتي عليك، لقد أكرمك اللّه تعالى، فقال رسول اللّه ﷺ:(وما يدريك أن اللّه تعالى أكرمه؟)، فقلت:(لا أدري بأبي أنت وأمي)، فقال رسول اللّه ﷺ:(أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وأني لأرجو له الخير، واللّه ما أدري وأنا رسول اللّه ما يفعل بي)، قالت، فقلت:(واللّه لا أزكي أحداً بعده أبداً)، وأحزنني ذلك، فنمت فرأيت لعثمان ﷺ عيناً تجري، فجئت إلى رسول اللّه ﷺ، فأخبرته بذلك، فقال رسول اللّه ﷺ:(ذاك عمله)[1]، وفي لفظ:(ما أدري وأنا رسول اللّه ما يفعل به)

فهذا رسول الله ﷺ يقول عن نفسه هذا، وقد قال تعالى مشيرا إلى هذا المعنى:﴿ قُلْ مَا كُنْتُ

---

(١) البخاري.

بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الاحقاف:٩)

قلت: أهذا أيضا من الإسراف؟

قال: بل من أخطر الإسراف، فمثل هذا القول الذي يحمل روائح التألي على الله يجعل من أولئك الأقزام الملطخين أولياء صالحين يتهافت الخلق على الاقتداء بهم.

قلت: لقد استطردنا، فهات المثال الثالث.

قال: لم نستطرد، بل هذا هو المثال الثالث.

قلت: أهو الإسراف في الألقاب، والإسراف في توزيع الجنان.

قال: ليس هذا فحسب، بل تسرفون في تعظيم عصركم وتبجيله، وتعتبرونه القمة التي وصل إليها التاريخ، وكأن ما قبلكم مقدمات لكم وأنتم النتيجة، أو كأن ما قبلكم همج بدائيون، وأنتم وحدكم أرباب الحضارة وصناعها، وهذا كله مؤذن بهلاككم.

قلت: كيف يكون سببا لهلاكنا؟

قال: ألم يقل من قبلكم مثل قولكم، فهلكوا؟

قلت: أتقصد قوله تعالى:﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾(فصلت: من الآية١٥)، فرد الله عليهم بقوله:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (فصلت: من الآية١٥)

قال: بل أقصد قول كل جبار كعاد، ألم يقل فرعون ما يقوله أسيادكم، ألم يقل:﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف: من الآية٥١)، فما كان جزاؤه؟

قلت: فخر بالأنهار التي تجري من تحته، فأجراها الله من فوقه، وكانت سببا لهلاكه.

قال: فليعتبر قومك بفرعون وعاد، فلم يذكرهما الله في كتابه قصصا ولهوا، ولا أحداثا وتاريخا، وإنما هي سنته في عباده.

المثال الرابع:

قلت: فهات المثال الرابع.

قال: أنت تسرفون في اللهو واللعب وفرص الراحة.

قلت: وهذا مما لا شك في إباحته إن انضبط بالضوابط الشرعية.

قال: كل شيء ينضبط بالضوابط الشرعية مباح، ولكنا نتحدث عن الإسراف، فأنتم تملؤون

الأرض بمئات القنوات الفضائية، وآلاف المسارح والملاعب، ومئات الآلاف من دور اللهو ودياجير الظلام.. وملايين اللعب من كل الأصناف.

قلت: وما الخطر في هذا؟

قال: أنتم تشغلون الناس عن حياتهم ورسالتهم وحقائقهم، فتقتلونهم لا بإهلاك أجسادهم، وإنما بقتل أرواحهم.

قلت: كيف ذلك، وهل اللهو ــ الذي هو فرح الروح ــ قتل لها؟

قال: ألم يقل الشيطان:﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(لأعراف:١٧)، فهذا تعبير عن محاصرة الشيطان للإنسان من كل الجهات وتوسله إلى إغوائه بكل وسيلة ممكنة ، وسعيه في إضلاله بكل طريق.

قال: نحن نعبر بهذا الأسلوب في حياتنا اليومية، فنقول: فلان حاصرته الديون أوالامراض من الجهات الاربع، ولكن ما علاقة هذا بحياة اللهو اللعب التي نعتبرها من علامات التحضر في هذا العصر؟

قال: لقد أجبت عن سؤالك، فالذي يحاصر من الجهات الأربع، هل يجد له وقتا يجلس فيه مع نفسه يفكر ويتأمل؟

قلت: كيف؟

قال: أنتم تملأون برامج يومكم ملأ تاما، فلا تتركون لحظة تتفرغون فيها لحقائقكم، بل قد تعتبرون كثيرا من القضايا التي يسأل عنها العقل السليم، أو تتطلبها الفطرة النقية، والتي جعلها الله سببا لطرق بابه، جدلا فارغا، أو ترهات لا معنى للبحث فيها.

قلت: أريد مثالا على هذا أكثر توضيحا.

قال: أتعلم معنى قوله تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(فصلت:٢٦)

قلت: نعم، فالله تعالى يخبر عن المشركين أنهم تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا القرآن ولا ينقادوا لأوامره، فإذا تلي لا يسمعوا له.

قال: وبماذا توسلوا إلى ذلك؟

قلت: باللغو، وهو ــ كما قال مجاهد ــ المكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول اللّه ﷺ إذا قرأ القرآن.. وكانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعل مالك بن النضر ليصرف الناس عن القرآن، ويلغون بالصياح والهرج. ويلغون بالسجع والرجز..

قال: كل ذلك أساليب قديمة، أما في عصركم، فقد تطورت أساليب الشيطان في المحاصرة كما تطورت أساليب سدنته في اللغو.

قلت: أتقصد أن كل هذه المحلات التي يوزع فيها اللهو بالمجان هي نوع من أنواع المحاصرة واللغو؟

قال: نعم.. هي زنازين تحاصر المدمنين عليها.. ليحيوا حياتهم جميعا فلا يعرفوا من أين ابتدأوا، ولا أين سينتهون.

قلت: أهذا هو خطر هذه الوسائل الحديثة؟

قال: هذا جزء من مخاطرها.. أما خطرها الأكبر، فهي أنها قوالب كتلك القوالب التي تضعون فيها الفخار لتكونوا منها أواني تأكلون فيها وتشربون.

قلت: فهل الإنسان آنية فخار، حتى يوضع في القوالب.

قال: نعم لأن أرباب المصالح من المترفين يأبون إلا أن يشكلوا عقول الناس وقلوبهم وأهواءهم بحسب ما تتطلبه خزائنهم من أموال، وفراغهم من شغل.

قلت: كيف؟

قال: هم يمجدون الرذيلة، إن كانت سببا لكسب يدر عليهم الأرباح، وهم يحقرون الفضيلة، ويرمونها بأبشع التهم إن وقفت حائلا بينهم وبين مآربهم.

قلت: فلو سمعوا بك إذن لقتلوك؟

قال: هم لا يستطيعون قتلي، ولكن يستطيعون التشويش علي، ومن شوش عليك خنق صوتك، ومن خنق صوتك قتله.

قلت: ومن قتل صوتك قتلك.

قال: لا.. لن يستطيع.. يوشك أن يهلك الباطل ليرتفع صوت الحق، فالحق لا يموت، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾(الاسراء:٨١)

قلت: فكيف يكون هذا النوع من الإسراف سببا للهلاك؟

قال: لقد سمعت الآية، فالباطل الذي يصادم الحق لا بقاء له، ألم تسمع هذا المثل الذي ضربه الله تعالى:﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾(الرعد:١٧)

قلت: فكيف يكون هذا الهلاك، أبخسف أم بمسخ؟

قال: لا يكون بخسف ولا بمسخ، ولكن الباطل سيقتل نفسه بنفسه.. سينتحر انتحارا بطيئا..

ثم غاب نظره في الأفق البعيد، وقال بصوت لا يكاد يسمع: لكأني أراه الآن يمسك سكينا مسموما، وهو يقطع أجزاءه إربا إربا، وهو بين ذلك يرسل ضحكات مختلطة بأنات كالمجنون.

قلت: يا معلم، فهو الآن إذن ينتحر.

قال: إن أول خطوة يخطوها كل باطل خطوة يتقدم بها نحو الموت.

قلت: لقد ذكرتني، فقد أخبرتني عن هلاك هذا النظام الذي يستولي على دفة العالم، فكيف ذلك، ونحن نراه في أوج قوته؟

قال: هو الآخر ينتحر كانتحار كل باطل، ولا تزيده السنون التي يمهل فيها إلا سقوطا فوق سقوط وانحدارا فوق انحدار.

قلت: هم لا يقبلون هذا إلا بأرقام.

قال: وهم لا يؤمنون بالأرقام؟

قلت: بل هم لا يؤمنون إلا بها، ألسنا في عصر الأرقام؟

قال: لو كانوا يؤمنون بها لوصلوا إلى الحقيقة من أقرب أبوابها؟

قلت: كيف؟

قال: هي ذي الإحصائيات أمامهم.. الانتحار.. التلوث.. الإدمان.. الشذوذ.. العصابات.. الجرائم.. الإبادة..

وغرق المعلم في العد، فقلت: أظن أنني اقتنعت، فالإسراف سبب الهلاك.

قال: هلاك الفقير والغني.

قلت: صدق الله العظيم إذ قال:﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾(الشعراء: ١٥١ ــ ١٥٢)

الفرق بين الاقتصاد والخسة:

التفت، فإذا المعلم يهم بالانصراف عني أو أهم بالانصراف عنه، لكني أحسست أني لا أطيق تحمل تنزل الجوهرة علي، فبحثت في نفسي، فوجدت أني مع اقتناعي بكل ما قاله المعلم إلا أن شائبة لا تزال عالقة بي كما تعلق بأكثر الناس، تمنعني من الحصول على هذه الجوهرة النفيسة، فصحت، مستجمعا كل قواي: رويدك يا معلم، ورويدك يانفس، فلا تزال شبهة عالقة في النفس تمنع أشعة هذه الجوهرة النفيسة من التنزل علي.

قال: وما هي؟ على ألا تكون جدلا.

قلت: إن قومي يعتبرون الاقتصاد خسة.

قال: وما الخسة؟

قلت: نوع من البخل.. ممزوج بحرص.. ممزوج بسفاهة عقل.

قال: فليقولوا ما شاءوا، أتعبد الله، أم تعبد قومك؟ لقد سمعتك تنشد الشعر، فلماذا لا تردد هنا قول شاعركم:

دعِ النــاسَ لا تــرجُ الرضــى عنــكَ منــهم ... فلــيس لإرضــاءِ العبــدِ سَــبيلُ

إذا كنــتَ مِقْــداماً يقولــونَ أَحْمــقٌ ... وإن لم تكــنْ فظــاً يُقــالُ ذليــلُ

وإن كنــتَ جــواداً يقولــون مُسْــرِفٌ ... وإن أنــتَ لم تُسْــرِفْ يقــالُ بخيــلُ

ولا تتــهيبْ شــرَّ مــا أنــتَ حــاذق ... ولا ترقــبْ خــيرَ مــا أنــت آمــلُ

فخوفُــكَ لا يقصــي الــذي هــو قــادمٌ ... وشَــوْقُكَ لا يُــدْنِي الــذي هــو راحــلُ

قلت: صدقت، وقد نطق أبو العتاهية بقريب من هذا حين قال:

يـــــاربِّ إن النـــــاسَ لا ينصـــــفونني
فكيـــــفَ وإن أنصـــــفتُهم ظلمـــــوني

فـــــإن كـــــان لي شـــــيءٌ تَصَـــــدَّوا لأخـــــذِه
وإن جئْـــــتَ أبغـــــي شَـــــيْئَهم منعـــــوني

وإن نـــــالَهم بـــــذلي فـــــلا شـــــكرَ عنـــــدَهم
وإن أنـــــا لم أبـــــذلْ لهـــــم شَـــــتَموني

وإن طـــــرقتني نكبـــــةٌ فَكِهـــــوا بهـــــا
وإن صَـــــحِبَتْني نعمْـــــةِ حَسَـــــدوني

ألا إن أصـــــفى العـــــيشِ مـــــا طـــــابَ غِبُّـــــهُ
ومـــــا نلتُـــــهُ في لـــــذَّةٍ وسُـــــكونِ

ونطق ابن دريد الأزدي بابيات جميلة، فقال:

أرى النـــاسَ قـــد أُغْـــروا ببغْـــيٍ وريبـــةٍ | وغـــيٍ إذا مـــا ميـــزَ النـــاسَ عاقـــلُ

وقـــد لزمـــوا معـــنى الخِـــلافِ فكلـــهمْ | إلى نحـــوِ مـــا عـــابَ الخليفـــةَ مائـــلُ

إذا مـــا رَأَوا خَـــيراً رَمَـــوهُ بظنـــةٍ | وإن عـــاينوا شـــراً فكُـــلٌّ مناضـــلُ

وإن عاينوا حَبْراً أديباً مهذباً   حَسيباً يقولوا إنه لمُحاتِلُ

وإن كانَ ذا ذِهْنٍ رَمَوه ببدْعَةٍ   وسَمَّوهُ زنديقاً وفيه يُجادلُ

وإن كانَ ذا دينٍ يسموه نَعجةً   وليس له عَقْلٌ ولا فيه طائلُ

وإن كانَ ذا صمتٍ يقولون صُورةٌ   ممثلة بالعَيِّ بل هو جاهلُ

وإن كانَ ذا شرٍ فويلٌ لأمهِ   لماعنهُ يَحْكي من تَضُمُّ المحافلُ

وإن كانَ ذا أصلٍ يقولون إنما   يفاخرُ بالموتى وما هو زائلُ

وإن كانَ ذا مَجهولاً فذالك عندهم   كبيضِ رمالٍ ليس يُعرفُ عاملُ

وإن كان ذا مالٍ يقولون مالهُ   من السُّحْتِ قد رابي وبئسَ المآكلُ

وإن كانَ ذا فقرٍ فقد ذَلَّ بينهم   حقيراً مهيلاً تَزْدريهِ الأرذالُ

وإن قنعَ المسكينُ قالوا لقِلةٍ   وشحةِ نفسٍ قد حَوَتْها الأناملُ

وإن هو لمك يقنعْ يقولون: إنما   يطالبُ من لم يُعْطهِ ويُقاتلُ

وإن يكسبْ مالاً يقولوا: بهيمةٌ   أتاها من المقدور حَظٌ ونائلُ

وإن جادَ قالوا: مُسْرِفٌ ومبذرٌ   وإن لم يَجُدْ قالوا: شَحيحٌ وباخلُ

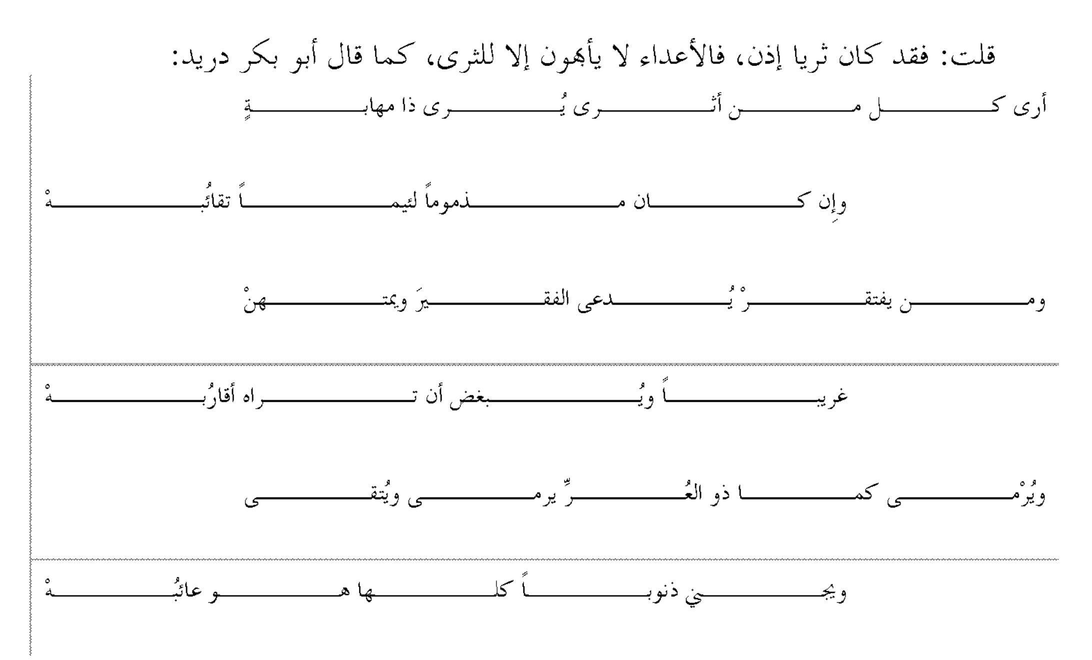
وإن صاحبَ الغِلْمانَ قالوا: لريبةٍ	وإن أجمعوا في اللفظِ قالوا: مباذلُ
وإن هَويَ النسوانَ سموه فاجراً	وإن عَفَّ قالوا: ذاك خُنْثى وباطلُ
وإن تابَ قالوا: لم يَتُبْ، منه عادةٌ	ولكن لإفلاسٍ وما تَمَّ حاصلُ
وإن حَجَّ قالوا: ليس للّهِ حَجَّهُ	وذاكَ رياءٌ أنتجتْهُ المحافلُ
وإن كان بالشطرنجِ والنردِ لاعباً	ولاعبَ ذا الآدابِ قالوا: مُداخلُ
وإن كانَ في كُلِّ المذاهبِ نابزاً	وكان خفيفَ الرُوحِ قالوا: مُثاقلُ
وإن كان مِغراماً يقولون: أهوجٌ	وإن كان ذا ثَبْتٍ يقولون: باطلُ
وإن يَعْتَلِلْ يوماً يقولون: عُقوبةٌ	لشَرٌّ الذي يأتي وما هو فاعِلُ
وإن ماتَ قالوا: لم يَمُتْ حَتْفَ أنفهِ	لما هو من شَرَّ المآكلِ آكلُ
وما الناسُ إلا جاحدٌ ومُعانِدٌ	وذو حَسَدٍ قد بانَ فيه التخاتلُ
فلا تتركنْ حَقاً لخيفةِ قائلٍ	فإن الذي تَخْشَىْ وتَحْذرُ حاصِلُ

قال: دعك من هذا، فقد نبهتك إلى أنا لسنا في جلسة شعر.

قلت: هو مرض مستعصٍ في، لا أكاد أنفك عنه.. فلنعد لحديثنا.. خبرني ما يرفع عني هذا الوهم، أو ما يزيل عني هذه الشبهة.

قال: سأترك لك رجلا عاش لا يأبه لأحد، ومع ذلك أبه به الكل، واحترمه الكل حتى أعداؤه؟

قلت: فقد كان ثريا إذن، فالأعداء لا يأبهون إلا للثرى، كما قال أبو بكر دريد:



أرى كل من أثرى يُرى ذا مهابةٍ
وإِن كان مذموماً لئيماً تقائبُهْ

ومن يفتقرْ يُدعى الفقيرَ ويمتهنْ
غريباً ويُبغض أن تراه أقارُبهْ

ويُرْمى كما ذو العُرِّ يرمى ويُتقى
ويجني ذنوباً كلها هو عائبُهْ

قال: إن أفقر من تراه من قومك له من المرافق والمال ما لم يحصل عليه هذا الرجل، وله من الأمن ما لم يظفر به، وله من الصحة ما لم يسعد به.

عجبت، وقلت: فقد بات المسكين إذن في ظل الخمول، ومات في طي العدم.

قال: بل إن الله رفع ذكره، فجعله منارة من منارات الحق، ومعراجا من معارج الهدى.

قلت: من هو؟ فقد شوقتني إليه.

التفت فإذا المعلم قد غاب في الأفق البعيد، وحل محله بديع الزمان صاحب رسائل النور.

قلت: بديع الزمان.. ما أشوقني إليك؟

قال: تريد الفرق بين الخسة والاقتصاد..

قلت: أجل فقومي مثل قومك يعتقدون الاقتصاد خسة.

قال: هناك بون شاسع وفرق هائل بين الاقتصاد والخسة، اذ كما أن التواضع الذي هو من الاخلاق المحمودة يخالف معنًى التذللَ الذي هو من الاخلاق المذمومة مع أنه يشابهه صورة. وكما ان الوقار الذي هو من الخصال الحميدة يخالف معنًى التكبّر الذي هو من الاخلاق السيئة مع أنه يشابهه صورة.

فكذا الحال في الاقتصاد الذي هو من الاخلاق النبوية السامية، بل هو من المحاور

التي يدور عليها نظام الحكمة الإلهية المهيمن على الكون، لا علاقة له أبداً بالخسة التي هي مزيج من السفاهة والبخل والجشع والحرص.

بل ليست هناك من رابطة بينهما قطعاً، الاّ ذلك التشابه الظاهري.

قلت: فهلا ضربت لي على ذلك مثالا، فعهدي بك صاحب أمثلة.

قال: إن الأمثلة جند من جند الله، فهاك هذا الحدث المؤيد لهذه الحقيقة[1]:

دخل عبدالله بن عمر بن الخطاب ﷺ وهو أكبر أبناء الفاروق الاعظم خليفة رسول الله ﷺ وأحد العبادلة السبعة المشهورين ومن البارزين بين علماء الصحابة الأجلاء، دخل هذا الصحابي الجليل يوماً في مناقشة حادة لدى تعامله في السوق على شيء لا يساوي قرشاً واحداً، حفاظاً على الاقتصاد وصوناً للأمانة والاستقامة اللتين تدور عليهما التجارة.

وفي هذه الاثناء رآه صحابي آخر، فظنّ فيه شيئاً من خسّة فاستعظمها منه، اذ كيف يصدر هذا الامر من ابن أمير المؤمنين وخليفة الارض. فتبعه الى بيته ليفهم شيئاً من احواله، فوجد أنه قضى بعض الوقت مع فقير عند الباب وتبادلا حديثاً في لطف ومودة، ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب اطراف الحديث مع فقير آخر هناك. اثار هذا الامر لهفة ذلك الصحابي فأسرع الى الفقيرين للاستفسار منهما قائلا:(هلاّ تفهماني ماذا فعل ابن عمر حينما وقف معكما؟)

قالا:(لقد اعطى كلاً منا قطعة ذهب)

فراعه الامر وقال شدهاً:(يا سبحان الله.. ما أعجب هذا الامر، انه يخوض في السوق في نقاش شديد لأجل قرش واحد، ثم ها هو ذا يغدق في بيته بمئات أضعافه على محتاجين اثنينَ عن رضىً دون ان يشعر به أحد)

فسار نحو ابن عمر ﷺ ليقول له:(أيها الإمام: ألا تحل لي معضلتي هذه؟ لقد فعلتَ في السوق كذا وكذا وفي البيت كذا وكذا؟!)

فردّ عليه قائلاً:(إن ما حدث في السوق هو نتيجة الاقتصاد والحصافة، فعلتُه صوناً للامانة وحفظاً للصدق اللذين هما اساس المبايعة وروحها، وهو ليس بخسّةٍ ولا ببخل، وان ما بدر مني في البيت نابع من رأفة القلب ورقّته ومن سمو الروح واكتمالها.. فلا ذاك خسّة ولا هذا اسراف)

---

(١) نروي هذه الحادثة هنا كما رواها بديع الزمان، فهي أكثر تصويرا، وأبلغ في إيصال المعنى، وقد تصرفنا بعض التصرف في النقل.

قلت: إنها حادثة معبرة، ليت الفقراء الذين يزورون على أنفسهم بمظاهر الغنى يفهموها.

قال لي بديع الزمان: وأزيدك مقالة مهمة لتتأمل فيها، قال أبو حنيفة ﷺ:(لا اسراف في الـخير، كما لا خير في الاسراف)، أي كما لا إسراف في الـخير والاحسان لـمن يستـحقه، كذلك لا خير في الاسراف قط.

قلت: فالخسة في ترك الخير، لا في الاقتصاد..

خرج بديع الزمان كما دخل، وقد فرج عني تلك الشبهة، ورأيت يدي وقلبي يمتدان لتلك الجوهرة النفيسة.

قلت في نفسي بعدها: إن أكثر من نصمهم بالفقر في هذا العالم سواء كانوا أفرادا أو شعوبا ليسوا فقراء بالمعنى الحقيقي للكلمة، فلديهم من الضرورات والحاجيات والتحسينيات ما يكفي لأن يعيشوا عيشة سعيدة ربما تفوق عيش المترفين.

ولكنهم بسبب الفكر السائد، فكر الإسراف.. بمعناه الواسع.. الإسراف في المأكل والشرب، واللهو اللعب، والتمتع بالمرافق التي أسستها الحضارة، والعمران الذي بشرت به، صاروا يستشعرون فقرهم ويحزنون له، وينشغلون به عما أعطاهم الله من النعم.

ومن ناحية أخرى فإن الإسراف هو السبب الذي أوقع هؤلاء الأفراد والأمم في الفقر، فميزانيات كثير من الدول ترهق بدواعي الإسراف الذي لا مبرر له.

والإحصائيات الكثيرة تكفي للدلالة على ذلك.

وقد عبر بديع الزمان النورسي عن هذه الحالة بمحق البركة، وذكر مثالا على نفسه، فقال:(هناك من الدلائل القاطعة التي لا يـحصرها العدّ بأن الاقتصاد سبب حازم لإنزال البركة، واساس متين للعيش الافضل. أذكر منها ما رأيته في نفسي وبشهادة الذين عاونوني في خدمتي وصادقوني باخلاص فأقول:

لقد حصلتُ احياناً وحصل اصدقائي على عشرة اضعاف من البركة بسبب الاقتصاد. حتى انه قبل تسع سنوات عندما أصرّ عليّ قسـم من رؤساء العشائر الـمنفيين معي الى ((بوردور)) على قبول زكاتهم كي يـحولوا بيني وبين وقوعي في الذلة والـحاجة لقلة ما كانت عندي من النقود، فقلت لاولئك الرؤساء الاثرياء: برغم أن نقودي قليلة جداً الاّ انني املك الاقتصاد، وقد تعودت على القناعة، فانا أغنى منكم بكثير فرفضتُ تكليفهم الـمتكرر الـملـح.. ومن الـجدير بالـملاحظة ان قسـماً من اولئك الذين عرضوا عليّ زكاتهم قد غلبهم الدَّين بعد سنتين، لعدم التزامهم بالاقتصاد، الاّ أن تلك النقود الضئيلة قد كفتني – ولله الـحـمد –

ببركة الاقتصاد الى ما بعد سبع سنوات، فلـــم تُرق مني ماء الوجه، ولـــم تدفعني لعرض حاجتي الى الناس، ولـــم تفسد عليّ ما اتـــخذته دستوراً لـــحياتي وهو ((الاستغناء عن الناس)).

نعم ان من لايقتصد، مدعوّ للسقوط في مهاوي الذلّة، ومعرض للانزلاق الى الاستـــجداء والـــهوان معنىً.

وذكر مثالا عن نزع البركة عن مصالح المجتمع، فقال:(لقد شاهدت الاضرار الـــجسيـــمة والـــخسائر الفادحة التي تسفر عن الاسراف وعدم الاقتصاد شاهدتها متـــجسدة في نطاق واسع مـــمتد وهي كما يأتي:

جئت الى مدينة مباركة – قبل تسع سنوات – كان الـــموســـم شتاءً فلـــم اتـــمكن من رؤية منابع الثروة وجوانب الانتاج في تلك الـــمدينة، قال لي مُفتيها رحـــمه الله: ان أهالينا فقراء مساكين. أعاد قولـــه هذا مراراً. أثـّــر فيّ هذا القول تأثيراً بالغاً مـــما أحاش عطفي، فبت استرحـــم وأتألـــم لأهالي تلك الـــمدينة فيـــما يقرب من ست سنوات. وبعد ثماني سنوات عدتُ اليها وهي في اجواء الصيف، وأجلت نظري في بساتينها فتذكرت قول الـــمفتي رحـــمه الله فقلت متعجباً:

سبـــحان الله! ان مـــحاصيل هذه البساتين وغلاتها تفوق حاجة الـــمدينة بأسرها كثيراً، وكان حرياً بأهاليها ان يكونوا أثرياء جداً! بقيت في حيرة من هذا الامر.. ولكن ادركت بـــحقيقة لـــم تـــخدعني عنها الـــمظاهر، فهي حقيقة استرشد بها في ادراك الـــحقائق، وهي: ان البركة قد رفعت من هذه الـــمدينة بسبب الاسراف وعدم الاقتصاد. مـــما حدا بالـــمفتي رحـــمه الله الى القول: ان اهالينا فقراء ومساكين، برغم هذا القدر الواسع من منابع الثروة وكنوز الـــموارد.

نعم، انه ثابت بالتـــجربة وبالرجوع الى وقائع لاتـــحد بأن دفعَ الزكاة، والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة. بينـــما الاسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة)

٣ ـــ جوهرة الزهد

صعدت مع المعلم طابقا آخر في قصر القناعة، فوجدنا شعاعا عظيما متلألئا، سألت المرشد عنه، فقال: هذه جوهرة نفيسة من جواهر القناعة، اسمها الزهد.

قلت: نحن نعرف هذا الاسم، لكن قومي يمقتونه ويسبونه ويضحكون على أهله، ويكتبون الكتب الكثيرة في الرد عليهم، ويحاضرون المحاضرات الطويلة ليحاصروهم ويحبسوهم.

قال: عن أي زهد يتحدثون[١]؟

قلت: هم يطلقون القول إطلاقا..

قال: أخطأ من أطلق، فالحكمة تطلب التقييد، ألم تسمع إلى الحق تعالى وهو يقول عن أهل الكتاب:﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران:١١٣)؟

ألم تسمع إلى القرآن الكريم في حديثه عن الأعراب؟

قلت: اشتد عليهم القرآن الكريم اشتدادا عظيما، لما صدر منهم من أنواع الانحراف، قال تعالى:﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:٩٧)، وقالتعالى:﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(التوبة:٩٨)، وقالتعالى:﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾(التوبة:١٠١)، وقالتعالى:﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا

---

(١) يفهم معنى الزهد في اصطلاحه الخاص، بما ذكره الغزالي من أقسام الناس من مواقفهم من المال، وهي ستة مواقف:

الاستغناء: وهي أن يستوي عنده وجود المال وفقده فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك بل حاله كما كـــان حال عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ إذا أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادمتها ما استطعت فيما فرقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لو ذكرتيني لفعلت فمن هذا حاله لو كانت الدنيا بحـــذافيرها في يـــده وخزائنه لم تضره إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يده غيره وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعا.

الزهد: وهو أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله.

الرضى: وهو أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهد فيه لو أتاه.

القناعة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا عفوا أخذه وفرح به وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به

الحرص: أن يكون تركه الطلب لعجزه وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشـــغول بالطلب

الاضطرار: وهو أن يكون ما فقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب.

أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الحجرات:١٤)

قال: ولكن حكمة القرآن الكريم تأبى أخذ البرئ بذنب الجاني، فقد أثنى الله على الأعراب ثناء عظيما، فقال تعالى:﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:٩٩)

قلت: فأنت تقول إذن بأن الزهاد كأهل الكتاب والأعراب منهم المحسن، ومنهم المسيء.

قال: نحن لا نتحدث عن هذا الآن، فذلك موضوع آخر، محله رسالة أخرى، نحن نريد هنا تبيين دور الزهد بمعناه الصحيح في تربية النفس على القناعة، وفي ملأ الفراغ الذي ينشئه الطمع، وفي قتل الفقر الذي يجر صاحبه إلى الكفر.

قلت: ولكن الحكماء من قومي يقصرون الزهد على الأغنياء، ففيماذا يزهد الفقير!؟

قال: الزهد مقام من مقامات الدين، وخلق من أخلاق المرسلين، ووصف من أوصاف الأولياء والصالحين، لا يحرم منه مؤمن لفقره، ولا يبعد عنه لغناه.

قلت: كيف ذلك، فالفقير ليس لديه ما يزهد فيه، وقد قيل لابن المبارك ﷺ: يا زاهد، فقال:(الزاهد عمر بن عبد العزيز، إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها، وأما أنا ففيماذا زهدت)

قال: ذلك لتواضعه ﷺ..وإلا فكيف يظن بإمام من أئمة الدين كتب كتابا في الزهد أن لا يتحقق به.

قلت: إن قومي يفهمون من قوله هذا قصر الزهد على الكبراء.

قال: أصابوا وأخطأوا.

قلت: هذا تناقض.. أو بين لي فيم أصابوا، وفيم أخطأوا؟

قال: أصابوا في كون الزهد لا يظهر ولا يكمل معناه إلا في الأغنياء، وأخطأوا في حصره فيهم، ففرق بين أن يكمل فيك الشيء، وبين أن يكون فيك أصله.

قلت: اضرب لي على ذلك مثالا.

قال: أرأيت لو كان في بيتك مائة صرة من الذهب الخالص، ولم يسمع بها أحد، أكنت بها غنيا لا تحل لك الزكاة.

قلت: أجل، لأني أستطيع صرفها في أي لحظة.

قال: ولكن الناس بسبب عدم رؤيتهم لها قد يعتبرونك فقيرا.

قلت: ذلك أرحم لي، ولا يضرني ما اعتقدوا.

قال: فإن أظهرتما بما اشتريت من المتاع.

قلت: خرجت من وصف الفقر إلى وصف الغنى.

قال: في نظرهم، أم في حقيقة الحال؟

قلت: في نظرهم، لأني كنت غنيا قبل نظرهم، بدلييل عدم حل الزكاة لي.

قال: فكذلك الزهد.

قلت: فما وجه المقارنة؟

قال: أي سلوك أو مقام من مقامات الدين لا ينفك عن ثلاثة أمور: العلم والحال والعمل، فالعلم دافعها، والحال حقيقتها، والعمل مظهرها وثمرتها.

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك من الحس، فإني لا أكاد أفهم المعاني المجردة.

قال: أرأيت لو قربت إلى نار لتحرق بلظاها، ماذا كنت ستفعل؟

قلت: أصيح وأولول، وأدفع بجهدي كله من يريد أن يلقيني فيها.

قال: فهذا العمل، أتعلم أنه لم يكن ليحصل منك ما حصل لولا العلم والحال.

قلت: كيف؟

قال: علمك بأن النار محرقة ملأ نفسك رعبا منها، وذلك الرعب جر إلى ذلك الصياح الذي وقعت فيه.

قلت: فهمت الآن، ولكن ما علاقة ذلك بزهد الفقراء والأغنياء.

قال: أرأيت لو أن ذلك العدو الذي أراد إلقاءك في النار لم يفعل، أو لم يوجد، أتقول بأن حال الخوف من النار لا يوجد فيك؟

قلت: لا، بدليل أني لو تعرضت في أي لحظة لذلك لأبديت نفس السلوك.

قال: فكذلك الزهد، فهو في الفقير قوة كامنة، وفي الغني قوة ظاهرة.

قلت: ولذلك إذن نهاهم ابن المبارك عن تلقيبه بالزاهد خشية أن يلقبوا به كل فقير.

قال: نعم.. فقد يكون الفقير أحرص على الدنيا من الغني، ولكنه يستر حرصه بإظهار الزهد.

قلت: فبين لي سر الزهد وحقيقته، فقد شوقتني إليه.

قال: لقد عرفنا عند الحديث عن القناعة أن الطامع همه من حياته أن يملأ جوفه.

قلت: نعم بدليل قوله ﷺ:(لو كان لابن آدم واد لأحب أن يكون له ثان ولو كان له

واديان لأحب أن يكون إليهما ثالث ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ثم يتوب الله على من تاب)[1]

قال: وذكرنا بأن الفراغ الذي يعانيه الطامع والحريص يجعله يطلب أشياء كثيرة لا حاجة له إليها حرصا على ملأ فراغه.

قلت: نعم، وقد شبهته حينها بمن يريد أن يملأ حفرة عميقه، فوضع فيها التراب، فلم يكف، فوضع فيها الحجارة، فلم تكف، فراح يضع المزابل والقمامات.

قال: فهذا هو الفرق بين الزاهد والحريص، فالزاهد لا يشعر بفراغ جوفه فلذلك يملؤه بالقوت من الحلال من غير أن تتشتت عليه نفسه، وأما الحريص، فيلجئه ذلك إلى كل باب، ولو إلى قمامات الناس ومزابلهم.

قلت: لكأني بالزهد هو عين الاقتصاد.

قال: لا.. الاقتصاد يتناول الكم، والزهد يتناول الأنواع.

قلت: كيف؟

قال: المقتصد لا يسرف، والزاهد لا يرغب.

قلت: كيف لا يرغب، والرغبة فطرة.

قال: هو يرغب، ولكن رغبة الزاهد تختلف عن رغبة الحريص.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الحريص يرغب في المتاع، والزاهد يرغب في متاع أعظم منه، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾(يوسف:٢٠)

قلت: نعم، هذه الآية تتحدث عن إخوة يوسف[2] عليه السلام الذين باعوه بثمن قليل لزهدهم فيه.

قال: أرأيت لو أن أصحاب تلك القافلة لم يعطوا شيئا لإخوة يوسف عليه السلام، أكانوا سيبيعونه لهم؟

قلت: نعم، لأن غرضهم التخلص منه.

قال: فسماهم الله زاهدين.

قلت: نعم، لقد زهدوا في أخيهم، وفضلوا تلك الدراهم القليلة عليه.

---

(١) البخاري ومسلم والترمذي.

(٢) هذا ما ذهب إليه مجاهد وعكرمة، وقال قتادة: بل هو عائد على السيارة؛ والأول أقوى، لأن قوله ﷻ:﴿ وكانوا فيه من الزاهدين﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة، لأن السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه زاهدين لما اشتروه، فترجح من هذا أن الضمير في ﴿شروه﴾ إنما هو لإخوته.

قال: فكذلك الزاهد الذي تحقق بهذا المقام من مقامات الدين، فإنه يقارن بين ما ادخر الله له في الآخرة إن أرضى الله، وبين المتاع الدنيوي، فيرى عظمة ما ادخر بجانب ما يرى من متاع، فتنصرف نفسه إلى متاع الآخرة، زاهدا في متاع الدنيا.

قلت: أيسعد بذلك؟

قال: كل السعادة.. ولهذا عالجت الشريعة آلام الفقير بحضه على الزهد، أي ترك الرغبة فيما لم يؤت، وتوجيهها إلى الرغبة في الله وفيما في يد الله.

قلت: فالذين يحرمون الفقير من الزهد يسيئون إليه.

قال: كل الإساءة.. لأنهم حرموه من التسلي بما ادخر له عما لم يؤته.

قلت: فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: أرأيت إن كنت في سفر مع قافلة من القوافل، وكان في القافلة أمير محسن، فوهب الكل هبات مختلفة، ولكنك كنت المحروم الوحيد في القافلة.. أكنت تحزن لذلك وتتأثر له؟

قلت: أجل.. خاصة إن فخروا علي بما أعطوا.

قال: وهل سيمتلئ قلبك حقدا على هذا الذي عمي بصره أن يراك، أو شحت خزائنه أن تصلك؟

قلت: أجل.. بل سأسأل نفسي كثيرا عن علة حرماني مع فيض خزائنه.

قال: أرأيت إن استدعاك إلى جنابه، ثم صرف الحجاب، وأسر لك قائلا:(لقد ادخرت لك هدية عظيمة تفوق كل الهدايا التي وهبتها لجميع القافلة، وهي من العظمة بحيث لا يمكن أن تأخذها هنا)، أتفرح لذلك؟

قلت: أجل، بل أقبل قدميه، ويمتلئ قلبي محبة له.

قال: فإن فخر عليك رجال القافلة بما أوتوا، وضحكوا على حرمانك.

قلت: أضحك عليهم في قلبي، لأني أعلم أني قد أعطيت أضعاف ما أعطوا بالإضافة إلى القرب العظيم الذي نلته من أمير القافلة.

قال: فطبق هذا المثال على ما نحن فيه، فالله قد أعطى كثيرا من الأغنياء من كل الأموال، فإن نظر الفقير إلى ما أعطوا حزن وتأسف، بل قد يؤديه ذلك إلى الكفر، لكنه إن نظر إلى ما ادخر الله له إن أطاعه، لا يلبث حتى ينال قسمته الموعودة.

قلت: لقد ذكرتني بحديث له علاقة بهذا، فقد ذكر فضالة بن عبيد ﵁ أن رَسُول اللَّهِ ﷺ

كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة[1]، وهم أصحاب الصفة حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين. فإذا صلى رَسُول اللَّهِ ﷺ انصرف إليهم فقال:(لو تعلمون ما لكم عند اللّه تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة)[2]

ثم التفت إلى نفسي، فإذا بالاعتراض لا يزال مستقرا لم أستطع قلعه، فقلت: ولكن القافلة في سفر قصير.

قال: والدنيا سفر، وهي أقصر مما تصور، ألم تسمع قول الحق تعالى:﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾(يونس:٤٥)

قلت: بل قد نص على هذا آيات من القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾(الاحقاف:٣٥)، وقالتعالى:﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾(النازعـات:٤٦)، وقالتعالى:﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً﴾(طـه:١٠٤)، وقالتعالى:﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾(الروم:٥٥)

قال: بل نطق بهذا رسول الله ﷺ، فعن عبد اللّه بن مسعود ﷺ قال: نام رَسُول اللَّهِ ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه. قلنا: يا رَسُول اللَّهِ لو اتخذنا لك وطاء. فقال:(ما لي وللدنيا! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[3]

قال: فهذه الحقيقة العظيمة التي نطقت بها هذه النصوص أعظم سلوى للفقير، وأعظم دافع له على ترك الرغبة فيما لم يؤت ليتحقق بالزهد، ولينال عن طريقه ما ادخر له من الفضل.

قلت: لقد ذكرتني بقول لأبي يزيد ﷺ، قاله لأبى موسى عبد الرحيم، قال له:(فى أى شىء تتكلم؟)، قال:(فى الزهد)، قال:(فى أى شىء؟)، قال:(فى الدنيا)، فنفض يده وقال:(ظننت أنه يتكلم فى شىء، والدنيا لا شىء، إيش يزهد فيها)

وقد قال الغزالي معقبا على هذا بهذا المثال:(مثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه،

---

(١) الفاقة والجوع الشديد.
(٢) التِّرمِذِيُّ وقال حديث صحيح.
(٣) التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره فى جميع مملكته أفترى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه فى مقابلة ما قد ناله)[1]

ثم شرح هذا المثال بقوله:(فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها فى حال المضغ وتنقضى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها فى المعدة ثم تنتهى إلى النتن والقذر، ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للمتناهى إلى مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة غير صافية، فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد؟ فإذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به إلا لقصور معرفته)[2]

ثم التفت إلى المعلم، وقلت: فقد حببت لي الزهد وعظمته، فما السبيل إليه؟

قال: بأن تعلم الجوائز التي ينالها الزاهد في الدنيا قبل الآخرة.

قلت: أينال الزاهد جوائزه في الدنيا أيضا؟

قال: بالإضافة إلى ما ادخر له في الآخرة.

قلت: إن هذا سيجعل قومي يقبلون عليه، ويتنافسون في تحصيله، فإني أعلم مدى رغبتهم في الجوائز وحرصهم عليها.. فما هذه الجوائز؟

قال: أربع: الهمة، والكمال، والعزة، والراحة، كل جائزة منها بالدنيا وما فيها.

---

(١) الإحياء:٢٢٦/٤.
(٢) الإحياء:٢٢٦/٤.

قلت: فما الجائزة الأولى؟

قال: جائزة الهمة العالية التي يتحقق بها الزاهد.

قلت: لم أفهم.

قال: أرأيت من كان أمله في مستقبل حياته أن يكون حمالا أو حطابا، أيتساوى مع من همته أن يصير وزيرا أو ملكا أو استاذا كبيرا وعالما خطيرا.

قلت: بل همة الثاني أعلى.. ولكن أنى له أن يتحقق بما يحلم به.

قال: أرأيت إن وجدت من يوفر لك دواعي الهمة الثانية، وييسر لك سبيلها، ألا يكون بذلك قد قد كافأك؟

قلت: أعظم مكافأة، بل يكون قد قدم لي الخدمة التي تحولني إنسانا آخر، ففرق كبير بين أن أجمع الحطب للناس أو أحمل متاعهم، وبين أن أنال تلك المناصب الرفيعة.

قال: فإن الله تعالى وفر للفقير الذي يهزأ الناس من فقره، أو يرحموه لفقره من الفرص ما يلتحق به مع أصحاب الهمم العالية لينال ما نالوه.

قلت: كيف؟

قال: أليست الهمة العالية هي طلب المعالي والترفع عن السفاسف؟

قلت: بلى.

قال: فإن الزهد في الدنيا لا يتحقق به إلا أصحاب الهمم العالية.

قلت: كيف يكون ذلك، ولا أرى أحدهم يحلم بأن يصير وزيرا أو ملكا.

قال: بلى، هو يحلم بذلك، بل يحلم بما هو أرفع من ذلك.

قلت: فهو راغب إذن لا فرق بينه وبين الحريص.

قال: هو راغب ولكن رغبته ليس في الأحمال والحطب، وليس في الوزارة أو الملك، وإنما في أمور أخطر وأعظم.

قلت: فيم يرغب، ما دام لم يرغب في هذه الأمور التي يرغب فيها الناس؟

قال: الزهاد نوعان: منهم من يرغب في الله ويكتفي به، ومن وجد الله لم يفقد شيئا، ومنهم من يرغب في متاع لا يتحول، وزاد لا يتطرق إليه الفساد، نظر إلى الدنيا، فأنفها وطلب دارا أجمل منها وأكمل.

قلت: أتقصد الدار الآخرة، والجنة.

قال: نعم.. فإن الزهاد قارنوا بين هذه الدار وتلك الدار، وعلموا أن حرصهم على هذه الدار قد يبعدهم عن تلك الدار، فملأوا همتهم بتلك الدار، وزهدوا في هذه الدار.

قلت: لكأني بالقرآن الكريم يحث على الزهد.

قال: بل يحث على أصل أصول الزهد، وهو الاطلاع على حقيقة الدنيا، ومقارنتها بالدار التي لا تبيد والملك الذي لا يفنى.

قلت، وكأني أتذكر شيئا كنت أعلمه ولكني كنت أجهله: بلى يامعلم لكأني أول مرة أسمع الحق، وهو يقول:﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل:٩٦)

قال: نعم، فقد كنت تقرأ هذه الآية، ولم تكن تسمعها، فالله تعالى يرغبك في الآخرة ببقائها، ويزهد في الدنيا بفنائها، ودينار دائم تملكه خير من عشرة آلاف ما تستقر في يدك حتى تخرج منها.

قلت: بل إن الله تعالى لا يصف متاع الدنيا بالنفاد فقط، بل يصفه بالقلة، فمتاع الدنيا أقل من متاع الآخرة، قال تعالى:﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾(النساء: من الآية٧٧)

قال: وفي هذه الآية أعظم الرد على من يصفون الزهد بالسلبية، ويصفون الزاهد بالكسل.

قلت: كيف؟

قال: ألم يقل الله تعالى في هذه الآية:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾(النساء:٧٧)

قلت: نعم، فالله تعالى يخبر عن علة كسل المتقاعدين وسلبيتهم.

قال: ولا سبب لذلك يذكره إلا حرصهم على الدنيا ورغبتهم في البقاء فيها، فلذلك أخبرهم أن متاع الدنيا قليل يستحق أن يرغب عنه، ومتاع الآخرة عظيم يستحق أن يرغب فيه.

قلت: ولهذا يعاتب الله تعالى من آثر الحياة الدنيا على الآخرة، ويبين له مبلغ لغبن الذي وقع فيه، قال تعالى:﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى:١٧)

قال: ذلك أن الإنسان يحب الخير ودوام الخير، ولذلك أخبره تعالى بأن هذين الوصفين لا يتحققان إلا بكمالهماإلا في الدار الآخرة.

قلت: أجل، وقد ورد ذلك في مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طــه:١٣١)

قال: هذه الآية تحض الأمة عن طريق رسولها بالزهد حتى لا يغرهم المتاع الموجود عن المتاع المدخر.

قلت: وقال تعالى:﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(القصص:٦٠)

قال: وفيها ترغيب أعظم، فالله تعالى يصف ما في الدنيا من الزخارف بكونه مجرد متاع للحياة الدنيا، وهي الحياة البسيطة الحقيرة، ثم يختم ذلك بالدعوة للتأمل والتفكر، فمن الغبن أن يباع الغالي بالرخيص، والزهيد بالنفيس.

قلت: وقال تعالى:﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(الشورى:٣٦)

قال: بين لهم تعالى في هذه الآية وصفا من أوصاف الزاهدين، وهو الإيمان والتوكل، فليس كل جائع زاهد، بل الزاهد من زهد بالله ولله.

قلت: ولهذا قال تعالى حاكيا عن سحرة فرعون بعد أن لاقوا لذة معرفة الله:﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾(طــه:٧٣)

قال: وقد أشاروا ﷺ إلى أعظم الزهد، وهو الرغبة في الله، وهو زهد المقربين الذين انشغلوا بالنظر لله عن النظر لكل شيء.

قلت: فهلا تضرب لي أمثالا على هذه المعاني أنقلها لقومي، فالأمثال جند من جند الله يصل بالمعاني إلى خزانة الخيال ليضعها في العقول والقلوب.

قال: إن القرآن الكريم كفانا ضرب هذه الأمثلة، فهو يقرب صور هذه الحقائق بالأمثال العظيمة، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(يونس:٢٤)، وقالتعالى:﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾(الكهف:٤٥)، وقالتعالى:﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ

حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد:٢٠)

قلت: فهلا تقرب لي هذه الأمثلة وتصورها لي؟

قال: لا يوجد ما هو أعظم من تصوير القرآن الكريم للحقائق.

قلت: ولكن الحقائق تحتاج أحيانا لتفسيرها، فمن الناس من لا يطيق تفهم الحقائق لكثافته وغلاظة طبعه، ولا أنكر أني مبتلى ببعض هذا الطبع.

قال: أخرجت إلى الحقول في الربيع الجميل؟

قلت: وكيف لا أخرج، وهل الدنيا إلا جمال الربيع وزهر الربيع ونسائم الربيع.

قال: فهل رأيت الأزهار المتفتحة، والأعشاب النظرة..؟

قلت: والجمال المتدفق الحي الذي يشرق من الجبال والوهاد، وكأن الدنيا كلها تبتسم.. بل ترسل ضحكات عريضة.

قال: فهل مررت به في الصيف عندما ترسل الشمس لهيبها؟

قلت: عندها يتحول الحي ميتا والجمال دمامة، وتنقلب الابتسامة الجميلة آهات وأحزانا.

قال: فهذه هي الدنيا.. أيام معدودة من الابتسامة.. ثم يعقبها صيف الألم وخريف الأحزان.

قلت: والآخرة؟

قال: الآخرة ربيع دائم، فهل تستبدل الربيع الذي لا يستمر إلا أياما معدودة بالربيع الذي لا تفنيه الأيام، ولا تبلي ثيابه السنون.

قلت: فهمت المثال.. لكأني بنا قد غرقنا في نسائم زهرة من زهرات هذا الربيع الفاني، واستبدلنا بها ربيع الأزل.

قال: بل أنتم فعلتم أخطر من ذلك.. بعتم الله بالعدم، وبعتم الجنة بالمستنقعات.. وبعتم السعادة بالأحزان..

قلت: فما المخرج؟

قال: الزهد..

قلت: تقصد رفع الهمة عن الدنيا..

قال: إن استطعتم أن ترفعوا الهمة عن الأكوان جميعا، وتكتفوا بالله.. فستنالون من يديه ما لا يخطر لكم على بال.. وما لا تستطيع أحلامكم أن تفكر فيه.

قلت: ولكن..

التفت فلم أر المعلم، لست أدري هل انصرف عني أو انصرفت عنه.

***

بعد ذهابه بقيت متأملا ما قال، فإذا بي أسمع من القرآن الكريم آيات لم أكن أفهمها، أو كنت أفهمها على حسب ما يمليه علي قومي.

لقد رأيت القرآن الكريم أعظم كتاب يحث على الزهد، ويربي النفوس عليه، فاقتنعت بأن الزهد ليس وليد عناصر أجنبية، وإنما هو عظيم الجذور في هذا الدين، إنه وليد التربية القرآنية.

فالله تعالى يأمرنا بالزهد بقوله:﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾(الشورى:٢٠)

وهو يصف الكفار بالغرق في حب الدنيا غرقا يجعلهم ينسون الآخرة، فيجرهم ذلك إلى الصد عن سبيل الله، قال تعالى:﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ (ابراهيم:٣)

وكان النبي ﷺ يربي أصحابه على هذه المعاني القرآنية، فالزهد والتزهيد سنة نبينا ﷺ كما أنه تربية ربنا وتأديبه.

فالنبي ﷺ يحذر هذه الأمة من الدنيا، فيقول:(إن الدنيا حلوة خضرة، وإن اللّه مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء)[1]

ويذكر ﷺ ما تنتجه الرغبة في العاجلة، وهي نقيض الزهد، فيقول:(بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم: يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا؛ يبيع دينه بعرض من الدنيا)[2]

وكان أخشى ما يخشاه ﷺ على أمته الغرق في الدنيا وما تجره على أصحابها من الغفلة والانصراف عن الله، وقد روي أن أبا عبيدة بن الجراح جاء بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رَسُول اللَّهِ ﷺ، فلما صلى رَسُول اللَّهِ ﷺ انصرفوا فتعرضوا له فتبسم رَسُول اللَّهِ ﷺ حين رآهم، ورأى رغبتم فيما جاء به أبوعبيدة، فقال:(أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟)، قالوا: أجل يا رَسُول اللَّهِ. فقال:(أبشِرُوا وأمِّلُوا ما يَسُرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على

---

(١) مسلم.

(٢) مسلم.

من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم)[1]

فالنبي ﷺ لم يخش على أمته الفقر الذي قد ييسر لهم طريق الزهد، وإنما خشي عليهم بسطة الدنيا التي قد تجرهم إلى الهلاك.

ولهذا لم تسقط كثير من المدائن الإسلامية إلا بعد أن بسط على حكامها من الدنيا ما شغلهم، ومن الترف ما جعلهم لقمة سائغة في فم كل طامع.

وكان ﷺ يشتد في التحذير من الترف الذي وقعت فيه الأمة في عصورها المختلفة، فعن سعيد الخدري ﷺ قال: جلس رَسُول اللَّهِ ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال:(إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)[2]

وكان ﷺ ــ لتقرير هذه الحقائق، وتنمية الزهد في الدنيا، ورفع همة أصحابه وأمته ــ يسلك المسالك المختلفة، فيبين أن العيش الحقيقي هو عيش الآخرة، قال ﷺ:(اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة)[3]

ويخبر أن كل ذلك المتاع الذي يتهافت عليه الناس لن يصحب أصحابه، قال ﷺ:(يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله؛ فيرجع اثنان ويبقى واحد: يرجع أهله وماله، ويبقى عمله)[4]

ويقارن لهم بين متاع الدنيا ولذائذها بمتاع الآخرة ولذائذها مقارنات شتى:

فيصف ما يحدث لأنعم أهل الدنيا من الجاحدين، ويقارنه بما يحدث لأبأس أهل الدنيا من المؤمنين، فيقول:(يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط، هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ في الجنة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط، هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط)[5]

ويقارن بين دوام الدنيا وأنواع نعيمها بالآخرة ويضرب مثالا على ذلك، فيقول:(ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع!)[6]

ويصف لهم حقارة الدنيا وهوانها على الله، ويشبهها بجدي أسك[7]، فقد مر ﷺ بالسوق

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) البخاري ومسلم.
(٣) البخاري ومسلم.
(٤) البخاري ومسلم.
(٥) مسلم.
(٦) مسلم.
(٧) الصغير الأذن.

والناس كَنَفَتَيْهِ[1]، فمر بجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال:(أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟) فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال:(أتحبون أنه لكم؟) قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً أنه أَسَكّ فكيف وهو ميت! فقال:(فوالله للدنيا أهون على اللّه من هذا عليكم)[2]

بل اعتبر ﷺ الراغب في الدنيا المعظم لها عابدا من عابديها، فقال ﷺ:(تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة! إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض)[3]

ولهذا كله أمر ﷺ أن يعيش المؤمن في الدنيا بقلب مملوء بالآخرة، فيكون مع الناس ظاهرا غريبا عنهم باطنا، فقال ﷺ:(كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل)[4]

بل إنه ﷺ دعا إلى الزهد بهذا اللفظ، أو بهذا المصطلح الذي يتكالب عليه من لا يفقه حقيقته وأثره في النفس والمجتمع، فعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رَسُول اللَّهِ دلني على عمل إذا عملته أحبني اللّه وأحبني الناس. فقال:(ازهد في الدنيا يحبك اللّه، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)[5]

---

(١) أي عن جانبيه.

(٢) مسلم.

(٣) البخاري.

(٤) البخاري.

(٥) حديث حسن رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة.

الكمال

قال لي المعلم، وقد رآني مستغرقا في سماع النصوص التي كنت أقرؤها: هاك الجائزة الثانية التي أنعم الله بها على الزهاد.

مددت يدي، وقلت: هاتها.

ابتسم، وقال: امدد يد بصيرتك، فما تمتد إليه يد جارحتك ينفد.

قلت: تعودنا أن لا نعرف المدد إلا في اليد.

قال: ولذلك تنكرون الزهد، وتنكرون فيوضات الله وأمداده على عباده الزاهدين الذين اصطفاهم بالكمال حين رفعوا هممهم إليه وإلى ما عنده.

قلت: فأنا في انتظار جائزة الكمال، فما هي؟

قال: إن قومك في مجالسهم يميزون بين الكبار والصغار، فيجعلون لكل منهم محله الخاص به.

قلت: نعم، فللكبار كراسيهم التي تتناسب مع طولهم وعرضهم، بينما الصغار لا تتناسب معهم إلا الكراسي الصغيرة لصغر أحجامهم.

قال: أنا لا اتحدث عن صغار السن، بل عن الصغار المحتقرين المستضعفين.

قلت: وأنا لا أتحدث إلا عنهم، فإنهم في منطق الكبراء، أو نتيجة للهزال الذي عرضهم له الكبراء صارت كراسيهم لا تختلف عن كراسي الصغار.

قال: ففي أي المجالس تحب أن تجلس أنت، أو يحب أن يجلس قومك؟

قلت: إن أردت الصراحة، فإنه لا أحد من الناس إلا ويحلم بالجلوس على تلك الكراسي الوثيرة، والركوب في تلك المراكب الفارهة، والنزول في تلك الفنادق الفخمة ذوات النجوم الكثيرة.

قال: فأنت إذن تحب مصاحبة الكبار..

قلت: لست وحدي في ذلك، بل كل قومي.. بل أحسب ذلك طبيعة إنسانية.

قال: نعم هي طبيعة إنسانية.. بل طبيعة كونية، فالكمال محبوب بالطبع.

قلت: فما علاقة هذا بهذه الجائزة؟

قال: الزهد هو الطريق الوحيد الذي يضعك مع الكبار، ويجلسك مجالسهم، وينزلك فنادقهم.

قلت: كيف؟ فالزهد يمنعني من مجرد الرغبة، والتفكير في ذلك.

قال: يمنعك من التلطخ، ولا يمنعك من التمتع.

قلت: اشرح لي.. أو بالأحرى مثل لي لما تقول.. فإني لا أطيق التجريد.

قال: سأضرب لك مثلا من القرآن الكريم، ضربه الله تعالى لمواقف الناس من الكبراء الذين كنت تحلم بالقعود معهم، بينما هم لا يساوون شيئا، لأن ضخامتهم مجرد انتفاخ سرعان ما تعبث به رياح الزمان.

قلت: أفي القرآن الكريم الحديث عن هذا؟.. لقد قرأته وحفظته وقلبت الطرف في تفاسيره، فلم أجد مثل هذا.

قال: لعلك قرأته و لم تسمعه، ففي القرآن الكريم كل العلوم وكل حقائق الكون، ولكن لمن سمعه لا لمن قرأه.

قلت: فما هو هذا المثال؟

قال: قارون، فقد جعله الله مثالا على هؤلاء الكبراء الذين صرفوا الناس عن الزهد، فملأوا قلوب الفقراء رغبة في الدنيا، فأراد الله أن يبين لهم ما ينتظر ذلك الحرص والرغبة من جزاء.

قلت: لقد قال الله تعالى في شأنه:﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾(القصص: من الآية٧٦)

قال: فماذا قال له الكمل من قومه من الذين آتاهم الله العلم والزهد؟

قلت: لقد قالوا له ــ كما نص القرآن الكريم ــ:﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ(القصص:٧٦ ــ٧٧)

قال: فقد نصحوه بالزهد فيما آتاه الله.

قلت: ولكنهم لم يحرموا عليه التمتع بما أوتي من الكنوز، فقد قالوا له:﴿ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

قال: ولكنهم حرموا عليه التلطخ بتلك الكنوز، وقد قلنا:إن فرقا كبيرا بينهما.

قلت: كيف؟

قال: التلطخ أن تملأ الدنيا قلبك فتشغلك عن الله، وعن توظيف نعم الله فيما أمر الله.

قلت: وهو ما نصح به هؤلاء قارون فقد نصحوه بالإحسان بما تفضل الله عليه.

قال: عندما خرج قارون في زينته تجلى موقفان من مواقف الناس، هي في الحقيقة مواقف البشر جميعا من الرغبة والزهد.

قلت: نعم، موقف الذين يريدون الحياة الدنيا، وموقف الذين أوتوا العلم.

قال: فما حكى القرآن الكريم عنهما؟

قلت: أما موقف الفئة الأولى، فقد نص عليه قوله تعالى:﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(القصص:٧٩)، فقد اعتبروا قارون صاحب حظ عظيم، فحسدوه على ما أوتي، وتمنوا أن يكون له مثل ما أوتي.

قال: وما هو موقف الذين أوتوا العلم؟

قلت: ما نصه علينا القرآن الكريم كذلك، وهو قوله تعالى:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾(القصص:٨٠)

قال: فما كانت نهاية الحرص والرغبة الممثلة في قارون؟

قلت: هو ما قصه القرآن الكريم علينا أيضا حين قال:﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾(القصص:٨١)

قال: فمن كسب الرهان من الحريصين أو من الزاهدين، ومن كان الحق معه؟ ومن تحقق بالكمال؟

قلت: هو ما قصه علينا القرآن الكريم أيضا، قال تعالى:﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص:٨٢)

قال: فالمفلح من؟.. هل الزاهدون أم الحريصون؟

قلت: الزاهدون، بل إن الحريصين حمدوا الله على أنهم لم يؤتوا مثل ما أوتي قارون لئلا يحل بهم ما حل به.

قال: فلماذا يصر قومك على أن يلتحقوا بالعالم الأول، وهم يعلمون حقيقته التي لا تختلف عن حقيقة قارون، بل هم يرددون ما ردد قارون:﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص: من الآية٧٨)

قلت: لأنهم يعتقدون أن الأولية والكمال في ذلك؟

قال: أو لم يعلموا:﴿ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾(القصص: من الآية٧٨)

قلت: ولكن مطالبهم الدنيوية تتطلب منهم ذلك.

قال: لا، بل الحرص الكاذب الذي يمليه فراغ أجوافهم هو الذي يطلب منهم ذلك،

فالكمال في الحقيقة لا في المظاهر، وفي الصدق لا في الزور.

قلت: فقد ذكرت لي مثالا من أمثلة الكمال في الزهد، ولكن قومي قد لا يفهمونه حق الفهم، أو قد يؤولونه، فما أسهل تأويل النصوص وإلباسها أي لباس يشاءون.

قال: ولكن النص واضح.

قلت: ولكنهم لن يقرؤوه ولن يفسروه، بل سيكتفون منه بعبارة يجعلونها هي المحكم الوحيد فيه، وما عداه متشابه.

قال: فما هذه العبارة التي نالت هذا الفضل عندهم دون من عداها؟

قلت: قوله تعالى:﴿ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾(القصص: من الآية٧٧)

قال: ويفعلون ذلك؟

قلت: بل فعلوه، فإن هذه العبارة قرآنية أصبحت مثلا دارجا يردده العامة والخاصة، وكأن القرآن الكريم جميعا اختصر فيها.

قال: فقد وقعتم فيما وقع فيه أهل الكتاب من التحريف، فقد قال تعالى في شأنهم:﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(البقرة: من الآية٨٥)،

قلت: ولهذا أمر تعالى رسوله ﷺ أن يحكم المؤمنين بجميع ما أنزل عليه، قال تعالى:﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾(المائدة: من الآية٤٩)

قال: فهلا اطلعوا على سنن الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ، وكيف كانت حياتهم مليئة بمواقف الزهد فيما في أيدي الناس، والرغبة فيما في يد الله.

قلت: هم يتخيرون من مواقفهم ما يخدمون به آراءهم، فلن يعجزهم ذلك، وقد قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾(النساء:١٥٠)، فهم يؤمنون ببعض المواقف ويكفرون ببعض.

قال: أوصلت بهم الجرأة إلى الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ

قلت: لقد سمعت بعضهم يتحدث عن حب رسول الله ﷺ للحم والحلواء وأنواع المآكل الفاخرة ما يجعلك تتصور أن السنة في ارتياد المطاعم الفاخرة لإحياء سنة أكل اللحم والحلواء.

قال: ألم يقرؤوا النصوص الواردة في مصادركم الصحيحة؟

قلت: فرق ــ يا معلمي ــ بين أن تقرأ وأن تسمع ألم تقل لي ذلك دائما.

التفت، فلم أر المعلم، لست أدري هل انصرف عني أم انصرفت عنه، أم أن حزنه على ما ذكرت له منعه من البقاء معي.

***

بعد انصرافه اغرورقت دمعة من عيني لم أطق احتباسها، وأنا أتذكر معيشة رسول الله ﷺ ومعيشة أهله، وهو أكمل خلق الله كلهم.

تذكرت قول عائشة ــ رضي الله عنها ــ:(ما شبع آل محمد ﷺ من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض)[1]

وكانت عائشة ــ رضي الله عنها ــ وهي زوج رسول الله ﷺ تقول لابن اختها – عروة، وهي تذكر له طريقة عيشها مع رسول الله ﷺ:(والله يا ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رَسُول اللَّهِ ﷺ نار، قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرَسُول اللَّهِ ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح وكانوا يرسلون إلى رَسُول اللَّهِ ﷺ من ألبانها فيسقينا)[2]

وتصف فراش رسول الله ﷺ فتقول:(كان فراش رَسُول اللَّهِ ﷺ من أدم حشوه ليف)[3]

وأخرجت ــ رضي الله عنها ــ كساء وإزاراً غليظاً، فأرته الصحابة ﷺ ثم قالت: قبض رَسُول اللَّهِ ﷺ في هذين[4].

وأخبرت ــ رضي الله عنها ــ فقالت: توفي رَسُول اللَّهِ ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير[5].

و لم يكن نقل هذه المعيشة خاصا بعائشة ــ رضي الله عنها ــ حتى لا تتهم بتزوير النقل، بل روي ذلك عن كثير من الصحابة الأجلاء ﷺ:

فهذا أنس ﷺ يقول:(لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات، وما أكل خبزاً مرققاً حتى مات)[6]، وفي رواية له: ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط.

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) البخاري ومسلم.
(٣) البخاري.
(٤) البخاري ومسلم.
(٥) البخاري ومسلم.
(٦) البخاري.

وقال ﷺ: رهن النبي ﷺ درعه بشعير، ومشيت إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة[1] سنخة[2]. ولقد سمعته يقول:(ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى)، وإنهم لتسعة أبيات[3].

وهذا النعمان بن بشير ﷺ يقول:(لقد رأيت نبيكم ﷺ وما يجد من الدقل[4] ما يملأ به بطنه)[5]

وهذا سهل بن سعد ﷺ يقول:(ما رأى رَسُول اللَّهِ ﷺ النقي[6] من حين ابتعثه اللَّه تعالى حتى قبضه اللَّه. فقيل له: هل كان لكم في عهد رَسُول اللَّهِ ﷺ مناخل؟ قال: ما رأى رَسُول اللَّهِ ﷺ منخلاً من حين ابتعثه اللَّه تعالى حتى قبضه اللَّه تعالى. فقيل له: كيف كنتم تأكلون الشعير غير منخول؟ قال: كنا نطحنه وننفخه فيطير ما طار وما بقي ثَرَّيْنَاه[7])[8]

وهذه أسماء بنت يزيد ــ رضي الله عنها ــ قالت: كان كم قميص رَسُول اللَّهِ ﷺ إلى الرُّصْغِ[9])[10].

ويحكي جابر ﷺ حكاية تجمع بين الزهد والإيجابية، بل تدل على مبلغ القوة التي يتمتع بها الزاهد، قال: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية شديدة، فجاءوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق. فقال:(أنا نازل)، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم. فقلت: يا رَسُول اللَّهِ ائذن لي إلى البيت. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما في ذلك صبر فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعناق. فذبحت العناق وطحنت الشعير حتى جعلنا اللحم في البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت فقلت: طُعَيْمٌ لي فقم أنت يا رَسُول اللَّهِ ورجل أو رجلان. قال:(كم هو؟) فذكرت له فقال:(كثير طيب قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي) فقال:(قوموا) فقام المهاجرون والأنصار فدخلت عليها فقلت: ويحك! جاء النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. قال:(ادخلوا ولا

---

(١) الشحم الذائب.
(٢) المتغيرة.
(٣) البخاري.
(٤) تمر رديء.
(٥) مسلم.
(٦) هو الخبز الحواري، وهو الدرمك.
(٧) بللناه وعجناه.
(٨) البخاري.
(٩) هو: المفصل بين الكف والساعد.
(١٠) أبو داود والترمذي وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

تضاغطوا)، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا وبقي منه. فقال:(كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة)

ويخبر ابن عباس ﷺ عن معيشة رسول الله ﷺ، فيقول: كان رَسُول اللَّهِ ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير[1].

ويخبر عمرو بن الحارث ﷺ قال: ما ترك رَسُول اللَّهِ ﷺ عند موته ديناراً، ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة)[2]

ويحكي أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ رضاه عن هذه المعيشة، بل دعاؤه الله باستمرارها، حيث كان ﷺ يقول:(اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً[3])[4]

ولكن البعض يهمل هذه النصوص جميعا ليصف بعض مشاهد الطعام الذي كان يأكله رسول الله ﷺ، فيحسب السامع أن ذلك كان ديدنه ﷺ، ولنسمع هذه الحادثة التي تبين ندرة تلك الحوادث من جهة، والفهم الذي يفهم منها من جهة أخرى.

ولنحاول تصوير هذا المشهد كما حكاه أبوهريرة ﷺ مع بعض التصرف الفني:

خرج رَسُول اللَّهِ ﷺ ذات يوم لا يعرف هل كان ليلا حصل ذلك أم نهارا، فإذا بأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما واقفان، فسألهما ﷺ:(ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟

قالا: الجوع يا رَسُول اللَّهِ.

قال ﷺ:(وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما! قوما)

فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار فلم يجدوه في بيته، فلما رأتهم زوجته قالت: مرحباً وأهلاً.

فقال لها رَسُول اللَّهِ ﷺ:(أين فلان؟)

قالت: ذهب يستعذب[5] لنا الماء.

فبينما هم في انتظاره جاء الأنصاري فنظر إلى رَسُول اللَّهِ ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما

---

(١) التِّرمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.
(٢) البخاري.
(٣) أي ما يسد الرمق.
(٤) البخاري ومسلم.
(٥) أي يطلب الماء العذب وهو الطيب.

أحد اليوم أكرم أضيافاً مني.

فانطلق فجاءهم بعذق[1] فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا.

وأخذ المدية[2] ليذبح لهم، فقال له رَسُول ﷺ:(إياك والحلوب[3])

فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا قال رَسُول اللَّهِ ﷺ لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما:(والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة! أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم)

فهل هذا أكل راغب أم زاهد؟ ثم لماذا ينسى ذكر ما حل بهم من جوع، ويقتصر على ما طعموا من اللحم.

***

أما أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم سلف هذه الأمة الأول، وثمرة تربيته ﷺ، فقد كانوا أمثلة عليا على الزهد بأتم معانيه، وسنورد هنا من أحاديثهم ما يسلي الفقير المتألم، وما يسكت الباهت المتخرص:

فهذا عتبة بن غَزْوان ﷺ، وكان أميراً على البصرة، يخطب فيهم، فحمد اللَّه ويثني عليه ثم يقول مزهدا رعيته مرغبا لها فيما في يد الله:(أما بعد فإن الدنيا قد آذنت[4] بصرم[5]، وولت حذاء[6]، و لم يبق منها إلا صبابة[7] كصبابة الإناء يتصابُّها[8] صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً لا يدرك لها قعراً، والله لتملأن، أفعجبتم! ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ[9] من الزحام)

ثم ينتقل من الحديث عن دوافع الزهد إلى ثماره التي تحقق بها مع رسول الله ﷺ ومع الصحابة ﷺ، فقال:(ولقد رأيتني سابع سبعة مع رَسُول اللَّهِ ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى

---

(١) هو الكباسة، وهي الغصن.
(٢) السكين.
(٣) ذات اللبن.
(٤) أي أعلمت.
(٥) أي بانقطاعها وفنائها.
(٦) أي سريعة.
(٧) هي البقية اليسيرة.
(٨) أي يجمعها.
(٩) الكثير الممتلئ.
(١٠) أي صار فيها قروح.

أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند اللّه صغيراً)[1]

ويحكي سعد بن أبي وقاص ﷺ عن نفسه وعن الصحابة ﷺ، فيقول:(إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل اللّه، ولقد كنا نغزو مع رَسُول اللّهِ ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحبلة[2] وهذا السمر، حتى إن كان أحدنا ليضع كما تضع الشاة ما له خلط)[3]

أما أبو هريرة ﷺ، فله في هذا حكايات جميلة، تحمل سلوى عظيمة للفقراء الحزانى، وتحمل نقدا عظيما للذين ينتقون من السنة ما يحلوا لهم، فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

فعن سعيد المقبري يخبر عن أبي هريرة ﷺ أنه مر بقوم بين أيديهم شاة مصلية[4] فدعوه فأبى أن يأكل وقال: خرج رَسُول اللّهِ ﷺ من الدنيا و لم يشبع من خبز الشعير[5].

ويحكي حادثة حصلت في عهد رسول الله ﷺ تمتلئ بالمعاني التي لا يفقهها إلا من يسمعون، قال: والله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه فمر بي النبي ﷺ فتبسم حين رآني وعرف ما في وجهي وما في نفسي، ثم قال:أبا هر، قلت: لبيك يا رَسُول اللّهِ. قال:(الحق)، ومضى فاتبعته، فدخل فاستأذن فأذن لي. فدخلت فوجد لبناً في قدح فقال:(من أين هذا اللبن؟)، قالوا: أهداه لك فلان أو فلانة. قال: أبا هر قلت: لبيك يا رَسُول اللّهِ. قال:(الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي)

قال أبو هريرة ﷺ: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن، و لم يكن من طاعة اللّه وطاعة رسوله ﷺ بد، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت.

---

(١) مسلم.
(٢) وهي والسمر نوعان معروفان من شجر البادية.
(٣) البخاري ومسلم.
(٤) أي مشوية.
(٥) البخاري.

فقال ﷺ:(أبا هر)، قال أبوهريرة ﷺ فقلت: لبيك يا رَسُول اللَّهِ. قال:(خذ فأعطهم)، قال: فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إلي فتبسم فقال:(أبا هر)، قلت: لبيك يا رَسُول اللَّهِ. قال:(بقيت أنا وأنت)، قلت: صدقت يا رَسُول اللَّهِ. قال:(اقعد فاشرب) فقعدت فشربت. فقال: اشرب فشربت. فما زال يقول: اشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً. قال: فأرني، فأعطيته القدح فحمد اللَّه تعالى وسمى وشرب الفضلة[1].

ويحكي عن نفسه، فيقول:(لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رَسُول اللَّهِ ﷺ إلى حجرة عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ مغشياً علي فيجيء الجائي فيضع رجله على عنقي ويرى أني مجنون وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع)[2]

ويتحدث عن أهل الصفة، وقد كان واحدا منهم، فيقول: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته[3].

ويحكي ابن عمر ﷺ موقفا وصف فيه مدى الحاجة التي كان يعيشها الصحابة ﷺ، قال: كنا جلوساً مع رَسُول اللَّهِ ﷺ إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه ثم أدبر الأنصاري. فقال رَسُول اللَّهِ ﷺ:(يا أخا الأنصار كيف أخي سعد بن عبادة؟)، فقال: صالح. فقال رَسُول اللَّهِ ﷺ:(من يعوده منكم؟)، فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص نمشي في تلك السباخ حتى جئناه، فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رَسُول اللَّهِ ﷺ وأصحابه الذين معه[4].

ويتحدث خباب بن الأرت ﷺ قال: هاجرنا مع رَسُول اللَّهِ ﷺ نلتمس وجه اللَّه تعالى فوقع أجرنا على اللَّه؛ فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً؛ منهم مصعب ابن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قتل يوم أحد وترك نمرة[5]، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا بها رجليه بدا رأسه؛

---

(١) البخاري.
(٢) البخاري.
(٣) البخاري.
(٤) مسلم.
(٥) كساء ملون من صوف.

فأمرنا رَسُول اللَّهِ ﷺ أن نغطي رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من الإذخر، ومنا من أينعت[1] له ثمرته فهو يهدبها[2])[3]

ويحكي جابر بن عبد اللَّه ﷺ موقفا من مواقف إيجابية الزاهدين، فيقول: بعثنا رَسُول اللَّهِ ﷺ وأَمَّرَ علينا أبا عبيدة ﷺ نتلقى عيراً لقريش، وزَوَّدَنَا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة. فقيل: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليهم من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله، وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، فقال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا بل نحن رُسُلَ رَسُول اللَّهِ ﷺ وفي سبيل اللَّه وقد اضطررتم فكلوا. فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سَمِنّا، ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب عَيْنِهِ بالقِلال الدُّهْنَ، ونقطع منه الفِدَرَ كالثور أو كَقَدْرِ الثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثةَ عشَر رجلاً فَأقعدهم في وَقْبِ عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وَشَائِقَ. فلما قدمنا المدينة أتينا رَسُول اللَّهِ ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال:(هو رزق أخرجه اللَّه لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟)، فأرسلنا إلى رَسُول اللَّهِ ﷺ منه فأكله[4].

---

(١) أي نضجت وأدركت.

(٢) أي يقطفها ويجتنيها. وهذه استعارة لما فتح عليهم من الدنيا وتمكنوا فيها.

(٣) البخاري ومسلم.

(٤) مسلم.

العزة

قال لي، وقد رآني هائما في البحث عما اتسمت به حياة الأولياء من مظاهر الزهد: أراك اقتنعت بما قلت.

قلت: فهات الجائزة الثالثة.. جائزة العزة.

قال: أرأيت إن قرب لك طعام لذيذ، ثم رأيت الذباب متساقطا عليه متهافتا على أكله، فهو لا يبالي في سبيله أن تذبه أو تقلته، أكانت نفسك تشتهيه؟

قلت: لكأني بك تريد ما قال الشاعر:

إذا لم أتـــــــــــرك المـــــــــــاء اتقـــــــــــاء	تركـــــــت لكثـــــــرة الشـــــــركاء فيـــــــه
إذا وقـــــــع الـــــــذباب علـــــــى طعـــــــام	رفعـــــــت يـــــــدي ونفســـــــي تشـــــــتهيه
وتجتنـــــــب الأســـــــود ورود مـــــــاء	إذا كـــــــان الكـــــــلاب يلغـــــــن فيـــــــه

قال: هو ما أريده بالضبط، فقد علمت غرامك بالشعر.

قلت: وكيف لي أن أشارك الذباب طعامهم، فإنه إن لم يكن ذلك مضرا بالصحة، فإن النفس تعافه بالضرورة.

قال: فكذلك الزهد، فالزاهد يأنف من مشاركة الذباب، وقد قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا؟، فقال:(قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها)

قلت: ولكن الدنيا لا يملكها الذباب.

قال: ولكن يملكها اللاهثون وراء السراب.

قلت: فهناك فرق بينهما.

قال: لا فرق بينهما، ولهذا ساوى الله تعالى بين الذباب والبشر في الضعف، فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(الحج:٧٣)

قلت: صدقت، فكلاهما ضعيف الطالب والمطلوب.

قال: وأزيدك مثالا يجعلك ترى عالم الذباب بين يديك وملء بصرك.

قلت: هات.

قال: ذلك الطعام اللذيذ الذي قدم لك.

قلت: أتقصد ذلك الذي تهافت عليه الذباب؟

قال: أجل.. لماذا تهافت عليه؟

قلت: لأنه طعام دسم غني بما يشتهيه الذباب من المطاعم.

قال: فكذلك هؤلاء الذين امتلأت نفوسهم رغبة في الدنيا يسلط الله عليهم الذباب ليمتص رحيقهم.

قلت: ولكن قومي اخترعوا أنواع المبيدات.

قال: تلك لا تبيد هذا النوع من الذباب، فإنه ذباب له من الحذق ما لا يستطيع أحد ذبه أو قتله.

قلت: فهمت قصدك.. تعني الأصدقاء المحيطين بهؤلاء الراغبين ينافقونهم ويخادعونهم ليمتصوا بعض ما يمتصه الذباب من مآكل.

قال: نعم، فقد صدق الشاعر في كل ما قال.

قلت: أول مرة أسمعك تصدق فيها شاعرا.

قال: ألم تسمع بقوله ﷺ:(إن من الشعر حكما)[1]

قلت: بلى، سمعت، وقد قال أبو تمام:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعْرُما درى بناةُ المعالي كيفَ تُبْنى المكارمُ

قال: ولكن.. لا كل الشعراء أقصد.

قلت: أجل، فـ:

الشعراءُ فاعلمنَّ أربعةْ
فشاعرٌ يجري ولا يُجرى معهْ
وشاعرٌ ينشدُ وسطَ المعمعةْ
وشاعرٌ من حَقِّه أن تَسْمَعَهْ
وشاعرٌ من حَقِّهِ أن تَصْفَعَهْ

قال: فاترك الشعر، وعد بنا إلى جائزة العزة.

قلت: فهمت.. فإن العزة تاج فوق رؤوس الزهاد لا يراه الراغبون.

قال: والقرآن الكريم يدل على ذلك.

---

(١) الترمذي، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة.

قلت: أفي القرآن الكريم هذا؟

قال: أجل، فلنعد إلى قصة قارون، ما هو موقف الرغبين في الدنيا عندما رأوه؟

قلت: لقد سال لعابهم، وهم يرون مراكبه الفاخرة وزينته التي خرج بها، كما قال تعالى:﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(القصص:٧٩)

قال: ولماذا خرج في زينته ما دام قومه سيحسدونه هذا الحسد؟

قلت: بل خرج لأجل أن يحسدوه، فهو يكاد يشمت بهم بخروجه.

قال: وفي ذلك الحين الذي يراهم فيه مشدوهين نحو طلعته ومراكبه وزينته، ماذا كان يتصورهم؟

قلت: يراهم كالذباب المتهافت حول الطعام.

قال: هم أذلاء إذن؟

قلت: بل أذل من الذباب، لأن الذباب إن تهافت حول الطعام نال منه، وهؤلاء لا ينالون إلا الحسرة والألم.

قال: ولو أن هؤلاء لم يلتفتوا إلى زينة قارون، ولم يأبهوا له، ولم يعيروهم نظراتهم، أكان يهتم بمثل هذه الزينة، ويخرج بهذا الكبر.

قلت: لا أظنه سيفعل، فما الفائدة التي يجنيها بخروجه بكل تلك الزخارف، بل سيخرج كما سيخرج سائر الناس؟

قال: أفلا ترى أنهم بذلك الموقف الذليل الذي وقفوه جذروا في نفسه كبرياءه، وجذروا في نفوسهم الذلة؟

قلت: أجل، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا حين قال تعالى:﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾(الزخرف:٥٤)

قال: أفكان فرعون يجرؤ على أن يقول:﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾(القصص: من الآية٣٨)، ويقول:﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: من الآية٢٤) لولا قلة عقول قومه وتهافتهم بين يديه كتهافت الفراش؟

قلت: لا، فالذلة هي المحل الذي يمكن للكبراء، ولو أن الناس أروا من أنفسهم عزة لما تجرأ عليهم أحد.

قال: فاسمع لما يقول سيد عن هذا الأسلوب الفرعوني القاروني، أو هذه القابلية للذل:

التفت، فرأيت سيد أمامي، والنور يخرج من فمه، قال:(استخفاف الطغاة للجماهير أمر لا غرابة فيه ؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها، ولا يعودوا يبحثون عنها ؛ ويلقون في روعهم ما يشاءون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة. ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين!

ولا يملك الطاغية أن يفعل بالجماهير هذه الفعلة إلا وهم فاسقون لا يستقيمون على طريق، ولا يمسكون بحبل الله، ولا يزنون بميزان الإيمان. فأما المؤمنون فيصعب خداعهم واستخفافهم واللعب بهم كالريشة في مهب الريح)

قلت: فالزهد إذن هو ما يقي المؤمنين من مهاوي الذلة التي يوقعهم فيها الحكام.

قال: ليس الحكام فقط، فقد كان قارون غنيا، و لم يكن حاكما.

قلت: الحكام وأشباه الحكام.

قال: ألا تقولون بأن العبرة بالخاتمة؟

قلت: ونقول بأن الناجح من يضحك أخيرا.

قال: فمن كان أعز الناس في قصة قارون؟

قلت: كانت لقارون بعض العزة عندما خرج بتلك الزينة.

قال: فما خاتمتها؟

قلت: ما نص عليه القرآن الكريم بقوله:﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾(القصص:٨١)

قال: فنهايته إذن الذل المحض، بل الهلاك الذي هو فوق الذل.

قلت: نعم.

قال: فمن كان أعز الناس إذن؟

قلت: الذين أوتوا العلم، فقد قال تعالى في شأنهم:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (القصص:٨٠)

قال: وهل كانوا حينها أعز من قارون؟

قلت: أجل، لأن عزته بمراكبه، وعزتهم بما أتاهم الله من العلم.

قال: وهل جرهم علمهم إلى الدنيا أم زهدهم فيها؟

قلت: بل زهدهم فيها.

قال: ولو جرهم إلى الدنيا، وإلى أبواب قارون هل سيتحلون بالعزة التي تحلوا بها؟

قلت: لا.

قال: فعزتهم إذن ليس بعلومهم.

قلت: بم إذن؟

قال: بزهدهم، فالزهد باب العزة.

قلت: في النفس من كلامك شيء.

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(لأعراف:١٧٦)

قلت: بلى، فهذه قصة بلعم بن باعوراء، وقد ذكر المفسرون أنه (كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي اللّه موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى اللّه فأقطعه وأعطاه، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام)[1]

قال: دعك من القصص، واعتبر بالقصة كما وردت في القرآن الكريم، فهي ليست قصة بلعم وحده، بل قصة آلاف وعشرات آلاف البلاعم.

قلت: ماذا تريد أن تقول؟

قال: ما الذي جعل هذا الذي آتاه الله العلم ينسلخ عن علمه؟

قلت: هو ما ذكره القرآن الكريم من إخلاده إلى الأرض وسكونه إليها.

قال: فلو أنه لم يخلد إلى الأرض ولم يسكن إليها، ولم تشتد رغبته فيها، ما هي الجائزة التي كان سينالها؟

قلت: الرفعة والعزة، كما ذكر القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾، ولكنه بسبب خلوده إلى الأرض صار ذليلا كالكلب ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾

قال: أتدري لما شبهه الله بالكلب؟

قلت: نعم، (فهو لفرط اتباعه الهوى وتعلقه بعالم المادة انتابته حالة من التعطش الشديد غير المحدود وراء لذائذ الدنيا، وكل ذلك لم يكن لحاجة ، بل لحالة مرضية ، فهو كالكلب المسعور الذي يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن ارواؤها وهي حالة العبيد الذين

---

(١) هذا قول مالك بن دينار.

لا يهمهم غير جمع المال واكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع ابدا)[1]

قال: صدق الشيرازي، فأيهما أرفع شأنا العالم الزاهد، أم العالم الراغب؟

قلت: بل الزاهد.

قال: لماذا؟

قلت: لينال من العزة ما لا يظفر به الراغب.

قال: ليس هذا فحسب، بل إن الرغبة والحرص على الدنيا وترك الزهد فيها هي السبب فيما حاق بالأديان من أنواع التحريف.

قلت: هذه دعوى خطيرة، فهل لها من بينات تقوم عليها؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(لأعراف:١٦٩)

قلت: بلى، فما في الآية مما تدعيه؟

قال: لقد ذكر تعالى تمسكهم بالدنيا، وأخذهم بالمتاع الأدنى، فبماذا عاتبهم الله تعالى بعد ذلك؟

قلت: عاتبهم على أنهم لم يوفوا بالميثاق الذي أخذ عليهم.

قال: وما هو؟

قلت: ألا يقولوا على الله إلا الحق.

قال: فذلك يدل على أنهم لم يفعلوا ذلك.

قلت: نعم وإلا لما عاتبهم الله تعالى.

قال: فما الذي جرهم إلى ذلك؟

قلت: أول الآية وآخرها يشيران إلى أن علة ذلك هي الحرص على الدنيا، فقد قال تعالى في أول الآية:﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾، وقال في آخرها:﴿ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾

قال: فهذه الآية تدل على علة التحريف في دين الله.

قلت: نعم.

---

(١) الأمثل.

قال: أزيدك آية أخرى، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾(التوبة: من الآية٣٤)

قلت: أجل، فقد جمع الله في هذه الآية بين أكلهم أموال الناس بالباطل، وصدهم عن سبيل الله، وهو يشير إلى أن الحرص حول من هؤلاء الأحبار والرهبان إلى تجار بضاعتهم تحريف الكتاب بما يتناسب مع الأهواء.

قال: وأزيدك آيات أخرى كثيرة تبين أن الحرص على الدنيا هو سبب التحريف الذي حاق بكتب الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ، فاسمعها، ولا تكتف بقراءتها، قال تعالى:﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾(البقرة:٤١)، وقالتعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾(البقرة:٧٩)، وقالتعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(البقرة:١٧٤)، وقالتعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(آل عمران:٧٧)، وقالتعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾(آل عمران:١٨٧)

قلت: صدق الله العظيم، لقد اقتنعت بما قلت.

قال: فانصح علماء قومك أن يحذوروا من أبواب السلاطين، فإن العلم يذل عند أبوابهم.

قلت: ولكنهم ينصحونهم، وفي ذلك مصلحة الرعية.

قال: فانصحهم إذا ذهبوا أن يطهروا أرض قلوبهم من شوك الحرص، وحجارة الرغبة، لئلا ينبتوا الحصرم والعلقم.

قلت: ومن أنا حتى يسمعوا لي..!؟

قال: إن عليك إلا البلاغ..

قلت: ومن لي بأن يصلهم صوتي!؟

قال: ذلك لله، فلله الأمر من قبل ومن بعد.

التفت، فلم أره، لست أدري هل انصرف عني، أم انصرفت عنه.

الراحة

جاءني المعلم، وقال: أنت تنتظر الجائزة الرابعة من جوائز الزهد.

قلت: لقد كفاني ما نلت من الجوائز، فلذلك لا تهمني المشاق التي أتحملها من أجل السعي لتحصيله.. خاصة بعد علمي بعلاقته الخطيرة بما حاق بالأديان من تحريف.

قال: لن تتحمل أي مشقة في تحصيله، بل إن الزهاد أكثر الناس راحة.

قلت: كيف؟

قال: لأن الحرص هو الذي يجلب التعب لأصحابه، أما الزهد، فلا يجلب إلا الراحة.

قلت: لكأني بك تقصد قول مصطفى الغلاييني:

ليس بالزاهدِ في الدنيا امرؤٌ	يلبسُ الصوفَ ويهوى الرُّقَعا
ظَنَّ دينَ اللّهِ في تَرْكِ الدُّنا	ورأى الإِعراضَ عنها أنْفعا
وهو لو جاءَتْهُ منها بَدْرَةٌ	طلقَ التقوى وعافَ الوَرَعا
فهو لا زُهْداً بها عنها نأىْ	لكنِ الجدُّ يذيبُ الأَضْلُعا
خافَ أن يسعى فيدمي رجلَه	فرأى الراحةَ فيما صَنَعا

قال: صدق الغلاييني، وما أريد هذا، فقد ذكرنا إيجابية الزاهد، وسنذكر طرقه لأبواب فضل الله، ولكن التعب ليس في السعي، وإنما في الحرص.

قلت: كيف؟

قال: عندما لا تكون لك طاقة تحمل معينة، فتحمل عليها ولا تتجاوزها، أيصيبك التعب لذلك؟

قلت: لا، لأني لم أجاوز مقدار طاقتي.

قال: فالزاهد لا يجاوز مقدار طاقته التي وهبه الله إياها، أما الحريص، فلحاجته لملأ الفراغ النفسي الذي يشكوا منه تجده يحمل نفسه ما تطيق وما لا تطيق.

قلت: كيف؟

قال: هو يتصور الدنيا كمنجم ذهب محدود عليه يتهافت الراغبون، فلو قعد لحظة واحدة لسبقه غيره، ولا يبقى له منه شيئا.

قلت: والزاهدون كيف يرون الدنيا؟

قال: بنظرة مختلفة تماما، فهم يرون الدنيا دار ضيافة إلهية لا يعدم الساكن فيها من رزق يساق إليه، فلذلك يتناوله هنيئا مطمئنا مرتاحا يقول في نفسه: إن نفذ هذا، فسيرسل إلي صاحب المائدة رزقا آخر، قد أصل إليه بسعيي، وقد يجيئني بسعيه إن قعد سعيي.

قلت: ولكن الناس لا يكتفون بالرزق القليل؟

قال: ولكن تضحياتهم في سبيل الكثير الذين يملأون به فراغ نفوسهم لا يقاوم ما ينالونه.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت من ضحى بصحته وقوته وعرضه ودينه من أجل لقمة شهية كاسبا أم خاسرا؟

قلت: بل خاسرا أعظم خسارة، فما تحدي اللقمة أمام كل ما ضاع منه.. بل هو كمن باع قصرا فخما بحجارة لا تغني ولا تسمن من جوع.

قال: فهذا هو عناء الحريص، وراحة الزاهد.

قلت: ولكن مع ذلك.. لا ينبغي أن نستنكر ما لتلك اللقمة من لذة.

قال: لذة مكتنفة بالغصص، ولا يعدم الزاهد مثلها، أو أكثر منها مع ما استفاده من الراحة والأمن.

قلت: الراحة والأمن؟

قال: فإن الزاهد ينعم من الراحة والأمن ما لا ينعم به الحريص.

قلت: فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: بل سأحكي لك عن كل منهما حكاية، فالحكايات كالأمثال جند من جند الله.

قلت: فما حكاية الراحة؟

قال: كان إبراهيم بن أدهم ﷺ من أهل النعم بخراسان، فبينما هو يشرف من قصر له ذات يوم إذ نظر إلى رجل فى فناء القصر، وفى يده رغيف يأكله، فلما أكل نام، فقال لبعض غلمانه:(إذا قام فجئنى به)، فلما قام جاء به إليه، فقال إبراهيم:(أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع) قال:نعم، قال: فشبعت، قال: نعم قال: ثم نمت طيبا قال: نعم فقال إبراهيم فى نفسه: فما أصنع أنا بالدنيا والنفس تقنع بهذا القدر.

قلت: لقد ذكرتني بعامر بن عبد القيس، فقد مر برجل وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له: يا

عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلك على من رضي بشر من هذا؟ قال: بلى قال: من رضي بالدنيا عوضا عن الآخرة.

وذكرتني بمحمد بن واسع ﷺ فقد كان يخرج خبزا يابسا، فيبله بالماء، ويأكله بالملح ويقول: من رضي من الدنيا بهذا لم يحتج إلى أحد.

قال: أما حكاية أمن الزاهد أمام المخاطر التي يتعرض لها الحريص، فقد روي أنه صحب رجل عيسى بن مريم عليه السلام فقال:(أكون معك وأصحابك) فانطلقا فانتهيا إلى شط نهر، فجلسا يتغديان، ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر، فشرب، ثم رجع فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف، فقال: لا أدري. فهذا أول آثار الحرص.

فانطق ومعه صاحبه فرأى ظبية ومعها خشفان لها، فدعا أحدهما فأتاه فذبحه فاشتوى منه، فأكل هو وذلك الرجل، ثم قال للخشف:(قم بإذن الله)، فقام فذهب، فقال للرجل:(أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف)، فقال: لا أدري، ثم انتهيا إلى وادي ماء، فأخذ عيسى بيد الرجل، فمشيا على الماء، فلما جاوزا قال له:(أسألك بالذي أراك هذه الآية من أخذ الرغيف)، فقال:لا أدري، فانتهيا إلى مفازة، فجلسا، فأخذ عيسى عليه السلام يجمع ترابا وكثيبا، ثم قال:(كن ذهبا بإذن الله تعالى)، فصار ذهبا فقسمه ثلاثة أثلاث، ثم قال:(ثلث لي، وثلث لك، وثلث لمن أخذ الرغيف)، فقال:(أنا الذي أخذت الرغيف)، فقال:(كله لك)

وفارقه عيسى عليه السلام فانتهى إليه رجلان في المفازة، ومعه المال، فأرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه، فقال:(هو بيننا أثلاثا)، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاما نأكله)، فبعثوا أحدهم فقال الذي بعث:(لأي شيء أقاسم هؤلاء هذا المال، لكني أضع في هذا الطعام سما فأقتلهما، وآخذ المال وحدي)، ففعل وقال ذانك الرجلان:(لأي شيء نجعل لهذا ثلث المال ولكن إذا رجع قتلناه واقتسمنا المال بيننا)، فلما رجع إليهما قتلاه، وأكلا الطعام، فماتا، فبقي ذلك المال في المفازة وأولئك الثلاثة عنده قتلى، فمر بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة فقال لأصحابه:(هذه الدنيا فاحذروها)

قلت: هذه قصة جميلة.. ولكن لست أدري هل هي صحيحة أم لا، فقد قرأت العهد الجديد حرفا حرفا، فم أرها؟

قال: وما يهمك أن تصح أو لا تصح، كل البقلة ولا تسأل عن البقال.

قلت: ولكن معناها صحيح، فأكثر الناس تعرضا للجرائم هم الأغنياء طمعا في مالهم

وثرائهم، بل قد يقتلهم أقرب الناس إليهم.

قال: فإن حرصوا على ملء بطونهم من أصناف الشهوات.

قلت: ستقتلهم حينها شهواتهم، أما سمعت بأمراض الأثرياء.

فجأة خطر على بالي قوله تعالى:﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾(الشرح:٧)، فقلت: يا معلم، فقد قال الله تعالى:﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾(الشرح:٧)، فكيف تحمد الراحة، والله تعالى يأمرنا بالنصب؟

قال: فاقرأ ما بعدها.

قلت: ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾(الشرح:٨)

قال: كل نصب لا يرغبك فيه، ولا يضعك ببابه باطل، لأنك تلهث بذلك وراء السراب.

قلت: كيف؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(النور:٣٩)

قلت: بلى، ولكن ما الذي تعنيه؟

قال: السعي وراء السراب هدر.

قلت: ولكن الحريص لا يلهث وراء السراب، بل يلهث وراء ثروة حقيقية.

قال: ولماذا؟

قلت: ليرضي همه.

قال: وهل ينتهي همه؟

قلت: لا، فلا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.

قال: فهو يجري وراء السراب إذن، ومن جرى وراء السراب، كان كالكلب ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾(لأعراف: من الآية١٧٦)

ثم التفت إلي، وقال: وأزيدك أمرا آخر، فيه كل الراحة للزهاد، ألم تسمع قوله ﷺ:(من أصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة)[1]؟

قلت: هذه ناحية مهمة جدا، فالضياع عندنا شائع، والتشتت النفسي منتشر.

---

(١) ابن ماجة من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف.

قال: أتدري ما علة ذلك؟

قلت: ما نص عليه الحديث.

قال: ومثل هؤلاء كمثل من وضع في مفازة ووضع له فيها من كل أصفر وأبيض وأخضر، فاحتار ما يأخذ وما يدع، فتشتت عليه أمره، و لم ينل في الأخير إلا التعب والنصب.

ثم التفت إلي، وقد رأى في بعض الوجوم: أزيدك أمرا آخر، أ لم تسمع قوله ﷺ عندما سئل:(أي الناس خير؟)

قلت: بلى، لقد قال:(كل مؤمن مخموم القلب، صدوق اللسان)[1]

قال: فمن هو مخموم القلب؟

قلت: لقد عرفه ﷺ بقوله:(التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد)

قال: فهذا هو قلب الزاهد بدليل قوله ﷺ بعد هذا، لما سئل:(يا رسول الله فمن على أثره؟)، قال:(الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة)

قلت: لا أراني أعدم على هذا أمثلة، فأكثر الأمراض النفسية ناشئة من هذا، فكل واحد يريد أن ينفرد بجميع رزق الله، ولا يرضى لغيره أن ينافسه فيه.

قال: وما سبب ذلك؟

قلت: الحرص، بل قد ورد الحديث المؤكد لهذا، قال ﷺ:(إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفسح) قيل:(يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟)، قال:(نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله)[2]

قال: فما العلاج؟

قلت: الزهد.

قال: فالزهد إذن راحة وصحة.

ما قال هذا حتى شعرت بجوهرة كريمة تنزل على صدري تنجلي بنزولها بعض الظلمات.

---

(١) ابن ماجه بإسناد صحيح.

(٢) الحاكم.

٤ ــ جوهرة الأمن

صعدت مع المعلم طابقا آخر في قصر القناعة، فوجدنا شعاعا عظيما متلألئا، سألت المرشد عنه، فقال: هذه جوهرة نفيسة من جواهر القناعة، اسمها الأمن.

التفت إلى المعلم، وقلت: ذاك الذي تكفل به مجلس الأمن؟

قال: أمنكم يبذر الشقاق، وينبت الحروب، وهذا أمن يمسح الدموع، ويسكن الآهات، ويشرح الصدور.

قلت: بماذا يمسح الدموع، أبالمساعدات الغذائية التي ترميها طائرات قومي من جو السماء.

قال: وترمي بعدها القنابل العنقودية والنووية والجرثومية والكيميائية..

قلت: لكأني بك تعلم مخترعاتنا من الأسلحة.

قال: ومن لا يعلم مخترعاتكم منها، حتى النمل في جحوره، والحيتان في أعماق المحيطات، والذرات في خلايا الفضاء يعرفون أسلحتكم، ويمسهم الرعب منها.

قلت: ولكن على العموم، فإن قومي يحسنون إذ يرسلون هذه الأمداد من الأغذية لهذه الشعوب المستضعفة.

قال: هم يسمنوهم ليأكلوهم سمانا لا عجافا، كما تسمنون الدجاج والأرانب.

قلت: ولكن لولا تلك المساعدات التي تترل كل حين لضاعت تلك الشعوب، بل لضاعت شعوبنا أيضا.

قال: وما الثمن الذي تقدمونه لذلك؟

قلت: كل ما يطلبون.. كرامتنا.. مواقفنا..

قال: ودينكم ومنهاجكم وربكم؟

قلت: لعلهم لو طلبوهم منا لأعطيناهم لا نساومهم في ذلك.

قال: فسيطلبون ذلك.. إن لم يكونوا قد فعلوا..

قلت: بلى.. لقد بدأو يجرؤون.

قال: أتدري ما سبب ذلك؟

قلت: لا أدري.. ولا أدري لماذا نحن نتحدث عن هذا الموضوع الآن، أمام هذه الجوهرة النفيسة.

قال: هذا الحديث عنها.. فهي جوهرة الأمن.. وخوفكم على أرزاقكم، وعدم ظفركم بحقائق هذه الجوهرة هو الذي جعلكم تنحدرون كل ذلك الانحدار.

قلت: فحلل لي سبب ذلك خطوة خطوة حتى أفهم ما تقول.

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(القصص:٥٧)؟

قلت: بلى، وقد ذكرهم الله بما أنعم عليهم في الحرم من الأمن، فقال:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾(العنكبوت:٦٧)

قال: فما هي العلة التي استند لها المشركون في تركهم اتباع الهدى مع النبي ﷺ؟

قلت: ما نص عليه القرآن الكريم من خشيتهم على أنفسهم وأرزاقهم.

قال: على أي أرزاق خافوا، هل على أرزاق حاضرهم، أم أرزاق مستقبلهم؟

قلت: رزق حاضرهم يأكلونه، فلن يخرجه أحد من أفواههم، ورزق ماضيهم أكلوه، فلا يمكن أن يسلبه منهم أحد، فلم يبق إلا رزق مستقبلهم.

قال: وبماذا طمأنهم الله تعالى، ونزع من قلوبهم المخافة؟

قلت: بذكر ما وفر لهم من النعم، والتي تجعلهم في غنية عن مخافة التخطف أو ذهاب الرزق.

قال: فهذه الآية إذن تشير إلى ما يحمله الخوف على الرزق من أضرار على حقيقة الإنسان وحياة الإنسان.

قلت: بلى، وقد وجههم الله بعدها إلى توجيه المخافة لله وحده، فقال تعالى:﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾(القصص:٥٨)، أي لا ينبغي أن تخافوا إن اتبعتم الهدى أن يتخطفكم الناس، ولكن خافوا إن لم تتبعوه أن يتخطفكم الله.

قال: فتلك إشارة مؤكدة مكملة للإشارة السابقة.

قلت: لكني لا أزال لم أفهم وجه العلاقة بين الأمن وكنز القناعة؟

قال: لقد عرفت أن الحرص يجعل الحريص في هم دائم وبحث دؤوب على كل ما يملأ جوفه.

قلت: أجل بدليل الحديث الذي عبر يه ﷺ عن نفسية الإنسان الطامع.

قال: وهذا الإنسان الطامع الذي يسرف ولا يدبر ولا يزهد كل ذلك حرصا على ملء الفراغ الذي يعانيه.

قلت: نعم، وقد اقتنعت بكل ما ذكرته من ذلك.. ولكن ما جذور الأمن، وما علاقتها بالقناعة، وكيف كان جوهرة نفيسة من جواهرها، بل من أعلى جواهرها وأغلاها.

قال: الحريص لا يفكر في لحظته فقط، بل يفكر في المستقبل الطويل.. لا يقول بملأ قلبه:(الحمد لله، لقد شبعت اليوم، وكفيت)، بل يقول:(لست أدري ما الذي سآكل السنة القادمة، أو السنة التي بعدها)

قلت: فإذن هو لا يعيش لحظته ويومه.

قال: بل لا يعيش غده وشهره، فهو يفكر، ويتألم لما ينتظره.

قلت: والقانع.

قال: القانع فرح بالرزق الذي سيق إليه، مطمئن بما وهب، ويأمل أن يوهب في مستقبله ما وهب في ماضيه.

قلت: فهو سعيد إذن.

قال: هو سعيد ومسالم.

قلت: وما علاقة ذلك بالسلام.

قال: ألم نكن نتحدث عن القنابل ومن أرسل القنابل، أليس ذلك وليد الحرص.

قلت: لم أفهم.

قال: أولئك الجناة المجرمون المصارعون لم يقتنعوا بما آتاهم الله من الرزق، فطلبوا أراضي جديدة لتضمن المستقبل الذي يخافون منه، فراحوا يرمونكم ويرمون المستضعفين، ثم يسكتوكم أو يسمموكم ببعض السموم[1].

(1 وكمثال على ذلك المعونات الاقتصادية المتمثلة في حليب الأطفال، فهي تهدد الرضاعة الطبيعية، ورد في مقال تحت عنوان « معونات الألبان الصناعية.. خطر يهدد أطفال العالم » للدكتور: محمد مصطفى كامل مروان، قوله:

يعتبر مسحوق اللبن الصناعي صنفا محببا من أصناف الغذاء الذي تقدمه الدول الغنية إلى الدول التي تعاني من كوارث ومجاعات، ولكن المعارضة على هذه المعونات تتزايد لأنها تعيق استمرار الرضاعة الطبيعية التي تعتبر أفضل وسيلة لحماية الطفل، فاستخدام قارورة الرضاعة مرة واحدة قد يجعل الطفل يعاف الرضاعة من الثدي مرة أخرى، كما تتعرض هذه المساحيق بسهولة إلى التلوث أثناء تحضيرها نتيجة لتدني مستويات النظافة في المناطق المنكوبة، وهذا كله يعرض الأطفال في تلك المجتمعات الفقيرة للخطر، ويهدد بانتشار أوبئة الإسهال والنزلات الشعبية والرئوية القاتلة.

وعلى الرغم من توصيات خبراء التغذية بعدم التوسع في استخدامها، مازالت المجتمعات الدولية تقدم الألبان الصناعية كمعونات، وتعتبر منظمة الصليب الأحمر أكبر المنظمات التي توزع الألبان الصناعية في العالم، وأحد الأسباب الهامة وراء انخفاض معدلات الرضاعة الطبيعية كان بسبب برامج المساعدات الدولية في فترة الأربعينيات والخمسينيات.

وقد كان فائض إنتاج اللبن الصناعي عن حاجة الدول الغربية في عام ١٩٨٦م وحده، يمكن أن يملأ استاد الكولوسيوم في روما إلى ارتفاع ٤١ كيلو مترا في السماء، ولذا تقبل الدول الغربية بشغف على توزيعه كمعونات حتى تتخلص من المختزن لديها، وهي في نفس الوقت تشعر بالراحة لأنها توزعه على المحتاجين، واللبن عند أغلب الناس رمز للغذاء الصحي المفيد.

قلت: فلم سميت هذه الجوهرة بالأمن؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾(الاسراء: ٣١)

قلت: بلى، فالله تعالى ينهى المشركين عن قتل أولادهم خشية الفقر، ووعدهم بأنه سيرزقهم في مستقبل الأيام.

قال: فقد كان الخوف إذن هو سبب قتل الأولاد.. ومثله قتل الشعوب.

قلت: هذا صحيح.

قال: فلذلك كانت هذه الجوهرة هي جوهرة الأمن الذي يمسح المخاوف، ويطمئن القلوب، ويشعرها بالاستقرار والسكينة.

قلت: نعم، فقد رغبتني في امتلاك هذه الجوهرة النفيسة، فبين لي طريق تملكها.

قال: بأربعة حقائق، إن تشربتها حلت فيك السكينة، ونزل بساحتك الأمن.

وعلى الجانب الآخر، ينظر المستقبلون للمعونات بعين الرضاء إلى اللبن الصناعي، على سبيل المثال طلبت البرازيل ـــ عقب إصابتها بفيضانات مدمرة ـــ إمدادها بمعونات اللبن وقوارير الرضاعة والحلمات الصناعية، وعلى الفور نصحها المختصون بالرابطة المشتركة للهلال والصليب الأحمر بعدم جدوى هذا، ومع هذا أصرت حكومة البرازيل على طلبها، وحصلت على ما تريده من فروع منظمة الصليب الأحمر الأوروبي، وساهم الصليب الأحمر الفرنسي في توزيع أقراص مصنعة من مسحوق اللبن المجفف، وذلك على الرغم من سياسة تمنع توزيعها.

وفي إثيوبيا.. لم ينفع توزيع الألبان المجففة على البالغين، فاللبن لا يعتبر غذاء رئيسيا على موائدهم، وكان من الممكن أن يوزع أصناف أخرى من أغذية معروفة لديهم، والمختصون يرون أن مع اعتياد الناس على هذه الوجبات الجديدة يزداد الطلب عليها، ويتناقص المخزون منها، وبالتالي ترتفع أسعارها.

وتحكي إحدى المختصات عن منظر أهلها عقب زيارتها إحدى مناطق الكوارث في بنجلاديش، وهو منظر أم وابنتها يعيشان في العراء دون مأوى، وهما ترضعان أحد الأطفال من قارورة ـــ حصلت عليها من المعونات الأجنبية ـــ وتحت ظروف قاسية لا تجد فيها ماء صالحا لغسل القارورة وتخفيف اللبن.

وتستورد سيراليون الألبان من الولايات المتحدة الأمريكية وتوزعها الجماعات المسيحية الكاثوليكية على الفقراء، اللبن مع الزيت يوزعان على الأمهات اللاتي يراجعن العيادات في المستشفيات، ولهذا تفضل الأمهات الذهاب إلى العيادات سعيا وراء المعونات المجانية، بينما لا يرى الأطباء أي جدوى من هذه المواد، ونتيجة لذلك انخفضت نسبة الأمهات اللاتي يرضعن طبيعيا من ٥٧% عام ١٩٧٩م إلى ٥٣% عام ١٩٨٩م، وفي الجزء الغربي من سيراليون لا يرضع من الثدي سوى ٣١% فقط من الأطفال، والباقين أغلبهم يعانون من سوء التغذية، وأثناء الفياضانات التي ضربت جواتيمالا عامي ١٩٨٣م ـــ ١٩٨٤م استوردت منظمة اليونيسيف وقتها ألبانا مجففة ووزعتها على الأطفال، وعلى الرغم من نصحها الأمهات بعدم استخدام قارورة الرضاعة في إطعام الأطفال، استخدمت الأمهات القوارير، وتلوثت عبوات الألبان فور فتحها، وتسبب ذلك في انتشار الأمراض، وفي النهاية فشل برنامج المساعدة وتوقف.

وأثناء الحرب الأهلية بنيكاراجوا، وفي أعقاب زلزال المكسيك، وصلت مساعدات الألبان الصناعية، وعلى الفور تناقصت معدلات الرضاعة الطبيعية.

إن معونات الألبان الصناعية تهدد الرضاعة الطبيعية، وتوجد اعتمادا مستمرا عليها من الدول المحتاجة، وفي النهاية يقع الضرر على المحتاجين بينما ينتفع من ذلك الدول المتبرعة التي يزداد الطلب والشراء على منتجاتها.

قلت: فما الحقيقة الأولى؟

قال: أن تعلم بأن المكلف برزقك خزائنه لا تنفد، وهو لا يغفل عنك لحظه، وهو مع ذلك رحيم بك لطيف ودود.

قلت: فيكف ينشئ هذا في نفسي الأمن على رزقي؟

قال: الصبي الصغير الذي يعيش في كفالة والدين رحيمين غنين، هل يفكر في مصدر رزقه، أو يحزن على غداء غده؟

قلت: كلا.. فلماذا يفكر، فهو في كفالتهما؟.. ولكنه مع ذلك صغير لا طاقة له بحمل هموم الكبار.

قال: فالطالب الكبير الذي ينتمي إلى معهد من المعاهد التي تتكفل برزقه، هل يحزن على رزق غده؟

قلت: كلا، فهو تحت كفالة معهد له ميزانيته الغنية، فلذلك لا يصيبه هم رزقه.

قال: فإذا علم العبد أن رزقه بيد الله، وأن الله غني حميد، وأنه كريم جواد، وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا تصيبه غفلة ولا نسيان، أيخاف على رزقه؟

قلت: كلا، فهات الحقيقة الثانية.

قال: ألا تعلم أن مطالب الإنسان الحقيقة التي يتطلبها استقراره على هذه الأرض لتأدية ما كلف به من وظائف لا يستدعي كل ذلك الكم من الجهود ومن الحزن.

قلت: كيف؟ والضرورات كثيرة، وكل ضرورة تؤدي إلى ضرورات أخرى.. وهكذا تتعقد الحياة ومطالب الحياة.

قال: سبب ذلك ليس مطالب الحياة كما هي، وكما خلقها الله، وإنما هي مطالب الأجواف الفارغة التي تستدعي وديانا كثيرة لتملأها.

قلت: فالمطالب إذن وهمية، والضرورات ليست ضرورات.. كيف هذا؟

قال: سأبين لك هذا بتفاصيله، ولكن قل لي: من كانت له جهة غنية تكفله، ثم كان لا يحتاج إلا إلى حاجات بسيطة أكان ذلك يجعله خائفا؟

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك.

قال: رأيت قومك يحبون تربية القطط.

قلت: ويتفنون في تربيتها وأنواع طعامها.

قال: أرأيت لو أن شخصا ترك قطه عند جزار، أو صاحب مطعم، أيخاف على قطه من

الموت جوعا؟

قلت: كلا.. فإنه وإن لم يلتفت الجزار أو صاحب المطعم إلى حاجات القط، فإن غذاء القط بسيط، فيكيفيه أن يحمل أي عظم أو أي شيء في الأرض ليسد به رمقه.

قال: فكذلك الإنسان في ملك الله، فإن مطالبه أقل بكثير من خزائن الرزق التي جعلها الله له.

قلت: فهمت، فما الحقيقة الثالثة؟

قال: إذا علمت أن لكل زمان رزقه الخاص به، لا تحزن على المستقبل، لأنه لا يأتي إلا ومعه رزقه.

قلت: كيف؟

قال: سبب الخوف على المستقبل هو تصور خلو المستقبل من الرزق، فإذا علمت أن لكل زمان رزقه الخاص به لم تحزن، كالرضيع الذي يسوق الله له في كل لحظة من الرزق ما يتناسب مع حاجاته.

قلت: فما الحقيقة الرابعة؟

قال: إذا ركبت باخرة ضخمة، وكان في الباخرة كل وسائل الأمان، بما فيها الزوارق وقوارب النجاة، وكنت تتقن السباحة، وكان البر قريبا، أكنت تخاف؟

قلت: لا.. ولماذا أخاف، فأنا قريب أولا، وقوارب النجاة موجودة، ومع ذلك، فإن مهارتي في السباحة قد تكفي لنجاتي.

قال: فكذلك الله، فقد زودك بالإضافة إلى كل ما ذكرت قوى لتعمل بها، فإن لم تكن لك قوى وفر دواعي الإحسان في الخلق ليحسنوا إليك.

قلت: هذه الجملة، فهات التفصيل.

الحقيقة الأولى

قلت: ففصل لي الحقيقة الأولى.

قال: الحقيقة الأولى وصفه، واسمه الذي به ينادى، وفعله الذي به يفيض الأرزاق على خلقه.

قلت: نعم، فالله ﴿هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذريات:٥٨)، ففصل لي ما يشرح صدري لهذا الاسم، وما يملأ قلبي بحقيقته، فإني وإن علمت ذلك و لم أجحده إلا أن حقيقته لم تصل قلبي، فأجدني جزعا خائفا.

قال: الشأن في الحقيقة أن تلامس شغاف الروح لا أن تلامس خلايا العقل، فالعلم وحده لا يكفي ما لم يصحبه اليقين وطمأنينة القلب.

قلت: فما الطريق إلى ذلك؟

قال: طريق اليقين رسمه الله لإبراهيم عليه السلام عندما سأله أن يبين له كيفية إحياء الموتى.

قلت: نعم، لقد قال الله تعالى حاكيا عن ذلك:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٠)

ولهذا قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام:﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(الأنعام:٧٥)

قلت: ولكن هل نطلب من الله تعالى معجزة مثلما طلب إبراهيم عليه السلام؟

قال: وهل نفتقر إلى طلب المعجزات؟

قلت: وكيف نراها؟

قال: في ملك الله وملكوته.. فهي من الكثرة بحيث لا تحد ولا تعد.

قلت: لم أفهم.. فأنا لم أر في حياتي معجزة.

قال: بل، لم تر في حياتك إلا المعجزات.

قلت: فسر لي، فإني لا أكاد أفهم.

قال: ألم تسمع تمهيد الله تعالى لقصة أهل الكهف؟

قلت: بلى، لقد قال فيهم:﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾(الكهف:٩)

قال: فما المراد منها؟

قلت: يخبر الله أن له آيات أكثر عجبا من قصة أصحاب الكهف التي عجب لها الناس وخلدوها واهتموا بها.

قال: وفيم هذه الآيات، وما محالها؟

قلت: في السماء والأرض، وكل شيء.

قال: فقد أجبت عن سؤالك، فرزق الله آية اسمه الرزاق، أو هو فيض من فيوضات الرزاق، وهذه الفيوضات تستدعي الظهور حتى لا ينكرها أحد، ولهذا لم ينكر المشركون كون الله رزاقا.

قلت: نعم، فقد قال الله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾(يونس:٣١)

ولكن.. فصل لي مظاهر رزقه حتى يطمئن قلبي، فلو لامست الطمأنينة لرزق الله شغاف قلوب المشركين ما كفروا بالله.

قال: سأكتفي بذكر آية من آيات رزق الله، وهي أنه وضع رزقه في محال لا يطيق أحد نزعها.

قلت: لماذا، وكيف؟

قال: أما لماذا، فقد دل عليه قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾(الكهف:٨٢)

قلت: ما وجه الإشارة في هذا؟

قال: هذا الوالد المسن لأولاده، لماذا خبأ الكتر في مكان لا يراه فيه أحد، ما عدا أولاده؟

قلت: لئلا يطمع فيه أحد، فيسلبه منهم.

قال: فكذلك الله تعالى وضع رزقه في محال بحيث لا يستطيع أحد أن يسلبها من الخلق.

قلت: فهلا مثلت لما تقول، فإني أكاد أفهم، ولكني أريد أن أرى الحقيقة لا أن أسمعها؟

قال: سأضرب لك مثالا قريبا من مثال الكتر.

قلت: أخبأ الله كنوزا، وما الحاجة إلى ذلك.

قال: ألم تسمع قوله ﷺ وهو يخبر عن علامات الساعة، فقال عند ذكره لموت يأجوج ومأجوج:(فيرغب نبي الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل عليهم طيرا كأعناق

البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله تعالى، ثم يرسل الله عز وجل مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها[1]، ويبارك الله في الرسل[2] حتى أن اللقحة[3] من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس)[4]

قلت: بلى، فما وجه الإشارة فيه؟

قال: الإشارة فيه عبارة، فقد أخبر ﷺ عن إخراج الأرض لبركاتها قبل قيام الساعة، بحيث يرى من بركاتها ما لا يخطر على بال.

قلت: وما في هذا؟

قال: لقد ادخر الله تلك البركات لذلك الزمان حتى لا يموت آخر إنسان على هذه الأرض جوعا.

قلت: تلك بركات ذلك الزمان؟

قال: ولكل زمان بركاته.

قلت: كيف؟

قال: ألم يكن النفط كنزا عظيما مخبأ في صناديق لا يصلها أحد لتتنعموا به في هذا الزمان، ولا تمدوا أيديكم لأحد من الناس؟

قلت: بلى، بل أصبحنا نحن الذين نمد أيدينا للناس بالمعونة من غير حساب.

قال: فذاك كنز خبأه الله لكم لينظر ماذا تعملون.

قلت: ولكن هذا الرزق محصور في بلاد محدودة.

قال: وهي البلاد التي تحتاج إليه لقلة موارد رزقها الظاهرة، ألا ترى أن الأب الرحيم قد يفضل ابنه الضعيف أو المريض أو المحتاج بالعطية ليسد حاجته، ويكل الأقوياء لقوتهم؟

قلت: بلى.

قال: فكذلك الله تعالى برحمته جعل في البلاد التي تشح أرضها، أو يحبس قطرها من أسباب الرزق ما يسد حاجاتها.

---

(١) أراد قشرها، تشبيها بقحف الرأس، وهو الذي فوق الدماغ.
(٢) ما كان من الابل والغنم من عشر إلى خمس وعشرين.
(٣) الناقة القريبة العهد بالنتاج.
(٤) رواه أحمد والترمذي ومسلم.

قلت: إن في القرآن الكريم إشارة جميلة إلىهذا، فقد قال تعالى على لسان إبراهيم u:﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(ابراهيم:٣٧)، فمكة المكرمة بواد غير ذي زرع، فحنن الله القلوب إليها، فإذا برزقها يفاض عليها من كل مكان.

قلت: تلك مكة المكرمة..

قال: ومثلها كثير من بلاد الله، بل قد تجد أهل الأرض الشحيحة أكثر غنى من أهل الأرض السخية.

سكت، فقال: سأعطيك مثالا لن يخالفك فيه أحد.

قلت: ما هو؟

قال: هذا الهواء الذي تتنفسه، هل جعل الله في طاقة البشر تملكه ومنع العباد عنه؟

قلت: لو أطاقوا لحجزوه في قارورات، وباعوه للناس.

قال: وهذا الماء الذي تشربه، والذي تفيض به الأنهار، والوديان والسماء.

قلت: هم كذلك لا يطيقون حبسه ولا منعه عن الناس.

قال: فهذه أهم الأرزاق لا يمنعها أحد.

قلت: ولكن الطعام.

قال: الطعام موجود مبثوث في كل مكان.

قلت: ولكنه بأيديهم يرفعون فيه ويخفضون، فيمتلكون به رقاب الناس.

قال: لا.. الطعام لا يختلف عن الماء والهواء، ولكن الناس بما ابتدعوه فيه سلموا رقابهم لمن يسقيهم الويلات بسببه.

قلت: كيف؟

قال: أنتم لا تأكلون ما يسد حاجتهم، ويحفظ قوامكم، ولكنكم اتخذتم الأكل حرفة، تظل المرأة طول نهارها من أجل وجبة أو وجبات أكثر ما فيها لغو وعلل.

قلت: نعم.. إني حينما أرى تلك الجهود المبذولة في التقطيع والتصفيف والمزج والتخليط أشعر بالضيق يدب إلى نفسي، لأن كل ذلك التخليط سيترل إلى المعدة، ولا يهمها أن يأيتيها مصففا أو غير مصفف.

قال: فأنتم الذي ضيقتم على أنفسكم، أما الله فإن رحمته وسعت كل شيء، ورزقه لم يحرم منه أحد، وسنرى تفاصيل هذا في الحقيقة الثانية.

قلت: فقد فهمت هذه الآية، فهل من آية أخرى؟

قال: لو ظللنا نعد آيات الله في رزقه لبقينا جميع دهرنا أمام هذه الجوهرة لا نبرحها، ولكن سأدلك على ملاك ذلك كله.

قلت: فهات، فما أحوجني إلى المجامع والأصول.

قال: أرأيت إن ضمنت لك جهة ما رزقك، بحيث يأتيك مياومة أو مشاهرة أو مسانهة، أكنت تخاف عليه.

قلت: وكيف أخاف عليه، وهو يأتيني رغدا وبانتظام، ولكن قد أخاف إن لم تكن جهة موثوقة.

قال: فإن كانت جهة موثوقة.

قلت: قد لا أخاف على وعدها ووفائها وجميل صدقها، ولكني أخاف على التقلبات التي قد تحدث فتمنعها من الوفاء بما ضمنته.

قال: فإن كانت فوق التقلبات.

قلت: تقصد أن يأتيني رزقي من جهة لا دخل للوزارة فيها.. فالوزراء يتحولون كل حين، ويعزل كل جديد كل قديم.

قال: ولا دخل للملوك والأمراء والرؤساء.

قلت: إذن أنام قرير العين لا أختلف عن الملوك ولا عن الوزراء والرؤساء.

قال: فقد وعد الله إذن عباده برزقه، ووعده لا يتخلف، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(هود:٦)، فقد وعد الله بتنزل أرزاقه على كل ذي حياة على هذه الأرض، فهل ترى في هذا من تخلف؟

قلت: لا، بل أرى أرزاق الحيوانات تساق إليهم عفوا، لا يحتاجون إلا إلى تناولها.

قال: ومثل ذلك أرزاق الإنسان إلا أنه يأبى إلا أن يعقد ما بسط الله.. أتدري لم يحرم الموكل بأرزاق البشر بعض العباد رزقه.

قلت: إن خالف الوزير أو الأمير.

قال: أما الله، فإن رزقه لا يفرق بين مؤمن متعبد، وكافر متعنت.

قلت: نعم، ولهذا قال تعالى مجيبا إبراهيم عليه السلام عندما سأل الرزق لعباد الله المؤمنين[1] دون

---

(١) ونص قوله هو:﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة:١٢٦)

غيرهم ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:١٢٦)، فأخبره الله تعالى أن رزقه يناله المؤمن والكافر.

قال: وسأضرب لك مثالا على ذلك.. ألا تعلم أنواع الجرائم والكفر التي وقع فيها بنو إسرائيل بعد أن أنجاهم الله؟

قلت: كثيرة، بل إنهم بمجرد خروجهم وهلاك عدوهم التفتوا فوجدوا قوما ﴿ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾(لأعراف: من الآية١٣٨)

قال: وهل استجابوا لقوله؟

قلت: كلا، فبمجرد غيبته عنهم أياما معدودات، عبدوا العجل، قال تعالى:﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾(البقرة:٥١)

قال: وعندما أمرهم بالدخول إلى الأرض المقدسة، بماذا أجابوا؟

قلت: ما قصه علينا القرآن الكريم من قوله:﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾(المائدة:٢٤)

قال: فما هي العقوبة التي حاقت بهم بعد هذا القول؟

قلت: ما نص عليه قوله تعالى:﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(المائدة:٢٦)

قال: فكان دخولهم في التيه إذن عقوبة لهم؟

قلت: نعم.

قال: والأصل في العقوبة أن يشدد على صاحبها، ويضيق عليه.

قلت: لا شك في ذلك، ومن شك فعليه بزيارة السجون والمعتقلات.

قال: ولكن اسمع لما أنزل الرزاق الكريم على هؤلاء في فترة عقوبتهم، قال تعالى مخاطبا لهم:﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(البقرة:٥٧)

قلت: لقد ذكر الله تعالى ثلاث نعم عظمى: الغمام، والمن، والسلوى.

قال: فقد وقاهم الله حر الشمس، وصدى العطش، ولهيب الجوع.

قلت: لم يقهم فقط، بل متعهم، فقد قال قتادة في المن:(كان المن ينزل عليهم في محلّهم سقوط الثلج، أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع

الشمس يأخذ الرجل منهم قدر ما يكفيه يومه ذلك)، وقال ابن عباس في السلوى:(السلوى طائر يشبه السماني كانوا يأكلون منه)

قال: وعندما عطشوا؟

قلت: لم يكلفهم بحفر آبار ليشربوا، بل خرق العوائد من أجل أن يسقيهم، قال تعالى:﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(البقرة:٦٠)

قال: وليس هذا فقط، بل إن الله تعالى يأمر عباده بأن يأكلوا من رزقه ويعرض عليهم أصناف نعيمه كما يعرض الضيف الكريم طعامه على ضيفه.

قلت: أجل، فقد ورد ذلك في آيات كثيرة، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:١٧٢)، وقالتعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام:١٤١)

قال: ومع ذلك كله، فالله لا يغفل ولا ينسى، فهل يخاف من عرف الله على رزقه؟

قلت: كلا.. ولكن، يا معلم..

التفت، فلم أر المعلم، لست أدري هل انصرف عني أو انصرفت عن، أم أنه خشي الجدل.

***

بعد ذهابه خطر على بالي قصة جميلة أوردها المفسرون في آخر سورة الذاريات عند قوله تعالى:﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(الذريات:٢٢)، فقد روى الأصمعي محدثا عن نفسه قال: أقبلت من جامع البصرة، فطلع أعرابي على قعود له.

فقال:ممن الرجل؟

قلت:من بني أصمع.

قال: من أين أقبلت؟

قلت:من موضع يتلى فيه كلام الرحمن.

فقال: اتل علي.

قال الأصمعي: فتلوت (والذاريات).. فلما بلغت قوله تعالى:﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(الذريات:٢٢)، قال:حسبك! فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ؛

وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى.

قال الأصمعي: فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ؛ فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت دقيق. فالتفت، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر. فسلم علي واستقرأ السورة. فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، ثم قال: وهل غير هذا؟ فقرأت:﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾(الذريات:٢٣) فصاح قال:يا سبحان الله. من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟ لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين! قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه.

وفي هذه القصة شاهد عظيم على ما يفعله اليقين في رزق الله من كرم في صاحبه، فالبخل وليد الحرص، والحريص هو الخائف من الافتقار، أما الذي لا يخاف لاستناده إلى الرزقا فإنه يده لا تكاد تقبض، وقد قال تعالى في سورة الذاريات، وهي السورة التي جاءت لبيان أرزاق الله وكيفية التعامل معها:﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾(الذريات:٢٦)

فقد أتى إبراهيم عليه السلام بعجل سمين من أجل أفراد معدودين لا يعرفهم و لم يقدم لهم دعوة بحسث يكرمهم على أساسها، ولكن ثقة إبراهيم فيما في يد الله جعلته يبذل ذلك البذل من غير خوف.

ولهذا كان ﷺ يقول لبلال رضي الله عنه:(أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا)[1]

ولهذا كان ﷺ يقدم الحريصين الخائفين على الواثقين من المؤمنين، وقد أتي مرة بمال، فقسمه فأعطى رجالاً وترك رجالاً فبلغه أن الذين ترك عتبوا فحمد اللَّه ثم أثنى عليه ثم قال:(أما بعد فوالله إني لأعطي الرجل وأدع الرجل، والذي أدع أحب إلي من الذي أعطي، ولكني أعطي أقواماً لما أرى في قلوبهم من الجزع والهلع[2]، وأكل أقواماً إلى ما جعل اللَّه في قلوبهم من الغنى والخير)

ثم التفت إلى عمرو بن تغلب رضي الله عنه، وهو راوي الحديث، فقال:(منهم عمرو بن تغلب)

وقد كان لهذه الكلمة تأثيرها لعظيم على نفسه، قال:(فوالله ما أحب أن لي بكلمة رَسُول اللَّهِ ﷺ حمر النعم)[3]

---

(١) البزار عن بلال وعن أبي هريرة والطبراني في الكبير عن ابن مسعود (أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٣) وقال رواه الطبراني في الكبير وفيه قيس بن الربيع

(٢) هو أشد الجزع. وقيل: الضجر.

(٣) البخاري.

الحقيقة الثانية

جاءني المعلم، وقال: هلم لنتبصر الحقيقة الثانية.

قلت: حقيقة ضعف مطالب الإنسان وقلتها بجانب الرزق المفاض عليه.

قلت: أجل، وقد أشار إلى هذه الحقيقة قوله ﷺ:(من أصبح منكم معافى في جسده، آمناً في سربه[1]، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)[2]

قال: وقد ورد في لفظ من ألفاظ الحديث ما هو أكثر دلالة، قال ﷺ:(ابن آدم عندك ما يكفيك، وأنت تطلب ما يطغيك، ابن آدم لا بقليل تقنع، ولا من كثير تشبع، ابن آدم إذا أصبحت معافى في جسدك آمنا في سربك عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء)

قلت: وهذا المعنى يشير إليه ما روي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ﷺ أن رجلا سأله، فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد اللّه: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال:نعم، قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك.

قال: بل يشير إليه قبل ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(المائدة:٢٠)، فقد أخبر الله تعالى أنه جعلهم ملوكا مع أن الملك لم يكن إلا في بعضهم.

قلت: لقد قال ابن عباس في قوله تعالى:﴿ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً ﴾:(الخادم والمرأة والبيت)

وعنه ﷺ قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار سمي ملكاً.

وقال الحسن البصري ﷺ:(هل الملك إلا مركب وخادم ودار؟)

قال: أراك لم تكتف بهذا.. ألم تؤمن؟

قلت: بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

قال: فقارن بين حاجات الإنسان الغذائية البسيطة، وبين ما كتر في البحر من أصناف الأغذية.

قلت: نعم، فقد قال تعالى وهو يعدد نعمه التي جعلها في البحار:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(النحل:١٤)

---

(١) المأوى.

(٢) البخاري في الأدب والترمذي وابن ماجة عن عبيد الله بن محصن. لفظ الحديث عند الترمذي وابن ماجة عن عبد اللّه بن محصن:« من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »

قال: فاسمع لما يقول الخبراء في هذه الآية.

التفت، فرأيت مجموعة خبراء..

قال الأول: تشكل البحار القسم الأكبر من سطح الكرة الارضية ، فالماء أساس الحياة ، ولا زالت البحار باعتبارها المنبع المهم في ادامة الحياة البشرية وحياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الارضية.

قال الثاني: لقد جعل اللّه في البحار لحما ليتناوله الانسان من غير أن يبذل أدنى جهد في تربيته ، بل اوجدته ونمته يد القدرة الالهية ، وقد خصه بالطراوة ، وفي ذلك اشارة ايضا الى اهمية اللحوم الطازجة.

ومع ما شهدته الحياة البشرية من التقدم والتمدن المدني في كافة اصعدة الحياة لا زال البحر احد المصادرالرئيسية للتغذية ، ويصاد سنويا مئات الالاف من الاطنان من الاسماك الطرية التي اوجدها ورعتها يد اللطف الالهية لأجل الإنسان.

قال الثالث: نجد انظار العلماء متجهة صوب البحار في قبالة ما سيهدد البشرية من خطر نقص المواد الغذائية في المستقبل جراء الزيادة السكانية الهائلة ، آملين خيرا بان البحار ستسد مقدارا ملحوظا من ذلك النقص ، بواسطة تربية وتكثيرانواع الاسماك.

ومن جهة أخرى وضعوا عدة مقررات لمنع تلوث مياه البحار للحد من تلف نسل الحيوانات البحرية.

قال الرابع: ومن نعم البحار تلك المواد التجميلية المستخرجة منه، والتي دل عليها قوله تعالى:﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾(النحل: من الآية١٤)

قال الخامس: ومن نعم اللّٰه في البحار حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمة لتنقل الانسان ونقل ما يحتاجه.. ونتساءل: من الذي اعطى المواد التي تصنع منها السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟

فالسفينة بما تحمل اثقل من الماء بكثير، ولو لم تكن تلك القوة الدافعة للماء، هل بامكاننا العوم على سطح المياه؟ ومن الذي يحرك الرياح على سطح البحر؟ بل من اعطى البخار القوة لتحريك السفينة في مسيرها على سطح الماء؟ او ليس ذلك كله من نعم اللّه تعالى؟ ومما يكشف عن عظم نعمة البحار انها: اوسع بكثير من الطرق البرية ، اقل كلفة ، اكثر اهلية للحركة ، اعظم وسيلة نقلية للبشر، وذلك بملاحظة كبر السفن المستخدمة في النقل وضخامة ما تحمله.

الحقيقة الثالثة

قال: أما الحقيقة الثالثة، فأن تعلم لكل زمان رزقه الخاص به.

قلت: وماذا تقول هذه الحقيقة؟

قال: تقول لك:(عش يومك، ولا تحزن على المستقبل، لأنه لا يأتي إلا ومعه رزقه)

قلت: كيف؟

قال: سبب الخوف على المستقبل هو تصور خلو المستقبل من الرزق، فإذا علمت أن لكل زمان رزقه الخاص به لم تحزن.

قلت: فاضرب لي على ذلك مثالا.

قال: ألا يرزق الجنين؟

قلت: بلى، ولو توقف الرزق عنه لحظة هلك.

قال: وماهو رزقه؟

قلت: كل ما يتطلبه جسده لبنائه من معادن وبروتين وفيتامين وغير ذلك من المكونات.

قال: ولو نقص أحد هذه المكونات؟

قلت: سيهلك الجنين، أو سيخرج مشوها، وأحسن أحواله أن يخرج سقيما يحتاج إلى علاج.

قال: ولكن الجنين يمر بمراحل مختلفة.

قلت: أجل، لقد نص على جميعها القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ﴾(الحج: من الآية٥)

قال: وهل يحتاج في كل المراحل إلى غذاء واحد؟

قلت: كلا، ففي كل مرحلة يحتاج غذاء خاصا.

قال: وهل يوفر له ذلك الغذاء الخاص؟

قلت: أجل، مثلما يوفر الطعام في المطاعم بحسب رغبة الطاعم.

قال: ولكن الطاعم هنا ضعيف ليس له أي قدرة.

قلت: ولكن مطعمه يعلم حاجته، ويوفرها له.

قال: تقصد أمه.

قلت: أمه، لا تدري أي شيء عنه، هو في رحمها، لكنه غيب بالنسبة لها.

قال: فمن إذن؟

قلت: الله الرزاق ذو القوة المتين.

قال: فقد فهمت إذن بأن لكل زمان رزقه.

قلت: نحن لا نخاف على رزق الجنين، ولكن نخاف على رزق الوليد، ولهذا أخبر الله تعالى عن قتل المشركين لأولادهم، و لم يخبر عن إجهاضهم لنسائهم، قال تعالى:﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: من الآية١٥١)، وقالتعالى:﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾(الاسراء:٣١)

قال: فالوليد عند نزوله، أيطيق أكل طعام الناس؟

قلت: كلا.

قال: فهل وفر الله له ما يقوم بغذائه؟

قلت: نعم، لقد أدر الله ثدي والدته لتسقيه من حليبها.

قال: فهل في لبن الأم ما يكفي حاجة رضيعها؟

قلت: بل ما يكفي ويشفي.

قال: فهل يتناسب ذلك مع حاجاته المختلفة.

قلت: أجل، فحليب الأم ــ كما يقرر الخبراء[1] ــ يتطور تركيبه من يوم لآخر بما يلائم حاجة الرضيع الغذائية، وتحمل جسمه، و بما يلائم غريزته وأجهزته التي تتطور يوماً بعد يوم ن وذلك عكس الحليب الصناعي الثابت التركيب: فمثلاً يفرز الثديان في الأيام الأولى اللبن Colostrm الذي يحوي أضعاف ما يحوي اللبن من البروتين و العناصر المعدنية، لكنه فقير بالدسم و السكر، كما يحوي أضدادا لرفع مناعة الوليد، وله فعل ملين، هو الغذاء المثالي للوليد.

كما يخف إدرار اللبن من ثدي الأم، أو يخف تركيزه بين فترة و أخرى بشكل غريزي و ذلك لإراحة الجهاز الهضمي عند الوليد، ثم يعود بعدها بما يلائم حاجة الطفل.

قال: قد يكون الغذاء شافيا كافيا، ولكنه يتناسب مع المستقبل له.

قلت: الأمر عكس ذلك، فلبن الأم ــ كما ينص الخبراء ــ أسهل هضماً من كل الألبان والأغذية لاحتوائه على خمائر هاضمة تساعد خمائر المعدة عند الطفل على الهضم، و تستطيع المعدة إفراغ محتواها منه بعد ساعة و نصف، و تبقى حموضة المعدة طبيعية و مناسبة للقضاء على

---

(١) رجعنا للمعلومات العلمية هنا إلى كتاب « مع الطب في القرآن الكريم » للدكتور عبد الحميد دياب، والدكتور أحمد قرقوز، مؤسسة علوم القرآن، دمشق.

الجراثيم التي تصلها.

بينما يتأخر هضم خثرات الجبن في حليب البقر، لثلاثة أو أربع ساعات، كما تعدل الأملاح الكثيرة الموجودة في حليب البقر حموضة المعدة، و تنقصها مما يسمح للجراثيم و خاصة الكولونية بالتكاثر مما يؤدي للإسهال و الإقياء.

وبالإضافة إلى هذا يسبب لبن البقر مضاعفات عدم تحمل و تحسس، لا تشاهد في الإرضاع الطبيعي كالإسهال و النزف المعوي و التغوط الأسود و مظاهر التحسس الشائع، كما إن الإلعاب و المغص و الإكزما البنيوية أقل تواجداً في الإرضاع الطبيعي.

قال: ولكن الرضيع ليس بحاجة إلى الغذاء فقط، بل هو بحاجة إلى الدواء، أو بالأحرى تقوية جهاز مناعته، ليواجه الأعاصير التي تتربص به.

قلت: وذلك كله موجود في لبن الأم، فهو يحوي أجساما ضدية نوعية، تساعد الطفل على مقاومة الأمراض، و تواجد بنسبة أقل بكثير في حليب البقر، كما أنها غير نوعية، و لهذا فمن الثابت أن الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم أقل عرضة للإنتان ممن يعتمدون على الإرضاع الصناعي.

والإرضاع الطبيعي يدعم الزمرة الجرثومية الطبيعية في الأمعاء ذات الدور الفعال في امتصاص الفيتامينات و غيرها من العناصر الغذائية، بينما يسبب الإرضاع الصناعي اضطراب هذه الزمرة.

ويهيء الإرضاع الطفل للإصابة أكثر، بأمراض مختلفة، كالتهابات الطرق التنفسية، و تحدد الرئة المزمن الذي يرتبط بترسب بروتين اللبن في بلاسما الطفل وحذف لبن البقر من غذاء الطفل يؤدي لتحسنه من المرض. و كذلك التهاب الأذن الوسطى، لأن الطفل في الإرضاع الصناعي يتناول وجبته و هو مضطجع على ظهره، فعند قيام الطفل بأول عملية بلع بعد الرضاعة ينفتح نفير أوستاش و يدخل الحليب و اللعاب إلى الأذن الوسطى مؤدياً لالتهابها.

وتزيد حالات التهاب اللثة و الأنسجة الداعمة للسن بنسبة ثلاثة أضعاف، عن الذين يرضعون من الثدي. أما تشنج الحنجرة، فلا يشاهد عند الأطفال الذين يعتمدون على رضاعة الثدي.

وهذه الفروق وغيرها، تفسر لنا نسبة الوفيات عند الأطفال الذين يعتمدون الإرضاع الصناعي عن نسبة وفيات إخوانهم الذين من الثدي بمقدار أربعة أضعاف رغم كل التحسينات التي أدخلت على طريقة إعداد الحليب في الطرق الصناعية، و على طريقة إعطائه للرضيع..

ثم التفت إلى المعلم، فرأيته، وكأنه يحضر لي سؤالا، فقلت: وأزيدك، فإنه زيادة على هذه الفوائد الصحية، هناك فوائد نفسية واجتماعية كثيرة، فقد أكد علماء النفس[1] أن الرضاعة (ليست مجرد إشباع حاجة عضوية إنما هو موقف نفسي اجتماعي شامل، تشمل الرضيع والأم وهو أول فرصة للتفاعل الاجتماعي)

وفي الرضاعة يشعر الطفل بالحنان والحب والطمأنينة ويحدث اندماج في المشاعر بين الطفل وأمه وهذا يحدث من التصاقه بأمه أثناء الرضاعة وخصوصا الرضاعة لفترة طويلة وبذلك تقوي العلاقة بين الطفل والام من خلال الرضاعة الطبيعية عكس الطفل الذي يأخذ غذاءه عن طريق الرضاعة الصناعية فهو محروم من الحب والحنان والشعور بالأمن فهو دائما خائف وتكون العلاقة بينه وبين أمه مضطربة الى حد كبير مما يؤدي فيما بعد أو أثناء فترة الطفولة الى الاستعداد للإصابة بالأمراض النفسية المختلفة.

والرضاعة الطبيعية تعد مناعة الطبيعية ضد حدوث المرض النفسي والعقلي سواء في فترة الطفولة أو باقي مراحل الحياة وعلى اثر ما نشر من الأبحاث في تأثير الرضاعة الطبيعية والرضاعة الصناعية على الصحة النفسية والعقلية للطفل فقد وجد أن الأطفال الذين تم تغذيتهم عن طريق الرضاعة الطبيعية أكثر ذكاء ويمتازون بسلوكيات سوية مثل التعامل مع الآخرين والتفاعل الجيد والسليم مع المواقف والتفكير السليم والمشاعر الاجتماعية النبيلة ودرجة الانتباه الجيدة وقدراته على التقاط المعلومات الجيدة، أيضا كان لديهم بصيرة قوية عن أنفسهم عما يدور من حولهم أما من الأطفال الذين كانوا يتعاطون عن طريق الرضاعة الصناعية كانوا أقل ذكاء وأكثر توترا وأقل تعاونا مع الآخرين وكانوا يعانون من بعض الأمراض النفسية مثل الحركة الزائدة أو التخلف في بعض منهم والتردد والإصابة بالنزعات العصبية والأزمات وكذلك الأنانية والتمركز حول الذات والعنف والاندفاعية والبعض منهم كان مصابا بالأفعال القهرية وعدم الثبات في المشاعر والقلق المستمر والاكتئاب والمخاوف العديدة واضطراب التفكير واضطراب الكلام مثل التلعثم وغيرها وعدم التركيز وقلة الانتباه والبعد عن الواقع وقلة البصيرة وقلة الحصول على المعلومات العامة واصابة بعضهم بالاضطرابات العديدة في السلوك والتصرفات المضادة للمجتمع.

قال: فأنت أقررت إذن بأن الله تعالى وفر للرضيع كل ما يحتاجه.

قلت: لا شك في ذلك، وذلك ليس كلامي، بل هو كلام الخبراء.

قال: أفتدرك الآن قيمة الرزق الذي ساقه الله لهذا الرضيع، أليس في هذا اللبن آية؟

---

(١) أ. فاطمة موسى، أستاذ الطب النفسي، طب القصر العيني – جامعة القاهرة.

قلت: نعم، بل آية كبرى، فالمصانع الضخمة عندنا، والخبراء الكثيرون لم يستطيعوا أن يكونوا قطرة واحدة من حليب الأم.

قال: فاسمع إذن لما يقول الحق تعالى عن هذه الآية، قال تعالى:﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل:٦٦)

قلت: ولهذا أمر الله تعالى تحقيق شكر هذه النعمة باستخدامها لا بتعويضها بأي شيء آخر، فقال تعالى:﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:٢٣٣)

قال: فإذا كبر الرضيع وفطم من أن يأتيه رزقه؟

قلت: لقد جعل الله من الرحمة في قلوب والديه ما يحيل عليهما التفريط في تغذيته وصحته، بل إنهما يؤثرانه على نفسيهما، ويطعمانه ولا يأبهان بما يعاملهما به من القسوة.

قال: فالرحمة الفطرية إذن هي التي توفر الدواعي على رزق الصبي بعد فطامه؟

قلت: نعم، وهي في أحيان كثيرة لا تقتصر علىالوالدين، بل إن كل من طلب منه صبي طعاما أو شيئا أعطاه عن طيب نفس.

قال: فرزق الصبي مساق إليه من غير تعب ولا كد.

قلت: نعم، بل يساق إليه أفضل الرزق، هو تماما مثل دود الفوكه نائم في وسط غذائه، بل في أفضل غذاء على الإطلاق.

قال: فإذا كبر الصبي وشب؟

قلت: أعطاه الله من القوة والجلد ما يتمكن به من جلب رزقه بلا عناء ولا تعب.

قال: فإذا أصيب بآفة تحيط بقواه، أو بكبر ينهش عظمه؟

قلت: يوفر له من الدواعي الفطرية في أقاربه أو في الأبعدين من يتكفل به.

قال: فإذا مات؟

قلت: لن يعدم من يغسله ويكفنه ويدفنه.

قال: فإذن هو لا يحتاج إلى شيء، ففي كل زمان له من الرزق ما يكفيه ويغنيه.

قلت: ولكن هناك مطالب أخرى أنتجتها الحضارة قد يعجز عنها، وبسببها يرمى في سلة

الفقراء التي لا تختلف في نظر المجتمع عن سلة المهملات.

قال: ذاك شيء ساقه لنفسه، وعقوبة جلد بها ذاته.

قلت:..

التفت لأقول شيئا، فإذا به قد انصرف عني أو انصرفت عنه.

***

سمعت بعدها صوت النورسي، وهو يستنتج استنتاجا رائعا من قوله تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(العنكبوت:٦٠)، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(الذريات:٥٨)

حيث يستدل بهاتين الآيتين الكريمتين على أن الرزق يخرج من خزينة رحمة الله دون وساطة (فرزق كل ذي حياة بعهدة ربه، فيلزم الاّ يموت أحد جوعاً)

وهو يرد على الاعتراض على هذا بقوله:(ان التعهد الرباني بالرزق وتكفّله له بنفسه حقيقة ثابتة. فلا أحد يموت من عدم الرزق، لان الرزق الذي يرسله الحكيم ذو الجلال الى جسم الكائن الحي يدّخر قسمٌ منه احتياطاً على هيئة شحوم ودهون داخلية. بل يدّخر قسم من الرزق المرسل في زوايا حجيرات الجسم كي يصرف منه واجبات الجسم عند عدم مجيء الرزق من الخارج.

فالذين يموتون اذاً، انما يموتون قبل نفاذ هذا الرزق الاحتياطي المدخر، أي أن ذلك الموت لا ينجم من عدم وجود الرزق، وانما من مرضٍ ناشيءٍ من ترك عادة سيئة من سوء الاختيار.

نعم! ان الرزق الفطري المدخر بصورة شحوم في جسم الكائن الحي، انما يدوم ويستمر بمعدل اربعين يوماً كاملاً. بل قد يستمر ضعف ذلك، إثر مرض أو استغراق روحاني. حتى كتبت الصحف – قبل تسع وثلاثين سنة – أن رجلاً قد قضى لعناد سبعين يوماً في سجن لندن دون ان يذوق شيئاً وظل على صحة وعافية.

ولهذا فالذين يموتون جوعاً قبل اربعين يوماً، لا يموتون بسبب عدم الرزق قطعاً، بل من عادة ناشئة من سوء الاختيار ومن مرض ناشيء من ترك العادة.. فيصح القول اذاً: انه لا موت من الجوع)

لست أدري مدى صحة هذا الكلام واقعيا أو علميا، ولكني أشعر باحتوائه على نواح عظيمة من الصدق، فأكثر الذين يشكون الجوع، لا يشكون الجوع، وإنما يشكون عدم الترف.

وقد سمعت مرة امرأة تكاد تبكي وهي تسأل جزارا أن يعطيها قطعة لحم بحجة أنها صائمة، وليس لها من اللحم ما تفطر به، فاستغربت ذلك، و لم يستغرب أحد، وكأنها توهمت أن الصائم لا يصح صومه إلا إذا أفطر على اللحم.

ولو أن هؤلاء ابتلوا بما ابتلي به رسول الله ﷺ، وصحابته من الجوع والخوف ماذا كانوا سيفعلون؟

ولذلك، فإن أعظم ما يتأسى به الفقير في فقره أن يعرض معيشته بأكلها وشربها ومسكنها وكل تفاصيلها على معيشة رسول الله ﷺ ليدرك النعمة التي أنعم الله بها عليه، ولكنه جحدها بازدرائه، وقد قال ﷺ:(إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه)[1]

---

(١) البخاري ومسلم.

الحقيقة الرابعة

قلت له: فما الحقيقة الرابعة؟

قال: من ألقاك في متاهة، أيكون بذلك قد عاقبك؟

قلت: أعظم عقوبة، بل لعله لم يرد إلا قتلي، ولكنه خشي تلطيخ يديه فاكتفى برميي للموت يلتهمني.

قال: فإن أعطاك بوصلة تهتدي بها، وعلمك كيفية استخدامها؟

قلت: يكون قد أحسن لي بذلك، ولكنه مع ذلك فقد أساء، فما عساها تصنع البوصلة لي، أأركب عليها، أم أشرب ماءها، أم آكل طعامها؟

قال: فإن أعطاك كل ذلك: مركبا وزادا وماء؟

قلت: يكون إحسانه أعظم.

قال: وهل تأمن حينها.

قلت: نعم يزداد أمني، ولكني مع ذلك أخاف السباع أن تعتدي علي.

قال: فإن أمنك من السباع، أو أعطاك ما تقتل به السباع.

قلت: يكون قد أحسن إحسانا عظيما، وأنقذني من الموت، لكني سأظل أتساءل عن علة وضعي في تلك المتاهة؟

قال: فإن أرسل لك بأنه لم يرد لك إلا الخير، وأنك إذا رجعت إليه من تلك المتاهة سيعطيك قصرا فخما ويتوجك ملكا.

قلت: سينتفي حقدي عليه حينها، ولكني سأظل أتساءل عن علة ذلك.

قال: فإن أرسل لك يخبرك بأن غرضه أن يمرنك على مهمات الملك، ويختبر مدى قدراتك.

قلت: حينها سأعظمه وأجله.. وأحبه.

قال: وتلك الأدوات التي أعطاك، أتستخدمها؟

قلت: كيف لا أستخدمها، وهي وسيلتي إليه، فلولا البوصلة لتهت، ولولا السلاح لافترست، ولولا الطعام لهلكت جوعا.

قال: فهذه هي الحقيقة الرابعة.

قلت: أي حقيقة؟ فقد كنا نتحدث عن المتاهة.

قال: وهذ المتاهة هي الدنيا، والذي اختبرك هو ربها، وجزاؤك إن رجعت إليه سالما هو الجنة.

قلت: والبوصلة والأدوات..؟

قال: تلك هي القوى التي منحك الله إياها، فإن استخدمتها نجوت ، وإلا هلكت.

قلت: فهلا تفصل لي تلك القوى.

قال: ذلك في محل آخر، ولكني سأستدعي لك حجة من حجج هذا الدين، وعلما من أعلام اليقين، ليذكر لك بعض تلك القوى ووظائفها.

التفت، فإذا بي أرى الغزالي، وهو يقول:(اعلم..

قاطعته قائلا: لقد تركني المعلم لك، ولعلك لا تعرف طبعي، فإني أحب أن أفهم خطوة خطوة، ولا أطيق الطعام المركب.

قال: فاسأل ما بدا لك؟

قلت: لقد ذكر لي المعلم أن الإنسان قد زود في متاهة الدنيا بأقوى ما يحفظ به وجوده.

قال: نعم، صدق معلم السلام.. وهي من جند الله التي قال فيها:﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(المدثر: من الآية٣١) (فلله سبحانه في القلوب والأرواح وغيرها من العوالم جنود مجندة لا يعرف حقيقتها وتفصيل عددها إلا هو)[1]

قلت: فاذكر لي من جنود الله ما يوفر للإنسان القدرة على مجاوزة متاهة الدنيا.

قال:(له جندان جند يرى بالأبصار، وجند لا يرى إلا بالبصائر، وهو في حكم الملك، والجنود في حكم الخدم والأعوان)

قلت: فما جنده الذي يرى بالأبصار؟

قال: هو اليد والرجل والعين والأذن واللسان وسائر الأعضاء الظاهرة والباطنة، فإن جميعها خادمة للقلب ومسخرة له، فهو المتصرف فيها والمردد لها، وقد خلقت مجبولة على طاعته لا تستطيع له خلافا ولا عليه تمردا، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت، وإذا أمر الرجل بالحركة تحركت، وإذا أمر اللسان بالكلام وجزم الحكم به تكلم، وكذا سائر الأعضاء.

قلت: هلا تقرب لي هذا بمثال.

قال: تسخير الأعضاء والحواس للقلب يشبه من وجه تسخير الملائكة لله تعالى، فإنهم مجبولون على الطاعة لا يستطيعون له خلافا، بل لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وإنما يفترقان في شيء، وهو أن الملائكة عليهم السلام عالمة بطاعتها وامتثالها، والأجفان تطيع القلب في الانفتاح والانطباق على سبيل التسخير، ولا خبر لها من نفسها ومن طاعتها للقلب.

---

(١) ما بين قوسين كلام الغزالي، إحياء علوم الدين: ٥/٣.

قلت: ولماذا افتقر القلب إلى هذه الجنود؟

قال: من حيث افتقاره إلى المركب والزاد لسفره الذي لأجله خلق، وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه، فلأجله خلقت القلوب، قال الله تعالى:﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذريات:٥٦)

قلت: لقد فهمت، هذا ما قصده معلمي في مثال المتاهة.

التفت إلى الغزالي، فإذا به غارق في تحليله لم يسمع لما قلت، فسألته: فما هي الأسباب التي توصله إلى الزاد، وتمكنه من التزود منه.

قال: هو العمل الصالح.. وليس يمكن العبد أن يصل إلى الله سبحانه ما لم يسكن البدن و لم يجاوز الدنيا، فإن المترل الأدنى لا بد من قطعه للوصول إلى المترل الأقصى، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهي مترل من منازل الهدى وإنما سميت دنيا لأنها أدنى المترلتين، فاضطر إلى أن يتزود من هذا العالم، فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم، فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك.

قلت: ها قد دخلنا في المقصود أخيرا، فما هي القوى التي منحت له لأجل تحصيل رزقه؟

قال: افتقر لأجل جلب الغذاء إلى جندين باطن، وهو الشهوة وظاهر وهو اليد والأعضاء الجالبة للغذاء، فخلق في القلب من الشهوات ما احتاج إليه، وخلقت الأعضاء التي هي آلات الشهوات، فافتقر لأجل دفع المهلكات إلى جندين باطن، وهو الغضب الذي به يدفع المهلكات، وينتقم من الأعداء وظاهر وهو اليد والرجل الذين بهما يعمل بمقتضى الغضب وكل ذلك بأمور خارجة فالجوارح من البدن كالأسلحة وغيرها.

قلت: ولكن المحتاج إلى الغذاء ما لم يعرف الغذاء لم تنفعه شهوة الغذاء وإلفه.

قال: ولذلك افتقر للمعرفة إلى جندين باطن، وهو إدراك السمع والبصر والشم واللمس والذوق، وظاهر وهو العين والأذن والأنف وغيرها.

قلت: فما تفصيل وجه الحاجة إليها، ووجه الحكمة فيها؟

قال: ذلك يطول، ولا تحويه مجلدات كثيرة، ولعلكم وصلتم إلى ما لم نصل نحن إليه في هذا المجال.

قلت: فما مجامع هذه الجنود؟

قال: جملة جنود القلب تحصرها ثلاثة أصناف: صنف باعث، ومستحث إما إلى جلب النافع الموافق كالشهوة، وإما إلى دفع الضار المنافي كالغضب، وقد يعبر عن هذا الباعث بالإرادة،

والثاني هو المحرك للأعضاء إلى تحصيل هذه المقاصد، ويعبر عن هذا الثاني بالقدرة وهي جنود مبثوثة في سائر الأعضاء لا سيما العضلات منها والأوتار، والثالث هو المدرك المتعرف للأشياء كالجواسيس وهي قوة البصر والسمع والشم والذوق واللمس وهي مبثوثة في أعضاء معينة ويعبر عن هذا بالعلم والإدراك.

قلت: فهذه هي القوى التي منحها الإنسان ليقطع المتاهة؟

قال: ومع كل واحد من هذه الجنود الباطنة جنود ظاهرة وهي الأعضاء المركبة من الشحم واللحم والعصب والدم والعظم التي أعدت آلات لهذه الجنود، فإن قوة البطش إنما هي بالأصابع وقوة البصر إنما هي بالعين، وكذا سائر القوى.

أردت أن أسأل الغزالي، فإذا به هو الآخر يطويه الأفق، لست أدري هل انصرف عني أو انصرفت عنه.

***

بعدها جاءني المعلم بصحبة بديع الزمان، وقال: هو ذا بديع الزمان فقد رأيته يتعبد بتبصر آيات الله في القوى التي أودعها الإنسان ليكسب رزقه، فاسمع إلى حقائق اليقين من أفواه أهــــل اليقين.

قال بديع الزمان: لقد أســـس سبحانه بفضل ربوبيته وحكمته وعنايته في فم الانسان وانفه مركزين: وضع فيهما حراسَ حدودِ هذا العالم الصغير وعيونه. ونصب كل عرق، بمثابة الهاتف، وجعــل كل عصب في حكم البرق. وجعلت عنايته الكريمة حاسةَ الشم مأمورة ارسال المكـــالمات الهاتفية، وحاسة الذوق موظفة ارسال البرقيات.

ومن رحمة ذلك الرزاق الحقيقي انه وضع قائمة الاثمان على الأرزاق، تلك هي: الطعم، واللون، والرائحة.

فهذه الخواص الثلاثة – من حيث الإرزاق – لوحة اعلان، وبطاقة دعوة، وتذكرة رخصة، ومنادية الزبائن وجالبة المحتاجين.

وقد منح ذلك الرزاق الكريم، الاحياء المرزوقة أعضاءً للذوق والرؤية والشم. وزين الاطعمة بمختلف ألوان الزينة والجمال.. ليسلّي بها القلوب المشتاقة ويثير شوق غير المبالين.

فحالما يدخل الطعام الفم، تخبر حاسة الذوق انحاء الجسم برقياً به، وتبلّغ الشم هاتفياً نوع الطعام الوارد وصنفه.

فالحيوانات المتباينة في الرزق والحاجات، تتصرف وفق تلك الاخبار وتتهيأ على حسبها. أو

يأتي الجواب بالرد، فيلفظ الفم الطعام خارجاً، بل قد يبصق عليه.

ثم التفت وصاح كما يصيح المعلم، بجهر أقرب إلىالهمس، وبكلام أقرب للصمت:(لما كانت حاسة الذوق مأمورة من قبل العناية الإلهية فلا تفسدها بالتذوق المستمر، ولاتخدعها بالتلذذ دوماً.

اذ ستنسى ما الشهية الحقة؟ لورود الشهية الكاذبة اليها، تلك التي تأخذ بلبها.. فيجازى صاحبها بالمرض ويعاقب بالعلل جراء خطئها.

اعلم ان اللذة الحقيقية، انما تنبع من شهية حقيقية.

وان الشهية الحقة الصادقة تنبع من حاجة حقيقية صادقة.

وفي هذه اللذة الحقة – الكافية للانسان ــ يتساوى السلطان والشحاذ)

ثم انصرفا عني، أو انصرفت عنهما.

***

فجأة، وأنا أتأمل ما قالته هذه الأنوار المتلألئة إذا بي أرى خبيرا يبدو على ملامحه كونه غربيا، يقترب مني، ويقول:(أنا الدكتور " و التركانن " العالم الفسيولوجي.. لقد أرسلني المعلم إليك، لأخبرك عن القوى التي كشفت عنها علوم عصرك)

قلت: مرحبا برسول المعلم.. فزدني يقينا.

قال: لو أنك عرفت كثيراً من أسرار الجسم البشري، لعجبت كيف يمرض أحد من الناس: ففي داخل الجسم دنيا قائمة تتصرف بإلهام واضح في دفع المرض، بل المحافظة على صحة الكائن بما يعجز عنه أي طبيب.

ويقرر الأطباء أنهم في علاجهم، إنما يحاولون تقليد ما يجري داخل الإنسان نفسه، و أن العقاقير التي يصفونها إنما لمساعدة داخل فيما يقوم به.. دون أن يكون للإنسان أي فضل فيه بل حتى معرفته!!!

وإذا كان الإنسان يعتبر لذلك أوضح الأمثلة، على ما يقوم به لحماية نفسه خارجيا، بالحرب والسعي والفر والكر، والعمل والراحة ، وأخذ الدواء ــ و داخليا حيث لا دخل له ــ بارتفاع الحرارة، و تكوين الأجسام المضادة، و هجوم كريات الدم ن فإن الحيوان ليعبر أيضا من أروع الأمثلة التي تظهر لنا بوضوح قوة ما تتخذه الحياة في حماية الحيوان؟) [1]

---

(١) انظر: الله و العلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، ط: دارالناشر العربي الطبعة الثالثة ١٣٩٣هــ ١٩٧٣ م.

ثالثا ــ كنز الاستعفاف

سرت مع معلم السلام نبحث عن قصر الاستعفاف، لاح لنا قصر جميل، يشبه في شكله يدا ممتدة للسماء تتساقط عليها أنواع الجواهر، وتنتشر منها أصناف الروائح الطيبة.

قلت للمعلم: ما أروع هذا القصر، لكأن الذي صممه فنان لا مهندس.

قال: كل مصممي هذه القصور يجمعون بين الفن والهندسة.

قلت: إذن هم تخرجوا من جامعة واحدة.

قال: نعم.

قلت: فأي جامعة هي، فإن لي شوقا لأن أتعلم مثل هذه الفنون.

قال: هي جامعة موجودة في كل مكان.

قلت: في كل مكان.. أمتأكد أنت؟

قال: نعم.. في السماء والأرض، والحقول والبراري، والبحار والصحارى.. في كل مكان، بل في كل خلية تنبض بالحياة، أو كل ذرة تمتلئ بالحركة.

قلت: فأنت تقصد شيئا لا أفهمه.

قال: أقصد الصنعة الإلهية، فإن من أحب الله تخلق بأخلاق الله.

قلت: ولكنها صنعة إلهية، فكيف تقلد؟

قال: كل صنعة إلهية يجتمع فيها كمال الهندسة مع كمال الفن، فلا تعجب لكون كل مؤمن مهندسا وفنانا.

قلت: ولكن..

قال: دعنا من هذا، فله محله الخاص في هذه الرسائل، ولندخل إلى هذا القصر لنغنم جواهره.

قلت: لا شك أن هذا هو قصر الاستعفاف، فاليد تدل على السؤال والشحاذة، والجواهر المتساقطة عليها تدل على العطايا الممنوحة لهذه اليد.

قال: نعم، هذا هو قصر الاستعفاف، وفيه أربعة طوابق، كل طابق منها يرفع همتك، ويحمل يدك ليضعها في موضعها الصحيح.

قلت: يدي هي في يدي، فكيف يضعها في موضع صحيح.. أتقصد أني لن أخرج من هذا القصر بيدي؟

قال: افهم الحقائق، ولا تناقش الألفاظ.

قلت: فما تريد بيدي، أليست اليد غير الجارحة!؟

قال: يدك التي يمتد بها طمع عينيك إلى جيوب الناس، أو خزائن الناس.

ابتسمت، وقلت: تقصد يد الشحاذين لا يدي، فقد عافاني الله من الشحاذة.

قال: هي حرفة يتقنها الكل، ويتهرب منها الكل.

قلت: ما تقصد؟

قال: من هم الشحاذون بين قومك؟

قلت: الذين يقفون على عتبات المساجد والأسواق يبكون ويولولون ويبتكرون صنوف الحيل التي تستدر عطف الناس، فتستخرج ما في جيوبهم.. إنهم الشحاذون الماهرون في جلب المال بلا تعب.

قال: أهؤلاء هم الشحاذون في تصورك؟

قلت: وفي تصور جميع الناس، إنهم الذين حكى عنها الحريري والهمذاني في مقاماتهما.

قال: وسائر الناس؟

قلت: لقد عافاهم الله من الشحاذة.

قال: وما أدراك أن الله عافاهم منها؟

قلت: لأنهم لا يمدون أيديهم للناس.

قال: ولكنهم يمدون أعينهم وقلوبهم، ولو استطاعوا لخنقوا الناس ليستولوا على ثرواتهم.

قلت: كيف.. أنا لا أرى ما تقول.

قال: ما تقول في الاستعمار؟

قلت: هم يقولون: جئنا لنعمر أرضكم.

قال: ولكنهم أبادوا شعوبكم، ومرغوا كرامتكم، ونهبوا ثرواتكم، ثم لم يخرجوا إلا بعد أن عاهدتموهم على أن تضعوا أيديكم المجروحة في أيديهم الآثمة.

قلت: كل ذلك صحيح.. ولكن الأيام سرعان ما تطوي الأحقاد.

قال: أنا لا أتكلم عن الأحقاد، ومعلم السلام يملأ القلوب بالإيمان لا بالأحقاد.

قلت: فلماذا نتحدث عن الاستعمار إذن؟

قال: لنعرف نوعا خطيرا من أنواع الشحاذة التي يتهرب منها الكل، ويتقنها الكل.

قلت: ولكن الاستعمار ولى، ونحن الآن تحت رحمة حكومات منا، لا تستجدينا ولا تطمع في أموالنا.

قال: ولكني رأيت وزراء شحاذين.

خطر على بالي وزير المالية أو الاقتصاد وهو يقف على باب من أبواب المساجد يطلب الصدقات ليملأ البنوك، فضحكت، فقال: أنت تتعجب من تحول وزير المال إلى شحاذ.

قلت: أجل.. لقد عرفت ما يجول في خاطري.

قال: نعم.. ألم يمد يده للموظفين ليقبل رشاواهم، ألم يمد يده لعموم الناس ليقبل مصالحهم؟

قلت: ذلك من الرسوم.

قال: أنتم تعرفون كيف تحولون المعاني بتحويل الألفاظ، فتسمون قتل الشعوب للاستيلاء على ثرواتها استعمارا، وتسمون أكل أموال الناس بالباطل رسوما، وتسمون الرشاوى هدايا..

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ:(ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها)[1]

قال: وقد وقع ما أخبر به ﷺ.

قلت: أجل، فنحن نسمي الخمور مشروبات روحية.

قال: ألم تكتفوا بتسميتها مشروبات حتى نسبتموها إلى الروح؟

قلت:.. فما الطريق لأتخلص من الشحاذة، وأعف عن أموال الناس؟

قال: بقطعك هذه الطوابق الأربع، وجمعك لجواهرها.

قلت: فماذا أقطع في الأول؟

قال: تقطع طمعك من نفسك، فتيأس منها، ولا تمد يدك إليها.

قلت: ففي الثاني؟

قال: تقطع طمعك من الخلق، فتيأس منهم، ولا تمد يدك إليهم.

قلت: ففي الثالث؟

قال: تمد أعناق طمعك كلها إلى الله، فلا ترى مستحقا للتفضل غيره.

قلت: ففي الرابع؟

قال: تمد يدك إلى الله الذي طمعت فيه، وحينذاك تضع يدك موضعها الصحيح، وحينذاك سينعم عليك بالفضل الذي تستغني به عن الكل، وتمتزج يدك مع اليد التي رأيتها في هذا القصر.

ثم انصرف عني أو انصرفت عنه.

---

(١) أحمد وأبو داود عن أبي مالك الأشعري.

١ ـــ لا أمل فيك

وقفت مع المعلم أمام الجوهرة الأولى من جواهر الاستعفاف، فسألت المرشد عنها، فقال: هذه جوهرة نفيسة، لا يحل صعود طوابق القصر إلا بعد المرور عليها.

قلت: فما اسمها؟

قال: هي جوهرة (لا أمل فيك)

ابتسمت في نفسي من هذه الأسماء الغريبة، ثم التفت إلى المعلم ليشرح لي حقائقها، فلا يمكن أن أنالها بدون الوصول إلى حقيقتها والاقتناع بها.

نظر إلي المعلم، وقال: ألا تعلم أول بيت يقصده الشحاذ، وأول من يمد إليه يده؟

فكرت قليلا ، ثم قلت: ربما.. جاره.. لا، فقد لا يريد أن يظهر بمظهر الذلة أمام جاره.. لعله السوق أو المسجد.. أو لعله يخرج من بلده حفظا لكرامته ليمد يده للغادي والرائح.

قال: كل من ذكرتهم بعيدون، والشحاذ لا يمد يده إليهم إلا بعد أن يمد يده إلى غيرهم.

قلت: فمن؟ لقد عجزت عن معرفته.

قال: أول من يمد الشحاذ يده إليه بالسؤال والافتقار هو نفسه.

قلت: نفسه؟

قال: التي بين جنبيه، فافتقاره إلى الخلق يبدأ من افتقاره لنفسه، وافتقاره لنفسه هو الذي يجعله يدق أبواب الخلق.

قلت: فكيف يمد يده لنفسه.. لم أر في حياتي رجلا يقف في مكان خال أمام مرآة يضع يده ينتظر أن توضع فيها أي صدقة.. إلا إذا كان مجنونا.

قال: بل كل الشحادين يقفون هذا الموقف، بل كل من لم يمد يده إلى الله يمد يده إلى نفسه، ويقف هذا الموقف الذي استنكرته.

قلت: لكني لم أر أحدا يفعل ذلك.

قال: الفقراء والأغنياء يفعلون ذلك.

قلت: اشرح لي، فلا أطيق الإلغاز.

قال: عندما يقرر الملك أمرا من الأمور، ويحب أن ينفذه، ماذا يفعل؟

قلت: يستنجد بوزرائه وأعوانه.

قال: أيمد يده إليهم طالبا المعونة؟

قلت: نعم، مثلما قص القرآن الكريم على ملكة سبأ، حيث قالت لقومها:﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ

أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾(النمل: من الآية٣٢)

أو مثلما قال الملك في قصة يوسف ﷺ لأعوانه:﴿ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ﴾(يوسف:٤٣)

قال: ولا حرج عليك أن تشبه ذلك بقول سليمان ﷺ لحاشيته:﴿ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(النمل: من الآية٣٨)

قلت: نعم، ولكني خشيت أن تقول شيئا قد لا يتناسب مع مقام الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ

قال: لا، بل هذا من كمالهم، فمن كمال الملك استنجاده بأعوانه واستشارته لهم.

قلت: فما في هذا؟

قال: قد نسمي الملك شحاذا في هذه الحالة.

قلت: نعم إن جعلنا الشحاذة هي كل مسألة أو كل طلب معونة.

قال: فإذا استقر رأي الملك وحاشيته على أمر.

قلت: يبدأون في تنفيذه.

قال: أين؟

قلت: حسبما خططوا.

قال: فإن ظهر ذلك الأمر في الواقع، فلمن ينسب؟

قلت: للملك والحاشية، وقد ينسب للقصر نفسه.

قال: فالقصر إذن هو الباني والهادم، وهو الذي يتخذ كل القرارات.

قلت: خاصة الصعبة منها، لأن ما عداها قد تتكفل به الأكواخ.

قال: ألم تسمع من الغزالي بأن الإنسان مع لطائفه، كالملك مع حاشيته؟

قلت: نعم، لقد مثل الغزالي نفس الإنسان وعلاقتها بقواها بالملك، فقال:(مثل نفس الإنسان في بدنه أعني بالنفس اللطيفة المذكورة، كمثل ملك في مدينته ومملكته، فإن البدن مملكة النفس وعالمها ومستقرها ومدينتها وجوارحها، وقواها بمترلة الصناع والعملة، والقوة العقلية المفكرة له كالمشير الناصح والوزير العاقل، والشهوة له كالعبد السوء يجلب الطعام والميرة إلى المدينة، والغضب والحمية له كصاحب الشرطة)[1]

(١) الإحياء: ٦/٣.

قال: فلو أن هذا الملك اختار بصواب رأيه وما أوتي من الحكمة بطانة صالحة.

قلت: ستكون رعيته في أحسن حال، ولن ينال منها، ولن تنال منه إلا الخير، وقد قال ﷺ:(ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصمه الله)[1]

وقد قال الشاعر ناصحا:

واجعـــــــلْ بطانتـــــكَ الكـــــرامَ فــــإنهمْ	أدرى بوجـــــــهِ الصـــــــالحاتِ وأخـــــــبرُ
إن الكـــــريمَ لــــــه الكـــــرامُ بطانَــــةٌ	طابــــتْ شمــــائلُهم وطــــابَ العنصـــــرُ
إن لاحَ خـــــــيرٌ قَرَبـــــــوه ويَسْـــــــروا	أو لاحَ شـــــــرٌ باعـــــــدُوه وَعَسَـــــــروا
أمـــــا اللئـــــيمُ فحولَـــــه أمثالُـــــهُ	قرنـــــاءُ ســـــوءٍ لـــــيس فـــيهم خيِّـــرُ
إن لاحَ خـــــــيرٌ باعـــــــدوهُ وعَسَّـــــروا	أو لاحَ شـــــــرٌ قَرَّبـــــــوه ويَسَّـــــــروا
ولكـــــل كـــــونٍ كائنـــــاتٌ مثلُــــهُ	فقبيلُـــــهُ مـــــن جنسِـــــه والمعشـــــرُ

قال: فإذن ما يصدر من الملك وحاشيته هو الذي يظهر في البلاد وبين الرعية؟

قلت: نعم، على حسب المثال الذي ذكره الغزالي.

قال: فمد الشحاذ يده للناس، أليس موقفا من المواقف الخطيرة التي اتخذها في حياته؟

قلت: أجل، بل هو أخطر المواقف على الإطلاق، فيكفي ما فيه من الذلة.

قال: فهل أرغم على ذلك، أم اتخذ القرار بنفسه؟

قلت: قد يكون مرغما، فقرار مثل هذا لا يكون عن طواعية.

قال: وكذلك مثل قرارات كثير من الملوك الذين لا يرون إلا جهة واحدة، ثم يتصورون أنهم مضطرون.

قلت: فليسوا مضطرين إذن؟

(١ البخاري والنسائي عن أبي سعيد.

قال: من رحمة الله بعباده أو من ابتلائه لهم أن يضع لهم الكثير من الحلول، ولكنهم يعمون أعينهم عنها، ويتصورون أنهم مضطرون لأبشع الحلول.

قلت: فهذا القرار الذي اتخذه في نفسه سواء كان مكرها عليه أو مختارا من لجأ إليه فيه.

قلت: إلى وزرائه وأعوانه وحاشيته.

قال: فقد وثق فيهم إذن عندما استشارهم.

قلت: لقد قال ﷺ:(إن المستشار مؤتمن)[1]

قال: ولكن المستشار قد يكون أخرق؟

قلت: أجل، وحينذاك يكون من البطانة السيئة.

قال: فلماذا لم يمد يده إلى جهة عليا موثوقة يستشيرها.

قلت: لثقته بوزرائه.

قال: فقد رضي إذن عن نفسه حين مد يده إليها.

قلت: نعم.

قال: فمبدأ الشحاذة إذن الرضى عن النفس وعن قرارات النفس، ولذلك كان علاجها الحقيقي لا بنهي الشحاذ عن مد يده إلى الناس، وإنما نهيه عن مد يده إلى نفسه.

قلت: نعم، لقد اقتنعت بهذا الكلام، ولكن ما هو السبيل لإقناعه عدم مد يده إلى نفسه؟

قال: هو نفس الطريق الذي نقنع به الملك بعدم الثقة في مستشاريه.

قلت: اضرب لي مثالا على ذلك.

قال: أتعرف ما فعل هارون الرشيد بالبرامكة.

قلت: أجل، فقد سجل التاريخ مأساتهم.

قال: ولكنه كان يثق فيهم.

قلت: ولكن ثقته ارتفعت عنهم، وهي سبب ما حل بهم من بلاء.

قال: فلذلك، فإن أول خطوة تخطوها لقطع مد يدك إلى نفسك هو عدم ثقتك بها، وعدم رضاك عنها.

قلت: بلى لقد ذكرتني بقول ابن عطاء الله:(أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها. ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه؟

---

(١) الترمذي وقال: حديث حسن.

وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟)

قال: لم نصحه بأن لا يرضى عن نفسه؟

قلت: لتبديلها الحقائق، كما قال الشاعر:

وعـين الرضـا عـن كـل عيـب كليلـة
كمـا أن عـين السـخط تبـدي المسـاويا

قال: فهل يمكن أن يصلح من يرضى عن تصرفات نفسه.

قلت: لا، فإن كل ما كسب من المحرمات ناتج عن الرضى عن النفس والسماع لأوامرها، كما قال تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام:﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾(يوسف:١٨)

وكما قال عن السامري:﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾(طـه:٩٦)

قال: ما سبب قتل ابن آدم الأول لأخيه؟

قلت: لقد ذكر المفسرون في ذلك أقوالا، منها ما قال السدي عن ابن عباس وعن ابن مسعود: أنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ومعه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما هابيل وقابيل، كان قابيل صاحب زرع، وكان هابيل صاحب ضرع، وكان قابيل أكبرهما، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل، فأبى عليه، وقال هي أختي ولدت معي، وهي أحسن من أختك، وأنا أحق أن أتزوج بها، وأمرهما أبوهما أن يقربا قربانا، فأيهما أحق بالجارية، قرب هابيل جذعة سمينة، وقرب قابيل حزمة سنبل، فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها، فنزلت النار فأكلت قربانا هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب، وقال لأقتلنك حتى لا تنكح أختي، فقال هابيل:﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(المائدة: من الآية٢٧))[1]

قال: ولكن القرآن الكريم ذكر قولا واحدا؟

قلت: القرآن الكريم ذكر ذلك.. أين، فأنا لا أراه؟

قال: ألم تسمع إلى قول الحق تعالى:﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

(١) ابن جرير.

الْخَاسِرِينَ﴾(المائدة:٣٠)، فما سولت له نفسه من المعصية هو السبب، أما ما ذكر من الأسباب، فمجرد خيوط عنكبوت، لأنه إن لم يقتله بهذا السبب قتله بغيره.

قلت: فما علاقة هذا بمد اليد إلى النفس؟

قال: لأن النفس التي استطاعت أن تقهر صاحبها، فيمد يده لقتل أخيه، لن تعجز أن تسول له أن يمد يده للناس يستجديهم.

قلت: لقد اقتنعت بما قلت، لكن أنى لي أن أتخلص من مد يدي إلى نفسي.

قال: بعلمك بتحقق نفسك بعدم أهليتها للاستشارة.

قلت: وكيف أعلم ذلك؟

قال: أربعة صفات في النفس إذا علمتها ارتفعت ثقتك فيها، وكففت عن مد يدك إليها.

قلت: ما هي؟

قال: الجهل والظلم والهوى والخداع.

قلت: لماذا هذه الأربع؟

قال: جهلها يجعلها تكذب عليك في نقل الحقائق.

قلت: وظلمها؟

قال: يجعلها تضع الأشياء في غير مواضعها.

قلت: وهواها؟

قال: يجعلها تسترالروائح المنتنة ببعض العطور السامة.

قلت: وخداعها؟

قال: هو احتيال النفس على نفسها.

الجهل

قلت: فكيف أعرف جهل نفسي؟ ولماذا أبحث عن جهلها؟ ألا يزيدني ذلك حزنا وأسفا وألما؟.. وكل ذلك ينافي السلام الذي تعلمني إياه.

قال: علمك بجهل نفسك هو الذي يدعوك إلى السلام وإلى السعادة وإلى الطمأنينة، ويكف شر نفسك عنك.

قلت: كيف؟

قال: علمك بعلمك يدلك عليك، وعلمك بجهلك يجعلك تبحث عنه.

قلت: زدني توضيحا.

قال: كلام الله سيزيدك توضيحا.. بماذا أجاب قارون الصالحين من قومه عندما قالوا له:﴿ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾(القصص: من الآية٧٦)

قلت: أجابهم بقوله:﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص: من الآية٧٨)

قال: فقد كان يعزل الله إذن عن إعطائه ذلك المال.

قلت: بلى.

قال: فعلمه إذن كان ساترا لجهل عظيم له أثره الخطير في حياته.

قلت: نعم، ولذلك رد القرآن الكريم عليه قائلا:﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ ﴾(القصص: من الآية٧٨)

قال: أتدري ما يقول له بهذا؟

قلت: نعم، كأنه يقول له:(لماذا اكتفيت بذلك العلم، ولماذا لم تبحث عن علم آخر أهم، وهو العلم بمصاير الأقوام الذين أبيدوا، وعن سبب إبادتهم، ليكون لك ذلك موضع عبرة)

قال: صدقت، ولكن لماذا لم يتعلم قارون هذا النوع من العلم؟

قلت: لعله لم يجد معلما.

قال: لا.. ولكنه لم يجد استعدادا من نفسه لتعلمه.. ولو وجد الاستعداد لأرسل الله له من يعلمه.

قلت: كيف؟

قال: إن العلم الذي عنده، والذي هو في حقيقته جهل يستر علما، منعه من قبول غيره أيا كان ذلك الغير، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (غافر:٨٣)

قلت: بلى، فالله تعالى في هذه الآية يخبر عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر، وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم، وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس اللّه، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم، واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل.

قال: فقد أرسل الله إلى هؤلاء من يعلمهم، ولكنهم لتعالمهم الذي هو عين الجهل وأساس الجهل لم يقبلوا منه.

قلت: نعم، هذا صحيح، وقد وقع فيه أكثر المنحرفين عن الله المجادلين أولياء الله.

قال: بل قل: وقع فيه كل المنحرفين عن الله، فأول خطوة للانحراف هي الجهل، كما أن أول خطوة للتحقيق هي العلم.

قلت: ولهذا جعل الله تعالى علة ما حاق بالقرى من هلاك هو الجهل، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ (الأنعام:١١١)

قال: ألا ترى القوة التي يتمتع بها الجهل في التأثير في صاحبه، وفي صده عن الحقائق؟

قلت: نعم.

قال: بل إن الله تعالى يخبر بأن كل المعجزات لن تستطيع التأثير في الإنسان الجاهل.

قلت: لماذا؟

قال: لأنه سيجد من الحلول ما يغير به الحقائق، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾(الحجر:١٤ ــ ١٥)

قلت: نعم، فالله تعالى يخبر عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق بحيث أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك بل بل أرجعوا ذلك إلى عماهم أو إلى السحر، كما قال ابن عباس ﷺ:(شبّه علينا وإنما سحرنا)

قال: فما سبب عمى أعينهم عن آيات الله؟

قلت: ما جعل فيها من الغشاوة، وما جعل في قلوبهم من الأكنة، كما قال تعالى:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾(الأنعام:٢٥)

قال: وتلك الأكنة التي منعتهم من معرفة الحقائق ماذا تضع بدلها؟

قلت: الأوهام، والجهل، بحيث تجعلهم يكابرون كل شيء حتى المحسوس، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(الأنعام:٧)، فهؤلاء كابروا ما لمسوه بأيديهم.

وقال تعالى:﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾(الطور:٤٤) وهؤلاء كابروا المرئي المشاهد.

قال: بل هم كابروا بحواسهم جميعا كل آيات الله، كما قال تعالى:﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾(القمر:٢)

قلت: لقد اقتنعت بكل هذا، ولا أحسبني أخالفه.. ولكني لم أفهم علاقة هذا بالاستعفاف؟

قال: الاستعفاف هو بذل الجهد لتحصيل العفاف عن أيدي الناس، وقد عرفنا أن ذلك لا يكون إلا بعد الاستعفاف عن النفس، والنفس لا يستعف عنها إلا إذا علم جهلها.. أيمكن لملك عادل أن يسلم أي وزارة من وزاراته لغير المختصين؟

قلت: هذا محال.. لأنهم سيفسدون ولا يصلحون.

قال: فإذا وكل الإنسان لنفسه الجاهلة تدبير أمره، ألا تكله إلى الخراب؟

قلت: نعم، مثل النفوس التي خربت بنيان قارون وفرعون وجميع المشركين والملحدين.

قال: بل تخريب كل سلوك، ألم تسمع قوله ﷺ:(إن اللّه عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني! قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني! قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه! أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي!)[1]، فقد أرجع الله جهل العبد بهذه المعاني هو الذي أوصله إلى ذلك التقصير.

قلت: بل أخبر ﷺ عن تأثير الجهل من الناحية الاجتماعية، فقال:(إن اللّه لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس

---

(١) مسلم.

رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)[1]، فقد أرجع ﷺ سبب الضلالة إلى اتخاذ الرؤساء الجهال.

وأخبر ﷺ عن الهلاك الذي حاق بالأمم نتيجة تعالمها على كتبها، فقال:(إنما هلك من كان قبلكم بهذا ضربوا كتاب الله بعضه بعضا وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا ولا يكذب بعضه بعضا ما علمتم فيه فقولوا وما جهلتم فكلوه إلى عالمه)[2]

قال: فلذلك كانت أول حلقة تقطع من سلسلة الطمع في النفس هي يقينك بجهلها، فيقينك بجهلها يوصلك إلى التعلم منه، فلا يتعلم إلا الجاهل.

قلت: لقد ذكرتني بقوله ﷺ:(لا يزال الرجل عالما حتى يقول علمت فإذا قالها فقد جهل) التفت، فلم أر المعلم.. لست أدري هل انصرف عني أم انصرفت عنه.

***

بعد ذهابه بقيت متأملا ما دار بيننا، فقلت في نفسي: نعم إن الجهل هو الحجاب الأكـــبر الذي يحيل الحقائق، وهو بالتالي الهاوية الخطيرة التي ينحدر فيها الإنسان إلى أسفل سافلين، ولهذا قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾(الأحزاب:٧٢)

ولهذا نجد في القرآن الكريم الآيات الكثيرة المخبرة عن جهل الإنسان، فهي ترده إلى حقيقته كما يرد الطبيب الناصح المريض إلى علته ليعالجها بما يقتضيه علاجها من أدوية.

فقد قال تعالى مخبرا عن العلم البشري المحدود:﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾(الاسراء:٨٥)

وأخبر عن جهل الإنسان باكثر ما تخبئه الأيام، فقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(لقمان:٣٤)، وقالتعالى:﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(لأعراف:١٨٨)

وأخبر عن جهل الإنسان بما تتضمنه الأشياء من المصالح والمفاسد، فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) البيهقي ن ابن عمرو.

يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾(النساء:١٩)، وقالتعالى:﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١٦)، وقالتعالى:﴿ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ﴾(النساء: من الآية١١)

قال لي المعلم، وقد سمع أعماقي تردد كلام الله، وتحاول سماعه: ألا تعلم أن علمك بجهلك هو قمة العلم، فلا يعلم بجهله إلا العالم، أما الجاهل فإنه فرح بما أوتي من العلم!؟

ثم سكت برهة، وكأنه يفكر في شيء يقوله، ثم قال: أتريد أن أضرب لك على ذلك مثالا؟

قلت: لقد عرفت شغفي بما يطلبه خيالي من المدد لتغذية عقلي.

قال: أيهما أكثر تصورا لكثرة جهله بأسرار الكون: العامي البسيط الذي نال بعض الثقافة البسيطة من كتب الأوفاق والنجوم، أم العالم الذي أفنى عمره وراء المراقب؟

قلت: الإجابة بادئ الرأي قد تقول بأن العامي هو الذي يتصور نفسه أكثر جهلا أمام العالم، ولكن أظن أن العالم قد يتصور نفسه أكثر جهلا، فإني أعرف مدى إعجاب العامة بعلومهم.

قال: ذلك صحيح، لأن العامي يتصور الكون كدلو ماء أمامه يمكنه أن يراه بحدوده وتفاصيله، بل يمكنه ــ مع صبر قليل ــ أن يشربه جميعا، ويحتويه جميعا، ولكن العالم يرى الكون كمحيط لا نهاية له، ويرى نفسه بجانبه كقطرة ماء تحاول أن تدرك أعماقه.

قلت: لقد ذكرتني بكلام جميل قرأته في (نفحات القرآن) للشيرازي، ولكني نسيت موضعه؟

قال: هو ذا أمامك يحدثك عما نسيت.

التفت فإذا بناصر الشيرازي أمامي، والأنوار التي بثها فيه شغفه بالقرآن الكريم تملؤه هيبة ، فقلت: يا إمام.. لقد قرأت كلاما لك تريد أن تعبر به عن اتساع جهل الانسان بحسب اتساع علم، فالتناسب بينهما بينهما طردي كلما زاد العلم زاد الجهل.

قال الشيرازي: نعم لقد قلت: من العجيب حقاً أن كل اكتشاف جديد يحصل في هذا العالم يزيد من مجهولات الانسان، وبعبارة أُخرى إن اكتشافات العلماء في مختلف المجالات كاكتشاف مكتبة جديدة، أو اكتشاف كنز قيم في نقاط مختلفة من الارض.

وبديهي فاننا إذا اطلعنا على وجود مكتبة في احدى المدن، أو كنز قيم في خربة فقد أزلنا

النقاب عن مجهول واحد، لكن الآلاف من المجاهيل تكشف عن نفسها آنذاك، مثل عدد الكتب ومحتواها وكُتّابها وشخصياتهم وقضايا اخرى من هذا القبيل، كذا الحال بالنسبة للكتز فاذا اطلعنا على وجوده تبلورت مجاهيل عنه في أذهاننا مثل نوعيته ومحتواه..

لا نذهب بعيداً، فان عالم الكائنات المجهرية (المكروبات والبكتريا والفايروسات) كان في يوم ما مجهولا كلياً، وعندما خطا (باستور) الخطوة الاولى عند كشفه لبعض من هذه الكائنات انجلى أمامه عالم كبير من المجهولات.

إن اكتشاف الكواكب (اورانوس) و (نبتون) و (پلوتون) في المنظومة الشمسية وكذا كشف المجرات الجديدة كلها من قبيل كشف (باستور) لعالم الكائنات المجهرية. ومن هنا يجب الاذعان والاعتراف بأن العلوم البشرية كنور الشمعة وأن حقائق هذا العالم العظيم كنور الشمس بل أعظم!

قالها ثم انصرف، وانصرف معه المعلم، أو انصرفت عنهما.

***

بعد ذهابهما سمعت ابن عطاء الله، وهو يقول:(إلـــهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟!)

لقد فهمتها كما لم أفهمها من قبل، فأحسست بقشعريرة تسري في بدني، لست أدري هل هي قشعريرة فرح أم قشعريرة ألم.. لا إنها قشعريرة فرح.

لأول مرة أشعر بلذة اتساع جهلي، فكلما اتسع شعور الإنسان بجهله، كلما اتسع علمه، وكلما اتسع علمه كلما اتسعت معرفته، وهل هناك في عوالم الدنيا والآخرة أعظم من لذة المعرفة.

قال لي المعلم، وقد رأى ما أصابني: قشعريرة الجهل هي التي تغذي لطائفك بالعلم، وأعظم علم تعلمه أن تعلم وجود جهلك.

ثم التفت إلي، وقال: أريدك أن تسمع قومك المزهوين بعلومهم وبحضارتهم وبتقدمهم هذه الأقوال من مؤسسي علومهم، فهم لا يثقون في ابن عطاء الله، ولا في إخوان ابن عطاء الله.

قبل أن أسأله، رأيت أمامي فئة يظهر عليهم الرسوخ في العلم عليهم سيما علماء الكون.

قال الأول: (عندما نفكر بالفضاء اللامتناهي، أو الزمان السرمدي، أو الطاقة العجيبة المودعة في الذرة، أو بالعوالم غير المحدودة والتي تسبح فيها كواكب كثيرة، أو بقدرة تشعشع

بعض الكواكب، أو بقوة جاذبية الأرض، أو بالقوانين الاخرى التي يرتبط قوام العالم بها، عندما نفكر بهذه ندرك مدى ضعفنا ونقصان علمنا)[1]

قال الثاني:(إنَّ المساعي التي بذلت في العلوم التي تدرس الانسان لم تصل الى نتيجة مطلوبة، ومعرفتنا لأنفسنا ما زالت ناقصة الى حد كبير)[2]، ولهذا السبب سميت كتابي المشهور (الانسان ذلك المجهول)

قال الثالث: (علمنا قطرة، وجهلنا بحر عظيم)[3]

قال الرابع: (أستطيعُ أن أهيىء أسئلة ولمدة عشر سنوات عن مجهولات لا تستطيعون الاجابة عليها)[4]

(نحن نفكر لكن ما هو فكرنا؟ ونمشي، لكن ما هو عملنا العضلي هذا؟ لا أحد يعلم بذلك)

(أرى أنّ إرادتي قدرة غير مادية، لكنني عندما أريد أن أرفع يدي أرى أنّ الارادة غير المادية تحرك يدي، والتي هي عضو مادي، كيف يحصل هذا؟ وما هي الواسطة التي تحول الطاقة غير المادية الى مادية؟ لا يوجد من يجيب على هذا السؤال)

قال الخامس: (لقد علّمنا كتاب الطبيعة الذي نقرأه الكثير من الأمور وقد عَرِفْنَا أُسس لغة الطبيعة.. لكن رغم قرائتنا للمجلدات وفهمنا لها فانا مازلنا بعيدون عن كشف أسرار الطبيعة)[5]

---

(١) كريس موريس، طبيب وعالم نفساني مؤلف في كتابه «سر خلق الانسان»: ٨٧ (بالفارسية).. هذا النص وغيره منقول من الأمثل.

(٢) الدكتور «الكسيس كارل» في كتابه «الانسان ذلك المجهول» الصفحة٥.

(٣) العالم المعروف «وليام جيمس»

(٤) هو الفلكي المعروف «فلا ماريون» انظر: «على اطلال المذهب المادي» الصفحة ١٣٨.

(٥) هو (انشتاين» الرياضي المعروف والمكتشف لنظرية النسبية والبُعد الرابع، انظر: خلاصة الفلسفة النسبية.

الغرور

قال لي المعلم: ألم تعلم ما الذي جعل فرعون يدعي الألوهية؟

قلت: قومه، فقد قال تعالى:﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾(الزخرف:٥٤)

قال: وقبل قومه.

قلت: أنا لم أقرأ تاريخ فرعون حتى أعلم مصادر ادعائه الربوبية بالضبط، فقد يكون تأثر في ذلك بالديانات الفارسية أو الهندية..

قال: لا.. فقد ذكر القرآن الكريم ذلك.

قلت: أين؟

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾(القصص:٣٨)

قلت: بلى، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك في موضع آخر، قال تعالى:﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾(غافر:٣٦ ــ ٣٧)

قال: فما هي العلة التي ذكرها القرآن الكريم، والتي كانت سبب ما ادعاه من دعاوى؟

قلت: أليس هو الغرور الذي جعله يعتقد أنه يعلم العلم الذي لا جهل فيه، أو لا جهل معه.

قال: نعم، فالجهل بالجهل يولد الغرور.

قلت: فالغرور إذن وليد الجهل.

قال: وقد يكون ولدا غير شرعي للعلم.

قلت: كيف؟

قال: إذا حبس في قفص علومه، أو سقط في مهاوي معارفه، أو تاه في ظلمات كتبه وأوراقه.

قلت: ما أرى العلم إلا نورا، فكيف ترميه بالظلام، وما أره إلا حرية، فكيف ترميه بالقفص، وما أراه إلا رقيا، فكيف ترميه بالهاوية.

قال: ذلك هو العلم الذي لا يقف صاحبه عنده، بل يظل دائما صفحة بيضاء تنتظر أقلام

الأبد لتكتب عليها.

قلت: فسر لي هذا، وما الفربق بين الجهل والغرور؟

قال: الجاهل قد يسأل، فيتعلم، ولكن المغرور لا يسأل ولا يتعلم.

قلت: وإذا هداه الله، فسأل؟

قال: يسأل ليجادل، لا ليتعلم.

قلت: فإذا هداه الله، وتعلم؟

قال: يتعلم ليضم إلى غروره كبرياءه.

قلت: فما علاقة هذا بمد اليد إلى النفس؟

قال: المغرور لا يمد يده إلا إلى نفسه، لأنه يرى ما عداه أياد ممدودة إليه.

قلت: إذن المغرور لا يكون شحاذا على عتبات المساجد.

قال: قد يكون كذلك، ولكنه يتكبر على اليد التي تمده بالعطاء، وقد يحاول قطعها إن استغنى واكتفى، أترى استحالة ذلك؟

قلت: ربما، فما أكثر ما نسمع عنه من مقابلة الجميل بالكفران، والإحسان بالإساءة.

قال: ولهذا كان الغرور هو منبع جميع الأمراض النفسية.

قلت: كيف.. الأمراض النفسية كثيرة جدا، والمستشفيات تستقبل كل يوم أنواعا جديدة من هذه الأمراض.

قال: ليست المستشفيات وحدها هي التي تستقبل هذا النوع من الأمراض، بل إن الشوارع تعج بها والمدارس والبيوت..

قلت: فكيف يكون الغرور منبعها؟

قال: اسمع القرآن الكريم، وستجد كيف تدلى الخلق بحبال الغرور في مهاوي السخط.

قلت: نعم.. القرآن الكريم يذكر كثيرا الغرور باعتباره سببا من أسباب الكفر والضلالة، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل الذين تصوروا أن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾(آل عمران:٢٤)

قال: وتحسب ذلك خاصا ببني إسرائيل؟

قلت: لا أظن أن في هذه الأمة المرحومة من ادعى أنه لن يمكث في النار إلا أياما معدودات بسبب ذنوبه.

قال: إن كلمة (الأمة المرحومة) التي ذكرتها منبع غرور للكثيرين.

قلت: كيف، فهذه الأمة مرحومة بلاشك.

قال: ولكن كل من ولد في هذه الأمة يتصور أنه من المرحومين، ولو بغير عمل يعمله، أو حسنة يقدمها، ولعله يتصور نفسه يحمل في صدره صكا من صكوك الغفران التي تقول له:(اعمل ما شئت فقد غفرت لك)

قلت: هذه حقيقة، وكل المبشرات تدل على هذا.

قال: وعلى ماذا يدل قوله تعالى:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾ (النساء:١٢٣)

قلت: نعم.. إن الآية تقرر أن الجزاء الإلهي لا يخضع لأماني الناس، بل يخضع لقانون واحد يشمل الجميع.. ولكن مع ذلك فنحن..

قاطعني، وقال: الله رب الجميع، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣)، فهل قال الله تعالى أكرمكم فلان أو فلان.

قلت: لقد ذكرتني بقول ابن عباس ﷺ:(ثلاث آيات جحد من الناس) وذكر منها قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣)، قال: ويقولون: إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتاً)

واصل قوله، وكأنه لم يسمع ما قلت:.. ألم تسمع قوله ﷺ:(أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عزَّ وجلَّ حفاة عراة غرلا:﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾(الانبياء: من الآية١٠٤)، وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح:﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(المائدة:١١٧ ــ ١١٨)، فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم)[1]

قلت: ولكني أسمع قومي يعتبرون النسب ويعظمونه، بل يجعلونه أساسا في علاقاتهم، ومن ينكر فضل آل بيت النبوة؟

قال: آل بيت النبوة لهم حرمتهم المرتبطة بطاعتهم لله، ولا حرمة لهم إن عصوه، ألم تسمع

---

(١) البخاري.

قوله ﷺ لآل بيته وأقاربه لما نزل قوله تعالى:﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(الشعراء:٢١٤):(يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني واللّه لا أملك لكم من اللّه شيئاً إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلاها)[1]

وفي رواية قال ﷺ:(يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من اللّه، يا صفية عمة رسول اللّه ويا فاطمة بنت رسول اللّه اشتريا أنفسكما من اللّه، فإني لا أغني عنكما من اللّه شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما)[2]

قلت: لقد ذكرتني بكتاب كتبه بعض المعاصرين من قومي لا في فضل الأشراف، وإنما في فضل عصاة الأشراف، وامتدحهم فيه بمدائح لم يمدح بها نبي مرسل، ولا ولي مقرب.

قال: ثم تظن بعد هذا أن هذا الغرور خاص ببني إسرائيل.. إن كل ما في القرآن الكريم لهذه الأمة، ولكنكم هربتم من الحقائق التي تواجهكم لتحولوه قصصا تسرد، وحكايات تروى، وأمثالا يلغز بها.

قلت: يا معلم، النسب إذن سبب من أسباب الغرور، ولكنه خاص بفئات محدودة، وقومي ــ عموما ــ لا يكادون يعتبرونه.

قال: ولكنهم يعتبرون ما هو أخطر من النسب.

قلت: وماذا يعتبرون؟

قال: أم الخطايا.

قلت: لست أعرف للخطايا أما، ولا أبا.

قال: حب الدنيا هو رأس الخطايا وأمها وأصل أصولها، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(آل عمران:١٨٥)

قلت: بلى، فقد وردت الآيات الكثيرة المحذرة من الاغترار بالدنيا، فالله تعالى يقول:﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا

---

(١) مسلم والترمذي.

(٢) تفرد به من هذا الوجه الإمام أحمد.

كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾(الأنعام: ٧٠)

وقال تعالى:﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(لأعراف: ٥١)

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(لقمان: ٣٣)

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾(فاطر: ٥)

وقال تعالى:﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾(الجاثـــية: ٣٥)

وقال تعالى:﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(الحديد: ٢٠)

قال: أتعلم الحبال التي يتدلى منها الغررو بالدنيا؟

قلت: ما هي.. دلني عليها لأقطعها وأخلص الخلق منها؟

قال: هي حبال الشيطان، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾(لأعراف: ٢٢)

ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْأِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾(الأنعام: ١١٢)

ألم تسمع قوله تعالى:﴿)يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾(النساء: ١٢٠)

ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾(الاسراء: ٦٤)

***

قلت: يا معلم.. لقد جلنا جولة في رحاب القرآن الكريم عرفنا من خلالها خطر الغرور وثماره، فما علاقة ذلك بالاستعفاف، وما علاقة ذلك بالفقراء؟

قال: مد اليد بالسؤال علة خطيرة لا تكفي في معالجتها المراهم التي تداوون بها جراحكم، بل لا بد من عملية ضخمة تبدأ من تصحيح الذات، وتصحيح الذات لا يمكن إلا بالتعرف عليها وعلى مواضع الغرور منها.

قلت: فاذكر لي مثالا على تأثير الغرور في هذا؟

قال: اسمع قوله تعالى:﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾(آل عمران:١٩٦)، وقوله:﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾(غافر:٤)

قلت: في هاتين الآيتين يحذر الله تعالى من الاغترار بما حصل للكفار من أنواع المتاع الدنيوي.. ولكن لماذا حذر من هذا الاغترار؟

قال: لأن الغرور هو نقطة الضعف التي يتسرب منها الشيطان ليملأ قلب الإنسان هما وحزنا على حاله الهزيل، ويقارنه بحال المنتفخين، فإذا ما حصل الاغترار طلب الهزيل أن ينتفخ بنفس الأسلوب الذي انتفخ به غيره، فيقع فيما وقعوا فيه.

قلت: أريد توضيحا أكثر.

قال: أرأيت لو أن سلطانا عادلا اتخذ وزيرا مغرورا، أيمكنه أن يدير دفة وزارته إدارة تتناسب مع عدل السلطان؟

قلت: لا، بل قد يشوه عدل السلطان، بل قد يرمى بالجور لغرور وزيره.

قال: أرأيت لو أن وزير الحرب كان جاهلا بقوة جيش السلطان، ولكنه مع ذلك مغرور، أيمكن أن يزف البلاد إلى حرب لا طاقة لها بها؟

قلت: نعم، ذلك ممكن جدا خاصة إذا تصور أنه لن يحقق ذاته إلا بخوض الحروب.

قال: فكذلك النفس لو أمرت عليها الغرور، فإنها ستتردى في حروب لا طاقة لها بها، ليس مع ذاتها فقط، بل مع ذاتها ومع الناس ومع الله.

قلت: فما الحل؟

قال: أن تهرب منها إلى الله، فلا تمد يدك إلا إليه، ألم تسمع ما قال الصالح:(دع نفسك وتعال)

قلت: كيف أدع نفسي، وهي أنا؟

قال: دع ما يحول بينك وبين ربك من نفسك، فلا يمكن أن تمد يدك إليه ويدك ممدودة إلى نفسك..

ثم التفت إلي، فرأى تساؤلات كثيرة في عيني فقال: أتعلم ما هو أشد المواقف على رسول

الله ﷺ في فترة رسالته الأولى قبل البعثة.

قلت: أشدها ذهابه إلى الطائف، حيث تقطن ثقيف، وهي تبعد عن مكة نحو الخمسين ميلاً، سارها محمد ﷺ على قدميه جيئة وذهوباً، فلما انتهى إليها قصد إلى نفر من رجالاتها الذين ينتهي إليهم أمرها، ثم كلمهم في الإسلام ودعاهم إلى الله، فردوه -جميعاً- رداً منكراً، وأغلظوا له الجواب. ومكث عشرة أيام، يتردد على منازلهم دون جدوى.

فلما يئس الرسول ﷺ من خيرهم قال لهم: إذا أبيتم، فاكتموا عليَّ ذلك -كراهية أن يبلغ أهل مكة، فتزداد عداوتهم وشماتتهم- لكن القوم كانوا أخس مما ينتظر. قالوا له: اخرج من بلدنا، وحرّشوا عليه الصبيان والرعاع فوقفوا له صفين يرمونه بالحجارة. وزيد بن حارثة يحاول الدفاع عنه حتى شج في ذلك رأسه.

وأصيب الرسول ﷺ في أقدامه، فسالت منها الدماء واضطره المطاردون إلى أن يلجأ إلى بستان لعتبة، وشيبة، ابني ربيعة، حيث جلس في ظل كرمة يلتمس الراحة والأمن[1].

قال: وعندما استراح في ذلك البستان، وهو في تلك الحال، هل مد ﷺ يده إلى نفسه يطلب منها إغاثته بصنوف الحيل ليخرج من ذلك المأزق؟

قلت: لا، بل روى علماء السير أنه بمجرد جلوسه في ظل الكرمة أخذ يدعو الله قائلا:(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس..أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي.. إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي..!!

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل علي غضبك، أو أن يترل بي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك..)

قال: فهل شكى رسول الله ﷺ الناس إلى ربه؟

قلت: لا، بل شكى نفسه، واستعاذ من غضب ربه عليه، وقد روي عن عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال، فلم يجبنى الى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما

---

(١) فقه السيرة للغزالي.

شئت، قال: فناداني ملك الجبال وسلم عليّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ:(بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)

قال: فلو كان في هذا الموقف مغرور بنفسه معظم لها ماذا كان سيفعل؟

قلت: ربما..

التفت، فلم أر المعلم، لقد ترك البحث عن الإجابة على السؤال يجول في خاطري، ثم انصرف عني أو انصرفت عنه.

بعد انصرافه رأيت أن أحسن وسيلة للإجابة على سؤال المعلم هي أن أعرض نفسي على ذلك الموقف لأرى ما الذي سيمكن أن أفعله.

لقد تصورت نفسي مادا يدي إلى الله أسأله أن يدمرهم ويبيد خضراءهم ويقطع نسلهم ويشردهم، فيذوقوا من الأهوال أضعاف ما ذقت.

أو رأيتني أقول لنفسي:(لئن تمكنت منهم لأرينهم شر ما صنعوا)

قال لي معلم السلام: وتبقىوحدك بعدها مع وزيرك المغرور الذي حرم أمما من فضل الله بسبب موقف من مواقف الأنفة.

قلت: لقد ذكرتني بمتسول كان يمد يده إلى الناس، وكان يختلف عن سائر المتسولين في أنه لا يدعو لمن أعطاه، وإنما يدعو على من لم يعطه.. وكان مع ذلك أكثر المتسولين مكاسب، فالناس يخافون من دعوات السوء أكثر من رجائهم لدعوات الخير..

الهوى

قال لي معلم السلام: الصفة الثالثة التي تجعلك تمد يدك إلى نفسك هي الهوى.

قلت: ما الهوى؟

قال: هو وزير من وزراء النفس تعرض عليه الحلول المختلفة لجميع المشاكل، فلا يبصر منها إلا ما يوافق ذوقه.

قلت: وماذا يفعل بالحلول الأخرى؟

قال: يرميها، أو يتهمها، أو ينكرها، أو يلتمس صنوف الحيل ليقنع عقله بمخالفتها.

قلت: ولكن الدين أعظم من العقل، فنوره أكثر امتدادا من امتداد العقل، فلذلك قد تقتنع حقيقة الإنسان بما يمليه الدين، ويترك ما يمليه العقل الذي سلم نفسه للهوى.

قال: ولكن الدين نفسه قد يصبح لعبة بيد صاحب الهوى.

قلت: ولكن الدين بيد الله، ولا يمكن أن يصبح بيد أحد من الناس؟

قال: ألم تعلم بأن الهوى من أخطر أسباب تحريف الأديان، ومن أكبر سراديب الاعتراض؟

قلت: بلى، فقد قرأت في القرآن الكريم كثيرا من هذا، قال تعالى:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾(محمد:١٦)، وقالتعالى:﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(القصص:٥٠)، وقالتعالى:﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾(المائدة:٧٠)، وقال تعالى:﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾(لنجم:٢٣)

ثم أخذت نفسا عميقا، وقلت: الحمد لله لقد من الله على هذه الأمة، فحفظ كتابها وسنة نبيها ﷺ بل هدي سلفها الصالح، فلذلك لم تستطع كل شياطين الهوى أن تبدل هذا الدين أو تغيره.

قال: نعم، هذا من رحمة الله، ولكن للهوى سلطانه على النفوس، فلذلك قد يفسر الحق الذي لا مرية فيه بالباطل الذي لا شك فيه، أو لم تسمع نهي الله لهذه الأمة عن طريق نبيها من الجثو أمام الأهواء، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ﴾(الرعد:٣٧)، وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ

عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾(الجاثـية:١٨)، وقوله تعالى:﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(الشورى:١٥)

قلت: أيمكن للهوى أن يقلب الحقائق المستقرة؟

قال: في نفس صاحب الهوى تنقلب الحقائق انقلابا تاما.

قلت: لماذا؟

قال: ألم تعلم بأن الهوى قد يتحكم في الإنسان فيصير معبودا له من دون الله، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(الجاثـية:٢٣)؟

قلت: بلى، وقد سمعت أن الله تعالى قال لموسى ﷺ:(يا موسى، خالف هواك فإني ما خلقت خلقا نازعني في ملكي إلا الهوى)

قال: فإذا انقلب وزير الهوى على الملك إلها واستوى على عرشه، أيمكن لأحد أن يقنعه باتباع حق أو بالارتداع عن باطل؟

ثم انصرف عني أو انصرفت عنه.

وبقيت متأملا هذا الخطر العظيم الذي يحيق بالإنسان، فأصابني ذعر عظيم أن أجد على عرش قلبي ملكا عنيدا ظالما متجبرا يقلب الحقائق ويصارع الله، فصحت من أعماقي: كيف أنقلب على هواي؟

قال: برفع ثقتك من نفسك، وبتركك الأمل فيها، وباللجوء إلى الله.

قلت: فما مثل ذلك؟

قال: إذا أراد الوزير الانقلاب على الملك، ماذا يفعل؟

قلت: يستعين بالجند وبكل ما أمكنه من طاقات.. ولكن الهوى أخطر من الملك فهو يدعي الألوهية من دون الله.

قال: فحاربه بالله.

قلت: كيف؟

قال: بمد يدك إليه.

قلت: وكيف أمد يدي إليه؟

قال: بعدم مدها إلى نفسك، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾(النازعـــات: ٤١)

الخداع

قال لي معلم السلام: الصفة الرابعة التي تجعلك تمد يدك إلى نفسك هي قدرة نفسك العظيمة على الخداع.

قلت: وما الخداع؟

قال: هو وزير من وزراء النفس يضع لك الحيل المختلفة، ويوجد لك الحلول لمختلفة، ولكنها كلها ترمي بك في الهاوية.

قلت: لعلك تقصد ما قال الغزالي في قوى النفس:(والعبد الجالب للميرة كذاب مكار خداع خبيث يتمثل بصورة الناصح وتحت نصحه الشر الهائل والسم القاتل وديدنه وعادته منازعة الوزير الناصح في آرائه وتدبيراته حتى لا يخلو من منازعته ومعارضته ساعة)[1]

قال: نعم رحم الله الغزالي، فقد كان خبيرا بالنفوس.

قلت: ولكن كيف أكتشف خداع نفسي لي، وكيف أفرق بين نصائح الوزير الناصح، وخداع العبد المحتال؟

قال: بخروجك من نفسك ورفعك ثقتك عنها، وعودتك إلى الله.

قلت: أتضرب لي أمثلة على خداع النفس.

قال: نعم، سأضرب لك مثالين على خداع النفس، وتلاعبها بصاحبها.

المثال الأول:

قلت: فما المثال الأول؟

قال: خدعة اسمها (خدعة الإحسان السابق)

قلت: ما هي هذ الخدعة؟

قال: عبر عنها شاعركم بقوله:

لقد أحسن الله فيما مضى   كذلك يحسن فيما بقي

قلت: هذا قياس، ولعل معناه صحيح، فإن صاحب الإحسان السابق لا يستغرب منه الإحسان اللاحق.

قال: والمخادع هو الذي يلبس لباس الحق ليشتري به الباطل أو ليبيع به الباطل.

قلت: فأي باطل هذا الذي يريد ببيعه أو شراءه؟

---

(١) الإحياء: ٦/٣.

قال: هو باطل الهوى، فهو كلما هوى شيئا اشتراه بمخادعته لنفسه، ألم تسمع قوله تعالى في خبر الرجلين المتحاورين:﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾(الكهف:٣٦)؟

قلت: لقد روى المفسرون في قصة هذا الكافر أنه بنى قصراً بألف دينار واشترى بستاناً بألف دينار وخدماً بألف دينار وتزوّج امرأة على ألف دينار، وفي ذلك كله يعظه المؤمن ويقول: اشتريت قصراً يفنى ويخرب ألا اشتريت قصراً في الجنة لا يفنى واشتريت بستاناً يخرب ويفنى ألا اشتريت بستاناً في الجنة لا يفنى وخدماً لا يفنون ولا يموتون وزوجةً من الحور العين لا تموت وفي كل ذلك يرد عليه الكافر ويقول: ما هناك شيء، وما قيل من ذلك فهو أكاذيب وإن كان فليكونن لي في الجنة خير من هذا.

ومثله ما روي عن خباب بن الأرت ﷺ أنه قال: كان لي على العاص بن وائل دين فجئت أتقاضاه فلم يقض لي فقلت: إني آخذه في الآخرة؛ فقال لي: إذا صرت إلى الآخرة فإن لي هناك مالاً وولداً أقضيك منه. فأنزل الله تعالى قوله:﴿)أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾(مريم:٧٧)، وقال الله تعالى:﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾(فصلت:٥٠)

ثم التفت إلى المعلم، وقلت: ولكن كيف احتالت النفس على نفسها بهذه الحيلة؟

قال: هو ذا الغزالي أمامك يجيبك على ذلك.

التفت، فإذا الغزالي يقول من غير أن أسأله: سببه قياس من أقيسة إبليس نعوذ بالله منه، وذلك أنهم ينظرون مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون مرة إلى تأخير العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾(المجادلة: من الآية٨)، فقال تعالى جواباً لقولهم:﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(المجادلة: من الآية٨)

ومرة ينظرون إلى المؤمنين؛ وهم فقراء شعث غبر فيزدرون بهم ويستحقرونهم، فيقولون:﴿ أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ﴾(الأنعام: من الآية٥٣))، ويقولون:﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾(الاحقاف: من الآية١١)

وترتيب القياس الذي نظمه في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكل محسن فهو محب، وكل محب فإنه يحسن أيضاً في المستقبل[1].

قلت: أليس كل محسن محب، أو لم تستدل أنت على كون الله محبا لنا بإحسانه إلينا؟

أجابني المعلم بدله، فقال: نعم كل محسن محب، ولكن من قال لهم: إن هذا إحسان محبة، ألم يجعل الله الدنيا دارا للابتلاء، كما قال تعالى:﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(الانبياء: من الآية٣٥)، فالله تعالى يبتلي بالغنى كما يبتلي بالفقر، ويبتلي بالقوة كما يبتلي بالعجز.

قال: سأضرب لك على ذلك مثالا، فلو كان لرجل (عبدان صغيران يبغض أحدهما ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه ليعلمه الأدب، ويمنعه من الفواكه وملاذ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية التي تنفعه. والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد فيلعب ولا يدخل المكتب ويأكل كل ما يشتهي، فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كريم لأنه مكّنه من شهواته ولذاته وساعده على جميع أغراضه فلا يمنعه و لم يحجر عليه، وذلك محض الغرور، وهكذا نعيم الدنيا ولذتها فإنها مهلكات ومبعدات من الله)[2]

قلت: لقد فهمت هذه الخدعة، وما أكثر انتشارها بين قومي، بل إن القرآن الكريم نص عليها باعتبارها مغالطة من المغالطات الكبرى التي قد يخدع بها كل إنسان إلا أولو الألباب، فقال تعالى:﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾(الفجر:١٥ ــ ١٦)

المثال الثاني:

قلت: لقد فهمت المثال الأول، ورأيت نوع المغالطة فيه، فهات المثال الثاني.

قال: هذه الخدعة تسمى خدعة النعامة.

ضحكت، وقلت: وما خدعة النعام؟

قال: أنتم تنسبون أشياء كثيرة للحيوانات، فتسمون الرقص الماجن (رقصة البجعة)، فكيف غابت عنكم (خدعة النعامة)؟

قلت: لا أدري.. أرقصة هي كذلك؟

قال: هي نوع من رقص الشياطين على عقل الإنسان.

قلت: أفيتحول عقل الإنسان بذلك إلى مرقص.

---

(١) الإحياء: ٢٨٣/٣.

(٢) الإحياء: ٢٨٣/٣.

قال: إن العقل الذي يستطيع أن يصير عرشا للملوك، وجنة من جنان الكمال، وجامعة من جامعات العلم، لن يستحيل عليه أن يصير مرقصا أو مستنقعا أو ساحة حرب.

قلت: فاشرح لي هذه الخدعة حتى لا تنطلي علي.

قال: هو ذا بديع الزمان أمامك يشرحها لك.

التفت فإذا بديع الزمان يقول من غير أن أسأله: يحكى أنه قيل للنعامة (إبل الطير): لـــماذا لا تطيرين؟ فانك تـــملكين الـــجناح، فقبضتْ وطوتْ جناحيها قائلةً: أنا لست بطائر بل إبل، فأدخلت رأسها في الرمل تاركةً جسدها الضخـــم للصياد، فاستهدفها.

ثم قالوا لـــها: فاحـــملي لنا إذن هذا الـــحـــمل إن كنتِ إبلا كما تدّعين، فعندها صفّت جناحيها ونشرتهـــما قائلة: أنا طائر، وتفلت من تعب الحمل. فظلت فريدة وحيدة دون غذاء ولا حماية من أحد وهدفاً للصيادين.

قلت: هذه حكاية جميلة متداولة، فما وجه الخدعة فيها؟

قال: هذا المثال ينطبق تماما على النفس المخادعة التي تحاول أن تتهرب من التكاليف الحلوة اللذيذة لتقع في الحفر التي لم تحسب حسابها، (وهكذا الكافر، بعد أن تزحزح من كفره المطلق أمام النُذر السماوية القرآنية تردّى في كفر مشكوك. فإذا سئُل: كيف تستطيع العيش وأمامك الـــموت والزوال اللذين تدعى أنهـــما انعدام أبدي؟ فهل يتـــمكن من الـــحياة ويتـــمتع بها من كان يسير بـــخطاه إلى حبل الـــمشنقةَ؟ يـــجيب: لا، ليس الـــموت عَدَماً، بل هناك احتـــمال للبقاء بعدَه)

فهذه النفس المخادعة شأنها شأن النعامة حينـــما ترى الـــموت والزوال عَدَماً تحاول أن ينقذ نفسها من تلك الآلام بالتـــمسك بالإيـــمان بالآخرة، والذي ولّد عندها احتـــمالاً للـــحياة بعد الـــموت.

فإذا ما قيل لـــها:(فما دام الـــمصير إلى عالـــم البقاء، فلـــم إذا لا تؤدي الواجبات التي يفرضها عليك هذا الإيـــمان كي تسعد في ذلك العالـــم؟) تجيب من زاوية كفرها وشكها:(ربـــما ليس هناك عالـــم آخر، فلـــم إذن أرهق نفسي؟!)

ما إن سمعت هذا حتى أحسست بجوهرة عظيمة تتنزل على نفسي تنجلي بترولها بعض الظلمات.

٢ ـــ لا أمل فيهم

وقفت مع المعلم أمام الجوهرة الثانية من جواهر الاستعفاف، فسألت المرشد عنها، فقال: هذه جوهرة (لا أمل فيهم)

ابتسمت في نفسي من هذه الأسماء الغريبة، ثم التفت إلى المعلم ليشرح لي حقائقها، فلا يمكن أن أنالها بدون الوصول إلى حقيقتها والاقتناع بها.

نظر إلي المعلم، وقال: إن أردت أن تيأس مما في أيدهم فقل:(هم فقراء.. هم عاجزون.. هم ظالمون.. هم بخلاء)

قلت: هم فقراء.. هم عاجزون.. هم ظالمون.. هم بخلاء.. لكن يا معلم لا أرى هذه الكلمات أغنتني شيئا.

قال: أنت تداوي جرح رجليك بمسح المرهم على يديك.

قلت: كيف؟

قال: ذلك الدواء الذي وصفته لك لا تأكله بفمك.. بل دع قلبك يلتهمه ليمسح عنه ذلك الأمل الكاذب.

قلت: ولكن القلب لا يأكل ولا يشرب، ولا تعتريه العوارض.

قال: بلى يأكل ويشرب.. يأكل الحكمة ويشرب العلم.. لينبت شجرة الإيمان التي قال فيها الله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾(ابراهيم:٢٤)

قلت: وكيف آكل تلك الكلمات، وكيف أشربها؟

قال: بأن تتعلم ما فيها من حقائق الحكمة، فلا يمكن لأشعة جوهرة (لا أمل فيهم) أن تنزل على صدرك لتحققك بحقائق الاستعفاف إلا إذا علمت ما فيها.

قلت: وما فيها؟

قلت: فيها الترياق الذي يرفع أملك عن الخلائق.

قلت: لماذا أرفع أملي من الخلائق؟

قال: لترفع يدك عنهم، فإن يدك لا تمتد إلا لمن تطمع فيه.

ثم التفت إلي، وقال:(لن تمد يدك إليه إلا إذا لم تمدها لغيره)

قلت: فلنفرض أني قطعت أملي من الخلائق؟

قال: تلك أول خطوة تحققك بالاضطرار، ألم تسمع الحق تعالى وهو يقول:﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ

الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾(النمل:٦٢)؟

قلت: أتحققي بالاضطرار نعمة؟

قال: من أكبر نعم الله عليك أن لا تحتاج إلا إليه، وأن لا تمد أعناق همتك إلا إليه.

قلت: لكأني بك تقصد قول ابن عطاء الله:(لا تتعد نية همتك إلى غيره، فالكريم لا تتخطاه الآمال)

قال: فمن الكريم هنا؟

قلت: الله، فهو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى، ولا لمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجا، ويغنيه عن الوسائل والشفعاء.

قال: فهل يستحق هذه الصفات بكمالها أحد من خلق الله؟

قلت: لا.. فذلك مستحيل.. فإن مثل هذا الكرم لا يمكن أن يكون إلا ممن خزائنه لا تنفذ.. أما خزائننا فسريعة النفاذ.. ولو امتلأت ففينا من البخل ما يمنع التكرم بها.

قال: فلماذا إذن تتخطون الرقاب، ولماذا تتركون عزة المادين أيديهم إلى الله لتسحقوا في ذلة المادين أيديهم إلى خلقه.

ثم سكت هنيهة، وأخذ يردد قول الشاعر الصالح:

حرام على من وحد الله ربه ... وأفرده أن يجتدي أحداً رفدا

ويا صاحبي قف بي مع الحق وقفة ... أموت بها وجداً وأحيا بها وجدا

وقل لملوك الأرض تجهد جهدها

ثم التفت إلي، وقال: ألم تسمع ما قال الحكيم بعد تلك الحكمة؟

قلت: بلى، فقد قال:(لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه، فكيف يستطيع أن يكون لها عن غير رافعاً؟)

قال: فهذه الجوهرة شرح لتلك الحكمة.

قلت: فلماذا كانت هذه الأربع هي الترياق الذي يقيني من مد همتي إلى الخلائق.. فقد ذكر الله تعالى الإنسان بسلبيات كثيرة غير هذه:

فهو كثير النسيان وناكر للجميل ، كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّ الْأِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(يونس:١٢)

وهو موجود ضعيف، كما قال تعالى:﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾(النساء:٢٨)

وهو ظالم وكافر، كما قال تعالى:﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(ابراهيم: من الآية٣٤)

وهو بخيل قتور، كما قال تعالى:﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْأِنْفَاقِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ قَتُوراً﴾(الاسراء:١٠٠)

وهو عجول، كما قال تعالى:﴿ وَيَدْعُ الْأِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ عَجُولاً﴾(الاسراء:١١)

وهو مجادل خصيم، كما قال تعالى:﴿ وَكَانَ الْأِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(الكهف: من الآية٥٤)

وهو موجود قليل التحمل والصبر، يبخل عند النعمة ، ويجزع عند البلا، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾(المعارج:١٩ ـــ ٢١)

وهومغرور، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾(الانفطار:٦)

وهو طاغية عند الغنى، كما قال تعالى:﴿ كَلَّا إِنَّ الْأِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦ ـــ ٧)

فلماذا اكتفيت بهذه الأربع عن هذه الصفات جميعا؟

قال: خصائص الإنسان كثيرة كما ذكرت، بل هي أكثر مما ذكرت، فإن كل صفة مذكورة يتفرع عنها صفات أخرى، تجعل الإنسان مستعدا لأن يترل أسفل سافلين، ولكنا نتحدث هنا عن الصفات التي تيئسك مما في أيديهم.

قلت: فما وجه الحصر في هذه الصفات؟

قال: إذا علمت مساواهم لك في الفقر لم تمد يدك إليهم، وهل يمد مريض يده لمريض مثله.. وهل يمد غريق يده إلى غريق.

قلت: ولكن الناس ليسوا كلهم فقراء، فلذلك لا أمد يدي إلا إلى الأغنياء منهم.

قال: فهم بخلاء.. يكترون أموالها، ويخافون إهدارها عليك وعلى أمثالك.

قلت: ولكن فيهم الكرام، وهل عقمت الأرحام أن يلدن مثل حاتم؟

قال: فهم ظالمون يضعون كرمهم في المواضع التي لا تصيبك.

قلت: سأعرفهم بحاجاتي التي أعرفها وأشرحها لهم.

قال: فهم عاجزون.. لأن حاجاتك أكثر من أن يسدها فقير وظالم وبخيل وعاجز.

قلت: يا معلم، لدي شبهة هنا، قد يتعلق بها من يتعلق.

قال: وما هي؟

قلت: إن هذه المعارف تحيلني يائسا قانطا، أليس القنوط كفرا؟

قال: ذلك هو القنوط من الله، واليأس من رحمته، فقد قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام:﴿ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف: من الآية٨٧)

قلت: ومع ذلك، فقد يقاس اليأس من الخلق باليأس من رحمة الله بنوع من القياس أليس الخلق واسطة من وسائط الفضل!؟.. فاليأس من وسائط الفضل يأس من الموسوط صاحب الفضل.

قال: ألا تعلم أن أول من قاس إبليس حين قال:﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾(لأعراف: من الآية١٢)؟

قلت: تخليت عن القياس.. فأنا لا أكاد أومن بالقياس.. ولكن ماذا يفيدني أن أعلم فقر الخلائق وعجزها وبخلها وجهلها.

قال: يخلصك من عبوديتهم والأمل مما في أيديهم ويجعل أملك في الله.

قلت: فكيف لقلبي أن يرفع الأمل من الخلق، ويتحقق باليأس مما في أيديهم.

قال: بتعلم حقائق هذه الكلمات، فإن القلب لا يتغذى إلا االكلمات النابعة من منابع الحكمة.

الفقر

قال: أول حقيقة يتشربها القلب لتبث فيه اليأس من أيدي الخلائق أن يعلم فقرهم.

قلت: فالفقر إذن ليس خاصا بفلان من الناس، ولا بدولة من الدول.

قال: الفقر هو سمة الكون جميعا.. أما الغني الوحيد في هذا العالم فهو الله تعالى، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥)

قلت: فهلا أفهمت بصيرتي ما تعنيه هذه الآية.

قال: الفقر في حقيقته هو الحاجة، وهي ليست مختصرة في ما اصطلح عليه الناس من أصناف الحاجات، بل هي كل شيء وهبه الله تعالى لعباده ابتداء من وجودهم، وانتهاء بالأرزاق التي تفاض عليهم في كل حين.

قلت: فاضرب لي أمثلة على ذلك تجعلني أتصور الحقائق، فلا يمكنني تعقل الحقائق قبل تصورها.

قال: ما هي أصناف الحاجات التي يحتاج الخلق إلى سدها؟

قلت: هي كثيرة جدا، ففي الإنسان من الحاجات بحسب عدد خلاياه.. بل بحسب عدد الذرات التي يتشكل منها بنيانه.

قال: ففي الإنسان من الفقر إذن بحسب الذرات التي يتشكل منها بنيانه.

قلت: كيف؟

قال: لأن الفقر هو الحاجة.. ففي كل ذرة حاجة من الحاجات.. وفاقة تستدعي أن تسد.

قلت: هذا صحيح.. ولكن لحاجات الأغنياء ما يسدها بخلاف حاجات الفقراء.

قال: الأغنياء يسدون جزءا من مليون جزء من حاجاتهم.. أو هو جزء لا يكاد يرى.

قلت: كيف؟ أكل تلك الثروات التي يمتلكونها.. والخزائن التي يوصدونها.. والأموال التي يرصدونها لا يسدون بها إلا حويجات قليلة.

قال: بل في الحقيقة لا يسدون شيئا، ألم تسمع موعظة ابن السماك حين دخل عل بعض الخلفاء..

قلت: وبيد الخليفة كوز ماء يشربه، فقال له:(عظني) فقال:(لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان، فهل كنت تعطيه؟ قال: نعم فقال:(لو لم تعط إلا بملكك كله، فهل كنت تتركه؟ قال: نعم قال: فلا تفرح بملك لا يساوى شربة ماء.

قال: فهل فهمت ما في هذه الحكمة من حكمة؟

قلت: هي واضحة، فنعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى، وكأنه يقول له: إن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها.

قال: فنعم الله إذن لا تعد، ولا تحصى؟

قلت: أجل، بل قد ورد التنصيص على هذا مرتين في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(ابراهيم: من الآية٣٤)، وقالتعالى:﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(النحل:١٨)

قال: فلماذا تنزل نعم الله؟

قلت: تنزل من فضل الله وجوده، فالله كريم جود:

وَهُــوَ الجَــوَادُ فَجُــودُهُ عَــمَّ الوُجُــو	دَ جَمِيعَــهُ بِالفَضْــلِ وَالإِحْسَــانِ
وَهُــوَ الجَــوَادُ فَــلا يُخَيِّــبُ سَــائِلاً	وَلَــوْ أنَّــهُ مِــنْ أُمَّــةِ الكُفْــرَانِ

قال: لم أسألك عن مصدر النعم، وإنما سألتك عن علل نزولها.

قلت: هي تنزل لتسد حاجات الخلائق.

قال: كيف يكون ذلك؟

قلت: يعني أن الجود الإلهي يسد فاقة الجوع بالإطعام، كما يسد فاقة البرد باللباس، كما قال ﷺ في الحديث القدسي:(يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم)

قال: فأنت تقر إذن بأن نعم الله لا تحصى، وأن فضله لا يعد، ثم تذكر بأن ذلك الفضل وتلك النعم غايتها سد حاجات الخلق.

قلت: كل هذا صحيح، فما علاقته بفقر الخلائق؟

قال: إن هذا يوصلك إلى حقيقة فاقة الخلائق، لأنه لولا حاجاتهم الكثيرة غير المحصورة لما نزلت النعم غير المحصورة، والفاقة هي عين الفقر.

ثم التفت إلي، فرأى بعض سحابة في وجهي، فقال: أعلم حاجتك لتوضيح أكثر.. ثم أشار بيده فإذا صورة لعالم جليل تقف أمامي.

قال لي: هاهو ذا ناصر مكارم الشيرازي يزيدك توضيحا.

نطق ذلك العالم الجليل، والمفسر الخبير يقول:(الفقر يشمل كلّ إحتياج في الوجود بأسره،

فانّنا ومن أجل مواصلة الحياة الماديّة بحاجة إلى ضوء الشمس، والماء، والهواء، وأنواع من الغذاء والملبس والمسكن.

ولبقاء الحياة في الجسم نحن بحاجة إلى الأجهزة الباطنية من قلب وعروق وجهاز للتنفّس ودماغ وأعصاب.

ونحتاج في الحياة المعنوية ــ من أجل أن نميّز الطريق السليم عن غيره ونعرف الحقّ من الباطل ــ إلى قوّة عاقلة، وأرقى من ذلك نحن بحاجة إلى القادة الإلهيين والكتب السماوية.

وبما انّ منشأ هذه الأُمور كلّها عند الله لذا فانّنا بحاجة إليــه في وجودنا كلّه.

إنّ الشهيق والزفير يحدثان بتعاضد الآلاف من العوامل، وبدونها لا يحدثان، وكلّ هذه العوامل هي هبات إلهية، في كلّ نفس ــ إذن ــ هناك آلاف النعم، وينبغي الشكر على كلّ نعمة.

ثم أضاف: وعلى أي حال فانّ الفقر نافذ إلى أعماق ذوات البشر أجمعين بل وكلّ الموجودات، ولا تقتصر الحاجة إليه في الرزق ومستلزمات الحياة فقط، بل انّ وجودها يحتاج إلى فيضه في كلّ لحظة وآن (إن تَوقَف لحظة تهدّمت الهياكل)[1]

انفرجت أسارير وجهي، وقلت: نعم فاقة الخلائق ضرورة لا ينفكون عنها، فما بخلهم؟ وهل البخل إلا لمن يملك؟

التفت، لم أره لقد انصرف عني، أو انصرفت عنه.

---

(١) نفحات القرآن.

فجأة جاءني، وقال: نعم يملكون.

قلت: كيف يملكون.. وهم فقراء.. أليس في ذلك تناقضا؟

فقال: إن الله بحكمته أعطى الأغنياء بعض ما قد تمس إليه حاجة الفقير ليبتلي الغني بالفقير، والفقير بالغني، ألم تسمع قول الحق تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام:١٦٥)؟

قلت: فما تحمل هذه الآية من الإشارة إلى هذا المعنى؟

قال: هذه الآية تشير إلى الحقائق التي ينطوي عليها بخل الإنسان.

قلت: كيف ذلك؟.. لا أرى فيها ما تقول.

قال: قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ ﴾ يدل على أن الله تعالى جعل في أيدي بعض الناس ما يوصلون به الفضل الإلهي لعباده، فهم خلفاء في توصيل هذا الفضل، بدليل قوله تعالى بعدها:﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾

قلت: أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وقد ورد مثل هذا في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً ﴾(الزخرف: من الآية٣٢)، وقالتعالى:﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ (الاسراء:٢١)

قال: ولكن أكثر الخلائق يحبسون هذا الفضل.

قلت: لماذا؟

قال: لما في طبعهم من البخل، ألم تسمع قول الحق تعالى:﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾(النساء: من الآية١٢٨)، فالشح طبع فيهم يغذونه بسلوكهم المنحرف.

قلت: ولكن لماذا غذوا بالشح الفطري، لماذا لم يغذوا بالكريم الفطري؟

قال: لأن الكرم الذاتي من صفات الغني، وليس ذلك إلا الله، أما الخلائق فلفقرهم وحاجاتهم اللامتناهية يخشون دائما نفاذ ما عندهم، فيبخلون على الخلائق به.

قلت: والكرماء من الخلق.. كيف يكرمون؟

قال: الأولياء يكرمون من خزائن الله لا من خزائنهم، فلذلك لا يعرفون البخل.

قلت: لماذا، وما الفرق بينهم وبين سائر الناس؟

قال: لأن البخيل يبخل بما يملك، وهم يعتقدون أنهم لا يملكون شيئا مع الله.

قلت: ولهذا كان ﷺ يقول:(أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا)[1]

قال: أتدري إلى أي شيء التفت رسول الله ﷺ عندما ربط بين ذي العرش والإنفاق؟

قلت: إلام؟

قال: التفت إلى عرش الله العظيم، فظهرت له الأرض جميعا كشيء لا وجود له.

قلت: أجل، فإن العلم يؤكد هذا.. فالأرض بالنسبة للكواكب والنجوم لا تكاد تساوي شيئا.. يقول العالم بليفن في كتابه (العلم ينظر إلى السماء): (إن الكون أرحب و أعظم مما كنا نتخيله، و إن الأجزاء النائية من الكون تندفع في الفضاء بعيداً بسرعة مخيفة)

و يقول:(إن الكون كله بنجومه المختلفة الأحجام التي لا حصر لها، والتي تندفع في جميع الاتجاهات كأنها شظايا قنبلة متفجرة، صورة لا يكاد المرء يتخيلها حتى يدركه الانبهار، و تنقطع أنفاسه، و لكن يبدوا أن الأجدر بأن يبهر و يقطع الأنفاس هو رؤية هذا الكائن البشري الضئيل، الذي يعيش على شظية من شظايا نجم صغير، في زاوية حقير من زوايا مجرة لا تختلف شيئا عن الملايين من أمثالها، هذا الكائن يجرؤ عل أن يسمو ببصره إلى أطراف الفضاء، يجرؤ فيتحدى ثم يجرؤ فيحاول أن يعرف الكون)

قال: وهل اكتشفتم شيئا!؟.. إن كل ما ذكره لا يعدو أن يكون جزءا ضئيلا من سماء الدنيا، وأين السماء الثانية والثالثة إلى السابعة!؟

قلت: وما نسبة هذا كله إلى العرش الذي التفت إليه رسول الله ﷺ؟

قال: إنها النسبة التي وردت بها النصوص المقدسة، فقد سأل أبو ذر الغفاري ﷺ النبي ﷺ عن الكرسي، فقال رسول اللّه ﷺ:(والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة)

قلت: وما علاقة هذا بما نحن فيه؟

قال: لتعرف بهذا سر قوله ﷺ:(أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا)، فقد ذكر

---

(١) البزار عن بلال وعن أبي هريرة، والطبراني في الكبير عن ابن مسعود (أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٦/٣) وقال رواه الطبراني في الكبير وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه كلام وبقية رجاله ثقات. وقال: رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن.

ﷺ بوصفه صاحب العرش، ليذكر بلالا بأنه لا ينفق من عنده، وإنما ينفق من عند الله.

قلت: وما في هذا من العزاء للفقير، ومن تيئيسه مما في أيدي الخلائق؟

قال: فيه العزاء العظيم، فالفقير الذي ينشغل برؤية عرش الله، وخزائن الله لا يمد يده لأي أحد من الناس، بل يكتفي بمدها لله، فماذا يساوي الخلق جميعا أمام أبسط مخلوقات الله.

قلت: وهذا أيضا يجعل الفقير يشعر بفقر الخلق جميعا، فلا يحسدهم ولا يسألهم، ولا يتمنى أن يحصل له ما حصل لهم، كما قال تعالى:﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(النساء:٣٢)

قال: ألم تسمع الحق تعالى، وهو يقول في هذه الآية:﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾؟

قلت: بلى، فما وجه علاقتها بالنهي عن التمني؟

قال: لأن التمني يبدأ بجحود فضل الله، وينتهي بتمني زوال فضل الله، فلذلك نصحوا بدل الغرق في أودية الأماني أن يتوجهوا إلى المعطي والمتفضل، فمن أعطى أولا يعطي آخرا، ومن أعطى لفلان لا يعجز عن العطاء لفلان.

قلت: فهذا إذن أكبر علاج للحسد الذي يقع من الفقراء للأغنياء.

قال: بل هو أكبر علاج لأمراض الطبقية الاجتماعية، فالطبقية ليست محصورة في الغنى والفقر.

ثم سكت هنيهة وقال: ليت بخلكم كان قاصرا على المال.

قلت: وهل هناك بخل أعظم من بخل المال؟

قال: نعم بخلكم بالابتسامة والبشر، فإنها وإن لم تشبع بطن الفقير، فإنها تطمئن قلبه، وتخرجه من الكوابيس التي يعيشها، ألم تسمع قوله ﷺ:(تبسمك في وجه أخيك صدقة)[1]

قلت: صدقت، فإن معاناة الفقير النفسية أخطر من معاناته المادية.

قال: فلذلك إن لم تطيقوا علاج جوعه، فعالجوا نفسه.

قلت: والكمال في استعمال كلا العلاجين.

خطر على بالي حينها ما ذكره الشعراء في آداب المضيف من خدمته لأضيافه وإظهار بسط

---

(١) البخاري في الأدب والترمذي وابن حبان عن أبي ذر، قال الترمذي: حسن غريب، وتتمة الحديث:« وأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة »

الوجه لهم، فقلت: يا معلم لقد قال الشعراء في هذا كلاما جميلا، فهل أجزت لي ذكره؟
قال: اذكره، فإن الحكمة أشرف من قائلها.
قلت: لقد نشر العرب في هذا مثلا يقول:

بشاشة وجه المرء خير من القرى   فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

وقد ضمنه الشيخ شمس الدين البديوي أبياتا، فقال:

إذا المـــــــرء وافى مـــــــنزلا منــــــك قاصــــــدا   قـــــــراك وأرمتــــــه لـــــــديك المســــــالك

فكــــــــن باسمــــــا في وجهــــــه متــــــهللا   وقـــــل مرحبـــــا أهـــــلا ويـــــوم مبـــــارك

وقـــــدم لـــــه مـــــا تســـــتطيع مـــــن القـــــرى   عجـــــولا ولا تبخـــــل بمـــــا هـــــو هالـــــك

فقـــــد قيـــــل بيـــــت ســـــالف متقـــــدم   تداولـــــه زيـــــد وعمـــــرو ومالـــــك

بشاشـــــة وجـــــه المـــــرء خـــــير مـــــن القـــــرى   فكيـــــف بمـــــن يـــــأتي بـــــه وهـــــو ضـــــاحك

وقال أمير الكرماء حاتم الطائي يتحدث عن كرمه النفسي:

سلي الطارق المعتر يا أم مالك
إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

أأبسط وجهي إنه أول القرى
وأبذل معروفي له دون منكري

وقال آخر:

الله يعلم انه ما سرني شيء
كطارقة الضيوف النزل

ما زلت بالترحيب حتى خلتني
ضيفا له والضيف رب المنزل

وقد سبق إلى هذا المعنى من قال:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا | نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وقال الآخر:

وإنا لنقري الضيف قبل نزوله   ونشبعه بالبشر من وجه ضاحك

وقال بعض الكرام:

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل رحله
ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى

ولكنما وجه الكريم خصيب

التفت إلى المعلم، فقال: ما أجمل هذه الحكمة، وما أجمل ما تفطن له هذا الشاعر:

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى

ولكنما وجه الكريم خصيب

قلت: أعجبك البيت.

قال: أعجبني معناه، وفي القرآن الكريم إشارة إلى كل هذا.

قلت: ما هي؟

قال: قوله تعالى في خبر إبراهيم عليه السلام عندما جاءه أضيافه من الملائكة:﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود:٧١)، فضحكها في هذا المحل يدل على مدى البشر الذي لاقوا به أضيافهم.

ثم التفت إلى الأفق البعيد وصاح من أعماقه هامسا، أو همس من أعماقه صائحا:(ليت البخلاء إذا خافوا على خزائنهم من الكرم أن لا يبخلوا بالبشر، فهو لا يكلفهم دينارا ولا درهما)

قلت: ولكنهم يخافون من جرأة الفقراء عليهم، فلذلك يعبسون في وجوههم كما تعبس خزائنهم، أو كي تعبس خزائنهم.

الظلم

قال لي المعلم: أتعلم الصفة الثالثة التي ترفع أملك عن الخلق لتوجهه إلى الله؟

قلت: إنها الظلم، لقد ذكرت لي ذلك، ولكنها صفة الجبابرة، وقل من أراه يتصف بها.

قال: ومن قال ذلك؟ ألم يقل الله تعالى يصف البشر جميعا:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾(الأحزاب:٧٢)

ثم التفت إلي، وقال: أتدري ما الظلم الذي وصف به البشر في هذه الآية؟

قلت: هو ما قاله المفسرون من أنه وضع الأشياء في غير مواضعها.

قال: كيف ذلك؟

قلت: كوضع القسوة بدل الرحمة، والإساءة بدل الإحسان، والجفاء بدل اللطف، والعبوس بدل الابتسامة.

قال: فكيف يعامل أغنياء قومك فقراءهم؟

قلت: هناك من يكرمهم، وهناك من يقهرهم.

ظلم الظلمة:

قال: ومن يقهرهم، كيف يقهرهم؟

قلت: بحرمانهم من حقهم.

قال: وبأخذ حقهم، فلولا قهر الأغنياء وجشعهم ما وقع الفقراء في مستنقعات الفقر؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: لو علم الأغنياء أن هذا الرزق الذي خلقه الله خلقه للجميع، وعلموا أنهم فرد من ذلك الجميع أو أفراد من ذلك الجميع لم يستأثروا بنعم الله دون خلق الله.

ثم التفت إلي، وقال: أرأيت لو أن شخصا دعاك إلى وليمة، ودعا لها جمعا من الناس، وكانت لك ملاعق كثيرة تستطيع أن تنهب بها أكبر قدر من الطعام، أكنت تحضر معك تلك الملاعق لتأكل بيديك جميعا، فإن لم تكف يداك للاستيلاء على ذلك الطعام، ملأت من الأواني ما يدع المدعوين لشر المسغبة.

قلت: لا يمكن هذا، ولا أظن عاقلا يفعل هذا.

قال: ولكنكم تفعلونه، وتصرون على فعله، بل وتبررونه.

قلت: كيف ذلك، فأنا لم أر من يفعل هذا؟

قال: ما دور الملعقة في الطعام؟

قلت: هي وسيلة الطعام، بها نوصل الطعام إلى أفواهنا؟

قال: وما التجارة والصناعة والفلاحة؟

قلت: هي وسيلة الرزق، فبدونها لا يحضر الطعام، كما أنه بدون الملاعق لا يصل إلى الأفواه.

قال: فما الفرق بين استئثار الأغنياء بوسائل الكسب، واستئثارهم بالملاعق؟

قلت: فرق كبير جدا، فالملاعق يمكن أن يستعملها الغني والفقير والصبي والشيخ، بينما وسائل الكسب لا يمكن أن يستعملها غير من له قدرات كبيرة في الإدارة والتسيير، بالإضافة إلى الصبر والمجاهدة.

قال: هذا صحح، ولهذا خلق الله الأغنياء والفقراء، ولكن هل يصح للغني الذي مكنه الله من هذه الوسائل أن يستأثر بمنافعها بدعوى أنه هو المجتهد، وهم الكسالى، أو أنه هو الذكي وغيره بلداء.

قلت: لا، وإلا صار كقارون لما قال:﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: من الآية٧٨)

قال: فعد إلى الثروات التي ينعم بها قومك، وقل لي لو أن خيرات تلك الثروات وصلت الفقراء، من دون أن نحرم الأغنياء ما يملكون هل يبقى فقير واحد؟

قلت: لا، فالثروة التي ينعم بها أفراد محدودون في العالم يمكنها تغطية حاجيات الملايين من البشر إن لم نقل ملاييرهم.

قال: فالأغنياء إذن لم يكتفوا بحرمان الفقراء، بل استولوا على طعامهم الذي أعد لهم في دار الضيافة الإلهية.

ثم التفت إلي وقال: ما نسبة هذا النوع من الأغنياء من مجموعهم؟

قلت: هي نسبة عالية جدا.

قال: ولا بد إن تكون عالية، ولو لم تكن عالية لما ظهر في الأرض فقير واحد.

قلت: ولكنهم يبررون ذلك تبريرات مختلفة بعضها يستند لأحكام شرعية.

قال: هي تبريرات لا تختلف في كثير أو قليل عن تبريرات سلفهم الأول الذين قال الله فيهم:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ

اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(يّـــس:٤٧)

قلت: هناك تبريرات شرعية.

قال: ناتجة عن سوء الفهم، وسنناقشها عند رحلتنا لكنز الفضل.

ظلم الكرماء:

ثم التفت إلي، وقال: ومن يكرمهم، كيف يكرمهم؟

قلت: يختلفون، منهم من يكرمهم لوجه الله، كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾(الانسان:٩)، أو الذين قال الله فيهم:﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر:٩)

ومنهم من يكرمهم لغير وجهه يبتغي بذلك قصائد تمدحه، أو ثناء ينشر عليه.

قال: فتلك الآيات التي ذكرتها فيمن نزلت؟

قلت: في الجيل الأول الفريد من هذه الأمة.

قال: وما نسبة تكرر هذه الثلة؟

قلت: أما المقربون، فهم ثلة قليلة، كما قال تعالى:﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾(الواقعة:١٤)، وأما غيرهم، فكثير بحمد الله.

قال: فما نسبتهم في كل واقع؟

قلت: قليلة.

قال: أنتم تتعاملون بمنطق النسب، فتتفاءلون للنسب العالية، وتتشاءمون من النسب الضعيفة، فهل هذه النسبة تستدعي التفاؤل أم التشاؤم؟

قلت: التشاؤم، فنسبة هؤلاء لا تكاد تذكر، بل لو كان في كل ألف من الأمة رجل من أمثال هؤلاء لارتفعت الأمة إلى آفاق عالية من الكمال.

قال: كيف؟

قلت: لو كان في كل ألف منا واحد من أولئك السابقين، لصار في كل مليون ألفا، وفي كل مليار مليونا، ونحن الآن نتجاوز المليار، ولا أظن أن فينا مليونا من أولئك.

قال: فنلفرض صحة هذه النسبة التي ذكرتها، فكم فيها من الأغنياء الذين يسمح لهم غناهم بالكرم الأصيل العالي؟

قلت: نسبة قليلة هي الأخرى، لا تكاد تذكر.

قال: فدعنا من هؤلاء إذن، فلا يمكن أن تتعلق القلوب بمثل هذه النسب الضعيفة.. فأخبرني، كيف يكرم كرماؤكم؟

قلت: يعطون المحتاجين؟

قال: وهل يبحثون عن المحتاجين فيعطوهم، أم يمدون أيديهم لكل سائل؟

قلت: في العادة يمدون أيديهم لمن يسألهم.

قال: ولو كان من يسألهم لا يستحق العطاء.

قلت: يقولون: المهم أن أجرنا قد وصل بغض النظر عمن نعطيه، ألم يقل ﷺ في الحديث:(قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعتها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على سارق لأتصدقن بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون تصدق على غني، فقال: اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غني، فأتى فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها، وأما الغني فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله)[1]

وربما يتسدلون بما روي عن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس ﷺ، قال: كان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها فقَالَ: واللَّه ما إياك أردت! فخاصمته إِلَى رَسُول اللّهِ ﷺ فقال:(لك ما نويت يا يزيد ولك ما أخذت يا معن)[2]

قال: أنت تسيئون فهم أحاديث المصطفى ﷺ.

قلت: كيف نسيء فهمها، وظاهرها صريح؟

قال: أما الرجل الأول، فقد بحث جهده عن الفقير الذي يستحق الزكاة، ولكنه أخطأ في كل ذلك، فبعث الله له من يسليه.

قلت: كيف؟

قال: لو كان مقصده التصدق بغض النظر عمن تصدق عليه، لاكتفى بصدقته الأولى، وقال ــ كما تقولون ــ:(المهم أني نويت)

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) البخاري.

قلت: وحديث معن؟

قال: وضع أبوه صدقته في المسجد لينالها المستحق، فجاء ابنه وأخذها لا بسبب كونه ابنا له، وإنما لكونه من المستحقين، فلذلك أخبر ﷺ بقبول صدقة يزيد، وحل ما أخذه معن.

ثم التفت إلي، وقال: لو أن هؤلاء فقهوا حديث النبي ﷺ لأنزلوا كل حديث منهما محلا خاصا، فالحديث الأول يشير إلى ضرورة البحث عن المستحقين، لتحقيق مقاصد الشرع من النفقات، ويتجاوز عن المخطئ في حال خطئه كتجاوزه عن أي اجتهاد مخطئ، والحديث الثاني يشير إلى أن الذي لا يستطيع أن يبحث يضع نفقته في الموضع الذي يبلغها على أتم وجه.

قلت: ولهذا أرشد الله إلى المستحقين للزكاة بقوله:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٧٣)

قال: دعنا من هذا، فلهذا محله الخاص، ولنعد للظلم الذي يقع فيه الكرماء.

قلت: لقد تحدثنا عن الظلم الذي يجعل الكرم موضوعا في غير موضعه، وبالتالي لا يحقق الغرض المقصود منه.

قال: وهناك ظلم أشنع منه.

قلت: أشنع منه.. ما هو؟

قال: أرأيت لو زرت طبيبا ليعالج جرحا طفيفا أصابك، فأخذ هذا الجراح أدواته فداوى جرحك..

بادرته، قائلا: أشكره جزيل الشكر، وأعطيه جزاءه على خدمته.

قال: لكنه لم يطلب جزاء ماديا على ذلك، بل جعل جزاءه أن يمسك سكينه ويضع في قلبك جرحا بدل الجرح الذي في يدك.

قلت: أقاتله إن هم بذلك، فإني أرضى أن تجرح يداي جميعا، بل جميع أطرافي، ولا أرضى أن يجرح قلبي، فهو المحرك الذي يضخ الحياة لأعضائي وأجهزتي.

قال: وهكذا يفعل المتكرم الذي يضع بعض فضلاته في يد هؤلاء المساكين، ثم يمسك سكينه، ويقطع قلوبهم إربا إربا.

قلت: فهمت قصدك، أنت تريد المن والأذى الذي يتعامل به المكرمون مع المساكين.

قال: نعم، فإن المن أخطر من الفقر، فالمن يصيب الروح والقلب والحقيقة الإنسانية، بينما الفقر لا يصيب إلا بعض أجزائك الظاهرة.

قلت: ذلك صحيح، ولعل خير من عبر عن مشاعرالفقراء المتألمين من ثقل المن من تكفل بالتعبير عن المشاعر الإنسانية: الشعراء، فلو أذنت لي يا معلم في رواية بعض الشعر في هذا.

قال: أعلم غرامك بالشعر، فارو منه هنا ماشئت على أن لا تقع في الأودية التي يقعون فيها.

قلت: يروى عن علي بن أبي طالب ﷺ قوله:

لنَقْــــــلُ الصَّـــــخْرِ مـــــن قُلـــــلِ الجبــــالِ

أَحَـــــبُّ إِليَّ مـــــن مِـــــنَنِ الرجــــالِ

يقـــــولُ النــــــاسُ لي في الكَسْـــــبِ عــــار

فقْلــــــتُ العــــــارُ في ذُلَّ الســـــؤالِ

بلـــــوتُ النـــــاسَ قرنـــــاً بعـــــد قـــــرنٍ

ولم أرَ مثـــــلِ مختـــــالٍ بمـــــالِ

وذقْـــــتُ مـــــرارةَ الأشـــــياءِ طُـــــراً

فمـــــا طعـــــمٌ أَمَـــــرُّ مـــــن الســـــؤالِ

ولم أرَ في الخُطـــــوبِ أَشَـــــدَّ هـــــولاً

وأصـــــعبُ مـــــن مقـــــالاتِ الرجـــــالِ

ويروى عن الشافعي ﷺ قوله:

لا تحملـــــنَّ لمـــــنْ يمـــــنُّ | مـــــن الأنـــــامِ عليـــــكَ مِنَّـــــهْ

واختر لنفسِك حَظَّها   واصبرْ فإِن الصبرَجُنَّهْ
مِنَنُ الرجالِ على القلو   بِ أشدُّ من وَقْعِ ألسنهْ

وقال علي بن الجهم:

للبسُ ثوبين بالِيَيْنِ   وطيٌّ يومٍ وليلتين
أيسرُ من مِنَّةٍ لقومٍ   أغضُ منها جُفُونَ عيني

وقال الشاعر معبرا عن ثقل المن:

صَحِبْتُ الدهرَ في سهلٍ وحزنٍ   وجرَّبتُ الأمورَ وجربتني
فلم أرَ مذ عرفتُ محلَّ نفسي   بلوغَ غنىً يساوي حملَ منِّ

وقال الآخر:

لأن أزجي عند العُرْيِ بالخَلَقِ   وأجتزي من كثير المزاد بالعُلُقِ
خيرٌ وأكرمُ لي من أن أرى مِنناً   معقودةً للئامِ الناسِ في عُنُقي
إِني وإِن قصُرتُ عن هِمتي جدتي   وكان مالي لا يقْوى على خُلُقي

لتاركُ كلَّ أمرٍ كان يلزمني

عاراً ويشرعني في المَنْهَلِ الرَّنْقِ

والشعراء ينقلبون بالهجاء على من من بالإحسان إليهم انتقاما منهم، فهذا شاعر يخاطب واصله بقوله:

أَفْسَدْتَ بالمن ما أسديْتَ من حَسَنٍ

ليس الكريمُ إِذا أعطى يمنانِ

وقال الآخر:

يا مُبْطلاً فعلَ الجميلِ بِمِنَّةٍ

أسخطْتَني من بعد ما أرضَيْتَني

يا ليتَ كَفَّكَ لم تسامحْني به

أو ليتني جانياتُ ما أوليتني

وقال الآخر:

نزهْ جميلَكَ عن قبيح المنِّ إِن

حاولْتَ في رتبِ الكرامِ سُمُوّا

كم حوَّلَ المنُّ الجميلُ إِهانةً

وقال..

قاطعني، وقال: رويدك يا هذا.. أخاف أن تسقط في مهاوي وديان الشعراء، فحسبك ما رويت.. فلنعد لكلام الله ففيه الشفاء والكفاية.

قلت: لقد اشتد القرآن الكريم في النهي عن كل ما يؤذي الفقير.

قال: لأن الله تعالى الرحيم يعلم دخيلة الفقير، فهو لا يشكو من الجوع بقدر ما يشكو من الحرمان النفسي والاجتماعي.

قلت: ولهذا اعتبر الله تعالى القول المعروف والكلمة الطيبة التي تقال للفقير تطمينا له واحتراما لشخصه أفضل من الصدقة التي يتبعها أذى، قال تعالى:﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٣)

قال: ولهذا نهى الله تعالى عن المن والأذى، واعتبره محبطا للصدقات، فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٦٤)

قلت: لقد شبه الله تعالى صدقاتهم بالتراب الذي يكون على صخر أملس، يراه الناس ترابا غنيا، ولكن مطر الأذى إذا نزل عليه تركه أملس يابساً، لا شيء عليه من ذلك التراب.. وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند اللّه، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب.

قال: وشبه الله مآل أعمالهم، فقال:﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾(البقرة:٢٦٦)

قلت: هذا مثل ضربه القرآن الكريم لمن يحسن العمل أولاً، ثم ينعكس سيره فيبدل الحسنات بالسيئات، فيبطل بعمله الثاني ما أسلفه من العمل الصالح، فيخونه سلوكه هذا أحوج ما يكون إليه.

وقد أخبر ﷺ عن العقوبة الخطيرة التي تنتظر هؤلاء، فقال:(ثلاثة لا يكلمهم اللّه يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المنّان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته

بالحلف الكاذب)[1]

وأخبر ﷺ بما هو أعظم من ذلك، فقال:(لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن خمر، ولا مكذب بقدر)[2]

قال: وعلى عكس هذا أثنى الله على الصالحين الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله من غير أن يتبعوا صدقاقمم بأي أذى، قال تعالى:﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(البقرة:٢٦٥)

قلت: هذا مثل ضربه الله للمؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات اللّه عنهم في ذلك ــ وهم متحققون ومتثبتون أن اللّه سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ــ ببستان بربوة، أصابها مطر شديد، فآتت ثمرتها ــ بالنسبة إلى غيرها من الجنان ــ ضعفين.

بل إن هذه الجنة لا تمحل أبداً، لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأياً ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله اللّه ويكثره وينميِّه.

قال: أتدري ما الذي يلحقك بهؤلاء؟

قلت: دلني ــ دلك الله على كل خير ــ فما أعظم أن تنبت جنتي أضعاف ما أغرس فيها.

قال: الطريق لذلك هو ما ذكره القرآن الكريم من تخلصك من الظلم عند الإنفاق.

قلت: وما مجامعه؟

قال: المن والأذى.

قلت: فكيف أتخلص من المن؟

قال: هو ذا الغزالي أمامك.. فهو طبيب من أطباء القلوب، ينبئك عن طريق ذلك.

فجأة ظهر الغزالي بسيماه التي أعرفه بها من خلال مطالعاتي لكتبه، وهو يقول: المن له أصل ومغرس، وهو من أحوال القلب وصفاته، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح[3].

قلت: يا غزالي، قد عهدنا المن ألفاظا تقال، أو تصرفات تفعل، فما منبعها القلبي؟

قال الغزالي: أن يرى نفسه محسنا إليه، ومنعما عليه.

قلت: ولكن هذا هو الواقع.

---

(١) مسلم.

(٢) ابن مردويه وأخرجه أحمد وابن ماجة.

(٣) الإحياء: ٢١٦/١.

قال: لا.. حقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله تعالى منه الذي هو طهرته ونجاته من النار، وأنه لو لم يقبله لبقي مرتهنا به، فحقه أن يتقلد منه الفقير إذ جعل كفه نائبا عن الله تعالى في قبض حق الله تعالى.

قلت: لعلك تشير إلى قوله ﷺ:(إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل)[1].. فكيف يتحقق بهذا؟

قال: باعتقاده أنه مسلم إلى الله تعالى حقه، والفقير آخذ من الله تعالى رزقه بعد صيرورته إلى الله تعالى.

قلت: فهلا ضربت لي على هذا مثالا؟

قال: لو كان عليه دين لإنسان فأحاله إلى خادمه الذي هو متكفل برزقه لكان اعتقاد مؤدى الدين كون القابض تحت منته سفها وجهلا، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه، أما هو فإنما يقضي الذي لزمه بشراء ما أحبه، فهو ساع في حق نفسه، فلم يمن به على غيره.

ثم سكت هنيهة، وكأنه يستجمع أنفاسه، ثم قال: بل لو عرف حقيقة الأمر (لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه، إما ببذل ماله إظهارا لحب الله تعالى، أو تطهيرا لنفسه عن رذيلة البخل، أو شكرا على نعمة المال طلبا للمزيد)[2]

قلت: فرؤيته نفسه في درجة المحسن أمر غامض، فهل من علامة يمتحن بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا؟

قال: له علامة دقيقة واضحة، وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالأ عدوا له عليه مثلا، هل كان يزيد في استنكاره، واستبعاده له على استنكاره قبل التصدق، فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة، لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقع قبل ذلك.

قلت: هذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه، فما دواؤه؟

قال: له له دواءان: دواء باطن، ودواء ظاهر.

قلت: وما هما؟

قال: أما الباطن، فالمعرفة بالحقائق التي تدله على أن الفقير هو المحسن إليه في تطهيره بالقبول.

---

(١) الدار قطني في الأفراد من حديث ابن عباس وقال: غريب من حديث عكرمة عنه ورواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٢) الإحياء: ٢١٦/١.

وأما الظاهر، فالأعمال التي يتعاطاها متقلد المنة، فإن الأفعال التي تصدر عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق.

قلت: فهلا ضربت لي على هذا الدواء الظاهر أمثلة.

قال: كان بعضهم يضع الصدقة بين يدي الفقير، ويتمثل قائما بين يديه حتى يسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائلين، وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده.

وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه، وتكون يد الفقير هي العليا.

وكانت عائشة وأم سلمة ــ رضي الله عنهما ــ إذا أرسلتا معروفا إلى فقير قالتا للرسول:(احفظ ما يدعو به)، ثم كانتا تردان عليه مثل قوله وتقولان:(هذا بذاك) حتى تخلص لنا صدقتنا. فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة، وكانوا يقابلون الدعاء بمثله.

وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم، ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة.

قلت: أفبهذا ينتفي المن؟

قال: أجل، فمن اعتقد أنه لا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه لن يجد في نفسه مزية على الفقير يمن بها عليه.. فإن المن سببه الجهل بأن ير نفسه محسنا فيتفرع منه على ظاهره ما ذكر في معنى المن وهو التحدث به، وإظهاره، وطلب المكافأة منه بالشكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم في المجالس والمتابعة في الأمور فهذه كلها ثمرات المنة.

قلت: فما الأذى؟

قال الغزالي: ظاهره التوبيخ والتعيير وتخشين الكلام وتقطيب الوجه وهتك الستر بالإظهار وفنون الاستخفاف.

قلت: وما باطنه الذي هو منبعه؟

قال: أمران.

قلت: ما هما؟

قال: أحدهما كراهيته لرفع اليد عن المال، وشدة ذلك على نفسه فإن ذلك يضيق الخلق لا محالة.

والثاني رؤيته أنه خير من الفقير، وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه.

قلت: فما علاج كل العلتين؟

قال: أما العلة الأولى، وهي كراهية تسليم المال، فعلاجه أن يعرف أن ذلك حمق، لأن من كره بذل درهم في مقابلة ما يساوي ألفا فهو شديد الحمق، ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب في الدار الآخرة، وذلك أشرف مما بذله.

أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل، أو شكرا لطلب المزيد، وكيفما فرض، فالكراهة لا وجه لها.

قلت: وما علاج الثانية؟

قال: بأن يعرف بأن رؤيته نفسه خير من الفقير جهل، لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى، وعرف خطر الأغنياء لما استحقر الفقير، بل تبرك به وتمنى درجته، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام.

ثم كيف يستحقر الفقير، وقد جعله الله تعالى متجرا له، إذ يكتسب المال بجهدك، ويستكثر منه ويجتهد في حفظه بمقدار الحاجة، وقد ألزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته، ويكف عنه الفاضل الذي يضره لو سلم إليه[1].

(١) الإحياء: ٢١٦/١.

العجز

قال لي المعلم: أتعلم الصفة الرابعة التي ترفع أملك عن الخلق لتوجهه إلى الله؟

قلت: إنما العجز، لقد ذكرت لي ذلك، ولكنها صفة المستضعفين، وهي بالفقراء ألصق، فهم إن لم يقعد بهم عجز قواهم الصحي قعد بهم عجز جيوبهم، فعيونهم بصيرة وجيوبهم قصيرة.

قال: بل الخلق كلهم عاجزون، لا ينفعون ولا يضرون ألم تسمع قوله ﷺ لابن عباس ﵄:(يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[1]

قلت: لقد قرأت الحديث وحفظته.

قال: ليس الشأن أن تحفظه، ولكن الشأن أن تعيشه.

قلت: فكيف أعيشه؟

قال: تقرر معانيه في قلبك، لتنتقل من كونها علما إلى كونها حقيقة، ومن كونها حقيقة إلى كونها معرفة.

قلت: فما الفرق بين كونها علما وكونها معرفة؟

قال: كالفرق بين رؤيتك للنار ولمسك لها.

قلت: فرق كبير.. فأنا أتمتع برؤية النار، ولكني لا أطيق لمسها.

قال: فكذلك أنت تفهم عجز الخلائق، ولكن لا تطيق الاستغناء عنهم، فلذلك تمد يدك، بل يداك إليهم كل حين.

قلت: فكيف أعلم عجز الخلائق؟

قال: بأن تقارن قواهم بقوى غيرهم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: كيف تعلم عجز المصارع؟

قلت: إذا صرعه من هو أقوى منه.

قال: أفيمكن للذي صرع أمامك أن يتيه عليك بقوته؟

---

(١) الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

قلت: لا.. بل إنه سيستحي من إظهار قوته، لأنها ستنطق بعجزه.

قال: فقارن قوة الخلق التي يتيهون بها، ويتصورون أن لهم القدرة على مصارعة الكون بها بما تراه من مظاهر القوة في الكون.

قلت: إن عقلي ليتيه عندما يحاول إجراء مثل هذه المقارنة، إن الكون أعرض بكثير، والإنسان أضعف بكثير.. إنه يسحق سحقا.

قال: ومع ذلك ظهر فيكم من يدعي القوة التي يستعلي بها على الله.

قلت: أجل.. وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من ذلك، فذكر نموذج عاد، فقال:﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(فصلت:١٥)

قال: وهل هناك خلفاء لعاد؟

قلت: هناك ثمود، وفرعون، والقرى الكثيرة التي أشار إليها القرآن الكريم من غير أن يسميها.

قال: فما كان جزاؤها؟

قلت: هلكوا، ولم تنفعهم قواهم التي تاهوا بها على الله، كما قال تعالى:﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(التوبة:٦٩)

قال: ولكنكم لا تزالون تسيرون على خطاهم.

قلت: ذلك صحيح، فلا زلنا نتيه بالقوة، ونخاف من الأقوياء، بل نسمي الشعوب التي تضخمت عضلاتها بما تملكه من أسلحة بـــ (القوى العظمى)

قال: وأنتم ماذا تسمون؟

قلت: الشعوب المستضعفة.

قال: وتمدون أيدكم إليها.

قلت: نمد أيدينا إليهم بثرواتنا، ويمدون أيديهم إلينا بما يشبع بطوننا.

قال: فاخرجوا من ضعفكم وعجزكم.

قلت: لا نملك أسلحة نووية ولا جرثومية ولا مصانع جبارة كمصانعهم.

قال: تخرجون من ذلك بالاعتماد على قوة الله، وباعتقاد عجزهم وفاقتهم وحاجتهم وضعفهم.. ألا تسمع القرآن الكريم؟

قلت: بلى.. أسمعه من مقرئين يحركون الجبال بترانيمهم.

قال: اسمعه ممن يحرك روحك، لا ممن يحرك الجبال.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد ضرب الله لكم أمثالا عن الذين يستعبدونكم من دون الله.

قلت: ما هي؟

قال: الذباب والعنكبوت.

ضحكت وقلت: أهذه القوى العظمى ذباب وعناكب؟.. أنت لا تعرفها.

قال: اسمع قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(الحج:٧٣)، وقوله تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت:٤١)

قلت: قرأت كلا الآيتين، ويقرؤهما جميع الناس، فما الذي يمكن أن أسمعه منهما؟

الذباب:

قال: أما الآية الأولى، فالله تعالى يتحدى فيها قواكم العظمى أن تخلق ذبابة واحدة، بل يتحداهم فيما هو دون ذلك أن يستنقذوا الطعام الذي يسلبهم الذباب إياه.

التفت إلي فرأى في بعض الاستغراب الذي يشبه الاستبعاد الباطن الذي لا يمكن التعبير عنه خشية الوقوع في الضلال، فقد حدثتني نفسي، أو حدثني الشيطان الموسوس، فقال: إن الإنسان صنع أجهزة قيّمة اكثر أهمية من خلق الذباب كالسفن الفضائية والعقول الإلكترونية المعقدة وأمثال ذلك.

قال لي المعلم: اسمع للشيرازي، وهو يجيبك عن هذه الشبهة.

التفت، فرأيت ناصرا الشيرازي يقول من غير أن أسأله: ليس للسفينة الفضائية أو العقل الالكتروني أي نمو أو رشد ويستحيل أن ينجب مثيله، ولا يمكن من داخل نفسه ترميم ما يطرأ عليه من الأضرار، فهو لا يُصلح قطعاته التالفة أبداً، ويحتاج إلى الهداية والقيادة من خارجه.

والحال أن للذبابة من هذه الجهات أفضلية واضحة على تلك السفينة الفضائية أو جهاز الكومبيوتر. ولكن كثرة الذباب أدى إلى تصوره من قبلنا كموجود حقير الأهمية، ولو كانت

هنالك ذبابة واحدة فقط في العا لم لأتضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام.

قلت، وقد حصلت على بعض الجرأة: ولكن العلم في تقدمه المطرد لا أظن أنه سيعجز عن الوصول لسر الحياة.

قال الشيرازي: على فرض أن مشكلة صناعة الخلية الحية سوف تُحل، ولكن تبقى هنالك مشكلة الكائنات المعقدة متعددة الخلايا، كبنية الذبابة أو الجرادة أو الطائر أو الأسماك الكبيرة وأخيراً الأنسان. فمن الذي يستطيع أن يوجد مثل ما ذكرنا عن طريق الصناعة؟ يقول أحد العلماء وهو (البروفيسور هانز): سوف يصل الانسان بعد ألف سنة إلى سر الحياة، ولكن هذا لا يعني أنه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية)

.. ولنفترض أننا ضمنّا مثل هذه الأهداف بمعونة الهبة الألهية المسماة بالعقل، وتطور العلوم، وتقليد قوانين الطبيعة. لكن هذا لن يكون له أدنى تأثير على ما نحن بصدد الوصول إليه، لأنه إن كان إيجاد خلية حية واحدة باستخدام كل هذه النماذج الموجودة والمواد الطبيعية الجاهزة يحتاج إلى كل هذا العلم والمعرفة، فما مقدار العلم والمعرفة اللازمة لخلق أنواع متعددة من الموجودات الحية بلا نموذج أو مواد سابقة؟ هل يمكن إعتبار الطبيعة العمياء الصماء الفاقدة للشعور عاملا في ظهور هذه الموجودات؟

وَألفت إنتباهك إلى عبارة ظريفة عن (كرسي مورسن) رئيس اكاديمية العلوم بنيويورك في كتاب (سر خلق الانسان)، يقول:(قال هيغل: أعطوني الهواء والماء والمواد الكيمياوية والزمان وسوف أخلق بها إنساناً. لكن هيغل نسي أنه بحاجة إلى نطفة وجرثومة الحياة من أجل هذا المشروع ايضاً. إنه بعد أن يجمع الذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضها ضمن نظام وترتيب خاص بخلقة الأنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القالب! وعلى فرض أنه وُفّق للقيام بكل هذه الأُمور الخارقة للعادة، هنالك إحتمال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لظهور حيوان لم تشاهد عين الدهور شيئاً أغرب منه. والأعجب هو أن هيغل لن يقول بعد الموفقية في هذا الأمر أن هذا الموجود العجيب ظهر بحسب التصادف والاتفاق، بل يقول: (إن ذكائي ونبوغي هو الذي خلقه)[1]

قلت للمعلم: ولكن قومي عندما يبصرون هذه المخترعات العجيبة التي تظهر كل يوم، بل كل ساعة تجعلهم يحتقرون خلق الحياة مقارنة بعجائب الجماد.

قال: فاسمع إذن لما يقوله رجل من قومك هو (جورج والد) أستاذ علم الأحياء في جامعة

---

(١) سر الخلق، ص ١٣٩ إلى ١٤١.

(هارفارد)، فقد قال كلاما مهما عن شروط ظهور الحياة، وصعوبتها مقارنة بالصناعات المادية.

التفت، فإذا به أمامي يقول من غير أن أسأله: من أجل تشكيل البروتين يجب التحام مئات أو آلاف الجزئيات (أحماض أمينية) بنسب مختلفة وبأشكال متنوعة على شكل سلسلة، وإن عدد أنواع البروتينات لا محدود حقاً، لأنه لايمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحد من البروتينات، إذن فجزيئات المواد العضوية تشكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يبعث على الحيرة، ومن أجل صنع موجود حي واحد لا نحتاج إلى مقدار كاف ونسب معينة من انواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بل يجب ترتيبها ترتيباً صحيحاً أيضاً، أي ان بناءها له من الأهمية ما لتركيبها الكيمياوي من الأهمية.

ثم.. إن بناء البروتينات معقد حقاً، وإن اعقد الأجهزة التي صنعها الانسان (كالعقل الألكتروني) هي بحكم الألعوبة مقابل أبسط الكائنات الحية! يكفي الانسان أن يفكر في هذه العظمة لتتضح له إستحالة الخلقة الذاتية أو التصادفية.

العناكب:

قلت: فما إشارة الآية الثانية؟

قال: إن البيوت التي تعتصمون بها أو تخافون منها لا تعدوا أن تكون خيوط بيت عنكبوت، فهل رأيت أوهن منها؟

قلت: لا.. إن بيتها الذي تتفنن في بنائه سرعان ما يتهدم بداخل أو بخارج.. وهي لغبائها لا تختار إلا المداخل أو المخارج.

قال: وأنتم لا تختلفون عنها، فإن قواكم التي منحكم الله لا تضعونها إلا في المواطن التي تصيبكم بالهلكة.

قلت: كيف؟

قال: أنتم لا تستعملوها لترحموا المستضعفين، بل لتقتلوهم وتقضوا عليهم، وتتفننون في ذلك أكثر من تفنن العناكب في صناعة بيوتها.

قلت: ولكن خيوط العناكب واهية.

قال: وخيوطكم أوهى، ولكن الزمن الذي تتوهمونه هو الذي يحول بينكم وبين رؤية خيوطكم وهي تتقطع خيطا خيطا.

قلت: فكيف أتخلص من خيوط العنكبوت التي أرتبط بها، ويرتبط الضعفاء بها؟

قال: بأن تعلم بأنها خيوط عنكبوت.

قلت: كيف؟

قال: أرأيت لو وقعت في البحر، وحام بك الموت ليلتهمك، فرأيت حبلا متينا مرتبطا بسفينة ضخمة فيها كل وسائل الإنقاذ، أكنت تتعلق بذلك الحبل الذي يوصلك إلى سفينة النجاة، أم تتعلق بخيوط عنكبوت تراها من بعيد كما يرى الظمآن السراب؟

قلت: أحمق أنا إن التجأت لخيوط العنكبوت، وتركت سفينة النجاة.

قال: وحمقى أنتم عندما تتعلقون بالأيدي الفقيرة العاجزة وتتركون يد الله الممدودة إليكم.

قلت: نعم.. لقد أدركت مدى ما نقع فيه من جهل عندما نرى الخلق ولا نرى الله، ونرى الخيوط الواهية التي يمدنا بها الخلق أو يغروننا بها، وننسى حبال الله الممدودة إلينا.

التفت لأسأل المعلم، أو ليسألني، فلم أره.. لست أدري هل انصرف عني أم انصرفت عنه، أم اكتفى باقتناعي بما أراد قوله.

بعد ذهابه ترددت في أذني آيات من القرآن الكريم، وهي تقرر عجز الخلائق لتربطني بقوة الله.

لقد سمعت الله، وهو يقول متحديا كل من يستجير بغير الله أن يدعوه إذا حلت به المصائب:﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾(الاسراء:٥٦)

ويبين لهم حقيقة من يتوجهون إليهم بالدعاء والضراعة والحاجة فهم بشر مثلهم يملكون قصورهم وضعفهم وحاجتهم، وبناؤهم كبنائهم معرض في أي لحظة للهدم قال ﷻ:﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (لأعراف:١٩٤)

ويبين لهم بعض عيوب هذه الآلهة المزعومة، فهي آلهة لا تملك أرجلا تمشي بها ولا آذانا تسمع بها، ولا أعينا تبصر بها، ولا أيد تبطش بها، فهي أضعف من الذين يتوجهون لها بالعبادة، قال ﷻ:﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا (لأعراف:١٩٥)

ويبين القرآن الكريم أن هذه الآلهة أعجز من أن تنصر أنفسها فكيف تنصر غيرها قال ﷻ بصيغة الخطاب المتوجهة لكل نفس:﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (لأعراف:١٩٧)

وفي آية أخرى يتوجه بنفس الخطاب بعد أن يقدم له بذكر أفعال الله، وملكه، ليبين لهم الفقر الشديد للذين يلتجئون إليهم من دون الله، قال ﷻ:﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّىً ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾(فاطر:١٣)

ثم يأمرهم بمراجعة أنفسهم، ويضع لهم الفرضيات المحتملة للبحث فيها، ليعرفوا مدى قوة من يحتمون به، قال ﷻ:﴿ قل أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا(٤٠

ولذلك، فإن هذه الحصون المزعومة التي عبدت من دون الله أعجز من كشف الضر، أو منع الرحمة، قال ﷻ:﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ(٣٨

لأن القاضي الوحيد، والمقدر الوحيد، والضار الوحيد، والنافع الوحيد هو الله ﷻ، قال ﷻ:﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(٢٠)

والقرآن الكريم يخبر عن هذه الحقيقة بعد أن يجرب هؤلاء آلهتهم المزعومة التي التجأوا إليها من دون الله، قال ﷻ:﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا(٥٢، وقال ﷻ:﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ(٦٤

لأن ما يدعونه كان وهما نسجوه بأنفسهم، وأوحت لهم به خيالاتهم:﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٦٢

ونتيجة لهذا العجز الذي تقوم عليه هذه الحصون الوهمية يوجه الله تعالى الخطاب للنفس بمنطق المنفعة والمصلحة الذي جبلت عليه للتخيير بين اللجوء لحصن الله أو لحصون غيره، ويبين عاقبة ذلك اللجوء، يقول ﷻ:﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(يونس:١٠٦)

وخطورة الظلم هنا أنه ظلم للنفس، وما أشده، لأن النفس لا تؤجر عليه ولا تقتص ممن ظلمها إلا بمزيد العذاب، فالنفس هي التي تعاقب نفسها.

ولذلك يعتبر القرآن الكريم عاقبة هؤلاء نوعا من الضلال عن مصالح النفس، فالذي ابتعد عن الله ابتعد عن كل مصالحه قال ﷻ:﴿ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾(الحج:١٢)

ويخبر عن النتيجة التي يتوصل إليها هؤلاء بعد فوات الأوان، قال ﷻ:﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾

ويعطي صورة كاريكاتورية للذين يترددون بين آلهة مختلفة في الوقت الذي يتوحد فيه المؤمنون، فيعتبرهم تحت رحمة أعدائهم من الشياطين يضلونهم عن السبيل، فهم تائهون بين سبل مختلفة، والمؤمنون يدعونهم إلى السبيل ويخبرونهم أن الهدى هدى الله، ولكنهم في ضلالهم وتيههم لا يسمعون ولا يستفيدون، قال ﷻ:﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام: ٧١)

فالهدى الوحيد هو هدى الله كما أن الحصن الوحيد هو حصن الله، والسالم الوحيد في هذا الكون هو من أسلم كل كيانه لرب العالمين، ولهذا ورد بصيغة التأكيد والحصر ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾

ولهذا فإن كل من يلتجئ إلى غير الله يعذب به، وبحسب نوع التجائه يكون نوع عذابه وشدته، قال ﷻ:﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾(الشعراء:٢١٣)

بعد يقيني بهذا شعرت بجوهرة عظيمة تتترل علي، تنفي عن صدري بعض الظلمات.

٣ ـــ الأمل فيه

صعدت طابقا آخر في قصر الاستعفاف، ووقفت مع المعلم أمام الجوهرة الثالثة من جواهره، فسألت المرشد عنها، فقال: هذه جوهرة نفيسة اسمها (الأمل فيه) من حازها حيزت له الدنيا بحذافيرها، بل كل شي بحذافيره.

ابتسمت في نفسي من هذه الأسماء الغريبة، ثم التفت إلى المعلم ليشرح لي حقائقها.

نظر إلي المعلم، وقال: هذه الجوهرة النفيسة لم تكن لتصل إليها، لو لم تنل الجوهرتين السابقتين.

قلت: لم؟

قال: ألم تقرأ ما ورد في بعض الكتب الإلهية من أن الله تعالى يقول:(وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس، ولألبسنه ثوب المذلة عند الناس، ولأخيبنه من قربي ولأبعدنه من وصلي، ولأجعلنه متفكرا حيران يؤمل غيري في الشدائد، والشدائد بيدي، وأنا الحي القيوم، ويرجو غيري ويطرق بالفكر أبواب غيري، وبيدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني)

قلت: أنا لا أومن إلا بما في كتابه الخاتم وسنة نبيه الصحيحة، أما سائر الكتب، فقد عراها التحريف، ولا آمن كثيرا مما فيها.

قال: ألم تقرأ قوله ﷺ في الأثر الإلهي الصحيح:(قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[1]

قلت: بلى، قرأته كثيرا، وما كثر ما خفت منه، فما وجه الإشارة في هذا.

قال: الأمل هو مفتاح الطلب، والطلب هو عنوان الاستعانة، والاستعانة لا تكون إلا به، فلذلك من وضع أمله في الخلق وكله الله إليهم، فإذا رفع يده عنهم وجد الله أقرب إليه من نفسه.

قلت: نعم، فهمته، لكأني بك تذكرني بقول ابن عطاء الله:(كما لا يحب العمل المشترك، كذلك لا يحب القلب المشترك، العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه)

قال: بل أقصد ما ورد في القرآن الكريم، وفي أم الكتاب، السورة التي اختزنت الحقائق.

قلت: تقصد قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥)

---

(١) مسلم عن أبي هريرة.

قال: لا، بل أقصد السورة جميعا، فما قبلها مقدمات لما ذكرت، وما بعدها متممات لها، ألم تسمع قول علي ﷺ:(لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب)

قلت: بلى.. ولكن فهم ذلك يحتاج إلى أنواع من النظر والتأمل.

قال: بل يكفي لذلك قلب يفهم الحقائق، ويطيق تحمل الأنوار.

قلت: فاشرح لي يا معلم كيف أستنبط من هذه السورة هذه المعاني.

قال: هو ذا الإمام الخطيب المفتوح عليه في الإيمان والكلام يشرح لك ذلك.

التفت، فإذا الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير يتكلم بخشوع يخاطب الآفاق:.. إذا اتفق للإنسان هداية إلهية تهديه إلى سواء السبيل وقع في قلبه أن يتأمل في هذه الأسباب تأملا شافيا وافيا فيقول: هذا الأمير المستولي على هذا العالم استولى على الدنيا بفرط قوته وكمال حكمته أم لا؟

الأول باطل لأن ذلك الأمير ربما كان أكثر الناس عجزا وأقلهم عقلا، فعند هذا يظهر له أن تلك الإمارة والرياسة ما حصلت له بقوته وما هيئت له بسبب حكمته، وإنما حصلت تلك الإمارة والرياسة لأجل قسمة قسام وقضاء حكيم علام لا دافع لحكمه ولا مرد لقضائه.

ثم ينضم إلى هذا النوع من الاعتبار أنواع أخرى من الاعتبارات تعاضدها وتقويها فعند حصول هذه المكاشفة ينقطع قلبه عن الأسباب الظاهرة، وينتقل منها إلى الرجوع في كل المهمات والمطلوبات إلى مسبب الأسباب ومفتح الأبواب.

ثم إذا توالت هذه الاعتبارات وتواترت هذه المكاشفات صار الإنسان بحيث كلما وصل إليه نفع وخير، قال: هو النافع وكلما وصل إليه شر ومكروه قال هو الضار، وعند هذا لا يحمد أحدا على فعل إلا الله ولا يتوجه قلبه في طلب أمر من الأمور إلا إلى الله، فيصير الحمد كله لله والثناء كله لله، فعند هذا يقول العبد ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾

قلت: هذا قوله تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾(الفاتحة: من الآية٢)، فكيف يصل إلى ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة: من الآية٢)، وما يستقي منها؟

قال: اعلم أن الاستقراء المذكور يدل العبد على أن أحوال هذا العالم لا تنتظم إلا بتقدير الله، ثم يترقى من العالم الصغير إلى العالم الكبير، فيعلم أنه لا تنتظم حالة من أحوال العالم الأكبر إلا بتقدير الله، وذلك هو قوله: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة: من الآية٢)

قلت: و ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(الفاتحة:٣)

قال: ثم إن العبد يتأمل في أحوال العالم الأعلى فيشاهد أن أحوال العالمين منظومة على

الوصف الأتقن والترتيب الأقوم والكمال الأعلى والمنهج الأسنى فيرى الذرات ناطقة بالإقرار بكمال رحمته وفضله وإحسانه فعند ذلك يقول: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(الفاتحة:٣)

قلت: فــ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾(الفاتحة:٤)

قال: فعند هذا يظهر للعبد أن جميع مصالحة في الدنيا إنما تهيأت برحمة الله وفضله وإحسانه ثم يبقى العبد متعلق القلب بسبب أنه كيف يكون حاله بعد الموت فكأنه يقال: مالك يوم الدين ليس إلا الذي عرفته بأنه الرحمن الرحيم فحينئذ ينشرح صدر العبد وينفسح قلبه، ويعلم أن المتكفل بإصلاح مهماته في الدنيا والآخرة ليس إلا الله، وحينئذ ينقطع التفاته عما سوى الله، ولا يبقى متعلق القلب بغير الله.

قلت: فــ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(الفاتحة:٥)

قال: إن العبد حين كان متعلق القلب بالأمير والوزير كان مشغولا بخدمتهما، وبعد الفراغ من تلك الخدمة كان يستعين في تحصيل المهمات بهما، وكان يطلب الخير منهما، فعند زوال ذلك التعلق يعلم أنه لما كان مشتغلا بخدمة الأمير والوزير، فلأن يشتغل بخدمة المعبود كان أولى فعند هذا يقول ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، والمعنى إني كنت قبل هذا أستعين بغيرك، وأما الآن فلا أستعين بأحد سواك.

قلت: فــ ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة:٦)

قال: لما كان يطلب المال والجاه اللذين هما على شفا حفرة الانقراض والانقضاء من الأمير والوزير فلأن يطلب الهداية والمعرفة من رب السماء والأرض أولى فيقول: اهدنا الصراط المستقيم.

قلت: فقوله تعالى:﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة:٧)

قال: إن أهل الدنيا فريقان: أحدهما: الذين لا يعبدون أحدا إلا الله ولا يستعينون إلا بالله ولا يطلبون الأغراض والمقاصد إلا من الله والفرقة الثانية: الذين يخدمون الخلق ويستعينون بهم ويطلبون الخير منهم فلا جرم العبد يقول: إلهي اجعلني في زمرة الفرقة الأولى، وهم الذين أنعمت عليهم بهذه الأنوار الربانية والجلايا النورانية ولا تجعلني في زمرة الفرقة الثانية، وهم المغضوب عليهم والضالون، فإن متابعة هذه الفرقة لا تفيد إلا الخسار والهلاك.

ثم انصرف عني كما أتى لا أدري من أين جاء، ولا أين ذهب، فسألت المعلم: ما هي الحقائق الأربعة التي تنشر الأمل في قلبي في الله، فلا أرى سواه، ولا أعتمد على غيره؟

قال: وما أدراك أنها أربعة.

قلت: عهدي بك تجعل الأمور كلها أربعة.

ضحك، وقال: أنا لا أجعلها، بل هي كذلك، ألا ترى جدران بيتك الأربع؟

قلت: فاذكر لي جدران الأمل في الله الأربع.

قال: الغنى والكرم والقرب والإجابة.

قلت: فما وجه الحصر فيها؟

قال: لا يمكنك أن تأمل في فقير، فالفقير يطلب منك، ومن كان يطلب منك لا تطلب منه.

قلت: فالكرم؟

قال: قد يكون الغني بخيلا، لا يصيبك نواله، ولا تمتد إليه أعناق طمعك.

قلت: فالقرب؟

قال: قد يكون كريما، ولكنه بعيد عنك، تحبه وتعجب من سيرته، ولكن نواله يظل بعيدا بقدر بعده عنك.

قلت: فالإجابة.

قال: قد يكون كريما وغنيا وقريبا، ولكنه لا يلتفت إليك ولا يهتم بك، فمشاغله أكثر من أن تنحصر فيك.

قلت: فعلمني من الحكمة ما يقرر هذه الحقائق في نفسي.

قال: هذه الحكمة تتصل بالله، فالبس لها لباسها، وأحرم لها إحرامها.

قلت: وما لباسها؟

قال: الأدب، فمن لم يتأدب عند الباب، رد إلى سياسة الدواب.

قلت: وما إحرامها؟

قال: أن تحرم على قلبك الالتفات لغيره أو النظر لسواه، ألم تسمع ثناء الله تعالى على أدب نبيه ﷺ أمام الحضرة الإلهية، حيث قال:﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(النجم:١٧)؟

قلت: علمت فقرهم، فحدثني عن غناه.

قال: لا تطيقه.

قلت: فقرب لي.

قال: ما هي الوسائل التي يغتني بها قومك؟

قلت: يختلفون، فمنهم من تدر عليه التجارة بشآبيب الربح، ومنهم من تدر عليه الفلاحة، ومنهم من يكون حظه في الصناعة.. ومنهم من يكون حظه في تجارة السلاح.. ومنهم المخدارت.. ومنهم..

قال: فكم تدر عليهم؟

قلت: بالملايين أو بالملايير، بحسب نشاطهم واجتهادهم.

قال: فلو أن أحدا منهم ملك طلسما بحيث لا يتعب نفسه في تجارة ولا صناعة ولا شيء من ذلك، بل يكتفي أن يذكر الشيء، فيكون أمامه.

قلت: يبزهم بغناه، بل يملكهم بغناه.

قال: فإذا ملك وسائل إنتاجهم بغناه.

قلت: يحولهم خدما لبابه، بل يتحولون فقراء بين يديه يستجدون طلسمه كما يستجديهم الشحاذون.

قال: فإذا لم يملكهم فقط، بل ملك الكواكب جميعا، بل السماء جميعا.. بل الكون جميعا، ومع ذلك لا يفتقر إلى شيء منها.

قلت: ذلك هو الغني المحض.

قال: ذلك هو الله، فإنه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(البقرة:١١٧)﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(يّـس:٨٢)

ثم التفت إلي، وقال: فمن كان مدد خزائنه قوله ﴿ كن ﴾ أتنفذ خزائنه؟

قلت: لا، فما أسرع أن يملأها إن نفذت.

قال: أخبرني عن خزائن قومك التي يتيهون بها، والتي تجعلكم تستجدونها.

قلت: فيها الذهب والجواهر الكريمة.. وفيها الأرزاق المختلفة وأنواع المآكل والمشارب.. وفيها بعض أنواع المتع الطيبة والخبيثة.. وفيها بعض الأدوية التي تخفف الآلام أو تقهرها.

قال: وهل فيها السكينة؟

قلت: دعهم أولا يجدوها، فليس في الأرض عقار صالح لتحقيقها.

قال: فهل فيها الخلود؟

قلت: ذلك حلم، ما أجمله لو تحقق، ولكن البشر يئسوا منه، فاكتفوا بالتنعم بما عندهم من أنواع النعيم الزائل.

قال: فهل فيها الشباب الدائم؟

قلت: لا، فذلك إكسير أحمر، ما أسرع ما تهب عليه رياح الخريف.

قال: فهل فيها الأمن الدائم والنعيم المقيم..؟

قلت: ما شأنك يما معلمي.. أراك مغرما بما لا يكون.

قال: فلماذا تتعلقون بالخزائن الخاوية التي تضعون فيها بعض اللعب التي لا تختلف عن لعب الأطفال.

قلت: لعب الأطفال.

قال: نعم ما الفرق بين لعبكم ولعب الأطفال.. الأطفال يشتغلون بلعبهم وقت الصبا، وأنتم تشتغلون بها في ربيع العمر وخريفه.

قلت: فهل توجد خزائن تحوي الكنوز التي ذكرتها؟

قال: نعم.. إنها خزائن الغني الحقيقي، خزائن الله، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر:٢١)، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾(صّ:٩)، فقد جعل للرحمة خزائن خاصة بها.

قلت: فأين هذه الخزائن؟

قال: ﴿ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾(المنافقون: من الآية٧)

قلت: فمن يملك مفاتيح هذه الخزائن؟

قال: خزائن الله لا مفاتيح لها، بل هي متسعة للكل، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْأِنْفَاقِ وَكَانَ الْأِنْسَانُ قَتُوراً﴾(الاسراء:١٠٠)

قلت: فلماذا إذن نلجأ لغير باب الله، ونستمطر الخزائن الفارغة.

قال: لأنكم تصورتم أن خزائن الله بيد عباده، والله تعالى ينفي ذلك..

قاطعته قائلا: بلى.. لقد سمعت الساعة الله تعالى وهو يقول:﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾(الطور:٣٧)، فخزائن الله بيد الله، لا بيد أحد من الناس.

الكرم

قال لي: أتعلم حقيقة الكرم.

قلت: أن تنيل المحتاج من فضلك ما يضطر به إلى شكرك.

قال: ألا تعلم ما ينطوي عليه تعريفك هذا من البخل؟

قلت: كيف، فهذا هو الكرم.

قال: انتظارك المحتاج إلى أن يحتاج بخل، وتنعمك عليه بفضلك لا برأس مالك بخل، واضطراره إلى شكرك بخل..

قلت: فما الكرم؟

قال: الكريم (هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء، ولا يبالي كم أعطى ولمن أعطى، وإن رفعت حاجة إلى غيره لا يرضى، وإذا جفي عاتب وما استقصى، ولا يضيع من لاذ به والتجأ ويغنيه عن الوسائل والشفعاء، فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف، فهو الكريم المطلق)[1]

قلت: هذا هو تعريف الغزالي للكريم.

قال: وهو لا يصدق إلا على الله، فهو الكريم الحقيقي وغيره كريم على المجاز.

قلت: كيف يكون كريما على المجاز؟

قال: لو أن كريما من كرماء قومك وكل ـــ لسعة أمواله ـــ وكلاء ينوبون عنه في إيصال كرمه إلى الناس.. من يكون الكريم في نظر الناس: هل الوكلاء، أم من وكلهم؟

قلت: بل الكريم صاحب المال، أما الوكلاء فهم مجرد عمال ينالون أجورهم، بل هم يعيشون تحت ظل كرم ذلك الكريم، فكيف يطمعون في وصفه.

قال: ولكنكم انشغلتم بمدح الوكلاء، ومد أيديكم إليهم، ونسيتم من وكلهم.

قلت: كيف؟

قال: من أين ينفق كرام قومك؟

قلت: من أموالهم.

قال: وهي من أين؟

قلت: منها ما ورثوه، ومنها ما حصلوا عليه باجتهادهم.

---

(١) المقصد الأسنى.

قال: أرك تردد دائما مقالة قارون:﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص: من الآية٧٨)

قلت: فما أقول؟

قال: قل مقالة القرآن الكريم.

قلت: وما هي؟

قال: المال مال الله، ألم تسمع الله وهو يقول:﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ (النور: من الآية٣٣)؟

ألم تسمع قول فاروق هذه الأمة:(أنزلت نفسي من مال الله تعالى بمنزلة ولي اليتيم: إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت قرضا بالمعروف ثم قضيت)؟

قلت: فزدني تفصيلا.

قال: أو لم تؤمن؟

قلت: بلى، ولكن ليطمئن قلبي.

قال: ذكرنا سابقا نوعين للكرم، أو ركنين للكرم.

قلت: نعم: الكرم النفسي، والكرم المادي.

الكرم النفسي:

قال: فما منتهى الكرم النفسي؟

قلت: البشر والابتسامة والكلمة الطيبة.

قال: فلو أذن لك مسؤول كبير في الدخول إلى مكتبه والحديث معه وتقديم طلباتك بين يديه؟

قلت: يكون قد أكرمني غاية الإكرام، بل لا أظن أنني سأنسى جميل صنعه، ولا كريم طبعه.

قال: فلو كانت المبادرة بالدعوة منه لا منك؟

قلت: يكون أكرم وأنبل.

قال: فلو تكرر ذلك منه كثيرا؟

قلت: لا طاقة لي حينها بشكره.

قال: فهل يكون بذلك قد أحسن إليك؟

قلت: يكفيني سلوكه هذا ليكون محسنا لي، ولو لم أنل منه أي شيء، فحسبي أن أنتسب إليه.

قال: فالله تعالى خالق كل شيء ــ والذي لا يشكل ذلك المسؤول الذي كان له ذلك الخطر في نفسك سوى شيء ضئيل جدا من ملكه ــ يدعوك في كل لحظة لأن تقف بين يديه تكلمه ويكلمك بلا حجاب ولا رقيب، فهل هناك أكرم من هذا؟

قلت: ومع ذلك نظل نغلق الأبواب بيننا وبينه.

قال: وتأبون إلا الذلة على أبواب الذين يحتقرونكم، ويسدون أبوابهم في وجوهكم.. أخبرني هل ورد في القرآن الكريم ما يدل على حرمان الفقراء من الحديث مع الله؟

قلت: كلا.. بل أراه يخبر عن فضلهم، بل يثني عليهم من الثناء ما لم ينله غيرهم، قال تعالى:﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الأنعام:٥٢)، وقالتعالى:﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾(الكهف:٢٨)

قال: فهؤلاء هم الفقراء إلى الله على الحقيقة شغلتهم إرادة الله عن الطواف ببيوت عباده، وشغلهم الرجاء في الله عن التعلق بغير الله، وشغلهم النظر لما في يد الله عن الطمع فيما في أيدي عباده.

الكرم المادي:

قلت: فحدثنا عن الكرم المادي.

قال: هو ذا بديع الزمان يحدثك.

فجأة ظهر بديع الزمان، وهو يقول من غير أن أسأله: فلو أنعم الانسان النظر في سير الحوادث ابتداءً من أضعف كائن حيّ وأشده عجزاً، وانتهاءً بأقوى كائن، لوجد أن كل كائن يأتيه رزقه رغداً من كل مكان، بل يَمنح سبحانه أضعفَهم وأشدّهم عجزاً ألطف الارزاق وأحسنها، ويسعف كل مريض بما يداويه.. وهكذا يجد كل ذي حاجة حاجته من حيث لا يحتسب.. فهذه الضيافة الفاخرة الكريمة، والاغداق المستمر، والكرم السامي، تدلّنا بداهة، ان يداً كريمة خالدة هي التي تعمل وتدير الامور.

فمثلاً: ان اكساء الأشجار جميعاً بحلل شبيهة بالسندس الخضر – كأنها حور الجنة – وتزيينَها بمرصعات الازهار الجميلة والثمار اللطيفة، وتسخيرَها لخدمتنا بانتاجها ألطف الاثمار المتنوعة وألذها في نهايات اغصانها التي هي أيديها اللطيفة.. وتمكيننا من جني العسل

اللذيذ – الذي فيه شفاء للناس – من حشرة سامة.. والباسَنا أجمل ثياب وألينها مما تحوكه حشرة بلا يد.. وادّخار خزينة رحمة عظيمة لنا في بذرة صغيرة جداً.. كل ذلك يرينا بداهةً كرماً في غاية الجمال، ورحمة في غاية اللطف.

الكرم الدائم:

قال لي المعلم: ما المدة التي يستطيع كرامكم، حاتم وغيره، أن يكرموا بها؟

قلت: مدة الضيافة، وهي ثلاث، وقد تمتد أسابيع، أو أشهرا.

قال: فلنفرض أنها تمتد العمر جميعا.. فماذا بعد ذلك؟

قلت: لا بد أن ينتهي الكرم في يوم ما.

قال: الكريم الحقيقي لا ينتهي كرمه، بل يستمر أبد الآباد، بل إنه ادخر كرمه الحقيقي إلى الوقت الذي ييأس فيه الخلائق من كرم بعضهم بعضا.

قلت: متى ذلك؟

قال: بعد الموت مباشرة تتدفق بحار كرمه على عباده الصالحين بما لا قدرة على وصفه، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر: ٢١)

قلت: بلى، فما وجه الإشارة فيها.

قال: إن كل ما تراه من خزائن الكرم لا يعدوا أن يكون جزءا ضئيلا جدا لا يكاد يرى من الكرم المعد في دار القرار.

قلت: فمثل لي ذلك بمثال يستوعبه خيالي.

قال: هو ذا بديع الزمان أمامك يصور لك مثال هذه الحقيقة.

فجأة ظهر بديع الزمان، وهو يقول من غير أن أسأله: هب انك تسير في طريق، وتشاهد أن عليها فندقاً فخماً بناه ملك عظيم لضيوفه، وهو ينفق مبالغ طائلة لتزيينه وتجميله كي يُدخل البهجة في قلوب ضيوفه، ويعتبروا بما يرون. بيد أن اولئك الضيوف لا يتفرجون الا على أقلِ القليل من تلك التزيينات، ولا يذوقون الا أقل القليل من تلك النعم، حيث لا يلبثون الا قليلاً ومن ثم يغادرون الفندق دون ان يرتووا ويشبعوا. سوى ما يلتقطون من صور أشياء في الفندق بما يملكون من آلة تصوير وكذلك يفعل عمال صاحب الفندق وخدامه حيث يلتقطون حركات هؤلاء النزلاء وسكناتهم بكل دقة وأمانة ويسجلونها. فها أنت ذا ترى ان الملك يهدّم يومياً اغلب تلك التزيينات النفيسة، مجدداً إياها بأخرى جديدة للضيوف الجدد.

أفبعد هذا يبقى لديك شك في مَن بنى هذا الفـــندق على قارعة هذه الطريق يملك قصوراً دائمة عالية، وله خزائن زاخرة ثمينة لا تنفد، وهو ذو سخاء دائم لا ينقطع. وأن ما يبديه من الكرم في هذا الفندق هو لإثارة شهية ضيوفه الى ما عنده من اشياء، ولتنبيه رغباتهم وتحريكها لما أعدّ لهم من هدايا؟.

قلت: هذا صحيح، فما وجه الإشارة في هذا المثال؟

قال: إن تأملت من خلال هذا المثال في أحوال فنادق الدنيا هذه، وانعمت النظر فيها بوعي تام فستفهم أن هذه الدنيا – الشبيهة بذلك الفندق – ليست لذاتها. فمحال أن تتخذ لنفسها بنفسها هذه الصورة والهيئة. وانما هي دار ضيافة تملأ وتفرغ، ومنزل حلّ وترحال، أنشئت بحكمة لقافلة الموجودات والمخلوقات.

وستفهم أن ساكني هذا الفندق هم ضيوف مسافرون، وان ربهم الكريم يدعوهم الى دار السلام.

وستفهم ان التزيينات في هذه الدنيا ليست لأجل التلذذ والتمتع فحسب، اذ لو اذاقتك اللذة ساعة، اذاقتك الالم بفراقها ساعات وساعات، فهي تذيقك مثيرة شهيتك دون ان تشبعك، لقصر عمرها أو لقصر عمرك، اذ لا يكفي للشبع.

اذن فهذه الزينة الغالية الثمن والقصيرة العمر هي للعبرة، وللشكر، وللحض على الوصول الى تناول اصولها الدائمة، ولغايات اخرى سامية.

وستفهم ان هذه الزينة في الدنيا بمثابة صور ونماذج للنعم المدّخرة لدى الرحمة الإلهية في الجنة للمؤمنين.

وستفهم ان هذه المصنوعات الفانية ليست للفناء، ولم تخلق لتشاهَد حيناً ثم تذهب هباءً، وانما اجتمعت هنا، واخذت مكانها المطلوب لفترة قصيرة كي تُلتقط صورها، وتُفهم معانيها، وتُدوّن نتائجها، ولتُنسج لأهل الخلود مناظر أبدية دائمة ولتكون مداراً لغايات اخرى في عالم البقاء.

قلت: أريد توضيحا أكثر لهذا المعنى.

أمسك زهرة من الغيب في منتهى الجمال، وقال: تأمل في هذه الزهرة – وهي كلمة من كلمات القدرة الإلهية – انها تنظر الينا مبتسمة لنا لفترة قصيرة، ثم تختفي وراء ستار الفناء. فهي كالكلمة التي نتفوه بها، التي تودع آلافاً من مثيلاتها في الآذان وتبقى معانيها بعدد العقول المنصتة لها، وتمضي بعد أن أدت وظيفتها، وهي افادة المعنى، فالزهرة ايضاً ترحل بعد أن تودع في ذاكرة

كل من شاهدها صورتها الظاهرة، وبعد ان تودع في بذيراتها ماهيتها المعنوية، فكأن كل ذاكرة وكل بذرة، بمثابة صور فوتوغرافية لحفظ جمالها وصورتها وزينتها، ومحل اِدامة بقائها.

فلئن كان المصنوع وهو في أدنى مراتب الحياة يعامل مثل هذه المعاملة للبقاء، فما بالك بالانسان الذي هو في أسمى طبقات الحياة، والذي يملك روحاً باقية، ألا يكون مرتبطاً بالبقاء والخلود؟ ولئن كانت صورة النبات المزهر المثمر، وقانون تركيبه - الشبيه جزئياً بالروح - باقية ومحفوظة في بُذيراتها بكل انتظام، في خضم التقلبات الكثيرة، أفلا يُفهم كم تكون روح الانسان باقية، وكم تكون مشدودة مع الخلود، علماً انها قانون أمري، وذات شعور نوراني، تملك ماهية راقية، وذات حياة، وذات خصائص جامعة شاملة، وقد اُلبست وجوداً خارجياً؟!

القرب

قال لي: لقد ذكرت لي بأن في قومك كراما.

قلت: لا أجحد ذلك، ولو أني اقتنعت بأن لهم كرما مجازيا لا حقيقيا.

قال: فأين هم؟

قلت: منهم من يسكن في الخليج، حيث يرمون الدراهم في الطرقات لينالها الغادي والرائح، ومنهم من يرحل إلى أوروبا وأمريكا حيث يتلذذ برؤية الشحاذين من الأغنياء، وهم ينحنون لجمعها.

قال: فهل يصلك منها شيء؟

قلت: تصلني أخبارها، وقد تسمعني القنوات الفضائية رنينها.

قال: وفي الأقدمين، هل تعرف كراما؟

قلت: كثيرون هم، يسرني ذكرهم، وتنتشي روحي بأخبارهم.

قال: فهل يصلك نوالهم؟

قلت: كيف يصلني نوالهم، وقد رمموا؟

قال: فلماذا تشغل قلبك بكرم بعيد إما في أصقاع الأرض، أو في أطباق الثرى، وتنسى الكريم الذي هو أقرب إليك منك.

قلت: الله؟

قال: الله، فهو أكرم الأكرمين، وأقرب الأقربين، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(يونس:٦١)

ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(قّ:١٦)

ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ﴾ (الواقعة:٨٥)

ألم تسمع قوله تعالى:﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(المجادلة: من الآية٧)

ألم تسمع إليه، وهو يحدثك من سرادقات قدسه، ومن وراء حجب عزته ليقول لك:

متى جئتني قبلتك..

إن أتيتني ليلا قبلتك.. وإن أتيتني نهارا قبلتك

إن تقربت مني شبرا تقربت منك ذراعا.. وإن تقربت مني ذراعا تقربت منك باعا.. وإن مشيت إلي هرولت إليك.

لا تحجبك الخطايا عني، فلو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا أتيتك بقرابها مغفرة.. ولو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك.

هل هناك من هو أعظم مني جودا وكرما..

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فرشهم.

إني والجن والإنس في نبإ عظيم: أخلق ويعبد غيري وأرزق، ويشكر سواي خيري إلى العباد نازل وشرهم إلي صاعد أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي.

من أقبل إلي تلقيته من بعيد ومن أعرض عني ناديته من قريب ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ومن أراد رضاي أردت ما يريد ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي وأهل شكري أهل زيادتي وأهل طاعتي أهل كرامتي وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين لم يتوبوا إلي فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب.

من آثرني على سواي آثرته على سواه الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة والسيئة عندي بواحدة فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل.

رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي وعفوي سبق عقوبتي أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها)

بهذا الحديث الودود وغيره يخاطبك، وبهذه العذوبة والجمال يدعوك إليه، ليرفع الحجب التي تحول بينك وبينه، ويزيل الأعذار التي تعتذر بها عن التقرب إليه.

قلت: فما علاقة هذا القرب بالكرم؟

قال: القرب نفسه كرم، فمن عرف قرب الله أعطاه الله من الغنى والسعادة ما يحتقر به الأحجار التي تتباهون بها، وتملأون بها خزائنكم؟

قلت: فهل وجد المقربون لله هذه الثمرة الزكية؟

قال: وكيف لا يجدونها، وقد عاشوا بها.. فقد عمر الله عليهم حياتهم، فامتلأت أنسا، وعمر عليهم أنفاسهم، فامتلأت ذكرا، وشغل خواطرهم فلم يخطر عليها غيره، فقلوبهم تردد:

خيالــــــك في عــــــيني وذكــــــرك في فمــــــي
ومثــــــواك في قلــــــبي فــــــأين تغيــــــب

وأشواقهم تنشد:

ومــــــن عجــــــب أني أحــــــن إلــــــيهم
وأســــــأل عنــــــهم مــــــن لقيــــــت وهــــــم معــــــي
وتطلبــــــهم عــــــيني وهــــــم في ســــــوادها
ويشــــــتاقهم قلــــــبي وهــــــم بــــــين أضــــــلعي

وأسرارهم تترنم:

يــــــا ثاويــــــا بــــــين الجــــــوانح والحشــــــى
مــــــني وإن بعــــــدت علــــــي ديــــــاره
عطفــــــا علــــــى صــــــب يحبــــــك هــــــائم
إن لم تصــــــله تصــــــدعت أعشــــــاره
لا يســــــتفيق مــــــن الغــــــرام وكلمــــــا

ثم التفت إلي، وقال: من صادق منكم أميرا أو وزيرا أو ملكا أيشعر بالفقر والحاجة، أو الحزن والألم؟

قلت: كيف يشعر بذلك، وهو محل غبطة جميع الناس؟

قال: فمن كان في صحبة الله، كيف يشعر بالفقر والحاجة، أو كيف تصيبه الذلة والهوان؟

الإجابة

قال لي المعلم: من المجيب من قومك؟

قلت: من إذا سألته أعطاني، وإن طرقت بابه فتح لي.

قال: ومن أعطاك قبل أن تسأله، وفتح لك بابه قبل أن تطرقه؟

قلت: ذلك المجيب المطلق.

قال: فذلك هو الله.

قلت: أبهذه النظرة كان ينظر ابن عطاء الله حين قال:(طلبك منه اتهام له)؟

قال: وبهذه النظرة نظر العارفون حين رددوا مع أبي الحسن الشاذلي قوله: (لا يكن همك في دعائك الظفر بقضاء حاجتك فتكون محجوباً، وليكن همك مناجاة مولاك)

أو حين رددوا مع ابن عطاء الله قوله:(لا يكن طلبك تسبباً إلى العطاء منه، فيقل فهمك عنه. وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقياماً بحقوق الربوبية)

قلت: لقد علل كون الطلب لا يكون سبباً للعطاء بثلاث علل:

أما العلة الأولى، فعبر عنها بقوله:(كيف يكون طلبك اللاحق سبباً في عطائه السابق؟)، فعطاء الله للعبد عطاء أزلي سابق، وهو السبب في العطاء الحادث، والسبب لا بد من تقدمه على المسبب.

أما العلة الثانية، فعبر عنها بقوله:(جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل)، أي أن حكم الله يتتره ويتقدس أن يؤثر فيه أي مؤثر.

أما العلة الثالثة، فعبر عنها بقوله:(عنايته فيك لا لشيء منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته؟ لم يكن في أزله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هناك إلا محض الإفضال، وعظيم النوال)

قال: وهذا هو الأثر الإيماني اللذيذ الذي يعمر القلب بحلاوة الإيمان، فعناية الله الأزلية هي السبب في كل نعمة، لا سؤالها، وهذا ما يشعر القلب بمحبة الله واصطفائه على الكثير من خلقه، وهو ما يجعله يعبد الله مستشعرا منته عليه، وإحسانه السابق إليه.

قلت: أفنترك الدعاء لهذا؟

قال: لا تسئ فهم كلام العارفين، فتحجب دون مقاماتهم.

قلت: لكني أسمع كلاما صريحا لا يحمل إلا معنى واحدا، فهذا الواسطي يقول:(أخشى إن دعوت أن يقال لي: إن سألتنا مالك عندنا فقد اتهمتنا، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا فقد أسأت

الثناء علينا، وإن رضيت أجرينا لك من الأمور ما قضينا لك في الدهور)

قال: الواسطي ﷺ يعبر عن حالة وجدانية، لا عن حقيقة شرعية.

قلت: فكيف أجمع بينهما؟

قال: إذا توقف علاج علتك على دواء مسهل، أتتناوله؟

قلت: كيف لا أتناوله، وعليه يتوقف علاج علتي؟

قال: ولكنه سيصيبك بإسهال، وهو علة أخرى.

قلت: ولكني سوف أحتال فأبادر الإسهال بما يقيني منه.

قال: فهذا ما لحظه العارفون، فقد خشوا أن يخطئ العامة فيسيئوا فهم الدعاء، فيشبهوا الله بخلقه.

قلت: كيف يكون التشبيه في هذا المحل، ولا أسمع يدا ولا ساقا.

قال: التشبيه لا يتوقف على اليد والساق، بل إن في قياس إجابة الله بإجابة عباده رمي لله ببخل العباد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لأن عناية الله بعباده لا تفتقر إلى سؤالهم.

قلت: فلماذا أمرهم بسؤاله؟

قال: لتسوقهم حاجاتهم إلى الله، فيكون دعاؤهم أفضل من حاجاتهم.

قلت: فهلا ضربت لي على ذلك مثالا.

قال: أرأيت لو أن أبا رحيما رأى في ولده تقصيرا في طلب العلم، ورأى انشغاله باللعب قد ملك عليه كل وقته، فخشي إن نهره أن ينفلت منه بالكلية، فبحث عن شيخ مرشد، وأعطاه من اللعب التي يرغب فيها الصبيان الكثير، وقال له:(سيأتيك ابني طالبا اللعب، فلا تعطه اللعبة حتى تعلمه علما)، ثم قال لابنه:(أي لعبة رغبت فيها.. فافزع إلى فلان، فإن عنده ما تشتهي)

فكان ابنه يذهب إلى ذلك المعلم ليأخذ اللعب، فلا يتركه المعلم حتى يعلمه ما شاء من العلوم إلى أن زرع الله محبة العلم في قلبه، فجاءه يوما ليقول له:(لم آتك اليوم لطلب اللعب، وإنما أتيتك لطلب العلم)

قلت: فما محل هذا المثال من الدعاء؟

قال: لقد علم الله حبنا للدنيا ولهوها ولعبها.

قلت: نعم، فقد قال تعالى معبرا عن طبيعة الإنسان:﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ

لَشَدِيدٌ﴾(العاديات:٨)، وقال تعالى:﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾(الفجر:٢٠)

قال: فلو قال لكم الله تعالى:(دعوا أموالكم وتعالوا إلي) لم تطيقوا ذلك، لتصوركم أن أموالكم أعظم من الله.

قلت: هذه حقيقة نعيشها، وإن كنا لا نجرؤ على التصريح بها.

قال: فلذلك جعل الالتجاء إلى بابه، وطرق خزائن كرمه أسبابا لا لرزقكم فقط، فقد ضمن ذلك لكم، وإنما لتسعدوا بلقائه، وقد يجعلكم ذلك تطلبونه ولا تكتفون بالطلب منه.

قلت: وما الفرق بينهما؟

قال: كالفرق بين الحقيقة والخيال.

قلت: وما الفرق بينهما؟

قال: كالفرق بين قامتك وظلها.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قال: كالفرق بين الوجود والعدم.

قلت: ولكن ظلي موجود.

قال: بك لا به.

ثم انصرف عني أو انصرفت عنه، لكنني أحسست بجوهرة عظيمة تتترل علي تنجلي من نورها بعض الظلمات.

٤ ـــ مد يدك إليه

صعدت مع المعلم طابقا آخر في قصر الاستعفاف، وهو آخر طوابقه، ومنه تمتد اليد التي رأيتها خراج القصر، فوجدنا شعاعا عظيما متلألئا، سألت المرشد عنه، فقال: هذه جوهرة نفيسة من جواهر الاستعفاف اسمها (مد يدك إليه)

التفت إلى المعلم، وقلت: أفي هذا المحل أضع يدي كما ذكرت؟

قال: نعم، في هذا المحل تضع يدك في محلها الصحيح.

قلت: أهناك حجر كالحجر الأسود ألمسه في هذا القصر؟

قال: الحجر الأسود حجر واحد تلتقي عنده أفئدة المؤمنين.

قلت: فأين أضع يدي إذن؟

قال: املك يدا أولا، ثم اسأل عن المحل الذي تضعها فيه.

التفت إلى يدي، وقلت: ها هي ذي يدي في جسدي، فكيف أحتاج إلى امتلاك يد.

قال: تحتاج للتحقق بحقائق هذه الجوهرة إلى امتلاك أربعة أيد.

قلت: تقصد يدين ورجلين؟

قال: لا.. أربعة أيد، لكل يد لسان يعبر عنها.

قلت: هذا وصف غريب.. لعلك تريد أن تحولني كائنا أسطوريا.

قال: ما فائدة اليد؟

قلت: إمساك النعمة.

قال: فكيف تأتيك النعمة؟

قلت: بسؤالها.

قال: فهل يمكن أن تمد يدك لبعض الناس من غير أن يتكلم لسانك بما تحتاج؟

قلت: لا.. لأنه ربما يظن أني أمد يدي لمصافحته، لا لسؤاله..

قال: وربما يعطيك ما لم تسأل.

قلت: وربما يمد يده إلي ليبطش بي لتصوره أني مددتها للبطش به.

قال: فما الذي يعبر عن قصدك من مد يدك؟

قلت: لساني.

قال: ولذلك يستعمل الشحاذون ألسنتهم.

قلت: ولولاها لم ينالوا أي شيء.

قال: فمن أشطرهم؟

قلت: أقدرهم على إظهار اضطراره وفقره وعجزه ومسكنته.

قال: فكيف يظهر ذلك؟

قلت: للاضطرار لسانه، وللافتقار لسانه، وللعجز لسانه، وللمسكنة لسانها.

قال: فقد أقررت إذن بالألسنة الأربع التي تعبر عن الأيدي الأربع.

قلت: نعم.. ذكرت الألسنة الأربع، ولكني لم أذكر الأيدي الأربع.

قال: كل يد تعبر عن حاجة من الحاجات.. إذا مد الغريق يده إليك، فوضعت فيها دينارا، هل يقبله أم يظل يمد يديه إليك؟

قلت: بل لو أعطيته مليارا لرماه، فما يغني عنه إن تلقفه الموت، بل سيظل مادا يده إلي.

قال: وما يده التي يمدها؟

قلت: يد اضطراره.

قال: فقد أقررت إذن بأن للاضطرار يده التي تختلف عن يد الافتقار، ومثل ذلك يد الضعف ويد المسكنة.

قلت: فكيف أتحقق بهذه الأيدي؟

قال: بتحققك بألسنتها.

قلت: وكيف أتعلم ألسنتها، وهل في العالم مدرسة لغات تدرس هذه الألسن؟

قال: في مدرسة القرآن الكريم تتعلم كل اللغات التي لا يفهمها البشر فقط، بل لا يفهمها الكون جميعا.

قلت: ولكن القرآن الكريم لم يترل إلا باللغة العربية؟

قال: تلك كسوته التي يمكن أن تصبغ بلغات العالم المختلفة، ولكن حقائقه تعلمك كيف تحل الشيفرة التي تفهم بها أسرار الكون وأسرار التعامل مع الكون.

قلت: فعلم لساني هذه اللغات.

قال: التعليم للسان قلبك، لا للسان فمك.

لسان الاضطرار

قلت: علمني لغة الاضطرار.

قال: لن تتعلم لسان الاضطرار حتى تعلم حقيقة الاضطرار.

قلت: ولكني أعلم حقيقة الاضطرار.

قال: وما هي؟

قلت: أن لا يبقى لي من الخيارات إلا خيار واحد، فأضطر إلى استعماله، ولو كان ثقيلا على قلبي.

قال: فاضرب لي مثالا على ذلك.

قلت: أقذر شيء إلى نفسي أن أتناول جيفة أو أشرب دما أو أذوق لحم خنزير، ومع ذلك، فإني إذا اضطررت إلى تناولها تناولتها لأحفظ حياتي، كما قال تعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(البقرة:١٧٣)، وقالتعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(النحل:١١٥)

قال: ولماذا اضطررت إلى هذه المستقذرات؟

قلت: لعزة غيرها، وعدم ظفري به.

قال: ففي تلك الحالة التي تقف فيها على أعتاب الموت ماذا تشعر؟

قلت: أشعر بضياع عظيم وانحدار عميق، فالموت بأشباحه ينتهز فرصة غفلتي ليضمني إلى حزبه.

قال: ألا تيأس في ذلك الحين؟

قلت: أيأس فقط؟.. بل تجتمع في بحري كل أنهار الكآبة وسيول الحزن.

قال: في ذلك الحين يمكنك أن تتعلم لسان الاضطرار؟

قلت: كيف؟

قال: لسان الاضطرار يتولد من شعورك بعدم كل شيء إلا وجوده، وبفقد كل شيء إلا رحمته، وباليأس من كل شيء إلا الأمل فيه.

قلت: أهذا الشعور وليد ظرف خاص أمر به، أم هو وليد كل ظرف؟

اضطرار العارفين:

قال: أما العارفون، فيعيشون الاضطرار، وهم في بحار النعم، لأنهم لا يرون منعما غير الله، فلا يضطرون لغير الله.

قلت: لقد ذكرتني بقول ابن عطاء الله:(ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار)

قال: بل ذكرتك بقوله تعالى:﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾(النمل:٦٢).. أتدري السر الذي جعل العارفين يشعرون باضطرارهم الدائم إلى الله؟

قلت: ما هو؟

قال: هو ما عبر عنه الحق تعالى في هذه الآية بقوله:﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾

قلت: هذا خطاب للمشركين يذكرهم بالله.

قال: وهو خطاب للغافلين يدعوهم لتحطيم الأصنام التي ترقد في جوانب كعباتهم، وتحول بينهم وبين الاضطرار لله.

قلت: لا أعلم أن في الأرض كعبة غير الكعبة.

قال: في كل قلب إنسان كعبة، منهم من يعمرها بالتوحيد، ومنهم من يملؤها بالأصنام.

قلت: ولكني لم أفهم كيف يشعر بالاضطرار من يعيش في بحار النعم، فلا أعلم الاضطرار إلا في الوقت الذي يباح فيه أكل الميتة.

قال: ولكن العارفين يشعرون دائما أنهم في حال من أبيح له أكل الميتة.

قلت: لم أفهم.. فلم أسمع أن العارفين يبيحون لأنفسهم أكل الميتة باعتبارهم مضطرين.

قال: هم لم يضطروا للميتة، ولن يضطروا لها، فخزائن الله تغنيهم عنها، ولكنهم مضطرون لله.

قلت: لم أفهم.

قال: لا يرون لحياتهم معنى ولا وجودا من غير الله.

قلت: كل الخلق كذلك، فلا يمكن أن يوجد موجود من غير إيجاد الله.

قال: ولكنهم يعيشون هذا المعنى ويستشعرونه ولا يكتفون بوضعه في زاوية مهملة من زوايا عقولهم.

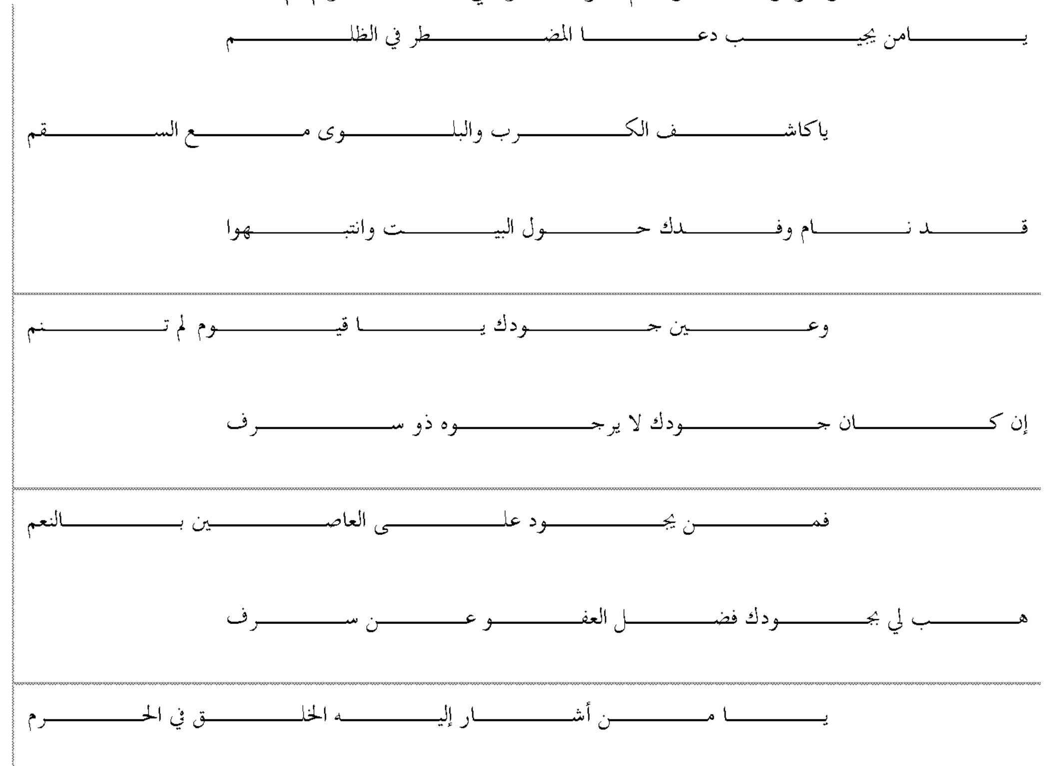
قلت: فكيف يستشعرون هذا؟

قال: سأترك لك الأصمعي ليروي لك حكاية عن منبع من منابع الطهارة يصف لك ـــ

بحاله لا بمقاله ــــ اضطرار العارفين.

فجأة ظهر الأصمعي، وكأن ملكا استدعاه ليروي مشاهداته، فقال: كنت أطوف حول الكعبة في ليلة مقمرة ، فسمعت صوتا حنونا لرجل يناجي ربه.

بحثت عن صاحبه، واذا به شاب جميل رشيق القامة يبدو عليه الطيب، وقد تعلق باستار الكعبة ، وكان يقول في مناجاته:(يـــاســـيدي ومولاي ، نامت العيون وغابت النجوم ، وأنت ملك حي قيوم ، لا تاخذك سنة ولا نوم، غلقت الملوك ابوابها، واقامت عليها حراسها وحجابها، وقد خلا كل حبيب بحبيبه ، وبابك مفتوح للسائلين ، فها انا سائلك ببابك مذنب فقير، خاطئ مسكين ، جئتك ارجو رحمتك يارحيم ، وأن تنظر الي بلطفك ياكريم ثم انشد:



يــــــــامن يجيـــــــــب دعـــــــــا المضـــــــــطر في الظلـــــــــم

ياكاشـــــــف الكـــــــرب والبلـــــــوى مـــــــع الســـــــقم

قـــــــد نـــــــام وفـــــــدك حـــــــول البيـــــــت وانتبـــــــهوا

وعـــــــين جـــــــودك يـــــــا قيـــــــوم لم تـــــــنم

إن كـــــــان جـــــــودك لا يرجـــــــوه ذو ســـــــرف

فمـــــــن يجـــــــود علـــــــى العاصـــــــين بـــــــالنعم

هـــــــب لي بجـــــــودك فضـــــــل العفـــــــو عـــــــن ســـــــرف

يـــــــا مـــــــن أشـــــــار إليـــــــه الخلـــــــق في الحـــــــرم

ثم رفع رسه إلى السماء وناجى:(إلـــهـــي وسيدي ومولاي الحجة علي) ورفع رأسه ثانية إلى السماء مناجيا بأعلى صوته:(ياالهي وسيدي ومولاي ، ما طابت الدنيا الا بذكرك ، ومـــاطـــابـــت العقبى الا بعفوك ، وما طابت الايام الا بطاعتك ، وما طابت القلوب الا

بمحبتك ، وما طاب النعيم الا بمغفرتك)

فلا زال كذلك حتى أغمي عليه.

قلت فزعا: فما فعلت؟

قال: دنوت منه، وتأملت محياه، فاذا هــوعـــلـــي بن الحسين زين العابدين ﷺ ، فأخذت رأسه في حجري وبكيت له كثيرا، فاعادته الى وعيه قـــطـــرات دمع سكبت على وجنتيه ، فتح عينيه وقال:(من الذي شغلني عن ذكر مولاي؟)، قلت:(إنك من بــيــت النبوة ومعدن الرسالة، ألم تترل فيكم آية التطهير؟ ألم يقل اللّه فيكم:﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(الأحزاب: من الآية٣٣)

قلت له: نعم ما قلت، فقد أوتيت أدبا.

قال: لكنه نهض، وقال: ياأصمعي، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبدا حبشيا، وخلق النار لمن عصاه ولو كان سيدا قرشيا. ألم تقرأ القرآن؟ ألم تسمع كلام اللّه:﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾(المؤمنون:١٠١)

قلت: فما فعلت؟

قال: عندما وجدته على هذا الحال ، تركته ومضيت لسبيلي.

ثم خرج الأصمعي كما دخل، لست أدري هل خسفت به الأرض، أم طار في أجواء السماء.

التفت إلى المعلم، وقلت: لقد سمعت حديث الأصمعي، وتأثرت له، ولكني لم أفهم معنى اضطرار العارفين.

قال: العارفون يطلبونه، والغافلون يطلبون منه.

قلت: فما في هذا من الاضطرار؟

قال: أتضطر أنت إلى التنفس؟

قلت: وكيف لا أضطر، ولولاه لاختنقت.

قال: فكذلك ضرورتهم إلى الله، بل هي أشد في أنفسهم من ضرورة الهواء والماء، ألم تسمع إلى عبد الله بن المنازل، وقد جاءه رجل، فقال: رأيت في المنام كأنك تموت إلى سنة، فقال عبد الله: لقد أجلتنى إلى أجل بعيد أعيش إلى سنة، لقد كان لى أنس ببيت سمعته من أبى على الثقفى:

يا من شكى شوقه من طول فرقته   اصبر لعلك تلقى من تحب غداً

قلت: فهذا يتمنى الموت الذي نهانا ﷺ أن نتمناه؟

قال: هذا يحب لقاء الله الذي أمرنا الله تعالى برجائه، فقال:﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(العنكبوت:٥)

ألم تعلم بما اختبر الله دعوى محبة اليهود لله؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(الجمعة:٦)

قال: فلذلك فإن العارفين قد يصبرون على كل شيء، ولكنهم لا يصبرون عن الله.

قلت: لقد ذكرتني بالشبلي ﷺ.

قال: حين وقف عليه رجل، فقال: أي صبر أشد على الصابرين فقال: الصبر في الله قال السائل: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، قال الشبلي: فإيش هو قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف.

اضطرار الغافلين:

قلت: قد فهمت اضطرار العارفين، فما اضطرار غيرهم؟

قال: أما غيرهم، فلا يشعرون بالله إلا عندما تضيق بهم السبل، وتوصد في وجوههم جميع الأبواب، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(يونس:٢٢)

قلت: بلى، ولها نظيرات في القرآن الكريم، فالله تعالى يقول:﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾(النحل:٥٣)، وقالتعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْأِنْسَانُ كَفُوراً﴾(الاسراء:٦٧)، وقالتعالى:﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:٦٣ ــ ٦٤)

قال: ومع ذلك، فإن الله برحمته يجيب من دعاه بهذا اللسان ولو كان ما كان، ولهذا لا تعجب ما يحكى من إجابة دعوات الكافرين إن وقفوا مواقف الاضطرار.

قلت: لقد ظللت زمنا محتارا في سبب هذا.

قال: إن الله برحمته التي لا تعد وبفضله الذي لا يحد يمهل عباده ويوفر لهم من السبل ما

يدعوهم إلى لزوم بابه، فأبواب الله لا توصد، ألم تسمع قوله ﷺ:(يترل الله تعالى إلى السماء الدنيا لثلث الليل الآخر، فيقول من يدعوني فأستجيب له، أو يسألني فأعطيه، ثم يبسط يديه ويقول: من يقرض غير عديم، ولا ظلوم)[1]

ألم تسمع بفرح الله برجوع عبده إليه؟

قلت: بلى، فقد قال ﷺ:(لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل مترلا وبه مهلكة ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده)[2]

قال: فما يفهم قومك من هذا الحديث؟

قلت: يجادلون ويتصارعون في معنى الفرح وعلاقته بالله، وهل يفوض أم يؤول أم يشبه أم يعطل أم يثبت أم..!؟

قاطعني، وقال: ألم تسمعوا قوله ﷺ:(ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل)[3]

قلت: بلى، سمعوه.

قال: فماذا عملتم فيه.

قلت: اختلفوا فيه أيضا.. فأجازوه في علم الكلام.

قال: علم الكلام، أم علم الخصام؟.. انصحهم أن يتعلموا بدل ذلك علم السلام.

قلت: فإلام ينظر علم السلام في فرح الله بعبده؟

قال: إن من آتاه الله السلام في قلبه لا ينشغل بالألفاظ، فيتيه في الجدل، بل ينشغل بالحقيقة والمعاني، فيستشعر من الفرح والسرور والقرب والاتصال عند سماع هذا الحديث ما لا يستشعره الغافلون المكفنون في أكفان الحروف والأصوات.

قلت: فكيف يعبرون عن تلك المشاعر؟

قال: وهل يملك أحد أن يعبر عن مشاعره؟

قلت: أجل، هناك من يعبر عن مشاعره.

---

(١) مسلم عن أبي هريرة.

(٢) البخاري ومسلم عن ابن مسعود.

(٣) أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي أمامة.

قال: وهل يفهمها الجامدون، أم لا يفهمها إلا من يعيشها؟
قلت: بل يقتصر فهمها على من يعيشها.
قال: فما داموا متفقين على معايشتها، فما الحاجة للتعبير عن ذلك؟
قلت: يعبرون بها للجامدين.
قال: وهل يملكون أن يفهموهم معناها؟
قلت: يقربون.
قال: فقد قرب ﷺ ذلك إذن وكفانا، فلنقتصر على ظواهر ما عبر.

لسان الافتقار

قلت: علمتني لسان الاضطرار، فعلمني لسان الافتقار.

قال: لن تتعلم لسان الافتقار حتى تعلم حقيقة الافتقار.

قلت: الافتقار معروف.

قال: فما هو؟

قلت: أن تعود إلى بيتك خالي الوفاض، وعليك ثياب مرقعة، وأبناؤك من حولك يتضاغون من الجوع.

قال: وحينها يراودك وحش الحزن القاتل ليبعدك عن ربك، وينزع من قلبك الابتسامة.

قلت: ربما.

قال: فهذا افتقار كافر، يحجبك عن ربك، ولا يقربك إليه.

قلت: فهل هناك افتقار مؤمن؟

قال: أجل، هناك افتقار الصديقين.

قلت: ولكني علمت منك في كنز الاستغناء أن الصديقين أغنياء بالله.

قال: لا يتحقق الصديق بالغنى بالله حتى يتحقق بالافتقار لله.

قلت: فما لسان الافتقار؟

قال: هو عزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

قلت: فهو السلام مع الله إذن؟

قال: هو قمة السلام مع الله.

قلت: كيف؟

قال: لأن من دخل على الله مستغنيا خرج من عنده فقيرا، ومن دخل عنده فقيرا خرج مستغنيا.

قلت: لا أراك تفسر الغوامض إلا بالغوامض، فهلا فسرت لي.

قال: أرأيت لو دخل عليك رجل يستجديك، فقعد يفخر عليك بمعلقة عمرو بن كلثوم أكنت تلتفت إليه؟

قلت: كنت أزدريه، فمن قال ما قال عمرو لا ينبغي أن يستجدي.

قال: فكذلك أنتم تطلبون الله، ولا تغضون أطرافكم عن أنفسكم التي تزاحم الله.

قلت: كيف نزاحم الله؟

قال: تدبرون وتعارضون وتناقشون وتجادلون.

قلت: نحن نفعل هذا مع الله؟

قال: نعم، أنتم تطلبون الله.. ولكنكم تمتلئون في نفوسكم استغناء عن الله، ألم يقل الله فيكم:﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق:٦ ـــ ٧)

قلت: لقد ذكرتني بتعريف الصالحين للفقر.

قال: فما قالوا؟

قلت: سئل أبو حفص: بم يقدم الفقير على ربه؟ فقال: ما للفقير شيء يقدم به على ربه سوى فقره.

قال: وقال بعضهم وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم الفقر؟ فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه، فقيل له: وكيف ذاك فقال: إذا كان له فليس له وإذا لم يكن له فهو له.

قلت: ما معنى هذا؟

قال:(أن يصير كله لله عز وجل، لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه، فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه، ففقره مدخول)[1]

قلت: فهمت هذا، لكن ما معنى:(إذا كان له فليس له وإذا لم يكن له فهو له)

قال: إذا كان لنفسه فليس لله، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

قلت: فحقيقة الفقر إذن أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء بحيث تكون كلك لله.

قال: أجل، هذا هو الافتقار، وهذا هو لسانه.

قلت: ولكن هذا حقيقة كونية، فمن يجادل في أن العبد ليس له شيء إلا ما وهبه مولاه.

قال: نعم لا أحد يجادل في ذلك، ولكن قل من يؤمن بذلك، ويعيش لذلك.

قلت: هذا تناقض.

قال: أنتم تعيشونه.

قلت: لماذا؟

قال: لأنكم تحبسون معارفكم في زنازن، وتقيدونها بالأغلال، ولا ترجعون إليها إلا في استجوابات كاستجوابات المحققين.

قلت: فيكف تعامل المعارف عند العارف؟

---

(١) مدارج السالكين:٢/٤٤٠.

قال: العارف يعيش المعارف، فيحرر الحقيقة من زنزانة العقل، ليضعها في رياض الوجدان.

قلت: فما تنبت؟

قال: تنبت كل الأزهار، وتثمر كل الثمار.

قلت: فأطعمني من ثمار الافتقار.

قال: يطعمك الأولياء من تلك الثمار.

قلت: فما قالوا؟

قال: هم ذا أمامك فاسألهم.

فجأة ظهرت شموس ساطعة بالكاد استطعت أن أراها.

قال الأول: الفقير لا تسبق همته خطوته، فهو ابن حاله ووقته، فهمته مقصورة على وقته لاتتعداه.

وقال آخر: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه.

وقال آخر: الفقير من لا يملك ولا يملك.

وقال آخر: الفقير من يملك، ولا يملكه مالك.

وقال آخر: من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيرا، ومن أراده لئلا يشتغل عن الله بشيء مات غنيا.

وقال آخر: الفقر له بداية ونهاية، وظاهر وباطن، فبدايته: الذل ونهايته: العز وظاهره: العدم وباطنه: الغنى.

وقال آخر: أول قدم الفقر: الخروج عن النفس وتسليمها لمالكها ومولاها، فلا يخاصم لها ولا يتوكل لها ولا يحاجج عنها ولا ينتصر لها بل يفوض ذلك لمالكها وسيدها.

وقال آخر: لا تخاصم لنفسك فإنها ليست لك دعها لمالكها يفعل بها ما يريد.

وقال آخر: هو قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا، وإسكات اللسان عنها مدحا أو ذما، والسلامة منها طلبا أو تركا.

عرفت هذا المتكلم، فهو صاحب منازل السائرين، فبادرته قائلا: عرفتك، أنت شيخ الإسلام الهروي، ما معنى هذا؟

قال: هو ذا ابن القيم يشرح لك ما أردت.

التفت، فإذا ابن القيم يقول من غير أن أسأله: قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا يعني يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت له، فإذا قبض يده عن الامساك جاد بها، وإن كانت غير

حاصلة له كف يده عن طلبها، فلا يطلب معدومها، ولا يبخل بموجودها.

قلت: هذا معنى جميل، فكيف يسكت اللسان عن مدحها أو ذمها، وقد ورد في النصوص ما يدل على ذمها؟

قال: لأن اشتغاله بمدحها أو ذمها دليل على محبتها ورغبته فيها، فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره، وإنما اشتغل بذمها حيث فاتته، كمن طلب العنقود فلم يصل إليه، فقال: هو حامض، ولا يتصدى لذم الدنيا إلا راغب محب مفارق، فالواصل مادح، والمفارق ذام.

قلت: وما معنى تعطيل القلب منها؟

قال: السلامة من آفات طلبها وتركها، فإن لتركها آفات، ولطلبها آفات، والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك، بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة، لا في طلبها وأخذها، ولا في تركها والرغبة عنها.

قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها؟

قال: من وجوه.

قلت: ما هي؟

قال: إذا تركها وهو بشر لا ملك تعلق قلبه بما يقيمه ويقيته ويعيشه وما هو محتاج اليه، فيبقى في مجاهدة شديدة مع نفسه لترك معلومها وحظها من الدنيا وهذه قلة فقه في الطريق، بل الفقيه العارف يردها عنه بلقمة كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة، ولا يقطع زمانه بمجاهدته ومدافعته، بل أعطاها حظها وطالبها بما عليها من الحق، وهذه طريقة الرسل وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك.

قلت: هذا وجه حسن، فهل هناك وجه آخر؟

قال: تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك.

قلت: هذا وجه حسن كذلك، فالطمع فيما في أيدي الناس مناقض للزهد.

قال: وهناك وجه آخر، وهو ما يداخله من الكبر والعجب والزهو، وهذا يقابل الزهد فيها وتركها، كما أن كسرة الآخذ وذلته وتواضعه يقابل الآخذ التارك.

فجأة ذهب الجميع، و لم يبق معي إلا معلم السلام، فقلت له: ما أحلى كلام الأولياء.

قال: كل من اتصل بالله حلا كلامه.

قلت: لقد قال ابن عطاء الله في هذا حكما.

قال: وما قال؟

قلت: قال:(كل كلام يبرز، وعليه كسوة القلب الذي منه برز)

قال: فقلوب الأولياء منورة بنور الله، فلذلك تلوح عليها أنوار الإيمان.

قلت: يا معلم، لو قيل لي: لماذا نطرق أبواب الفضل ما دام للافتقار هذا الفضل.

قال: فقل: إن الله يقيم عبده في المواقف المختلفة ليعرفه في كل موقف، فتتكامل بالمواقف المختلفة ما أتيح له من معرفة الله، ألم تسمع ابن عطاء الله، وهو يناجي ربه قائلا:(إلــهي! قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار، أن مرادك أن تتعرف إلي في كل شيء، حتى لا أجهلك في شيء)

قلت: ولكن خلو اليد من المال باب للتجريد، وتجريد الظاهر ميسر لتجريد الباطن.

قال: لا، فلم يكن هكذا سلوك الأنبياء الذين جعلهم الله قدوة لعباده، ولا هكذا نصح الأولياء، ألم تسمع حكمة ابن عطاء الله:(إرادتُكَ التجريدَ مع إقامةِ الله إيَّاكَ في الأسباب من الشَّهوة الخفيةِ، وإرادتُكَ الأسبابَ مع إقامةِ الله إيَّاكَ في التجريد انحطاطٌ عن الهِمَّةِ العَلَيَّةِ)

قلت: بلى، ولكن..

قال: ألم تسمع قوله ﷺ:(ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل يوم القيامة: الشيخ الزاني، والعائل المزهو، والإمام الكذاب)، وقواله ﷺ:(إني لأعلم أول ثلاثة يدخلون الجنة الشهيد وعبد أدى حق الله وحق مواليه وفقير عفيف متعفف وإني لأعلم أول ثلاثة يدخلون النار سلطان متسلط وذو ثروة من مال لا يؤدي حقه وفقير فخور)

قلت: بلى.

قال: فقد اعتبر ﷺ الفقير المتكبر بعيدا عن الله قريبا من النار، فإفراغ الجيوب ليس هو الطريق، بل الطريق هو إفراغ القلب من حب الدنيا والرغبة فيها.. واسمع لهذين الإمامين الربانيين يحدثانك.

فجأة ظهر ابن القيم والغزالي، وكأنهما يمسكان بأيدي بعضهما، فتعجبت مما يصفه الناس من الخلاف بينهما.

قال الغزالي: الفقير يستوي عنده وجود المال وفقده؛ فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذ، وإن فقده فكذلك، بل حاله كما كان حال عائشة ــ رضي الله عنها ــ إذ أتاها مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرّقتها من يومها فقالت خادمتها: ما استطعت فيما فرّقت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه، فقالت: لو ذكرتيني لفعلت.

قلت: فما سر هذه الحالة؟

قال: من هذا حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه، فلا يفرق بـــين أن تكون في يده أو في يد غيره، وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعاً.

وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله ﷺ وإلى أبـــي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها، إذ كان يستوي عندهم المال والماء والذهب والحجر.

قال ابن القيم[1]: هذا الفقر الذي يشيرون إليه لا تنافيه الجدة، ولا الأملاك، فقد كان رسل الله وأنبياؤه ــ عليهم الصلاة والسلام ــ في ذروته مع جدتهم وملكهم، كإبراهيم الخليل عليه السلام كان أبا الضيفان، وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك كان سليمان وداود ــ عليهما السلام ــ وكذلك كان نبينا ﷺ كان كما قال الله تعالى:﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾(الضحى:٨)

قالا ذلك، ثم اختفيا، لست أدري هل انصرفا عني أم انصرفت عنهما.

---

(١) مدارج السالكين:٢/٤٤٠.

لسان العجز

قلت: فعلمني أن أتكلم بلسان العجز.

قال: لن تتعلمه إلا إذا تحققت بالعجز.

قلت: لقد عرفت في الجوهرة السابقة عجزي.

قال: ذلك عجز الخلائق، فأين عجزك؟

قلت: أنا من الخلائق.

قال: هناك فرق كبير بين رؤيتك للخلق، ورؤيتك لنفسك.

قلت: كيف ذلك؟

قال: عجزك وعجز الخلائق ضروري، ولسان العجز يستدعي شعورا، فقد يعيش المرء أشل، ولكنه يغيب عن شلله متصورا أن له قوى المصارعين وحملة الأثقال.

قلت: وكيف أتحقق بشعور العجز؟

قال: بأن ترى نفسك عبدا له، لا تتحرك إلا بتحريكه، ولا تتوقف إلا بإيقافه، ليس لك من ذاتك قوة، ولا لك من ذاتك حول.

قلت: تعني أن أقول:(لا حول ولا قوة إلا بالله)

قال: تقولها ترجمة عن حقيقتك، لا حروفا وأصواتا من لسانك.

قلت: فما ألحظ فيها؟

قال: تلحظ قوته، فتطيش قوتك أما قوته، وتلحظ حوله، فيطيش حولك أمام حوله.

قلت: فترجم ذلك لخيالي ليستوعبه وجداني.

قال: انظر إلى القوى التي تتيه بها.

قلت: قوة الإرادة، فهي القوة التي تدكدك الجبال، وتفل الحديد، و..

قال: أدها بقوة الله حتى لا توقعك في المهالك، أو ترمي بك في أودية العجب والغرور.

قلت: وكيف أؤدها؟

قال: لا تنسبها لنفسك، بل تنسبها لله.

قلت: كيف، وأنا أشعر أنها قوتي وحيلتي.

قال: شعورك بها يدلك على الاعتماد عليها، واعتمادك عليها يحجبك عن الله، ألم تعرف أن الله لا يقبل على القلب المشترك؟

قلت: بلى، فقد عرفنا حكمة ابن عطاء الله:(كما لا يحب العمل المشترك، كذلك لا يحب

القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه)

قال: وهذا ما كان عليه أكبر العارفين.

قلت: تقصد الجنيد، أم..

قال: أقصد محمدا ﷺ، فما الجنيد وغيره إلا أشعة من نور المصطفى ﷺ، وقطرات من بحره، ومفردات من فهرس كمالاته، فلا تنشغل بالأشعة عن الجواهر، وبالقطرات عن البحار، وبالمفردات عن الفهارس.

قلت: فكيف كان ﷺ متحققا بهذا الشعور بالعجز أمام الله؟

قال: ما هو دعاؤه ﷺ الذي دعا به في الطائف؟

قلت: الدعاء معروف، وقد سبق أن ذكرناه في بعض مجالسنا، ومن صيغه:(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني؟ أم إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن ساخطا علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تحل علي غضبك أو تنزل علي سخطك ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)[1]

قال: كيف ترى النبي ﷺ في هذا الحديث؟

قلت: أراه ملتجئا إلى الله متضرعا إليه، كما يلتجئ الصبي الصغير الضعيف إلى والديه.

قال: وهل تاه ﷺ بحيلة أو بقوة؟

قلت: لا، بل تبرأ من كل حيلة أو قوة، وأسند أمره كله لله.. ولكن يا معلم قد كان هذا في حالة شديدة، ونحن قد نلتجئ إلى الله في مثل هذه الأحوال، ولكنا في مواقف العزة ننسى ذلتنا، وفي مواقف القوة والشدة ننسى عجزنا.

قال: كان هذا حاله ﷺ الدائم، ألم تسمع إليه، وهو يقول في ورد نومه الدائم:(اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت)[2]

بل إن تأملك لكل ما ورد عنه ﷺ من أدعية وأوراد يحمل هذه المعاني العميقة من اللجوء إلى

---

(١) الطبراني في الكبير عن عبد الله بن جعفر.

(٢) البخاري ومسلم.

الله، والتبرؤ من الحول والقوة.

قلت: ولكن كثيرا من قومي استغنوا عنها بأوراد وضعوها لأنفسهم.

قال: أهم أعرف بالله من رسوله ﷺ؟ أم لم يبلغهم ما ورد عنه ﷺ؟ أم لم يكفهم ما ورد عنه ﷺ؟ أم يريدون التميز بأنفسهم عن أمته ﷺ؟

قلت: أهم مبتدعون؟

قال: أنا لست قاضيا حتى أحكم عليهم، ولكنه ﷺ هو ربان سفينة النجاة، وهو الدليل في المتاهات، فمن ابتعد عن الربان قد يغرق، ومن ابتعد عن الدليل ستلتهمه المفازات.

قلت: فاذكر لي من أدعيته ﷺ ما يملؤني بهذا العجز الشعوري.

قال: كان ﷺ يقول في دعائه:(اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي لا يخفى عليك شيء من أمري، وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته وذل لك جسمه، ورغم[1]لك أنفه اللهم لا تجعلني بدعائك شقيا، وكن بي رؤفا يا خير المسؤلين ويا خير المعطين)[2]

قلت: هذا الدعاء يحمل معاني عظيمة من الالتجاء والتبرؤ من الحول والقوة.

قال: واسمع لقوله ﷺ:(اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت؛ اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني أنت الحي القيوم الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون)[3]

قلت: هذا الدعاء كذلك يفيض باللجوء إلى الله والاستعانة به.. لكن يا معلم ألا ترى أن هناك تعارضا بين مد اليد إلى الله بلسان العجز، وبين استعاذته ﷺ من العجز، فقد صح في الحديث قوله ﷺ:(اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر وفتنة الدجال، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها)[4] فقد استعاذ النبي ﷺ من العجز ولواحقه.

وقد ورد في حديث آخر النهي عن العجز، فقال ﷺ:(المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من

---

(١) ذل وانقاض حتى مس التراب الذي هو الرغام.
(٢) الطبراني في الكبير عن ابن عباس.
(٣) مسلم عن ابن عباس.
(٤) مسلم عن زيد بن أرقم.

المؤمن الضعيف، وفي كل خير. فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء الله فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان)

قال: ليس هذا فقط، بل ورد ذم العجز في القرآن الكريم، فقد قال تعالى مخبرا عن عجز المنافقين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ:﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(آل عمران:١٦٨)

قلت: ولهذا الذم نظائر في القرآن الكريم، فقد قالتعالى:﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾(التوبة:٤٦)، وقالتعالى:﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾(النساء:٩٥)، وقالتعالى:﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾(التوبة:٨٦)

قال: بل ورد ذم العجز في كل شيء حتى في هذا الموقف الذي وقفه ابن آدم الأول، قال تعالى:﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(المائدة:٣١)

قلت: إذن أنت تقر معي بذم العجز، فكيف يستقيم هذا مع طلب العجز، ومد اليد بلسان العجز؟

قال: العجز والقوة أمران نسبيان، فقد تظهر قوتك مع شخص، وتظهر عجزك مع آخر، فتكون قويا في الأول عاجزا في الثاني.

قلت: هذا صحيح، فإظهار قوتي مع من هو أقوى مني فضيحة لي، وقد يجرني إلى المتاعب التي لا أتحملها.

قال: فكيف إذا كان هذا القوي الذي يفوقك قوة هو الله؟

قلت: إظهار قوتي مع الله حمق.

قال: وهذا هو الذي عناه الأولياء بلسان العجز، فهم لا يريدون عجز الكسل، وإنما يريدون عجز الأدب.. ألم تسمع قصة الصاحبين المتحاورين في القرآن الكريم؟

قلت: بلى.

قال: فما هو المظهر الذي ظهر به الصاحب الذي رزقه الله الجنتين؟

قلت: بمظهر الكبرياء والاعتزاز بالقوة، كما قال تعالى:﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً﴾(الكهف:٣٤ ــ ٣٦)

قال: فإلى ماذا دله صاحبه الناصح؟

قلت: إلى التواضع لله، كما قال تعالى:﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾(الكهف:٣٧ ــ ٣٨)

قال: وما هو الموقف الصحيح الذي دله عليه؟

قلت: هو ما نص عليه قوله تعالى على لسان الصاحب الناصح:﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾(الكهف:٣٩ ــ ٤١)

قال: فما هي نتيجة مصارعة الكافر لله؟

قلت: هو ما نص عليه قوله تعالى:﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً﴾(الكهف:٤٢ ــ ٤٣)

قال: أتدري لم قال:﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾؟

قلت: لم، فلم يذكر القرآن الكريم أن هذا الصاحب من عباد الأصنام.

قال: بلى، فقد كان من عباد أخطر الأصنام، وهو صنم الأنا، صنم القوة التي تريد أن تصارع الله، وتعجز الله.

قلت: ألهذا إذن تكون عاقبة هؤلاء الهلاك الحتمي؟

قال: إذا جاء مصارع من المصارعين مدينة من المدن، وتحدى كل مصارعيها، فسكتوا، و لم ينبسوا ببنت شفة، ألا يعتقد أهل تلك المدينة، بل غيرها من المدن، بأن سكوقم كان عن عجز؟

قلت: بلى.

قال: فلذلك سيأتي أبطال تلك المدينة بكل قواهم ليتحدوا ذلك المصارع، ويعجزوه.

قلت: كل هذا صحيح.

قال: فلذلك كل من تحدى الله يعجزه الله، ألم تسمع القرآن الكريم وهو يخبرنا بسقوط كل من تحدى الله في أودية العجز والهلاك؟

قلت: بلى، فقد قال تعالى مخاطبا المشركين:﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾(التوبة:٢)، وقال لهم:﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(التوبة:٣)

وأخبر عن كثير من الأقوام الهالكين وسنة الله فيهم، فقال:﴿ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾(هود:٢٠)، وقالتعالى:﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(النور:٥٧)، وقالتعالى:﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾(فاطر:٤٤)، وقالتعالى:﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾(الزمر:٥١)، وقالتعالى:﴿ وَمَنْ لا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(الاحقاف:٣٢)

وخاطب الذين تصوروا عجز الله عن أن يعيدهم أحياء بعد أن يصيروا ترابا، فقال:﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾(الأنعام:١٣٤)، وقالتعالى:﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾(يونس:٥٣)

لسان المسكنة

قلت: يا معلم، لقد تعلمت ثلاثة ألسن أستطيع أن أمد بها يدي إلى الله، أفلا يكفي ذلك؟

قال: لا.. حتى تمد يد التذلل مستشفعة بلسان المسكنة.

قلت: وما لسان المسكنة؟

قال: هو اللسان الذي تخفض به جناحك أمام الله.

قلت: أفلا يكفي الاضطرار والافتقار والعجز؟

قال: لا.. فقد يبقى في المضطر والفقير والعاجز ما يتطاول به على ربه ويتكبر به عليه، ألم تسمع قوله ﷺ:(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)[1]؟

قلت: فكيف أتحقق بلسان المسكنة؟

قال: بالافتقار إلى الله طلبا لها، ألم تسمع قوله ﷺ:(اللهم أحييني مسكينا وتوفني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين فإن أشقى الأشقياء من جمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة)[2]

قلت: البعض يتهم هذا الحديث، بل يرويه في الموضوعات[3].

قال: من فعل ذلك فقد أوهم، وما كان لنا أن نرد حديث المصطفى ﷺ بسبب سوء الفهم له.

قلت: ولكن هذا الحديث قد يعارض بما ورد في النصوص من النهي عن التذلل، فقد قال ﷺ:(لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه)[4]

قال: هذا صحيح، فإن المؤمن أعز من أن يذل نفسه.

قلت: فكيف يجمع بين النهي عن الذلة وطلبها؟

قال: كما جمع بين النهي عن العجز وطلبه.

قلت: أتعني أن الذلة محرمة مع الخلق واجبة مع الله.

قال: لا أقول مثل هذه التعبيرات، فهذه تعبيرات الفقهاء، ولكني أقول: المؤمن يذل نفسه لله، ولمن أمر الله.

---

(١) النسائي عن أبي هريرة.

(٢) الحاكم عن أبي سعيد، وقال صحيح ووافقه الذهبي.

(٣) مثل ابن الجوزي.

(٤) ابن ماجه.

قلت: أجل.. لقد تذكرت.. هناك من أمرنا بالتذلل لهم، كما قال تعالى في الأمر بالتذلل للوالدين:﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾(الاسراء:٢٤)

قال: ومع ذلك، فإن التذلل إلى الله يحمل كل معاني العزة.

قلت: كيف؟

قال: لأن التذلل إلى الله انتساب له، ومن انتسب إلى الله أعطاه الله من العزة ما يناطح السحاب، ألم تسمع قوله ﷺ في دعاء القنوت:(اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت، وتولني فيمن توليت وبارك لي فيما أعطيت، وقني شر ما قضيت، إنك تقضي ولا يقضى عليك وإنه لا يذل من واليت تباركت ربنا وتعاليت)[1]

بل إن الله تعالى وسم النبي ﷺ بسمة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدى:

فقال تعالى في مقام الإسراء:﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الاسراء:١)

وقال في مقام الدعوة:﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾(الجـــن:١٩)

وقال في مقام التحدي:﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:٢٣)

قلت: لقد ذكرتني بقول الشاعر الصالح:

ومـمـــا زادني شـــرفا وتيهـــا

وكـــدت بأخمصـــي أطـــأ الثريـــا

دخـــولي تحـــت قولـــك يـــا عبـــادي

وأن صـــيرت أحمـــد لي نبيـــا

---

(١) أحمد وأبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن.

وقال الآخر:

وإذا تــــــــــــــــــــذللت الرقــــــــــــــــــاب تقربـــــــــــــــــــاً
منـــــــــــــــــها إليـــــــــــــــك فعزهـــــــــــــــــا في ذلهـــــــــــــــا

وقال الآخر:

حيـــــــــــــــــث أســــــــــــــلمتني إلى الــــــــــــــــذال والـــــــــــــــلا
م تلقيــــــــــــــــــــــــــــتني بعــــــــــــــــــــــــــــين وزاي

ولكن.. يا معلم، هذه حقيقة.. ولكن قومي يكادون يأبون عليها.

قال: وما يقولون؟

قلت: فيهم من يبالغون في المظاهر من لباس ومراكب وبنيان بحجة التعزز بها لنصرة دين الله، حتى أن بعضهم قال:(لو جاء ﷺ في هذا الزمان للبس بذلة عصرية، وامتلك سيارة مرسيدس..)

قال: وما مرسيدس؟

قلت: سيارة فخمة، لا يملتكها إلا الكبار.

قال: فقد أخطأ من قال هذا، ورسول الله ﷺ أعظم شأنا من أن نتكلم عنه بهذا الأسلوب، فمن نحن حتى نملي على رسول الله ﷺ ما يفعل؟

ثم التفت إلي، وقال: ألم يقرأوا كيف كانت حياة النبي ﷺ؟

قلت: بلى، ولكنهم يقولون: ذلك واقع، وهذا واقع، وأحكام الدين تتغير بتغير الواقع.

قال: أي واقع هذا؟ أتنسخون الدين بالواقع؟.. لقد كان في عهده ﷺ من أنواع الترف ما كان، ولكنه ﷺ آثر الحياة التي عاشها على كل ذلك الترف، مؤثرا حياة العبودية، ألم يقرأوا ما روي عن عمر ﷺ في حديث طويل قال فيه:(فجلست فرفعت رأسي في البيت ــ أي بيته ﷺ ــ فوالله ما رأيت في البيت شيئا يرد البصر إلا أهبة ثلاثة، فقلت:(ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله)، فاستوى جالسا، ثم قال:(

أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا)[1]

قلت: بلى، وقد رويت النصوص الكثيرة المؤيدة لهذا، فقد كان ﷺ ينهى عن الأكل متكئا، ويقول:(إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب العبد)[2]

وكان ينهى عن إطرائه والمبالغة في مدحه، ويقول:(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله)[3]

وعندما قال له رجل: يا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال له النبي ﷺ:(قولوا ما أقول لكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنزلوني حيث أنزلني الله، أنا عبد الله ورسوله)[4]

قال: وهكذا كان سلف الأمة الصالح ﷺ، ألم تقرأوا سيرة عمر ﷺ؟

قلت: بلى، فقد اشتد على نفسه اشتدادا عظيما.

قال: وانتفعت الرعية بتشدده انتفاعا لا حدود له.

قلت: أذكر موقفا من المواقف التي لا تزال تسجل، فقد روى طارق بن شهاب قال: لما قدم عمر بن الخطاب ﷺ الشام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره ونزع خفيه، فأخذهما بيده، وأخذ بخطام راحلته، ثم خاض المخاضة، فقال له أبو عبيدة بن الجراح: لقد فعلت يا أمير المؤمنين فعلا عظيما عند أهل الأرض! نزعت خفيك وقدت راحلتك وخضت المخاضة! فصك عمر بيده في صدر أبي عبيدة، وقال: أوه يمد بها صوته! لو غيرك يقولها! أنتم كنتم أذل الناس وأضل الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله تعالى)[5]

قال: فبمن استعز عمر ﷺ؟

قلت: بالله وبدين الله.

قال: فلماذا لم يستعز بما استعز به ملوك ذلك الزمان؟

قلت: لفقهه عن رسول الله ﷺ.

قال: ألا تعلم من أين استنبط عمر ﷺ هذا من القرآن الكريم؟

قلت: لا أعلم أن في القرآن الكريم ما يشير إلى هذا؟

قال: بلى، ففي القرآن الكريم علوم الأولين والآخرين.. لقد استنبط هذا من قوله تعالى لنبي

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) ابن عدي عن أنس.
(٣) البخاري.
(٤) ابن النجار.
(٥) ابن المبارك وهناد، والحاكم في المستدرك كتاب معرفة الصحابة (٨٢/٣).

إسرائيل:﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة:٥٨)، أتعلم كيف أمروا أن يدخلوا؟

قلت: نعم، فقد أمروا أن يخضعوا للّه تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها.

قال: لئلا يهزهم زهو النصر، وتجرهم نشوته إلىالتكبر والعزة الآثمة.

قلت: ولهذا كان ﷺ يظهر عليه خضوعا عظيما عند النصر، كما روي أنه كان يوم فتح مكة داخلاً إليها من الثنية العليا وإنه لخاضع لربه حتى أن عثنونه ليمس مورك رحله شكراً للّه على ذلك.

قال: أتدري بما قابل بنو إسرائيل هذا الأمر الإلهي بالتواضع؟

قلت: لقد نص القرآن الكريم على كونهم بدلوا ما أمروا به، فقال تعالى:﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾(البقرة:٥٩)

وقد أخبر ﷺ بما بدلوا به هذا الأمر، فقال:(قيل لبني إسرائيل ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾(البقرة: من الآية٥٨)، فدخلوا يزحفون على أستاههم، فبدلوا وقالوا:(حبة في شعرة)[1]

قال: فحذر قومك من سراديب الاعتراض على النصوص وتأويلها والفرار من مستلزماتها.. فإن الأديان ما حرفت إلا بالاعتراض.

قلت: فكيف أمد يدي بلسان المسكنة؟

قال: بالكيفية التي علمنا ﷺ، فقد كان يلجأ إلى الله مطأطئ الرأس متواضعا بين يدي الله.

ثم التفت إلي ، وقال: فقد عرفت إذن.

قلت: وما عرفت؟

قال: أن لسان المسكنة هو لسان العبودية، وهو لسان الخضوع لله، والتذلل بين يديه، واسمع لهذا الدعاء الرقيق النابع من عبودية عظيمة، كان ﷺ يقول إذا قام إلى الصلاة:(وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما انا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك أنت ربي، وأنا عبدك ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا لا

(١) البخاري عن أبي هريرة.

يغفر الذنوب إلا أنت، وأهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله بيديك، والمهدي من هديت أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك)[1]

وكان ﷺ إذا ركع قال:(اللهم لك ركعت وبك آمنت وإليك أسلمت أنت ربي، خشع سمعي وبصري ومخي وعظامي، وما استقلت به قدمي لله رب العالمين)[2]

وكان ﷺ يعلم أن سيد الاستغفار أن يقول العبد:(اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، لا يقولها أحد حين يمسي فيأتي عليه قدر قبل أن يصبح إلا وجبت له الجنة، ولا يقولها حين يصبح فيأتي عليه قدر أن يمسي إلا وجبت له الجنة)[3]

وكان ﷺ يقول:(إن أوفى كلمة عند الله أن يقول العبد اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي، ولا يغفر الذنوب إلا أنت أي رب فاغفر لي)[4]

ما إن قال هذا حتى شعرت بجوهرة عظيمة تتنزل علي، تنمحي بنزولها بعض الظلمات.

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) الترمذي عن شداد بن أوس.

(٤) الطبراني في الكبير عن أبي مالك الأشعري.

رابعا ــ كنز الفضل

سرت مع معلم السلام نبحث عن القصر الذي يتواجد به كنز الفضل، لاح لنا قصر جميل، كله أبواب يؤدي بعضها إلى بعضه، بل هو نفسه يشبه بابا كبيرا، وقد غرست على جوانب القصر الأربع أصناف الأشجار المثمرة والزروع اليانعة.

لقد كان القصر يشبه لوحده مدينة ضخمة تعج بالحياة، التفت إلىاللافتة المعلقة في بوابة القصر، فإذا مكتوب عليها قوله تعالى:﴿ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾(يوسف: من الآية٦٧)

سألت المرشد عن سر وضع هذه الآية هنا، فقال: هذا قصر الفضل، وهذا القصر يعرفونه في مدائن الغنى بقصر الأبواب، فهو كثير الأبواب، وهي متداخلة بعضها في بعض، ولكن أبوابه الكبرى أربعة.

وقد وضعت هذه اللافتة هنا لتنبه الداخل إلى أن لا يلتمس بابا واحدا للدخول، بل إذا وجد بابا مغلقا في وجهه يلتمس بابا آخر، فلا بد لكل داخل لهذا القصر من أبواب مفتوحة، ومن جواهر ينالها.

قلت: كيف؟ لم أفهم.. عهدي في قصور هذه المدائن أن أدخلها من بابها، ثم أرتقي طوابقها طابقا طابقا إلى الطابق الرابع.

قال: هذا القصر ليس فيه طوابق، بل فيه بدل ذلك أبواب، ألم تسمع عن أبواب الجنة؟

قلت: بلى، سمعت، فقد قال تعالى فيها:﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾(الرعد:٢٣)، وقالتعالى:﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾(الزمر:٧٣)

قال: فما عددها؟

قلت: ورد في النصوص أنها ثمانية أبواب كبرى، فقد قال ﷺ:(في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون)[1]

ولا مانع من وجود أبواب فرعية لهذه الأبواب الكبرى، وهو ما يجمع بين النصوص في هذا الباب.

---

(١) البخاري.

قال: فما فائدة تلك الأبواب؟

قلت: لا يدخل من كل باب من تلك الأبواب إلا المستحق له، فقد قال ﷺ:(لكل باب من أبواب البر باب، من أبواب الجنة، وإن باب الصيام يدعى الريان)[1]، وقال ﷺ:(من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع بصره إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء)[2]

قال: أرأيت لو أن شخصا لم تتوفر فيه الخصال الكافية لدخول واحد من تلك الأبواب، أيؤذن له بدخوله؟

قلت: كلا، فالنصوص تدل على حرمانه منه.

قال: فكذلك هذه الأبواب.. فهي أبواب لفضل الله، وهي أربعة، لا يجوز دخول أي واحد منها إلا لمن استحق دخوله.

قلت: فما هي؟

قال: باب السعي، وباب الإحسان، وباب الالتزام، وباب الرجاء، أما هذان البابان الأخيران، فهما مفتوحان لكل داخل، وأما باب السعي فمفتوح للأقوياء فقط، وأما باب الإحسان، فمفتوح للضعفاء فقط.

قلت: فأين جواهر هذا القصر؟

قال: هي في أبوابها، فبمجرد تحققك بما يقتضي الباب من معارف تنال الجواهر التي تناسب ذلك الباب.

قلت: فلم كانت الأبواب أربعة، والجواهر أربعة؟

قال: لأن الله تعالى جعل لفضله في هذه الدنيا هذه الأبواب الأربعة.

قلت: ولكن أبواب فضل الله لا تحد ولا تعد.

قال: ولكنها تجتمع في هذه الأربع لا تعدوها، وكلها مذكورة في القرآن الكريم، ومفصلة في أحكام الشريعة.

---

(١) الطبراني في الكبير عن سهل بن سعد.

(٢) النسائي وابن ماجة والحاكم عن عمر.

١ ـــ جوهرة السعي

كان أول باب مقابل لنا باب كتب عليه (باب السعي)، ومكتوب بجانبه لافتة سجل عليها (لا يدخله إلا من له كسب، أو قدرة على الكسب)

اقتربت مع المعلم من ذلك الباب لالتماس الجوهرة التي يحتوي عليها، فلاحت لي جوهرة نفيسة دهشت لجمالها.

سألت المرشد عنها، فقال:(هذه جوهرة نفيسة، تؤنس تعبي، وتمسح عرقي، وتمدني بالقوة التي أحمل بها فأسي ومعولي)

ابتسمت، وقلت: أتحمل أيها المرشد فأسا ومعولا، أين؟.. لم أرك تفعل ذلك.. بل إن هندامك يدل على أنك لا تعرف الفأس ولا المعول.. فكيف تزعم أنك تحمله؟

قال: ما أسرع ما تنسى، ألم أقل لك: إنني ذلك الرجل الذي زرته في بيته.. ألم تر في البيت فأسا ومعولا؟

قلت: بلى.

قال: فأنا إذا ما أرهقني التعب، جئت إلى هذه الجوهرة مستأنسا بها.

قلت: فما الحقائق التي تنطوي عليها، والتي تجعل لها هذه القدرة العجيبة على تبديل التعب راحة، والألم لذة؟

قال: ذلك سؤال يجيب عنه المعلم، لا أنا، فقد أذن له في الكلام، ولم يؤذن لي.

التفت إلى المعلم، فقلت: ما الحقائق التي تنطوي عليها هذه الجوهرة؟

قال: حقائقها عظيمة، ولكن الصراع الذي تتعاملون به مع الأشياء أوقعكم في الغفلة عنها.

قلت: فعلمني ما أصارع به الصراع فأصرعه.

قال: السلام لا يعرف الصراع، ولا يعلم الصراع.

قلت: فكيف ينتهي الصراع إذن؟

قال: ينتهي بالسلام.. ينتهي بالنسيم العليل الذي يهب على صفحة البحار الهادرة ليجعلها مرآة تنتظم الحقائق.

قلت: فانفخ في بحار روحي الهادرة هذا النسيم العليل، لأعيش السلام.

قال: ألم أقل لك: إنني لا طاقة لي ببناء ولا هدم، فكيف تكون لي طاقة بالنفخ؟

قلت: فكيف أتحقق إذن؟

قال: بالحقيقة.

قلت: وكيف أصل إلى الحقيقة؟

قال: بالنور.

قلت: نور الشمس أم نور القمر؟

قال: بكليهما، فنور الشمس يغذي نور القمر.

قلت: تقصد بالسراج المنير الحامل للحقائق، وبالقلب الصافي المستعد لتقبلها.

قال: أقصد نور الله الهادي، ونور الإيمان المستوعب.

قلت: فما الحقائق التي ينالها من يستلم هذه الجوهرة؟

قال: أربع.. كل واحد منها مرتبة تؤدي إلى التي تليها.. أو كل باب منها يؤدي إلى الباب الذي يليه.

قلت: ما هي؟

قال: التشجيع، والتدريب، والمال، والعمل.

قلت: فعلمني علومها.. وفقهني من فقهها.

قال: لن تتعلم علومها هنا.

قلت: فأين تتعلمها؟

قال: عندما ترحل باحثا عن مفاتيح المدائن[1].

(١) انظر التفاصيل المرتبطة بهذه الأبواب في رسالة:« مفاتيح المدائن » وهو الجزء الثالث من هذه المجموعة.

٢ ـــ جوهرة الإحسان

اقتربنا من الباب الثاني من أبواب الفضل، فرأيت خيرا كثيرا يتساقط كما يتساقط الثلج، لكنه ثلج دافئ لطيف تنتشر منه روائح زكية، فسألت المرشد عن هذا الباب، فقال: هذا باب الإحسان.

قلت: باب (أن تعبد الله كأنك تراه)؟

قال: لا.. هو مشتق من ذلك الباب، وهو نور من أنواره، بل هو أول نور من أنوره.

قلت: فما جهة اشتقاقه؟

سكت المرشد، فقال المعلم: لا يمكنك أن تعرف الله، ثم يمتلئ قلبك قسوة على خلقه، فمن أحب الله امتلأ قلبه رحمة ورقة ومودة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألم تقرأ القرآن الكريم؟

قلت: بلى.. فقد قرأته بحمد الله ومنته.

قال: فكيف تحدث عن المساكين؟

قلت: لقد ربط الله تعالى حقوق المساكين بحقوقه، فقال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (البقرة:٨٣)، وقال تعالى:﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء:٣٦)

بل ربطها بالإيمان به، فقال تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٧٧)

قال: فهذا ما يدلك على أن أول نور من أنوار الإحسان أن تشمل الخلق بما أعطاك الله من فضل.. ألا ترى السراج؟

قلت: ما به؟

قال: أيمكن أن ينشر السراج الظلام؟

قلت: لو فعل ذلك لم يبق سراجا.

قال: فكذلك المؤمن العارف بربه لا يمكن إلا أن يكون محسنا.

قلت: ولكن انتظار الإحسان من الخلق قد يملأ صدور الفقراء بالغفلة.

قال: أهل الله من الفقراء لم يعنهم أن تصلهم الأعطيات التي رتبها الله لهم، وإنما ملأ صدورهم أشواقا وراحة وسرورا اقترانهم بالإيمان بالله ، وبعبوديته، فلذلك إذا نالهم ما نالهم من يد الأغنياء قبضوها باسم الله ، ومن يد الله، فبورك لهم فيها.

***

رأيت أربعة نوافذ تقابل الداخل من باب الإحسان، فسألت المرشد عنها، فقال: هذه نوافذ الإحسان الأربعة، يهب على كل نافذة منها فضل من فضل الله ولطف من ألطافه.

قلت: فما النافذة الأولى؟

قال: نافذة العدالة.

قلت: فأي ريح تهب من هذه النافذة.

قال: نافذة الخلفاء الراشدين المهديين.

قلت: الأربعة؟

قال: الأربعمائة.. ففضل الله أعظم من أن يحصر في أربعة.

قلت: فما تقصد به؟

قال: نافذة الحاكم العادل الذي يقسم مال الله على خلق الله.

قلت: فما النافذة الثانية؟

قال: نافذة العبودية.

قلت: فأي ريح تهب من هذه النافذة؟

قال: رياح العبودية التي ترسلها التكاليف الشرعية.

قلت: تقصد الزكاة.

قال: كل فرائض الله من الزكاة والنذور والكفارات.

قلت: فما النافذة الثالثة؟

قال: نافذة المروءة.

قلت: فأي ريح تهب منها؟

قال: ريح الأخلاق السامية ، والآداب الرفيعة، التي تمنع المؤمن من أن يبيت شبعان وجاره جائع.

قلت: فما النافذة الرابعة؟

قال: نافذة الرحمة.

قلت: فأي ريح تهب منها؟

قال: نافذة الرقة التي تنتشر من القلب إلى اليد ، فتنتشر منها روائح الإحسان الزكية.

إحسان العدالة

اقتربنا من النافذة الأولى، والتي تشع منها روائح العدالة الطيبة، فقال لي المعلم: ويل للحكام من دولة الفقراء.

قلت: أللفقراء دولة؟ متى وأين؟

قال: في محكمة العدل الإلهية ، سيقتص الله لجميع الفقراء من جميع الحكام.

قلت: وما علاقة الحكام بفقر الفقراء؟ إن الحاكم يحكم الرعية جميعا، لا الفقراء وحدهم، بل هو عادة لا يحكم إلا بعد أن يرضى عنه الأغنياء، فكيف تطلب منه أن يغني الفقراء؟

قال: ولكن أولى الناس برحمة الحاكم أضعفهم ، أليس الحاكم أب لرعيته؟

قلت: يمكنك أن تقول ذلك.

قال: فمن أولى الأولاد برعاية والدهم؟

قلت: أضعفهم حتى يقوى ، وأحوجهم حتى يغتني.

قال: فكذلك الحاكم العادل.. يمتد بصره أول ما يمتد إلى الفقراء والضعفاء من رعيته، فيشملهم بما وضع الله لهم من أرزاق.

قلت: ولكن الله وضع الزكاة للفقراء.

قال: وقبل الزكاة وضع العدالة، فلو عدل الحكام في توزيع ثروة الأمة ، لما احتاج الفقراء إلى الزكاة.

قلت: أتريد إسقاط فريضة الزكاة؟

قال: لقد جعل الله للزكاة ثمانية أصناف لا بد أن يوجدوا في كل عصر لا محالة، فقال تعالى:﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٦٠)

قلت: أتريد أن تخص الزكاة لغير الفقراء؟

قال: لا.. هم أولى الناس بها.. وهي مكملة للعدالة ، فلا يمكن أن يكتفي الفقراء بما تدر عليهم جيوب الأغنياء.

قلت: ولكن مطالب الدولة كثيرة ، ولا يمكن الوفاء بها مع الاهتمام بالمعوزين.

قال: أوضع الراعي لحاجات الإنسان، أم لحاجات البنيان؟

قلت: لا يمكن أن يكون الإنسان بلا بنيان.

قال: ولا يمكن أن يكون البنيان بلا إنسان، أتريدون أن تعمروا بنيانكم بالخفافيش؟

قلت: نعمرها بالأغنياء.

قال: ستترل عليكم حينها لعنات الفقراء، فتظلم عليهم قصورهم.

قلت: أترى أن توزع ثورة الأمة على الفقراء؟

قال: على الأمة جميعا ، فقراءهم وأغنياءهم بحسب حاجاتهم.

قلت: نحن نوزعها على العاملين.

قال: والعاجزون والبطالون الذين لم يجدوا عملا؟

قلت: نتركهم لرحمة الأغنياء.

قال: فإن شح الأغنياء؟

قلت: نكتب القصائد المؤثرة في رثائهم لنستدر عطف الأغنياء على أولادهم.

قال: هذه روائح القارونية التي خسف الله بسلفها الأرض.

قلت: وهل هناك غير القارونية؟

قال: هناك الخلافة الراشدة.. وهناك الخلفاء الراشدون.. ألم تقرأ سيرهم؟

قلت: بلى.. فقد كان الخلفاء الراشدون يوزعون ثورة الأمة على أفرادها.

قال: يعطوهم حقهم الذي جعل الله لهم.

قلت: لقد روى المؤرخون عن عمر ﷺ من ذلك الكثير.

قال: فاذكر بعض ما رووا لتنتفعوا بهديهم، ألم يأمركم رسول الله ﷺ بأن تستنوا بهديهم؟

قلت: بلى.. فقد جاء في الحديث عن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رَسُول اللَّهِ ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون. فقلنا: يا رَسُول اللَّهِ كأنها موعظة مودع فأوصنا. قال:(أوصيكم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد[حبشي]، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً! فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة)[1]

قال: فكيف كانت سنة عمر ﷺ في تقسيم أموال الأمة؟

قلت: أراد أن يفرض للناس، فقالوا: ابدأ بنفسك، فقال: لا، فبدأ بالأقرب فالأقرب من رسول الله ﷺ، ففرض للعباس، ثم علي حتى والى بين خمس قبائل، حتى انتهى إلى بني عدي بن كعب[2].

---

(١) أبو داود والترمذي وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيح.

(٢) البخاري ومسلم.

وروي عن قيس بن أبي حازم أن عمر بن الخطاب ﷺ فرض لأهل بدر خمسة آلاف، وقال: لأفضلنهم على من سواهم.

قال: أتدري لم فضل عمر ﷺ خيار الناس على غيرهم؟

قلت: لقد ظللت أتساءل عن سر عدم تسوية عمر ﷺ بين رعيته مع أن العدالة تقتضي التسوية بين الرعية.

قال: لقد نظر عمر ﷺ إلى مصلحة الفقراء، فلذلك جعل الأموال في أيدي الصالحين.

قلت: فلم لم يضعها في أيدي الفقراء مباشرة؟

قال: لو وضعها في أيديهم لأفسدوها، أو لأفسدتهم.. أليست الأموال هي قوام حياة الأمة؟

قلت: يمكنك أن تقول ذلك.

قال: بل لا بد أن أقول ذلك ، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ (النساء:٥)، فقد اعتبر الله الأموال هي قوام حياة الأمة[1].

قلت: بلى.. فما في هذا الاستدلال؟

قال: هذه دعوة للحرص على قوام حياة الأمة بأن لا يوضع إلا في الأيدي النزيهة الحكيمة، لأنه لو وضع في يد غيرها ضاع وضيع.. عد بنا إلى سياسة عمر في حفظ مال الأمة وتوزيعه.

قلت: لقد روى الثقاة عنه أنه قال:(لئن بقيت لأجعلن عطاء الرجل أربعة آلاف: ألف لسلاحه، وألف لنفقته، وألف يخلفها في أهله، وألف لفرسه)

وعن عائشة ــ رضي الله عنها ــ قالت: كان عمر بن الخطاب يرسل إلينا بأعطائنا حتى من الرؤس والأكارع.

قال: ولي الأمر العادل هو الذي ينظر إلى الحاجات الأساسية للرعية فيكفيها.

قلت: روي أن أبا هريرة ﷺ قدم على عمر من البحرين، قال: فقدمت عليه، فصليت معه العشاء، فلما رآني سلمت عليه، فقال: ما قدمت به؟ قلت: قدمت بخمسمائة ألف، قال: تدري ما تقول؟ قلت: مائة ألف، ومائة ألف، ومائة ألف، ومائة ألف، ومائة ألف، قال: إنك ناعس ارجع إلى بيتك فنم ثم اغد علي، فغدوت عليه فقال: ما جئت به؟ قلت: بخمسمائة ألف، قال: أطيب، قلت نعم، لا أعلم إلا ذاك، فقال للناس: إنه قدم علي مال كثير، فإن شئتم أن نعده لكم

---

(١) قال ابن قتيبة: قياماً وقواماً بمنزلة واحدة ، تقول: هذا قوام أمرك وقيامه ، أي: ما يقوم به [أمرك]. وذكر أبو علي الفارسي أن «قواماً» و«قياماً» و«قيماً» ، بمعنى القوام الذي يقيم الشأن.

عدا، وإن شئتم أن نكيله لكم كيلا؟ فقال رجل: يا أمير المؤمنين إني رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوانا، يعطون الناس عليه، فدون الديوان، وفرض للمهاجرين في خمسة آلاف خمسة آلاف، وللأنصار في أربعة آلاف اربعة آلاف، وفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم في اثني عشر ألفا اثني عشر ألفا[1].

قال: ولي الأمر العادل هو الذي يعلم رعيته بما لديها من أموال، ويستشيرها في كيفية إنفاقه.

قلت:روى أسلم قال: سمعت عمر ﷺ يقول: اجتمعوا لهذا المال، فانظروا لمن ترونه، وإني قد قرأت آيات من كتاب الله سمعت الله يقول:﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحشر:٧ ـــ ٨) والله ما هو لهؤلاء وحدهم:﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩)، والله ما هو لهؤلاء وحدهم ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر:١٠)، والله ما من أحد من المسلمين إلا وله حق في هذا المال، أعطي منه أو منع حتى راع بعدن[2].

قال: ولي الأمر العادل هو الذي يوزع ثروة الرعية على الرعية، ولا يستأثر منها بشيء.

قلت: أجل.. وقد روي في هذا الكثير، فعن الأحنف بن قيس قال: كنا جلوسا بباب عمر فخرجت جارية فقلنا: سرية أمير المؤمنين، فسمعت فقالت: ما أنا بسرية أمير المؤمنين، وما أحل له، إني لمن مال الله، فذكر ذلك لعمر، فقال: صدقت، وسأخبركم بما أستحل من هذا المال، أستحل منه حلتين: حلة للشتاء، وحلة للصيف، وما يسعني لحجي وعمرتي وقوتي وقوت أهل بيتي، وسهمي مع المسلمين كسهم رجل ليس بأرفعهم ولا أوضعهم[3].

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٦/٣٥٠).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب قسم الفيء والغنيمة باب ما جاء قول أمير المؤمنين (٦/٣٥١).

(٣) أبو عبيد في الأموال ورواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب قسم الفيء والغنيمة باب ما يكون الموالي (٦/٣٥٣).

وعن الحسن قال: كتب عمر إلى حذيفة أن أعط الناس أعطيتهم وأرزاقهم، فكتب إليه: إنا قد فعلنا وبقي شيء كثير، فكتب إليه عمر أنه فيئهم الذي أفاء الله عليهم، ليس هو لعمر، ولا لآل عمر، إقسمه بينهم[١].

وروي عن ابن عمر قال: قدمت رفقة من التجار، فنزلوا المصلى، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليلة من السرق؟ فباتا يحرسانهم، ويصليان ما كتب الله لهما، فسمع عمر بكاء صبي فتوجه نحوه، فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك، ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه، فقال لها مثل ذلك، ثم عاد إلى مكانه، فلما كان في آخر الليل سمع بكاءه، فأتى أمه، فقال: ويحك إني لأراك أم سوء، مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة إني أريغه عن الفطام فيأبى، قال: و لم؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرا، قال: ويحك لا تعجليه، فصلى الفجر وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤسا لعمر كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر مناديا فنادى ألا لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق: إنا نفرض لكل مولود في الإسلام.

قال: وولي الأمر العادل هو الذي يعلم أن لكل زمن رزقه ، فلذلك لا يخزن الأموال ليعبث بها العابثون.

قلت: لقد روي في ذلك عن يحيى بن سعيد عن أبيه، قال: قال عمر بن الخطاب لعبد الله بن الأرقم: اقسم بيت مال المسلمين في كل شهر مرة، اقسم مال المسلمين في كل جمعة، ثم قال: اقسم بيت مال المسلمين في كل يوم مرة، فقال رجل من القوم: يا أمير المؤمنين لو أبقيت في بيت مال المسلمين بقية تعدها لنائبة أو صوت، يعني خارجة، فقال عمر للرجل الذي كلمه: جرى الشيطان على لسانك لقنني الله حجتها، ووقاني شرها، أعد لها ما أعد لها رسول الله ﷺ طاعة الله عز وجل ورسوله ﷺ[٢].

وروي عن الحسن قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى:(أما بعد فاعلم يوما من السنة لا يبقى في بيت المال درهم حتى يكتسح اكتساحا حتى يعلم الله أني قد أديت إلى كل ذي حق حقه)[٣]

---

(١) ابن سعد.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب قسم الفيء والغنيمة باب الاختيار في التعجيل (٣٥٧/٦).

(٣) ابن سعد وابن عساكر.

إحسان العبودية

اقتربنا من النافذة الثانية، والتي تشع منها روائح العبودية الخاشعة، فقال لي المعلم: ويل لمن ملك المال، و لم يؤد عبوديته[1].

قلت: أراك ترسل الويل أمام كل نافذة، ألم نؤمر بالتبشير؟

قال: وهذا من التبشير، ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: من الآية٣٤)

قلت: ولكنه تبشير مجازي.. التبشير الحقيقي هو التبشير بالنعيم.

قال: هناك من شغله ما يعيش فيه من نعيم عن كل نعيم ، فاحتاج إلى هذا النوع من التبشير المؤلم.

قلت: فأي ريح من روائح الإحسان تهب من هذه النافذة؟

قال: أرياح كثيرة تجمعها أربعة: الزكاة، والحق الذي سوى الزكاة ، والكفارات، والنذور.

الزكاة:

قلت: فما الزكاة؟

قال: هي الأموال التي تخرج من خزائن الأغنياء، لتحفظ أموالهم من المحق.

قلت: أراك تذكر مصالح الأغنياء من الزكاة، وتغفل عن مصالح الفقراء فيها.

قال: لأن مصالح الأغنياء من الزكاة أعظم من مصالح الفقراء، فلولاها لمحقت بركة أموالهم.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أرأيت الدم الذي يخرجه المحتجم من عروقه؟

قلت: أجل.. ما به؟

قال: أيستفيد جسمه من خروجه أم لا؟

قلت: بل يستفيد أعظم فائدة، وقد رأينا بعض ذلك في ابتسامة الأنين.

قال: فهكذا المال الذي يخرج بالزكاة.

قلت: ولكن الفقراء ــأيضا ــ تنالهم بركات الزكاة.

قال: تنالهم بركات زكاة العبودية التي تخرج خالصة لوجه الله ، ولا تحتال على أحكام الله.

قلت: أهناك من يحتال على الزكاة؟

---

(١) أخرج الطبراني في الأوسط عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال:« ويل للأغنياء من الفقراء »

قال: كما أن هناك منن يحتال على الضرائب التي تفرضها دولكم، هناك من يحتال على الزكاة التي فرضها ربكم.

قلت: الحيل على الضرائب يمارسها المحاسبون والمحامون، والزكاة ليست بيد هؤلاء.. هي بيد الفقهاء، وهم من هم دينا وورعا.

قال: لا يعوز الأغنياء أن يجدوا من يحتال لهم.

قلت: سمعت بالحيل الفقهية، ولكني أعلم أنها من فعل اليهود، ومن فعل أهل السبت منهم خصوصا.

قال: وأهل الأحد والجمعة؟

قلت: لم تذكر لهم حيل في القرآن الكريم.

قال: ولكن حيلا كثيرة ذكرت في دواوينهم، أما أهل الأحد، فقد احتالوا على شريعتهم جميعا، فنسخوها بعبارة واحدة[1]، وأما أهل الجمعة، فما أكثر ما احتالوا لأنفسهم.

قلت: فهلا ضربت لي أمثلة؟

قال: الأمثلة كثيرة.. وليس هذا ميدانها، وقد علمت أن لك كتابا في هذا.

قلت: أجل.. وقد توقفت في كثير من مسائله ، فبم تشير علي؟

قال: لا تعمل عقلك مع النصوص.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد كفاكم الله جميع ما تحتاجون إليه من العلم، فلا تؤولوا النصوص ولا تهربوا منها، ولا تحتالوا عليها.

قلت: ولكن مسائل كثيرة مستجدة حدثت ، ولا بد من إعمال العقل للبحث عن حكم الله فيها.

قال: عيشوا النصوص، أو اسمعوها ، وستجدون كل ما تبحثون عنه.

قلت: فهلا ضربت لي مثالا على هذا أعيه، أو أنطلق منه؟

---

(١) فبولس يعتبر شريعة الله التي تهذب السلوك البشري لعنة، فيقول: " المسيح افتدانا من لعنة الناموس" (غلاطية ٣/١٣)، ويعلن عن عدم الحاجة إليها بعد صلب المسيح فيقول: " قد كان الناموس مؤدبنا إلى المسيح لكي نتبرر بالإيمان ، ولكن بعد ما جاء الإيمان لسنا بعد تحت مؤدب " (غلاطية ٣/٢٤ – ٢٥)، ويؤكد إبطال الناموس فيقول: "سلامنا الذي جعل الاثنين واحد.. مبطلاً بجسده ناموس الوصايا " (أفسس ٢/١٤–٥)، ويقول: " الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس ، بل بإيمان يسوع ، لأنه بأعمال الناموس لايتبرر جسد ما " (غلاطية ٢/١٦)، بل يذهب إلى ما هو أخطر من ذلك ، فيقول:« قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس " (غلاطية ٥/٤)

قال: أنتم تحرمون خلقا كثير من الزكاة بسبب قياس فاسد.

قلت: نحن نفعل هذا؟

قال: أجل.. وتكادون تجمعون عليه.

قلت: فما نفعل؟

قال: ألم ترد النصوص بوجوب الزكاة في نصاب الذهب والفضة؟

قلت: بلى.. فقد قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: من الآية٣٤) فقد نبهت الآية بهذا الوعيد الشديد على أن في الذهب والفضة حقاً لله تعالى.

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ:(ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)[1] ، وكل هذا الوعيد لمن لا يؤدي حق الذهب والفضة.

قال: فما ينوب عن الذهب والفضة في عصركم؟

قلت: تنوب عنها النقود الورقية والمعدنية.

قال: فلماذا اخترتم في قياسكم الذهب على الفضة؟

قلت: لأنه لو اخترنا الفضة، فإن جماهير كثيرة من الناس تجب عليها الزكاة مع أنها لا تعتبر في عرفنا من الأغنياء.

قال: وما علاقة عرفكم بأحكام الله.. أخبرني أيهما ورد النص الصريح بنصابه: زكاة الذهب، أم زكاة الفضة؟

قلت: بل زكاة الفضة.. فقد قال ﷺ:(ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة)[2]، والخمس الأواقي: مائتا درهم.

أما النقود الذهبية فلم يجيء في نصابها أحاديث في قوة أحاديث الفضة وشهرتها، لذا اختلف الفقهاء في نصابها على أقوال.

قال: أراكم تنتقون في قياسكم.. أين الورع؟

قلت: نحن نتورع من إيجاب الزكاة على من لم تجب عليه.

---

(١) البخاري ومسلم وأبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٢) رواه أحمد ومسلم من حديث جابر، وهو لأحمد والبخارى من حديث أبي سعيد.

قال: وتحرمونه من بركات الزكاة، وتحرمون الفقراء مما أعطاهم الله من فضل.. أخبرني ما قال فقهاؤكم فيمن تجب عليه زكاة الفطر؟

قلت: أكثرهم يقول بوجوبها على الأغنياء والفقراء على حد سواء، ويدل لذلك ما ورد في النصوص من إيجاب زكاة الفطر على كل مسلم بما في ذلك الغني والفقير، وبما صرح به أبو هريرة في حديثه:(غني أو فقير)، وما رواه أحمد وأبو داود عن ثعلبة بن أبي صغير عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:(أدوا صدقة الفطر صاعًا من قمح -أو قال: بر- عن كل إنسان صغير أو كبير، حر أو مملوك، غني أو فقير، ذكر أو أنثى. أما غنيكم فيزكيه الله، وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى)، وفي رواية أبي داود:(صاع من بر أو قمح عن كل اثنين)

قال: فقيسوا ذلك على هذا.. سمعت أنكم وضعتم صناديق تجمعون فيها الزكاة.

قلت: أجل.. ونحن نستن بسنة السلف الصالح ﷺ في ذلك.

قال: فاستنوا بهم في جمعها من جميع أصناف الأموال، ووضعها في يد المستحقين.

قلت: نحن نفعل ذلك.

قال: لا.. أنتم لا تفعلون كلا الأمرين.. هل تجمعون زكاة المعادن التي وهبها الله لكم.

قلت: هي من المال العام، والمال العام لا زكاة فيه.

قال: فما دامت من المال العام، فهل يصل الفقراء من ريعها؟

قلت: يصلهم عن طريق طرق يسيرون عليها ، وشرطة تحفظ أمنهم، وجيش يحفظ حدودهم، وساسة يسهرون على راحتهم.

قال: وبطونهم الخاوية، وأجسادهم العارية، وأمراضهم التي لم تجد الدواء الذي يعالجها، وأولادهم الذين لم يجدوا المدارس التي تؤويهم.

قلت: لو التفتنا إلى هذا.. فإن عجلة التطور ستدوسنا.. ولن نلحق بالعالم المتقدم.

قال: لو لحقتم به لخسف بكم.. هو يبني العمران على حساب الإنسان، هو يقيم جسورا، ويحطم قلوبا.. هو يبني القصور ويهدم الأكواخ.

قلت: أنت تخرج على الإجماع بإيجابك الزكاة في البترول والمعادن وثروة الأمة.

قال: إذا وصلت هذه الثروة إلى أفراد الأمة، كما فعل عمر ﷺ ، وكما سيفعل المهدي عليه السلام، فلن تجب فيها الزكاة، أما إذا لم ينتفع به إلا قارون وأحفاد قارون، فإن الزكاة تجب فيها جميعا، لا في خمسها فقط.

قال: لمن تسلمون ما تجمعونه من زكوات؟

قلت: جزء للفقراء المحرومين، وهو أقل الأجزاء وأحقرها، وجزء نقيم به مشاريع استثمارية، أو نساعد به الشباب على الاستثمار.

قال: أراكم تتلاعبون بالزكاة وبحقوق الفقراء.. أنتم لا تفكرون في الجائعين والمحرومين والأرامل والأيتام.. أنتم لا تنظرون إلا لبطونكم المنتفخة لتزيدوها انتفاخا.

قلت: ما تقول يا معلم؟

قال: أنتم تدفعون الزكاة لمن ينتج.. لأن في الإنتاج مصالحكم.

قلت: ومصالح الفقراء.

قال: أول مصلحة للفقير أن تشبع بطنه الجائع ، وتعلم ابنه الجاهل، وتسكنه المسكن الذي يليق به.

قلت: ولكنا إن وفرنا للشباب من الفقراء فرص العمل نكون قد قدمنا لهم من الخدمات ما يقيهم الفقر، بل قد يصبحون من دافعي الزكاة.

قال: أتضحكون على الله، أم على أنفسكم؟

قلت: ما تقول؟

قال: أنتم تدفعون لأصحاب البطون المنتفخة من أموال الأمة ما لا تفي به صناديقكم جميعا، ثم تعتذورن لهم إن لم تنجح مشاريعهم، ثم تعطون لهؤلاء ما جمعتموه من خبز الفقراء الملطخ بأناتهم، ثم تريدون منهم أن يصبحوا من رجال الأعمال.

قلت: صدقت في هذا.. فنحن نحرم الفقراء المعوزين لنعطي هذا الشباب.. بل قد نعطي للشاب الواحد من هؤلاء أكثر من مائة ضعف ما نعطيه لعائلة فقيرة ليس لها عائل.

قال: ألم أقل لك: إنكم تتلاعبون.. وتهربون من النصوص إلى الأهواء.

قلت: وهل ورد النص بعلاج هذه النازلة؟

قال: النصوص فيها كل شيء لمن عقل عن الله ، وسمع منه، ألا تعرف قصة الذي جاء لرسول الله ﷺ؟

قاطعته قائلا: بلى.. فقد روي أن رجلا من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله فقال: أما في بيتك شيء؟ فقال: بلى حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب نشرب فيه الماء فقال: ائتني بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده فقال: من يشتري هذين؟ فقال رجل: أنا آخذهما بدرهم، فقال رسول الله ﷺ:(من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا؟)، فقال رجل: أنا أخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك

واشتر بالآخر قدوما فائتني به، فلما أتاه به شد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال:(اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما)، ففعل وجاء فأصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ:(هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تحل إلا لثلاث: لذي فقر مدقع[1]، ولذي غرم[2] مفظع[3]، ولذي دم موجع[4])[5]

قال: فقد كان ﷺ قادرا على أن يعطيه من الزكاة ما يشتري به آلة الصناعة.

قلت: ولكن كل المجامع الفقهية أقرت جواز الاستثمار في أموال الزكاة إذا كان ذلك في مصلحة الفقراء والمساكين.

قال: فما قالت هذه المجامع في زكاة البترول والمعادن التي أخرج الله لكم؟

قلت: لقد سبق أن ذكرت لك أنها اعتبرتها من المال العام.

قال: فإذا زكيتم تلك الثروات الضخمة، فلا بأس أن تستثمروا فيها، أما ما تخرجونه من أفواه الشح ، فلا ينبغي أن يذهب إلا للأفواه الجائعة[6].

الحق الذي سوى الزكاة:

قلت: عرفت الزكاة، فما الحق الذي سوى الزكاة؟

قال: لا يحل للغني أن يهنأ بماله ، وهناك من يتضور جوعا، أو يموت بردا.

قلت: ولكن الغني أدى ما عليه إن أدى زكاة ماله.

قال: زكاة المال أدنى ما على الغني إخراجه، وقد وضعه الشارع الحكيم للحالة العامة، فإن لم يكف ما يخرج من الزكاة أخرجوا من غيرها.

قلت: ولكني سمعت النصوص تذكر خلاف ما ذهبت إليه.

قال: معاذ الله أن أتبع الهوى.. ما سمعت؟

قلت: لقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، يُسمع دوي صوته، ولا

---

(١) المدقع هو الشديد الملصق صاحبه بالدقعاء يعني الأرض التي لا نبات بها.
(٢) الغرم هو الذي يلزم صاحبه أداؤه يتكلف فيه لا في مقابلة عوض.
(٣) المفظع هو الشديد الشنيع.
(٤) هو الذي يتحمل عن قريبه أو حميمه أو نسيبه دية إذا قتل نفسا ليدفعها إلى أولياء المقتول. ولو لم يفعل قتل قريبه أو حميمه الذي يتوجع لقتله.
(٥) أبو داود والترمذي.
(٦) انظر التفاصيل المرتبطة بهذه المسائل في:« فقه الزكاة برؤية مقاصدية » من موسوعة الفقه المقاصدي.

يُفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل عليَّ غيرهن؟ قال: لا، إلا أن تطوع. قال رسول الله ﷺ: وصيام رمضان. قال: هل عليَّ غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع، وذكر الزكاة، فقال: هل عليَّ غيرها قال: لا، إلا أن تطوع) فأدبر وهو يقول: لا أزيد على هذا، ولا أنقص منه، فقال رسول الله ﷺ:(أفلح إن صدق)، أو:(دخل الجنة إن صدق)[١]، فقد أخبر الرسول ﷺ الرجل: أن لا شيء عليه غير الزكاة، إلا أن يتطوع.

وروى أبو هريرة ﷺ: أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلتُ الجنة، فقال:(تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان)، قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا، فلما ولى، قال رسول الله ﷺ:(مَن سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)[٢]

قال: فما في الحديثين من الاستدلال على ما ذكرت؟

قلت: الحديثان واضحان، ففيهما أعلن الرجلان السائلان: أنهما لا يزيدان على الزكاة المفروضة شيئًا، ورضي الرسول ﷺ منهما ذلك، بل أخبر أنهما من أهل الجنة، ولو كان في المال حق سوى الزكاة ما استحقا الجنة مع تركه.

ويدل لهذا قوله ﷺ:(إذا أديتَ زكاة مالك فقد قضيتَ ما عليك)[٣]، ومن قضى ما عليه في ماله لم يكن عليه حق فيه، ولا يُطالب بإخراج شيء آخر على سبيل الوجوب.

ويدل له كذلك قوله ﷺ:(إذا أديت زكاة مالك، فقد أذهبت عنك شره)[٤]، وإنما يذهب عن الإنسان شر المال في الدنيا والآخرة إذا أديت منه الحقوق كلها.

ويدل له كذلك ما روي عن أم سلمة: أنها كانت تلبس أوضاحًا من ذهب، فسألت عن ذلك النبي ﷺ فقال: أكنز هو؟ فقال:(إذا أديت زكاته فليس بكنز)[٥]، وفي بعض رواياته:(ما بلغ أن تؤدي زكاته فزكي فليس بكنز)[٦]، ففيه دلالة على أن الوعيد الذي جاء في حق الكانزين لأموالهم لا يلحق من أدى زكاته، ولو كان في المال حق واجب آخر، ما سلم من الوعيد.

---

(١) رواه الستة إلا الترمذي.

(٢) البخاري.

(٣) الترمذي ، والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي: ١/٣٩٠، وقال ابن حجر في التلخيص:١٧٧: إسناده ضعيف.

(٤) ابن خزيمة في صحيحه والحاكم: ١/٣٩٠ وقال: صحيح على شرط مسلم وافقه الذهبي وقال الحافظ في الفتح (١٧٥/٣): رجح أبو زرعة والبيهقي وغيرهما وقفه كما عند البزار.

(٥)الحاكم (١/٢٩٠)، وقال: صحيح على شرط البخاري، وافقه الذهبي، وفي إسناده كلام.

(٦) أبو داود.

بل قد روي في هذا حديث صريح عن النبي ﷺ يقول فيه:(ليس في المال حق سوى الزكاة)[1]

قال: أما الحديث الأخير الذي ذكرته، فأنت تعلم ضعفه الشديد، وهو بعبارات الفقهاء أليق منه بحديث النبي ﷺ.

أما سائر الأحاديث، فتتحدث عن الحالة العامة، وهي الحالة التي قنن الشرع مقادرها، أما ما عداها من الظروف الطارئة، فلها أحكامها الخاصة بها.. ألا تقولون: لكل حادث حديث.

قلت: إن ما تذكره يا معلم لم يروه البخاري ولا مسلم، فكيف ترد به نصوصا صحيحة صريحة.

قال: سأذكر لك ما يجعلك تعمق فهمك لما رواه البخاري ومسلم.

قلت: فما هو؟

قال: كتاب ربك.. ألم تسمع ما ورد في كلام ربك عن التكافل الاجتماعي بين المسلمين؟

قلت: بلى.. فقد قال تعالى:﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ (الاسراء:٢٦)، وقال تعالى:﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء:٣٦) ، وقال تعالى:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ والكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)

ومن النصوص القرآنية الدالة على وجوب التكافل بين المسلمين ، كقوله تعالى:﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المائدة: من الآية٢)، وقال تعالى في وصف المؤمنين:﴿ رُحماءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩)

ويمكن أن يدخل في هذا الباب الآيات الكثيرة التي جعلت إطعام المسكين والحض على إطعامه من علائم الإيمان، وتركه من لوازم الكفر والتكذيب بالآخرة، من مثل قوله تعالى:﴿

(١) ابن ماجه، قال النووي في المجموع عنه: إنه حديث ضعيف جدًا لا يعرف (٣٣٢/٥) وقبله قال البيهقي في هذا الحديث: يرويه أصحابنا في التعاليق، ولست أحفظ فيه إسنادًا (السنن الكبرى: ٨٤/٤)

أرَأيْتَ الَّذي يُكَذِّبُ بالدِّينِ فَذَلكَ الَّذِي يَدُعّ اليَتِيمَ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِين﴾ (الماعون: ١٣)، وقال في أسباب دخول المجرمين في سقر:﴿ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ﴾ (المدثر:٤٣ ــ ٤٤)، وقال في شأن مَن أوتي كتابه بشماله فاستحق صليّ الجحيم والعذاب الأليم:﴿ إنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ باللَّهِ العَظِيمِ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكين﴾ (الحاقة: ٣٣ ــ ٣٤).

قال: فما جاء في القرآن الكريم من الوعيد بشأن الذين يمنعون الماعون؟

قلت: لقد قال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ويمنعون الماعون﴾ (الماعون: ٤ ــ ٧)

قال: فما الماعون؟

قلت: لقد قال عبد الله بن مسعود ﷺ:(كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر)[1]

قال: فهل ذكر الله تعالى في هذه الآيات الزكاة؟

قلت: لا.. لقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات أنواعا من الإحسان.

قال: فهي من الحق الذي جعله الله ما سوى الزكاة.

قلت: لا.. هذا من المستحبات والسنن، وليس من الواجبات.

قال: لقد ربط الله هذا بأصول الدين من العقائد والعبادات، فكيف تزعم بأنه من السنن والمستحبات.

قلت: يمكنك إدخالها في الواجبات من باب الزكاة.

قال: فإن لم تكف الزكاة، وهي ــ بما وضعتموه من الشروط ــ لا تكاد تكفي أحدا، فهل تترك كل هذه النصوص المحكمة الصريحة؟

قلت: ولكن السنة وضحت المراد بالكتاب، وقيدت ما يظهر من إطلاقه.

قال: ألم تسمع النصوص الكثيرة الدالة على هذا.. ألم تسمع قوله ﷺ:(من لا يرحم الناس لا يرحمه الله)[2] ، ومن أخاه جائعًا عريانًا ضائعًا فلم يغثه، فما رحمه بلا شك.

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق: أن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء، وأن رسول

---

(١) سكت عليه أبو داود، ثم المنذري مختصر السنن: ٢/٢٤٧ وأخرجه البيهقي أيضًا: ٤/١٨٣.

(٢) رواه أحمد والشيخان والترمذي عن جرير بن عبد الله، وأحمد والترمذي عن أبي سعيد، وضح هذا المعنى بألفاظ مختلفة وطرق كثيرة، وصلت إلى درجة التواتر، كما في التيسير للمناوي: ٢/٤٤٧.

الله ﷺ قال:(من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس.. أو سادس)[1]

وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه)[2]، ومن تركه يجوع ويعرى وهو قادر على إطعامه وكسوته فقد أسلمه.

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:(من كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) ، فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل)[3]، وهذا إجماع من الصحابة ﷺ يخبر بذلك أبو سعيد، وبكل ما في الخبر نقول.

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:(إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم، ألا وإنَّ الله يحاسبهم حسابًا شديدًا، ويعذبهم عذابًا أليمًا)[4]

بالإضافة إلى هذا كل ما ورد في النصوص من وحدة المسلمين وتعاونهم، كقوله ﷺ:(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا)[5] ، وقوله ﷺ:(مَثَلُ المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمَثَل الجسد الواحد؛ إذا اشتكي منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)[6]، وقوله ﷺ:(ليس بمؤمن مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع)[7]

قلت: فهمت هذا ووعيته.. ولكن النصوص النبوية تحدد بفهم الصحابة ﷺ فهم أنقى الناس قلوبا، وأدركهم لمقاصد الشريعة، و لم ينقلوا لنا سوى الزكاة.

قال: ومن قال ذلك؟.. ألم تسمع ما روي عن عمر ﷺ فقد قال:(لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ لأخذتُ فضول أموال الأغنياء، فقسمتها على فقراء المهاجرين)[8]

قلت: هو عمر.. وقد كان شديدا.

---

(١) البخاري.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) مسلم ، وأبو داود ، وأحمد.

(٤) الطبراني في الأوسط والصغير وقال: انفرد به ثابت بن محمد الزاهد. قال المنذري: وثابت ثقة صدوق روى عنه البخاري وغيره وبقية رواته لا بأس بهم، وروى موقوفًا على عليّ ﷺ وهو أشبه. وذكره ابن حزم في المحلي موقوفًا على عليّ ١٥٨/٦ من طريق سعيد بن منصور.

(٥) البخاري ومسلم.

(٦) البخاري ومسلم.

(٧) الطبراني والبيهقي وإسناده حسن.

(٨) قال ابن حزم في إسناد هذا الأثر: هذا إسناد في غاية الصحة والجلالة.

قال: فقد قال عليّ بن أبي طالب ﷺ:(إنّ الله تعالى فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء، وحقّ على الله تعالى أن يحاسبهم يوم القيامة ويعذبهم عليه)

قلت: هو علي.. وهو أشبه الناس بعمر.

قال: فقد روي عن ابن عمر ﷺ أنه قال:(في المال حق سوى الزكاة)

وروي عن عائشة والحسن بن عليّ وابن عمر ﷺ أنهم قالوا كلهم لمن سألهم:(إن كنت تسأل في دم موجع، أو غُرم مفظع، أو فقر مدقع، فقد وجب حقك)

وصح عن أبي عبيدة بن الجراح وثلاثمائة من الصحابة ﷺ: أن زادهم فني، فأمرهم أبو عبيدة، فجمعوا أزوادهم في مزودين، وجعل يقوتهم إياها على السواء، فهذا إجماع مقطوع به من الصحابة ﷺ ، لا مخالف لهم منهم.

قلت: ولكن التابعين الذين وعوا الدين..

قال: لقد صح عن الشعبي ومجاهد وطاوس وغيرهم، كلهم يقول:(في المال حق سوى الزكاة)

الكفارات:

قال: مما يدلك على عظم حق الفقير أن الله ربط عفوه عن المخطئين بالإحسان إليهم.

قلت: أجل.. فقد قال تعالى في كفارة اليمين:﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٨٩)

وقال تعالى في كفارة قتل المحرم للصيد:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ (المائدة:٩٥)

وقال تعالى في كفارة الظهار:﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المجادلة:٤)

وقال تعالى في فدية من لم يطق الصيام:﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ

تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: من الآية١٨٤)

قال: ألا ترى أن الله تعالى ربط بين الطعام والصيام؟

قلت: أجل.. فإني رأيت النصوص قدمت الصيام على الإطعام.

قال: أتدري سر ذلك؟

قلت: فما سر ذلك؟

قال: من لم يستطع أن يحسن للفقراء، أمر بالجوع ليستشعر جوع الفقراء.

النذور:

قلت: أراك تجعل النذور من إحسان العبودية مع أن رسول الله ﷺ نهى عن النذر ، وقال:(إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل)[1]

قال: صدق رسول الله ﷺ ، ونعم ما علل به سر تشريع النذر.

قلت: كيف تعتبر النذر مشروعا، وقد أفتى الفقهاء بكراهته؟

قال: ولكنهم أفتوا بلزومه.

قلت: ولكن التعبدات تكون من الواجبات والمستحبات، لا من المكروهات.

قال: هو مكروه لعلة البخل ، وليس مكروها في ذاته، بل هو في ذاته قد يكون من الواجبات أو المستحبات.

قلت: كيف ذلك؟

قال: الأصل في الطاعة أن تؤدى لوجه الله ، ولرغبة في طاعة الله، منبعثة من شوق عظيم لله.. والنذر يقصر في بعض هذا.. ولكنه قد يكون طريقا لكل هذا.

قلت: لم أع ما تقول.

قال: هناك من الناس من يكون كما وصفنا ، فتنبعث نفسه للطاعات، ولا تخذله عنها، وهذا هو الكريم، ومنهم من تشح نفسه، فيحتاج إلى أن يسوطها بسوط النذر، لتتعود على طاعة الله ، فتسير في طريق أهل الله.

قلت: أيمكن اعتبار النذر بهذا شعيرة من الشعائر التي يمكن استغلالها لمعاهدة النفس على سلوك مسالك الصلاح؟

قال: أجل.. ولهذا أثنى الله على المؤمنين الموفين بالنذر، فقال تعالى:﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ

---

(١) مسلم.

يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ (الانسان:٧)

ولولا هذا المعنى ما ورد في النصوص الحث والتشديد على الوفاء بالنذر.

قلت: أجل.. فقد قال تعالى:﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج:٢٩)، وقال تعالى:﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل:٩١)، وقال تعالى:﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾ (الاسراء: من الآية٣٤)

قال: فهذه النصوص تدلك على الدور التربوي الخطير الذي يحمله النذر، ولهذا كله علاقة بالفقراء.

قلت: وما علاقة ذلك بالفقراء.. لقد كنت أحسبنا همنا عنهم.

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (التوبة:٧٥ ــ ٧٦)

قلت: أجل.. ولكني أتعجب لمخالفة كثير من الفقهاء لهذه الآية.

قال: اعرف ما تقول.. فإن الفقهاء أورع من أن يخالفوا نصا صحيحا أو صريحا.

قلت: لقد رأيت بعضهم يقول: إن من نذر أن يتصدق بماله كله ، أجزأه أن يتصدق بثلثه[1].. وبعضهم اكتفى بأن يخرج منه مقدار الزكاة.

قال: صدقوا.. فلا ينبغي أن نخرج فقراء من الفقر، وندخل غيرهم، ألم تسمع قوله ﷺ لأبي لبابة ، حين قال: إن من توبتي يا رسول الله أن أنخلع من مالي.

قلت: بلى.. فقد قال له رسول الله ﷺ:(يجزئك الثلث).. وروي عن كعب بن مالك ، قال: قلت: يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال رسول الله ﷺ:(أمسك عليك بعض مالك)[2]، وفي رواية:(يجزئ عنك الثلث)

---

(١) وبهذا قال الزهري ، ومالك ، وقال ربيعة: يتصدق منه بقدر الزكاة ؛ لأن المطلق محمول على معهود الشرع ، ولا يجب في الشرع إلا قدر الزكاة. وعن جابر بن زيد: قال: إن كان كثيرا ، وهو ألفان ، تصدق بعشرة ، وإن كان متوسطا وهو ألف ، تصدق بسبعة ، وإن كان قليلا ، وهو خمسمائة ، تصدق بخمسة. وقال أبو حنيفة: يتصدق بالمال الزكوي كله. وعنه في غيره روايتان ؛ إحداهما ، يتصدق به. والثانية ، لا يلزمه منه شيء. وقال النخعي ، والبتي ، والشافعي: يتصدق بماله كله ؛ لقول النبي ﷺ:« من نذر أن يطيع الله فليطعه » ، ولأنه نذر طاعة ، فلزمه الوفاء به ، كنذر الصلاة والصيام.

وروى الحسين بن إسحاق الخرقي ، عن أحمد ، قال: سألته عن رجل قال: جميع ما أملك في المساكين صدقة. قال: كفارته كفارة اليمين. قال وسئل عن رجل قال ما يرث عن فلان ، فهو للمساكين. فذكروا أنه قال: يطعم عشرة مساكين.

(٢) البخاري ومسلم.

إحسان المروءة

اقتربنا من النافذة الثالثة، والتي تشع منها روائح المروءة الطيبة، فقال لي المعلم: ويل لمن ملك المال، و لم تظهر عليهم سيما المروءة.

قلت: فما المروءة؟

قال: هو النبل الذي تمتلئ به النفوس الطيبة، فتسارع إلى حاجات الناس تقضيها، وكأنها تقضي حاجاتها.

قلت: فما ينبت هذا النبل؟

قال: أشياء كثيرة.

قلت: فاذكر لي بعضها لأبشر به.

إطعام الطعام:

قال: أولها إطعام الطعام.. فالمؤمن لا ينبغي أن يجوع بين إخوانه المسلمين.

قلت: هي سنة الخليل عليه السلام، فقد كان مضيافا، وقد قال الله تعالى عنه:﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ إبراهيم المكرمين﴾(الذريات:٢٤ ــ ٢٧)، وقال تعالى:﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ (هود:٧٨)، ففي الآية الأولى دليل على إكرام الضيف، وفي الثانية دليل على حمايته.

قال: والنصوص لا تدل على ما تفهمونه من السنية فقط، بل تدل على الوجوب[1]، فقد قال

---

(١) اختلف الفقهاء في حق الضيف: هل هو واجب أو مستحب على قولين:

القول الأول: أن الضيافة من مكارم الأخلاق، ومحاسن الدين، وليست واجبة، وهو قول الجمهور، ومن الأدلة على ذلك:

١. قوله ﷺ:« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه جائزته، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك فهو صدقة »، فلفظ (جائزته) المذكور في الحديث يدل على الاستحباب فإن الجائزة هي العطية والصلة التي أصلها على الندب، وقلما يُستعمل هذا اللفظ في الواجب.

٢. الأحاديث القاضية بحرمة مال المسلم إلا بطيب نفسه.

٣. الأحاديث الدالة على أن ليس في المال حق سوى الزكاة.

٤. أما الأحاديث الواردة في حق الضيف، فقد قال الخطابي:«إنما كان يلزم ذلك في زمنه ﷺ حيث لم يكن بيت مال، وأما اليوم فأرزاقهم في بيت المال، لا حق لهم في أموال المسلمين » أو أن هذا كان في أول الإسلام، إذ كانت المواساة واجبة، فلما اتسع الإسلام نُسخ ذلك.

ﷺ:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[1]، وقال ﷺ:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته)، قالوا: وما جائزته يا رَسُول اللَّهِ؟ قال:(يومه وليلته. والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة عليه)[2]، وفي رواية (ولا يحل لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه) قالوا: يا رَسُول اللَّهِ وكيف يؤثمه؟ قال:(يقيم عند أخيه ولا شيء يقريه به)[3]

قلت: أتستدل بهذه النصوص على القول بالوجوب؟

قال: ليس بهذا فقط ، فقد قال ﷺ لعبد الله بن عمرو ﷺ:(إنَّ لجسدك عليك حقًا، وإن لعينك عليك حقًا، وإن لزورك عليك حقًا، وإن لزوجك عليك حقًا)[4] وقال ﷺ:(أيما ضيف نزل بقوم فأصبح الضيف محرومًا فله أن يأخذ بقدر قراه ولا حرج عليه)[5]، بل روي أنه ﷺ قال:(أيما رجل أضاف قومًا فأصبح الضيف محرومًا، فإن نصره حق على كل مسلم، حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله)[6]

قلت: ولكن سرعان ما يتنصل الناس من مثل هذه النصوص.

قال: أما الصالحون السامعون للهدي المقدس، فإنهم لا يأبهون لكل تحريف، ألم تسمع قوله تعالى فيهم:﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾ (الانسان:٨)

قلت: بلى.. وقد روي من فعل السلف ﷺ ما بين كرم أخلاقهم وعظيم إيثارهم، فعن أبي

القول الثاني: وجوب الضيافة، وأنها واجبة ليلة واحدة، وهو قول الليث بن سعد، وهو قول ابن حزم، قال:« الضيافة فرض على الحَضَري والبدوي والفقيه والجاهل، يوم وليلة مبرة وإتحاف، ثم ثلاثة أيام ضيافة، ولا مزيد، فإن زاد على ذلك فليس نراه لازمًا، وإن تمادى على قراه فحسن، فإن منع الضيافة الواجبة فله أخذها مغالبة، وكيف أمكنه، ويُقضى له بذلك »، وقد انتصر له الشوكاني، واستدل له بما يلي، زيادة على ما سبق من الأدلة:

١. إباحة العقوبة بأخذ المال لمن ترك ذلك، وهذا لا يكون في غير واجب.

٢. التأكيد البالغ بجعل ذلك فرع الإيمان بالله واليوم الآخر، ويفيد أن فعل خلافه فعل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، ومعلوم أن فروع الإيمان مأمور بها. ثم تعليق ذلك بالإكرام وهو أخص من الضيافة، فهو دال على لزومها بالأولى.

٣. قوله ﷺ:« فما وراء ذلك فهو صدقة » فهو صريح أن ما قبل ذلك غير صدقة، بل واجب شرعًا.

٤. قوله ﷺ:« ليلة الضيف حق واجب » فهذا تصريح بالوجوب، لم يأت ما يدل على تأويله.

٥. قوله ﷺ:« فإن نصره حق على كل مسلم » فإن ظاهر هذا وجوب النصرة، وذلك فرع وجوب الضيافة.

(١) البخاري ومسلم.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) مسلم.

(٤) البخاري واللفظ له ، ومسلم وغيرهما.

(٥) أحمد ورواته ثقات والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٦) أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك حتى قلن كلهن مثل ذلك لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال النبي ﷺ:(من يضيف هذا الليلة؟) فقال رجل من الأنصار: أنا يا رَسُول اللَّهِ. فانطلق به إلى رحله فقال لامرأته: أكرمي ضيف رَسُول اللَّهِ ﷺ)، وفي رواية قال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني. قال: علليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنوميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل. فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين. فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال:(لقد عجب اللّه من صنيعكما بضيفكما الليلة [1])

ومن هديه ﷺ في إكرام الضيف ما ورد في خبر إسلام عدي بن حاتم الطائي ﷺ، فقد روي أنه قدم على النبي ﷺ، فأكرمه بالجلوس على وسادة، وجلس رسول الله ﷺ على الأرض، قال عدي: ثم مضى بي رسول الله ﷺ، حتى إذا دخل بيته، تناول وسادة من أدم محشوة ليفا، فقذفها إلي فقال: اجلس على هذه، قلت: بل أنت فاجلس عليها، قال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض.

قال: ولكن قومك حرفوا الضيافة، فاستأثر بها الأغنياء دون الفقراء.

قلت: صدقت في هذا.. فقومي يتشرفون بأكل الأغنياء لطعامهم.

قال: أما الصالحون، فكانوا يتنافسون في إطعام الفقراء.

قلت: قومي يرجون بإطعام الأغنياء ما لا يرجون بإطعام الفقراء.

قال: فبشرهم بما ورد في النصوص ليقتنعوا بفضل الله، ويرغبوا به عن كل فضل.

قلت: لقد ورد في النصوص الإخبار بأن الله يبعث مع الضيف رزقه، فقد قال ﷺ:(الضيف يأتي برزقه ويرتحل بذنوب القوم يمحص عنهم ذنوبهم)[2]، وقال ﷺ:(إذا دخل الضيف على القوم دخل برزقه، وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم)[3]، وقال ﷺ:(إذا أراد الله بقوم خيرا أهدى إليهم هدية الضيف يترل برزقهن ويترحل، وقد غفر الله لأهل المترل) [4]، وقال ﷺ:(الرزق أسرع إلى البيت الذي يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير)[5]

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) أبو الشيخ عن أبي الدرداء.
(٣) الديلمي عن أنس.
(٤) أبو الشيخ في الثواب وأبو نعيم في المعرفة عن أبي قرصافة.
(٥) ابن ماجة عن ابن عباس وأنس، والبيهقي عن أنس.

بل أخبر ﷺ (إن أسرع صدقة إلى السماء أن يصنع الرجل طعاما جيدا، ثم يدعو إليه ناسا من إخوانه)[1]، وقال ﷺ:(إن من موجبات المغفرة إطعام السغبان)[2]

بل أخبر ﷺ بما هو أعظم من ذلك، فقال:(أطعموا الطعام، وأفشوا السلام تورثوا الجنان)[3]، وقال ﷺ:(من أطعم مسلما جائعا أطعمه الله من ثمار الجنة)[4]، وقال ﷺ:(من ذبح لضيفه ذبيحة كانت فداه من النار)[5]

وأخبر ﷺ عن فضل مطعم الطعام ، فقال:(خيركم من أطعم الطعام ورد السلام)[6]، وعلى عكس ذلك، قال ﷺ:(لا خير فيمن لا يضيف)[7]

صلة الجار:

قال: ومن إحسان المروءة الإحسان إلى الجار.

قلت: لقد وردت النصوص الكثيرة تحث على صلة الجار والإحسان إليه، حتى قال ﷺ:(ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[8]

قال: بل إن النصوص تربط حقه بالإيمان، فقد قال ﷺ:(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، واستوصوا بالنساء خيرا)[9]، وقال ﷺ:(والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه)[10]

قلت: بل إن رسول الله ﷺ يقترح الطرق التي تيسر طرق الإحسان إلى الجار، فقد قال ﷺ:(إذا طبخ أحدكم طبخا فليكثر مرقها ثم ليناول جاره منها)[11]، وقال ﷺ:(إذا طبخت فأكثر المرق، وتعاهد جيرانك)[12]، وقال ﷺ:(يا نساء المؤمنات لا تحقرن جارة لجارتها، ولو فرسن

---

(١) ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان عن حبان بن أبي جبلة.
(٢) البيهقي في الشعب.
(٣) الطبراني عن الحسن بن علي.
(٤) أبو نعيم في الحلية عن أبي سعيد.
(٥) الحاكم عن جابر.
(٦) أبو يعلى، والحاكم عن صهيب.
(٧) أحمد، والبيهقي عن عقبة بن عامر.
(٨) البخاري ومسلم وغيرهما.
(٩) البخاري.
(١٠) أحمد، والبخاري.
(١١) الطبراني.
(١٢) أحمد، والبخاري في الأدب، والترمذي، والنسائي.

شاة)[1]

قال: قد عدد ﷺ أنواع حقوق الجار، فقال:(حق الجار إن مرض عدته، وإن مات شيعته، وإن استقرض أقرضته، وإن أعوز سترته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح، ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرف له منها)[2]

قلت: وقد بين ﷺ مخاطر الإساءة للجار، وتضييع حقوقه، فقال:(كم من جار متعلق بجاره يوم القيامة يقول: يا رب هذا غلق بابه دونه فمنع معروفه)[3] ، وقال ﷺ:(لأن يزني الرجل بعشرة نسوة خير له من أن يزني بامرأة جاره، ولأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر له من أن يسرق من بيته جاره)[4]، وقال ﷺ:(ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه)[5]، وقال ﷺ:(ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم به)[6]، وقال ﷺ:(لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه)[7]

قال: وأخبر ﷺ أن حق الجار يشمل كل جار مسلما كان أو كافرا، فقد قال ﷺ:(الجيران ثلاثة: فجار له حق واحد وهو أدنى الجيران حقا، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، فأما الجار الذي له حق واحد: فجار مشرك لا رحم له حق الجوار، وأما الذي له حقان: فجار مسلم: حق الإسلام وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق: فجار مسلم ذو رحم: حق الإسلام وحق الجوار وحق الرحم)[8]

التنافس على الكرم:

قال: ومن هذا الباب كل ما ورد في النصوص من الحث على التنافس على كل سبل الكرم، فلا ينشر الفقر مثل البخل، ولا يقضي عليه مثل الكرم.

قلت: أجل.. فقد وردت النصوص الكثيرة تحث على الكرم، وتعتبره من الكمال، فقد اعتبر ﷺ:(السخاء خلق الله الأعظم)[9] ، ولذلك فإن (السخي قريب من الله، قريب من الناس،

---

(١) أحمد، والشيخان.
(٢) الطبراني.
(٣) البخاري في الأدب.
(٤) أحمد، والبخاري في الأدب، والطبراني.
(٥) البخاري في الأدب، والحاكم، والبيهقي.
(٦) البزار، والطبراني.
(٧) مسلم.
(٨) البزار وأبو الشيخ وأبو نعيم.
(٩) ابن النجار عن ابن عباس.

قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله من عابد بخيل)[1] ، وقال ﷺ:(إن الله يدخل بلقمة الخبز، وقبضة التمر ومثله، مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة: صاحب البيت الآمر به، والزوجة المصلحة، والخادم الذي يناوله المسكين)[2]، وقال ﷺ:(إن المكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرا فنفخ فيه بيمينه وشماله وبين يديه وورائه)[3]، وقال ﷺ:(ما من مسلم ينفق من كل مال له زوجين في سبيل الله، إلا استقبلته حجبة الجنة، كلهم يدعوه إلى ما عنده)[4]، وقال ﷺ:(كم من حوراء عيناء، ما كان مهرها، إلا قبضة من حنطة، أو مثلها من تمر)[5]

وقال ﷺ:(اليد العيا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، واليد السفلى هي السائلة)[6]، وقال:(لا حسد إلا في إثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها)[7]

قال: بل أخبر ﷺ أن الله يتقبل الصدقة ، ويربيها لصاحبها، فقال ﷺ:(إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد)[8]، وفي رواية:(إن الله ليربي لأحدكم التمرة واللقمة، كما يربي ولده، أو فصيله حتى يكون مثل أحد)[9]، وقال ﷺ:(إن العبد ليتصدق بالكسرة، تربو عند الله حتى تكون مثل أحد)[10]

وأخبر ﷺ أن أحب الأعمال إلى الله الكرم، فقال:(أحب الأعمال إلى الله تعالى، من أطعم مسكينا من جوع، أو دفع عنه مغرما، أو كشف عنه كربا)[11]، وقال ﷺ:(أحب الأعمال إلى الله بعد الفرائض، إدخال السرور على المسلم)[12]

وأخبر ﷺ عن حب الله للمكرمين، فقال:(إن أحب عباد الله إلى الله، من حبب إليه

---

(١) الترمذي، عن أبي هريرة ﷺ، والبيهقي عن جابر والبهقي والطبراني في الأوسط، عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) الحاكم، عن أبي هريرة.
(٣) الشيخان عن أبي ذر.
(٤) أحمد، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم عن أبي ذر.
(٥) العقيلي في الضعفاء عن ابن عمر.
(٦) أحمد، والشيخان، وأبو داود، والترمذي: عن ابن عمر.
(٧) أحمد، والشيخان، وابن ماجة، عن ابن مسعود.
(٨) الترمذي عن أبي هريرة.
(٩) أحمد، وابن حبان في صحيحه عن عائشة.
(١٠) الطبراني عن أبي برزة.
(١١) الطبراني عن الحكيم بن عمير.
(١٢) الطبراني عن ابن عباس.

المعروف، وحبب إليه أفعاله)[1]، وقال ﷺ:(إن الله تعالى استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما)[2]، وقال:(إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها)[3]، وقال:(ما عظمت نعمة الله على عبد إلا اشتدت عليه مؤنة الناس، فمن لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال)[4]

وقال ﷺ:(خلقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله فالسخاء والسماحة، وأما اللذان يبغضهما الله تعالى، فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيرا، استعمله على قضاء حوائج الناس)[5]

وقال ﷺ:(الدال على الخير كفاعله، والله يحب إغاثة اللهفان)[6]، وقال ﷺ:(الخلق كلهم عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)[7]

وأخبر ﷺ عن نفسه، فقال:(لأن تصدق بخاتمي أحب إلي من ألف درهم أهديها إلى الكعبة)[8]، وقال ﷺ:(يا أبا ذر، ما أحب أن لي أُحدا ذهبا، أمسي ثالثة، وعندي منه دينار إلا دينارا أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا، وهكذا ويا أبا ذر، الأكثرون هم الأقلون، إلا من قال هكذا وهكذا)[9]، وقال ﷺ:(إني ذكرت وأنا في العصر شيئا من تبر كان عندنا، فكرهت أن يبيت فأمرت بقسمه)[10]

قلت: وأخبر ﷺ أن الصدقة تقي صاحبها من النار، فقال:(ليتق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة)[11]، وقال ﷺ:(اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة)[12]، وفي رواية:(اجعلوا بينكم وبين النار حجابا ولو بشق تمرة)[13]، وفي أخرى:(تصدقوا ولو بتمرة، فإنها تسد

---

(١) ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ عن أبي سعيد.
(٢) الطبراني عن عمران بن حصين.
(٣) البيهقي عن طلحة بن عبيد الله، وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس.
(٤) ابن أبي الدنيا عن عائشة، والبيهقي عن معاذ.
(٥) البيهقي عن ابن عمر.
(٦) أحمد وأبو يعلى، والضياء عن بريدة، وإبن أبي الدنيا عن أنس.
(٧) أبو يعلى، والبزار عن أنس، والطبراني عن ابن مسعود.
(٨) الطبراني في الأوسط عن عائشة.
(٩) أحمد، والشيخان عن أبي ذر.
(١٠) للنسائي.
(١١) أحمد عن ابن مسعود.
(١٢) الشيخان، والنسائي عن عدي بن حاتم، وأحمد عن عائشة، والبزار، والطبراني، والضياء عن أنس والبزار، والطبراني، والضياء عن أنس، والبزار عن النعمان بن بشير وعن أبي هريرة، والطبراني عن ابن عباس وعن أبي أمامة.
(١٣) للطبراني عن فضالة بن عبيد.

من الجائع، وتطفيء الخطيئة كما يطفيء الماء النار)[1]، وفي حديث آخر قال ﷺ:(تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار)[2]، وقال ﷺ:(إن الصدقة لتطفيء عن أهلها حر القبور، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته)[3]، وقال ﷺ:(من أطعم أخاه من الخبز حتى يشبعه، وسقاه من الماء حتى يرويه، بعده الله من النار سبع خنادق، كل خندق مسيرة سبعمائة عام)[4]

وفي حديث آخر يرسم ﷺ الصورة التي تمثل ذلك بقوله:(ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا ير إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة)[5]

ويخبر ﷺ عن مشهد آخر من مشاهد الآخرة، فيقول:(يقي أحدكم وجهه حر جهنم، ولو بتمرة، ولو بشق تمرة، فإن أحدكم لاقي الله وقائل له: ما أقول لأحدكم: ألم أجعل لك سمعا وبصرا؟ فيقول: بلى، فيقول: ألم أجعل لك مالا وولدا؟ فيقول: بلى، فيقول: أين ما قدمت لنفسك، فينظر قدامه وبعده وعن يمينه، وعن شماله، ثم لا يجد شيئا يقي به وجهه حر جهنم، ليق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة، فإني لا أخاف عليكم الفاقة، فإن الله ناصركم ومعطيكم، حتى تسير الظعينة فيما بين يثرب والحيرة أكثر ما يخاف على مطيها السرق)[6]

قال: بل أخبر ﷺ عن الجزاء المعد للكرماء في الدنيا قبل الآخرة، فقال:(إذا أراد الله بقوم نماء، رزقهم السماحة والعفاف، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعا فتح عليهم باب خيانة)[7]، وقال:(استعينوا على الرزق بالصدقة)[8] ، وقال:(استنزلوا الرزق بالصدقة)[9]

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق ــ رضي الله عنها ــ أن النبي ﷺ قال لها:(ارضخي ما استطعت، ولا توعي فيوعي الله عليك)[10]، وفي رواية:(أنفقي ولا تحصي، فيحصي الله عليك،

---

(١) للطبراني عن فضالة بن عبيد.
(٢) الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية عن أنس.
(٣) الطبراني عن عقبة بن عامر.
(٤) النسائي، والحاكم عن ابن عمر.
(٥) أحمد، والشيخان، والنسائي، وابن ماجة عن عدي بن حاتم.
(٦) الترمذي عن عدي بن حاتم.
(٧) ابن عساكر، والطبراني عن عبادة بن الصامت.
(٨) الديلمي عن عبد الله بن عمرو المزني.
(٩) البيهقي عن علي، وابن عدي عن جبير بن مطعم، وأبو الشيخ عن أبي هريرة.
(١٠) مسلم والنسائي.

ولا توعي فيوعي عليك)[1]

وأخبر ﷺ:(أن ملكين يترلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا)[2]، وقال ﷺ:(إن الله تعالى يقول يا ابن آدم أودع من كترك عندي، ولا حرق، ولا سرق، ولا غرق، أوفيكه أحوج ماتكون إليه)[3]

وأخبر ﷺ أن سائلا أتى(امرأة، وفي فمها لقمة، فأخرجت اللقمة فناولتها السائل، فلم تلبث أن رزقت غلاما، فلما ترعرع جاء ذئب فاحتمله، فخرجت تعدو في أثر الذئب، وهي تقول: ابني، ابني، فأمر الله ملكا إلحق الذئب، فخذ الصبي من فيه، وقال: قل لأمة الله يقرئك السلام، وقل: هذه لقمة بلقمة)[4]

وأخبر أنه (بينما رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتا في سحابة، يقول: إسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله: ما إسمك؟ قال: قلان: للإسم الذي سمع في السحابة، فقال له: يا عبد الله: لم تسألني عن إسمي؟ قال لأني سمعت صوتا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: إسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما أنك قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأنا أتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثا، وأرد فيها ثلثا)[5]

وأخبر ﷺ عن تأثير الكرم في الوقاية من نيران الدنيا، فقال:(صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا، هم أهل المعروف في الآخرة، وإن أهل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة)[6]، وفي حديث آخر قال ﷺ:(صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة خفيا تطفىء غضب الرب، وصلة الرحم زيادة في العمر، وكل معروف صدقة، وأهل المعروف في الدنيا، هم أهل المعروف في الآخرة، وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وأول ما يدخل الجنة أهل المعروف)[7]

---

(١) أحمد والشيخان، عنها.
(٢) الشيخان وغيرهما.
(٣) البيهقي عن الحسن مرسلا.
(٤) ابن صصري في أماليه عن ابن عباس.
(٥) أحمد، ومسلم عن أبي هريرة.
(٦) الحاكم عن أنس.
(٧) الطبراني في الأوسط عن أم سلمة.

بل ذكر ﷺ ما هو أعظم من ذلك، فقال:(تسد الصدقة سبعين بابا من السوء)[1] ، وقال ﷺ:(الصدقة تمنع سبعين نوعا من أنواع البلاء، أهونها الجذام والبرص)[2]، وقال ﷺ:(الصدقة تمنع ميتة السوء)[3] ، وقال ﷺ:(مناولة المسكين تقي ميتة السوء)[4] ، وقال ﷺ:(تداركوا الهموم والغموم بالصدقات، يكشف الله تعالى ضركم، وينصركم على عدوكم)[5]

وقال ﷺ:(الصدقة على وجهها، واصطناع المعروف، وبر الوالدين، وصلة الرحم، تحول الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء)[6]

وأخبر ﷺ عن عظم الغبن الذي يحيق بالبخلاء، فقال:(إعلموا أنه ليس منكم أحد، إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت)[7]، وفي رواية:(أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله، فإن ماله ما تقدم، ومال وارثه، ما تأخر)[8]

قلت: وأخبر ﷺ عن عمومية الكرم، فهو خلق المؤمن فقيرا كان أو غنيا، فقال:(أفضل الناس رجل يعطي جهده)[9]

قال: وأخبر عن شموليته، فقال ﷺ:(اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله، أصبت أهله، وإن لم تصب أهله، كنت أهله)[10]، وقال ﷺ:(للسائل حق وإن جاء على فرس)[11]

ولكن جزاءه العظيم مدخر لمن وضعه في أهله، قال ﷺ:(الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم اثنتان، فصدقة وصلة)[12]، وقال ﷺ:(أفضل الدنانير دينار ينفقه الرجل على عياله ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، ودينار ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله عز وجل)[13]

---

(١) الطبراني عن رافع بن خديج.
(٢) الخطيب عن أنس.
(٣) القضاعي عن أبي هريرة.
(٤) الطبراني والبيهقي عن حارثة بن النعمان.
(٥) الديلمي عن أبي هريرة.
(٦) أبو نعيم في الحلية عن علي.
(٧) النسائي عن ابن مسعود.
(٨) أحمد، والترمذي عن ابن مسعود.
(٩) الطيالسي عن ابن عمر.
(١٠) الخطيب عن ابن عمر، وابن النجار عن علي.
(١١) أحمد، والطبراني، والضياء عن الحسين، وأبو داود عن علي، والطبراني عن الهرماس بن زياد.
(١٢) أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والحاكم عن سليمان بن عامر.
(١٣) أحمد، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة: عن ثوبان.

وقال ﷺ:(يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى)[1]

وقال ﷺ:(يقول ابن آدم مالي، وهل لك يا ابن آدم ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت زادك لأولادك، وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس)[2]

قلت: وقد دعا ﷺ إلى المبادرة إلى الكرم قبل أن يذهب زمنه، فقال:(تصدقوا فسيأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته، فيقول الذي يأتيه بها، لو جئت بالأمس لقبلتها، فأما الآن فلا حاجة لي فيها، فلا يجد من يقبلها)[3]، وقال ﷺ:(تصدقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدق رجل من ديناره، تصدق رجل من درهمه، تصدق رجل من بره، تصدق رجل من تمره، تصدق رجل من شعيره، لا تحقرن شيئا من الصدقة، ولو بشق تمرة)[4]

قال: لقد ربت هذه الأحاديث وغيرها أجيال الأمة على النفقة في سبيل الله، فتساوى الأغنياء والفقراء، وارتفعت الحواجز بينهم لأول مرة في التاريخ.

قلت: إني أحفظ من ذلك الكثير.

قال: فارو منه ما تملأ به نفوس الأغنياء شوقا للكرم، والتنافس في الكرم.

قلت: لقد سأل رجل الحسن بن علي ــ رضي الله عنهما ــ حاجة فقال له: يا هذا حق سؤالك إياي يعظم لدي ومعرفتي بما يجب لك تكبر علي، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله تعالى قليل، وما في ملكي وفاء لشكرك، فإن قبلت الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت، فقال: يا ابن رسول الله أقبل وأشكر العطية، وأعذر علي المنع، فدعا الحسن بوكيله وجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفضل من الثلثمائة ألف درهم، فأحضر خمسين ألفاً قال: فما فعلت بالخمسمائة دينار؟ قال: هي عندي، قال أحضرها، فأحضرها فدفع الدنانير والدراهم إلى الرجل وقال: هات من يحملها لك، فأتاه بحمالين فدفع إليه الحسن رداءه لكراء الحملين، فقال له مواليه: والله ما عندنا درهم! فقال: أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم.

واجتمع قراء البصرة إلى ابن عباس ، وهو عامل بالبصرة، فقالوا: لنا جار صوام قوام يتمنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوج بنته من ابن أخيه وهو فقير وليس عنده ما يجهزها

---

(١) أحمد، ومسلم عن أبي أمامة.

(٢) أحمد، ومسلم، وابن حبان في صحيحه، والنسائي عن عبد الله بن الشخير.

(٣) أحمد، والشيخان، والترمذي عن حارثة بن وهب.

(٤) مسلم عن جرير.

به، فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلها داره وفتح صندوقاً فأخرت من ست بدر، فقال: احملوا، فحملوا فقال: ابن عباس ما أنصفناه أعطيناه ما يشغله عن قيامه وصيامه، ارجعوا بنا نكن أعوانه على تجهيزها فليس للدنيا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه، وما بنا من الكبر ما لا نخدم أولياء الله تعالى ففعل وفعلوا.

وحكي أنه لما أجدب الناس بمصر وعبد الحميد بن سعد أميرهم فقال: والله لأعلمن الشيطان أني عدوه؛ فعال محاويجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم، فرهنهم بها حلي نسائه وقيمتها خمسمائة ألف ألف، فلما تعذر عليه ارتجاعها كتب إليهم ببيعها ودفع الفاضل منها عن حقوقهم إلى من لم تنله صلاته.

وكان أبو طاهر بن كثير شيعياً فقال له رجل. بحق علي بن أبي طالب ﷺ لما وهب لي نخلتك بموضع كذا وكذا، فقال: قد فعلت، وحقه لأعطينك ما يليها، وكان ذلك أضعاف ما طلب الرجل.

وقال أبو الحسن المدائني: خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر حجاجاً ففاتهم أثقالهم فجاعوا وعطشوا، فمروا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟ فقالت نعم، فأناخوا إليها وليس لها إلا شويهة في كسر الخيمة فقالت: احلبوها وامتذقوا لبنها. ففعلوا ذلك ثم قالوا لها: هل من طعام؟ قالت: لا، إلا هذه الشاة فليذبحها أحدكم حتى أهيئ لكم ما تأكلون، فقام إليها أحدهم وذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا وأقاموا حتى أبردوا فلما ارتحلوا قالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعنا سالمين فألمي بنا فإنا صانعون بك خيراً ثم ارتحلوا وأقبل زوجها فأخبرته بخبر القوم والشاة فغضب الرجل وقال: ويلك تذبحين شاتي لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين نفر من قريش؟ قال: ثم بعد مدة ألجأتهما الحاجة إلى دخول المدينة، فدخلاها وجعلا ينقلان البعر إليها ويبيعانه ويتعيشان بثمه، فمرت العجوز ببعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة، فبعث غلامه فدعا بالعجوز وقال لها: يا أمة الله أتعرفيني؟ قالت: لا، قال: أنا ضيفك يوم كذا ويوم كذا، فقالت العجوز: بأبي أنت وأمي أنت هو؟ قال: نعم. ثم أمر الحسن فاشتروا لها من شياه الصدقة ألف شاة، وأمر لها معها بألف دينار، وبعث بها مع غلامه إلى الحسين فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار، فأمر لها الحسين أيضاً بمثل ذلك ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر، فقال لها بكم وصلك الحسن والحسين؟ قالت: بألفي شاة وألفي دينار، فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار، وقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهما، فرجعت العجوز إلى زوجها

بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار.

وخرج عبد الله بن عامر بن كريز من المسجد يريد منزله وهو وحده، فقام إليه غلام من ثقيف فمشى إلى جانبه فقال له عبد الله: ألك حاجة يا غلام؟ قال: صلاحك وفلاحك رأيتك تمشي وحدك فقلت أقيك بنفسي وأعوذ بالله إن طار بجنابك مكروه، فأخذ عبد الله بيده ومشى معه إلى منزله، ثم دعا بألف دينار فدفعها إلى الغلام وقال: استنفق هذه فنعم ما أدبك أهلك.

وحكي أن قوماً من العرب جاءوا إلى قبر بعض أسخيائهم للزيارة، فنزلوا عند قبره وباتوا عنده وقد كانوا جاءوا من سفر بعيد؛ فرأى رجل منهم في النوم صاحب القبر وهو يقول له: هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبي؟ وكان السخي الميت قد خلف نجيباً معروفاً به، ولهذا الرجل بعير سمين، فقال له في النوم: نعم، فباعه في النوم بعيره بنجيبه، فملا وقع بينهما العقد عمد هذا الرجل إلى بعيره فنحره في النوم، فانتبه الرجل من نومه فإذا الدم يثج من نحر بعيره، فقام الرجل فنحره وقسم لحمه فطبخوه وقضوا حاجتهم منه ثم رحلوا وساروا، فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق استقبلهم ركب، فقال رجل منهم: من فلان بن فلان منكم؟ - باسم ذلك الرجل - فقال: أنا، فقال له هل بعث من فلان بن فلان شيئاً؟ وذكر الميت صاحب القبر، قال: نعم بعث بعيري بنجيبه في النوم، فقال: خذ هذا نجيبه، ثم قال: هو أبي وقد رأيته في النوم وهو يقول: إن كنت ابني فادفع نجيبي إلى فلان بن فلان وسماه.

وقدم رجل من قريش من السفر فمر برجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر وأضر به المرض، فقال: يا هذا أعنا على الدهر فقال الرجل لغلامه: ما بقي معك من النفقة فادفعه إليه، فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف، فبكى فقال له الرجل ما يبكيك لعلك استقللت ما أعطيناك؟ قال: لا، ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني.

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره في السوق بتسعين ألف درهم، فلما كان الليل سمع بكاء أهل خالد فقال لأهله: ما لهؤلاء؟ قالوا يبكون لدارهم، فقال يا غلام ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً.

وبعث هارون الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله بخمسمائة دينار، فبلغ ذلك الليث بن سعد فأنفذ إليه ألف دينار، فغضب هارون وقال أعطيته خمسمائة وتعطيه ألفاً وأنت من رعيتي؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لي من غلتي كل يوم ألف دينار؛ فاستحييت أن أعطى مثل أقل من دخل يوم.

وحكي أنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار. وحكي أن امرأة سألت

الليث بن سعد رحمة الله عليه شيئاً من عسل، فأمر لها بزق من عسل، فقيل له إنها كانت تقنع بدون هذا؟ فقال: إنما سألت على قدر حاجتها ونحن نعطيها على قدر النعمة علينا. وكان الليث ابن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلثمائة وستين مسكيناً.

وقال الأعمش: اشتكت شاة عندي فكان خيثمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوفت علفها؟ وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها؟ وكان تحتي لبد أجلس عليه فإذا خرج قال: خذ ما تحت اللبد، حتى وصل إلي في علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ.

وقال عبد الملك بن مروان لأسماء بن خارجة: بلغني عنك خصال فحدثني لها، فقال: هي من غيري أحسن منها مني، فقال: عزمت عليك إلا حدثتني بها؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوماً إلا كانوا أمن علي مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط يسألني شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيته إياه.

ومرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقيل لهم: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين، فقال: أخزي الله ما لا يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً فنادى من كان عليه لقيس بن سعد حق فهو منه بريء، قال: فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من زاره وعاده.

وعن أبي إسحاق قال: صليت العصر في مسجد الأشعث بالكوفة أطلب غريماً لي، فلما صليت وضع بين يدي حلة ونعلان، فقلت: لست أهل هذا المسجد، فقالوا: إن الأشعث بن قيس الكندي قدم البارحة من مكة فأمر لكل من صلى في المسجد بحلة ونعلين.

وقال الشيخ أبو سعد الحركوشي النيسابوري رحمه الله: سمعت محمد بن محمد الحافظ يقول، سمعت الشافعي المجاور بمكة يقول: كان بمصر رجل عرف بأن يجمع للفقراء شيئاً، فولد لبعضهم مولود قال: فجئت إليه وقلت له: ولد لي مولود وليس معي شيء فقام معي ودخل على جماعة فلم يفتح بشيء، فجاء إلى قبر رجل وجلس عنده وقال: رحمك الله كنت تفعل وتصنع وإني درت اليوم على جماعة فكلفتهم دفع شيء لمولود فلم يتفق لي شيء، قال: ثم قام وأخرج ديناراً وقسمه نصفين وناولني نصفه، وقال: هذا دين عليك إلى أن يفتح الله عليك بشيء، قال: فأخذته وانصرفت فأصلحت ما اتفق لي به قال: فرأى ذلك المحتسب تلك الليلة ذلك الشخص في منامه فقال: سمعت جميع ما قلت وليس لنا إذن في الجواب، ولكن أحضر منزلي وقل لأولادي يحفروا مكان الكانون يخرجوا قرابة فيها خمسمائة دينار فاحملها إلى هذا الرجل فلما كان من الغد تقدم إلى منزل الميت وقص عليهم القصة فقالوا له: اجلس وحفروا الموضع وأخرجوا الدنانير وجاءوا

بها فوضعوها بين يديه، فقال: هذا مالكم وليس لرؤياي حكم، فقالوا: هو يتسخى ميتاً ولا نتسخى نحن أحياء؟ فلما ألحوا عليه حمل الدنانير إلى رجل صاحب المولود وذكر له القصة، قال: فأخذ منها ديناراً فكسره نصفين فأعطاه النصف الذي أقرضه وحمل النصف الآخر، وقال: يكفيني هذا وتصدق به على الفقراء، فقال أبو سعيد: فلا أدري أي هؤلاء أسخى؟

وروي أن الشافعي رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال: مروا فلاناً يغسلني، فلما توفي بلغه خبر وفاته فحضر وقال: ائتوني بتذكرته، فأتي بها فنظر فيها فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم دين، فكتبها على نفسه وقضاها عنه، وقال هذا غسلي إياه؛ أي أراد به هذا. وقال أبو سعيد الواعظ الحركوشي لما قدمت مصر طلبت منزل ذلك الرجل فدلوني عليه، فرأيت جماعة من أحفاده وزرتهم فرأيت فيهم سيما الخير وآثار الفضل فقلت بلغ أثره في الخير إليهم وظهرت بركته فيهم.

وقال الشافعي ﷺ: لا أزال أحب حماد بن أبي سليمان لشيء بلغني عنه أنه كان ذات يوم راكباً حماره فحركه فانقطع زره، فمر على خياط فأراد أن ينزل إليه ليسوي زره، فقال: الله والله لا نزلت فقام الخياط إليه فسوى زره فأخرج إليه صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتذر إليه من قلتها.

وأنشد الشافعي لنفسه:

يا لهف قلب على مال أجود به ... على المقلين من أهل المروءات

إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي لمن إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان قال: أخذ رجل بركاب الشافعي ﷺ فقال: يا ربيع أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني.

وقال الحميدي: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خباءه في موضع خارج عن مكة ونثرها على ثوب، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه حتى صلى الظهر ونفض الثوب وليس عنده شيء. وعن أبي ثور قال أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال، وكان قلما يمسك شيئاً من سماحته، فقلت له ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك، قال فخرج ثم قدم علينا فسألته عن ذلك المال، فقال ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها بمعرفتي بأصلها وقد وقفف أكثرها، ولكني بنيت بمنى مضرباً يكون

لأصحابنا إلى حجوا أن يترلوا فيه. وأنشد الشافعي رحمه الله لنفسه يقول:

أرى نفسي تتوق إلى أمور يقصر دون مبلغهن مالي

فنفسي لا تطاوعني ببخل ومالي لا يبلغني فعالي

وقال محمد بن عباد المهبلي: دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم فلما قام من عنده تصدق بها فأخبر بذلك المأمون، فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء ظن بالمعبود، فوصله بمائة ألف أخرى.

وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم فبكى، فقال له سعيد: ما يبكيك! قال: أبكي على الأرض أن تأكل مثلك، فأمر له بمائة ألف أخرى.

وروي أنه كان لعثمان على طلحة ﷺ خمسون ألف درهم، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد فقال له طلحة. قد تهيأ مالك فاقبضه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك. وقالت سعدى بنت عوف: دخلت على طلحة فرأيت منه ثقلاً فقلت له مالك؟ فقال اجتمع عندي مال وقد غمني، فقلت وما يغمك ادع قومك؟ فقال يا غلام علي بقومي، فقسمه فيهم فسألت الخادم كم كان؟ قال: أربعمائة ألف. وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله وتقرب إليه برحم فقال: إن هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك، إن لي أرضاً قد أعطاني بها عثمان ثلثمائة ألف فإن شئت فاقبضها، وإن شئت فعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن، فقال: الثمن، فباعها من عثمان ودفع إليه الثمن.

وقيل بكى علي ﷺ يوماً فقيل: ما يبكيك؟ فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

وأتى رجل صديقاً له فدفق عليه الباب فقال، ما جاء بك؟ قال علي أربعمائة درهم دين، فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي، فقالت امرأته لم أعطيته إذ شق عليك؟ فقال إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتيحي.

التحذير من البخل:

قال: ومن هذا الباب كل ما ورد في النصوص من التحذير من البخل وذم أهله.

قلت: لقد وردت النصوص بذم البخل، وخطره على أهله، فقال تعالى:﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران:١٨٠)، ولهذا أخبر تعالى أنه من:﴿ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: من الآية٩)

وأخبر تعالى أن البخل من صفات الكفار، فقال:﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ (النساء:٣٧)

قال: وقد أخبر ﷺ عن تأثير البخل في خراب المجتمعات، فقال:(إياكم والشح فإنه هلك من كان قبلكم بالشح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، أو أمرهم بالفجور ففجروا)[١]، وقال ﷺ:(صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)[٢]

قلت: ولهذا أخبر ﷺ أن الشح لا يكون من صفات المؤمنين، فقال:(خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق)[٣]

قال: بل أخبر ﷺ بما هو أعظم من ذلك، فقال:(الشحيح لا يدخل الجنة)[٤]، وقال:(قسم من الله تعالى لا يدخل الجنة بخيل)[٥]

قلت: وأخبر ﷺ عن الضنك النفسي الذي يعيشه البخيل مقارنة بالسعة التي يعيشها الكريم، فقال:(مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من يديهما إلى تراقيهما وأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت على جلده حتى تخفي أي تستر ثيابه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع)[٦]

---

(١) أبو داود، والحاكم.
(٢) الطبراني، والبيهقي.
(٣) البخاري في الأدب، والترمذي.
(٤) الخطيب.
(٥) ابن عساكر.
(٦) أحمد والشيخان والنسائي.

إحسان الرحمة

اقتربنا من النافذة الرابعة، والتي تشع منها روائح الرحمة الطيبة، فقال لي المعلم: ويل لمن ملك المال، و لم يملك معه الرحمة.

قلت: فما علاقة المال بالرحمة؟

قال: من ملك المال، و لم يملك الرحمة لم يزده ماله إلا قسوة، و لم تزده القسوة إلا بعدا عن ربه، و لم يزده بعده عن ربه إلا ألما وحسرة.

قلت: فما أول ما تنبت الرحمة من الإحسان؟

قال: الأهل من الوالد والأولاد، ألم تسمع قوله تعالى في الوالدين:﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ (الاسراء:٢٤)

قلت: لقد وردت النصوص الكثيرة المؤكدة لحقوق الأقارب، فعن كليب بن منفعة، عن جده، أنه أتى النبـــي ﷺ فقال: يا رسول الله من أبَرُّ؟ قال: (أُمكَ وأَبَاكَ وأُختَكَ وَأَخَاكَ ومَولاَكَ الذِي يَلِي ذاك، حَقٌ واجبٌ ورَحِمٌ مَوصُولَةٌ)[1]

وعن طارق المُحاربـــي قال: قدمتُ المدينة، فإذا رسولُ الله قائمٌ على المنبر يخطبُ الناسَ وهو يقول: (يَدُ المُعطي العُليَا، وَابدَأ بمَن تَعُول، أُمكَ وَأَبَاكَ، وَأُختَكَ وأَخَاكَ، ثُم أَدنَاكَ أَدنَاكَ)[2]

وعن أبـــي هُريرة ﷺ قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ، فقال: يا رسولَ الله من أحقُّ الناس بُحسن صَحَابتي؟ قال: (أُمُك) قال: ثُم مَن؟ قال: (أُمُّكَ)، قال: ثم من؟ قال: (أُمُّكَ)، قال: ثم من؟ قال: (أَبُوكَ ثُم أَدنَاكَ أَدنَاكَ)[3]

وعن معاوية القُشيري رضي الله عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله مَن أَبَرُّ؟ قال: (أُمكَ)، قلتُ: ثم مَن؟ قال: (أُمكَ)، قلت: ثم من؟ قال: (أُمك)، قلت: ثم مَن؟ قال: (أَبَاكَ ثُم الأَقرَبَ فَالأَقرَبَ)

وقد قال النبـــي ﷺ لِهند: (خُذي مَا يَكفِيكِ وَوَلَدَكِ بالَمعرُوفِ)[4].

وقال ﷺ:(إن أطيَبَ مَا أكَلتُم مِن كَسبكُم، وإن أَولاَدَكُم مِن كَسبكُم فَكُلُوهُ هنيئاً)[5]

وقال ﷺ:(ابدَأ بنَفسكَ فَتَصَدق عَلَيهَا فَإِن فَضَلَ شَيءٌ فَلأهلِكَ، فَإن فَضَلَ عَن أَهلِكَ

---

(١) أبو داود.
(٢) النسائي.
(٣) البخاري ومسلم.
(٤) الترمذي.
(٥) أبـــي داود.

شَيءٌ، فَلِذي قَرَابَتِكَ، فَإن فَضَلَ عَن ذِي قَرَابتِكَ، فِهٰكَذَا وهٰكَذَا)[1]

قال: ويدل لهذا كله كل ما ورد في القرآن الكريم من النصوص الحاثة على أيتاء ذوي القربى ، كما قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ ﴾ (البقرة: من الآية٨٣)، وقال تعالى:﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ (النساء:٨)، وقال تعالى:﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ (النساء:٣٦)، وقال تعالى:﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (لأنفال:٤١)، وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْأِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)، وقال تعالى:﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ (الاسراء:٢٦)، وقال تعالى:﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٢٢)، وقال تعالى:﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الروم:٣٨)

قلت: لقد بحث الفقهاء في هذه المسألة، واختلفوا فيها[2].

---

(١) النسائي من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) اختلف الفقهاء في حكم هٰذه المسألة على أقوال كثيرة جمعها ابن القيم هذه خلاصتها:

القول الأول: أنه لا يُجبَرُ أحدٌ على نفقةِ أحدٍ من أقاربه، وإنما ذلك برٌّ وصِلَة، وهذا مذهب يُعزَى إلى الشعبي. قال عبدُ بنُ حميدَ الكَشي: حدثنا قَبيصةُ، عن سفيان الثوري، عن أشعث، عن الشعَبي، قال: ما رأيت أحداً أجبرَ أحداً على أحدٍ، يعني على نفقته. وفي إثباتَ هذا المذهب بهذا الكلام نظر، والشعبي أفقه من هذا، والظاهر أنه أراد: أن الناسَ كانوا أتقى لله من أن يحتاج الغنيُّ أن يجبرَهُ الحاكم على الإنفاق على قريبه المحتاج، فكان الناس يكتفون بإيجاب الشرع عن إيجاب الحاكم أو إجباره.

القول الثاني: أنه يجب عليه الفقةُ على أبيه الأدنى، وأمه التي ولدته خاصة، فهٰذان الأبوان يجبر الذكر والأنثى من الولد على النفقة عليهما إذا كانا فقيرين، فأما نفقةُ الأولادِ، فالرجل يُجبرُ على نفقة ابنهِ الأدنى حتى يبلغ فقط، وعلى نفقة بنته الدنيا حتى تُزَوجَ، ولا يجبر على نفقة ابن ابنه، ولا بنت ابنه وإن سفلا، ولا تُجبَرُ الأُمُّ على نفقة ابنها وابنتها ولو كانا في غاية الحاجة والأم في غاية الغنى، ولا تجب على أحد النفقةُ على ابن ابنٍ، ولا جد، ولا أخٍ، ولا أختٍ، ولا عمَ، ولا عمةٍ، ولا خال ولا خالةٍ، ولا أحد من الأقارب البتة سوى ما ذكرنا. وتجب النفقةُ مع اتحادِ الدين واختلافه حيث وجبت، وهذا مذهب مالك، وهو أضيقُ المذاهب في النفقات.

القول الثالث: أنه تجبُ نفقةُ عمودي النسب خاصة، دون مَن عداهم، مع اتفاق الدينِ، ويَسَارِ المنفِق، وقدرته، وحاجة المُنفَق عليه، وعجزه عن الكسب بصغرٍ أو جنونٍ أو زمانةٍ إن كان من العمود الأسفل. وإن كانَ من العَمود الأَعلى: فهل يشترط

قال: فاعتمدوا من الأقوال أقربها للرحمة، فهي من مقاصد الشريعة الكبرى.

قلت: فما أقربها للرحمة؟

قال: لا يكون المؤمن رحيما، وبعض أهله يشكو الفاقة، وهو قادر على أن يخرجه منها.

قلت: إن الحقوق تكثر بذلك على الأغنياء.

قال: فهل رزقهم الله ما رزقهم إلا لتكثر حقوقهم، أليسوا وكلاء عن الله في إيصال رزق الله إلى خلق الله؟

قلت: لقد صرحت النصوص بذلك.

قال: فطبقوها.

قلت: هم يطبقونها على الأقارب الأدنين.

عَجزهُم عن الكسب؟ على قولين. ومنهم من طرد القولين أيضاً في العمود الأسفل. فإذا بلغ الولد صحيحاً، سقطت نفقتُه ذَكراً كان أو أنثى، وهذا مَذهب الشافعي، وهو أوسع من مذهب مالك.

القول الرابع: أن النفقة تَجبُ على كل ذي رحمٍ مَحرَمٍ لذي رحمه فإن كان من الأولاد وأولادهم، أو الآباء والأجداد، وجبت نفقتُهم مع اتحاد الدين واختلافه. وإن كان من غيرهم، لم تجب إلا مع اتحاد الدين، فلا يجب على المسلم أن ينفق على ذي رحمه الكافر، ثم إنما تجب النفقة بشرط قدرة المنفِق وحاجة المنفَق عليه. فإن كان صغيراً اعتُبِرَ فَقرُهُ فَقَط، وإن كان كبيراً، فإن كان أنثى، فكذلك، وإن كان ذَكَراً، فلا بُد مع فقره من عَمَاهُ أَوَ زَمَانَتِهِ، فإن كان صحيحاً بصيراً لم تجب نفقته، وهي مرتبة عنده على الميراث إلا في نفقة الولد، فإنها على أبيه، خاصة على المشهور من مذهب.

وروي عن الحسن بن زياد اللؤلؤي: أنها على أبويه خاصة بقدر ميراثهما طرداً للقياس، وهذا مذهب أبي حنيفة، وهو أوسعُ من مذهب الشافعي.

القول الخامس: أن القريب إن كان من عمودي النسب وجبت نفقتُه مطلقاً، سواءً كان وارثاً أو غير وارث، وهل يشترط اتحادُ الدين بينهم؟ على روايتين وعنه رواية أخرى أنه لا تجبُ نفقتُهم إلا بشرط أن يرثهم بفرضٍ أو تَعصِيب كسائر الأقارب. وإن كان من غير عمودي النسب، وجبت نفقتهم بشرط أن يكون بينه وبينهم توارث. ثَم هل يشترط أن يكون التوارث من الجانبين، أو يكفي أن يكون من أحدهما؟ على روايتين. وهل يشترط ثبوت التوارُثِ في الحال، أو أن يكون من أهل الميراث في الجملة؟ على روايتين: فإن كان الأقارب من ذوي الأرحام الذين لا يرثون، فلا نفقة لهم على المنصوص عنه، وخرج بعض أصحابه وجوبَها عليهم من مذهبه من توارثهم، ولا بد عنده من اتحاد الدين بين المنفِق والمنفَق عليه حيث وجبت النفقة إلا في عمودي النسب في إحدى الراويتين. فإن كان الميراث بغير القرابة، كالولاء وجبت النفقة به ظاهر مذهبه على الوارث دون الموروث، وإذا لزمته نفقة رجلٍ لزمته نفقةُ زوجتِهِ في ظاهر مذهبه. وعنه: لا تلزمه. وعنه: تلزمه في عمودي النسب خاصة دون مَن عداهم. وعنه: تلزمه لزوجةِ الأب خاصة، ويلزمه إعفاف عمودي نسبه بتزويج أو تَسَرَ إذا طلبوا ذلك.

قال القاضي أبو يعلى: وكذلك يجيء في كل مَن لزمته نفقتُه؛ أخ، أو عم، أو غيرهما يلزمُه إعفافُه، لأن أحمد رحمه الله قد نص في العبد يلزمه أن يزوجه إذا طلب ذلك، وإلا بيع عليه، وإذا لزمه إعفافُ رجل لزمه نفقة زوجته، لأنه لا تُمَكنُ من الإعفاف إلا بذلك، وهذه غير المسألة المتقدمة، وهو وجوب الإنفاق على زوجة المنفَق عليه، ولهذه مأخذ، ولتلك مأخذ، وهذا مذهب الإمام أحمد، وهو أوسع من مذهب أبي حنيفة، وإن كان مذهب أبي حنيفة أوسعَ منه من وجه آخر حيثُ يُوجبُ النفقةَ على ذوي الأرحام وهو الصحيح في الدليل، وهو الذي تقتضيه أصولُ أحمد ونصوصُه وقواعد الشرع، وصلةُ الرحم التي أمر الله أن تُوصَلَ، وحرمَ الجنة على كل قاطع رحم.

فالنفقة تُستَحَقُّ بشيئين: بالميراث بكتاب الله، وبالرحم بسنة رسول الله ﷺ.

قال: فطبقوها على الأقارب الأبعدين.

قلت: ذلك يحتاج إل نصوص أصرح.

قال: النصوص التي وردت في حق ذوي القربى مليئة بالصراحة.

قلت: لقد استدل ابن القيم بها، فقال:(جعل سبحانه حق ذي القربى يلي حق الوالدين، كما جعله النبـــيُّ سواءً بسواء، وأخبر سبحانه؛ أن لذي القربى حقاً على قرابته، وأمر بإتيانه إياه، فإن لم يكن ذلك حق النفقةِ، فلا نَدري أي حقَ هُوَ. وأمر تعالى بالإحسان إلى ذي القربى. ومن أعظم الإساءةَ أن يراه يموت جوعاً وعُرياً، وهو قادر على سد خَلته وستر عَورَتِهِ، ولا يطعمه لُقمة، ولا يَستُر له عَورَةً إلا بأن يقرضه ذلك في ذِمتِهِ)

قال: لقد صرح القرآن الكريم بذلك، فقال تعالى:﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة:٢٣٣)، فقد أوجب تعالى على الوارثِ مثل ما أوجب على المولود له.

قلت: لقد حكم الخلفاء العادلون بهذا، فقد روى سفيان بن عُيَـــينَةَ، عن ابن جريج، عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب، أن عمر ﷺ حَبَسَ عَصَبَةَ صبـــيَ على أن يُنفِقُوا عليه، الرجال دون النساء.

وروي أن عمرَ بنَ الخطاب ﷺ وقف بني عم على مَنفُوسٍ كَلالة بالنفقة عليه مثل العاقلة، فقالوا: لا مال له، فقال: ولَو، وقوفُهم بالنفقة عليه كهيئة العقْل، قال ابن المديني: قوله: ولو، أي: ولو لم يكن له مال.

وذكر ابن أبـــي شيبة، عن سعيد بن المسيب، قال: جاء ولي يتيم إلى عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، فقال: أَنفِق عليه، ثم قال: لو لم أجد إلا أقصى عشيرته لَفَرضتُ عليهم. وحكم بمثل ذلك أيضاً زيدُ بن ثابت.

قلت: أليس المراد بذلك البر والصلة التي تحمل على الاستحباب؟

قال: لا.. لقد سمى الله ذلك حقا ، وأضافه إليه، وأخبر النبـــي ﷺ بأنه حقٌّ، وأنه واجبٌ، وبعض هذا ينادي على الوجوب جهاراً.

قلت: فلعل المراد بحقه ترك قطيعته.

قال: لقد أجاب ابن القيم على هذا من وجهين. أحدهما: أن يقال: فأي قطيعة أعظم من أن يراه يتلظى جُوعاً وعَطَشاً، ويتأذى غاية الأذى بالحر والبرد، ولا يُطعِمُهُ لُقمَةً، ولا يَسقِيهِ جَرعة، ولا يكسوه ما يستر عَورَتَهُ ويقيهِ الحر والبردَ، ويُسكِنُهُ تحت سقف يُظله، هذا وهو أخوه ابن أمه وأبـــيه، أو عمه صِنو أبـــيه، أو خالته التي هي أمه، إنما يجب عليه من ذلك ما يجب بَذلُهُ للأجنبـــي البعيد، بأن يعاوضه على ذلك في الذمةِ إلى أن يُوسر، ثم يسترجع به عليه، هذا مع كونه في غاية اليَسَارِ والجِدَةِ، وسَعَةِ الأموال. فإن لم تكن هٰذه قطيعة، فإنا لا ندري ما هي القطيعة المحرمة، والصلَةُ التي أمر الله بها، وحرم الجنة على قاطعها.

والوجه الثاني: أن يقال: فما هذه الصلة الواجبة التي نادت عليها النصوصُ، وبالغت في إيجابها، وذَمت قاطعها؟ فأيُّ قَدرٍ زائدٍ فيها على حق الأجنبـــي حتى تَعقِلَهُ القلوب، وتُخبرَ به الألسنة، وتَعملَ به الجوارحُ؟ أهوَ السلامُ عليه إذا لقيه، وعيادتُه إذا مرض، وتشميتُه إذا عطَس، وإجابته إذا دعاهُ، وإنكم لا تُوجبون شيئاً من ذلك إلا ما يجبُ نظيرُه للأجنبـــي على الأجنبـــي؟ وإن كانت هذه الصلَةُ ترك ضربه وسبه وأذاه والإزراءِ به، ونحو ذلك، فهذا حق يجبُ لكل مسلم على كُل مسلم، بل للذميَ البعيد على المسلم، فما خصوصيةُ صِلة الرحم الواجبة؟.

قلت: أراك تذكر ابن القيم، وقد اشتد على الفقهاء المنكرين لهذا، وبالغ في تشدده.

قال: لقد نصحهم، ونصح الأمة، فاذكر ما قال ، فلا خير في قوم لا يتناصحون.

قلت: لقد ذكر أن بعضهم صَنفَ في صلة الرحم كتاباً كبـــيراً، وأوعب فيه من الآثار المرفوعةِ والموقوفةِ، وذكر جنس الصلة وأنواعها وأقسامها، ومع هذا فلم يتخلص من هٰذا الإلزام، فإن الصلة معروفة يعرفُها الخاصُّ والعام، والآثارُ فيها أشهر من العلم، ولكن ما الصلةُ التي تختَصُّ بها الرحمُ، وتجب له الرحمة، ولا يُشاركه فيها الأجنبـــي؟ فلا يُمكنكم أن تُعَينوا وجوب شيء إلا وكانت النفقةُ أوجبَ منه، ولا يمكنكم أن تَذكُروا مُسقِطاً لوجوب النفقة إلا وكان ما عداها أولى بالسقوط منه، والنبـــيُّ ﷺ قد قَرَنَ حَق الأخ والأخت بالأب والأم، فقال: (أُمكَ وأَبَاكَ، وأُختَكَ وَأَخَاكَ، ثُم أَدنَاكَ فَأَدنَاكَ)، فما الذي نسخ هذا، وما الذي جعل أولَهُ للوجوب، وآخِرَهُ للاستحباب؟

قال: لقد ذكر بعد هذا كلاما طيبا، فاذكره، فقد قاله لقومك خاصة.

قلت: لقد قال:(ليس من بر الوالدين أن يَدَعَ الرجلُ أباهُ يَكنُسُ الكُنُفَ، ويُكاري على الحُمر، ويُوقِدُ في أَتُّونِ الحَمامِ، ويَحمِلُ للناس على رأسه ما يَتَقَوتُ بأُجرَتِهِ، وهو في غاية الغِنى

واليَسَار، وسَعَةِ ذاتِ اليدِ، وليس مِن بر أمهِ أن يَدَعَهَا تَخدُمُ الناسَ، وتغسلُ ثيابهم، وتسقي لهم الماء ونحو ذلك، ولا يصُونُها بما يُنفِقهُ عليها، ويقول: الأبوان مُكتَسبَان صحيحان، وليسا بزَمَنَين ولا أَعمَيَـــين، فيالله العجبُ أين شرطُ الله ورسولِه في بر الوالدين وَصِلَةِ الرحمِ أن يكون أَحَدُهمَ زَمِناً أو أعمىَ، وليست صِلَةُ الرحمِ ولا بِرُّ الوالدين موقوفةً على ذلك شرعاً ولا لغةً ولا عرفاً)

٣ ــ جوهرة الالتزام

اقتربنا من الباب الثالث من أبواب الفضل، فرأيت رجلا يمتلئ خشوعا، وهو يمسك بمسبحة يعد بها تسبيحاته، فإذا ما انتهى من عدها، ملئت جرة أمامه يواقيت وجواهير.

فقلت للمعلم: أهذا يطلب حسنات الله، وجواهر أهل الله، أم تراه يطلب حسنات أهل الدنيا، وجواهر أهل الغفلة.

قال: لا.. هذا رجل من أهل الله ، فقه عن الله، وعلم أن الله رب الدنيا والآخرة، وله خزائن حسنات الدنيا والآخرة، فراح يملأ خزائنه منهما.

قلت: ألا يقدح ذلك في إخلاصه؟

قال: وهل دعا الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ أقوامهم لغير الإخلاص.

قلت: كلا.. ولكن ما علاقة ذلك بهذا الرجل.

قال: هذا رجل سمع قول نوح عليه السلام:﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ (نوح:١٠ ــ ١٢)، فعلم أنه سنة من سنن الله، وسحابة من فضل الله، فراح يلتمس هذا السبب كما يلتمس غيره من الأسباب.

قلت: إن قومي يعتبرون هذا الباب من أبواب فضل الله من التواكل المنهي عنه.

قال: أولئك هم الجاهلون الغافلون الذي استعبدتهم الأسباب، فلا تسلك سبيلهم.

قلت: كيف لا أسلك سبيلهم، وهو يقولون حقا كثيرا.

قال: فما الحق الذي يقولونه؟

قلت: لقد رأوا قوما التزموا المسابح، وهجروا الفؤوس والمعاول.

قال: لقد أخطأ هؤلاء كما أخطأ أولئك، ولا ينبغي تصحيح الخطأ بالخطأ، بل الخطأ يصحح بالصواب.

قلت: فما الصواب الذي يعالج أوهام الخطأ؟

قال: هو قرع كل أبواب الله، أبواب الفؤوس ، وأبواب المسابح.. فلا يصح أن تهجر المسبحة لأجل الفأس، ولا أن تهجر الفأس لأجل المسبحة.

قلت: عرفت جدوى الفأس، فما جدوى المسبحة؟

قال: ستعرف فضلها في رحلتك في عوالم السلام، فلا خير في يد لا تحمل مسبحة، كما لا خير في يد لا تحمل فأسا.

قلت: أنت تدعوا لأمرين لم ترد بهما النصوص ، فليس في النصوص ما يدل على سنية حمل الفأس والمسبحة.

قال: أما سنية الفأس، فقد علمتها في باب الفضل، وستعلم تفاصيلها في مفاتيح المدائن.. وأما سنية المسبحة، فكل رحلتك في عوالم السلام تعلمك كيف تحمل المسبحة.

قلت: فعلمني من علومها الآن ما يملؤني قناعة بجدوى المسبحة في رزق الله، وفي طرق أبواب فضل الله.

قال: ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾ (الطلاق:٢ ــ ٣)، وقوله تعالى:﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ (الطلاق: من الآية٤))، وقوله تعالى:﴿ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾ (الطلاق:٥)

قلت: بلى.. فما فيها من العلم؟

قال: هذه الآيات تبين لك سنة الله مع الأتقياء من عباده، فهو يرزقهم من حيث يحتسبون ، ومن حيث لا يحتسبون.

قلت: ذلك صحيح.. وقد سمعت قوله تعالى عن مريم ــ عليها السلام ــ ما يملأ الصدر ثقة بفضل الله، فقد قال الله تعالى فيها:﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:٣٧)، ولكن كل ذلك يكاد يكون خاصا بها، أليست أم المسيح u؟

قال: ومن قال ذلك؟ الله عدل يعامل خلقه معاملة واحدة.. كونوا كمريم طهارة وعفة ، وسيأتيكم من فضل الله ما يغنيكم عن مد أيديكم لغيره.

قلت: أيمكن أن تحصل لنا من كرامات الرزق ما حصل لمريم ــ عليها السلام ــ؟

قال: إذا اجتهدتم أن تكونوا مثلها، فترزقون بمثل ما رزقت.

قلت: من الغيب؟

قال: من الغيب، أو من الجيب.. فالله ربهما جميعا.

قلت: إن هذا سيشيع روح التواكل.

قال: من عرف الله ووحده لا يخاف عليه من هذا الذي تخافونه.

قلت: إن خوفنا من تسلل مثل ذلك الانحراف جعلنا نوسوس في طرح مثل هذه القضايا.

قال: ووسوستكم جعلتكم تتيهون عن محكمات قرآنية كثيرة، بل تتيهون عن سنن كثيرة من سنن الله، بل تتيهون عن أبواب عظيمة من فضل الله.. فحاق بكم من الجهل والغلظة ما حاق بالقرى.. ألم تسمع قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (لأعراف:٩٦)

قلت: بلى.. وقد سمعت معها نموذج سبأ الذي ضربه الله لهذه السنن، فقد قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(سبأ:١٥ ــ ١٩)

قال: أرأيت كيف تغير جيوش المعاصي على النعم؟

قلت: أجل..ولكني أرى أقواما تصر على المعاصي، ومع ذلك يتقاطر عليها من فضل الله ما يزيدها عتوا وعنادا.

قال: ومن قال بأن ما يترل عليهم من فضل الله.

قلت: إن أموالهم تتضاعف، وخزائنهم لا تزيدها الأيام إلا انتفاخا.

قال: وقلوبهم؟

قلت: لا يزيدها امتلاء خزائنهم إلا قسوة.

قال: فليس هذا من فضل الله.. فكل رزق حجبك عن الله عذاب.. وليس له من عاقبة إلا الهلاك.. هو أشبه بمن تناول من الدواء الخطير ما ملأ جسمه سموما.

قلت: أجل.. لقد نص القرآن الكريم على هذه الحقيقة، فقال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (لأعراف:١٠٠) [1]، وقال تعالى:﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴾ (طه:١٢٨)، وقال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ

---

(١) قال ابن جرير في تفسيرها: يقول تعالى: أو لم نبيِّن للذين يستخلفون في الأرض من بعد إهلاك آخرين قبلهم كانوا أهلها، فساروا سيرتهم، وعملوا أعمالهم، وعتوا على ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، ونختم على قلوبهم فهُمْ لا يَسْمَعُونَ موعظة ولا تذكيرًا.

أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ (السجدة:٢٩)، وقال تعالى:﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (الأنعام:٦)، وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد:﴿ فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الأحقاف:٢٥-٢٧)، وقال تعالى:﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (سبأ:٤٥)، وقال تعالى:﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٥ ، ٤٦)

قال: أفلا تكفيكم كل هذه النصوص القرآنية لتزيل غدة عبوديتكم لغيركم، وانبهاركم بهم، وذلتكم أمامهم.

قلت: نحن نتيه على غيرنا ، ولا ننبهر به.

قال: لأي عالم ينتمي قومك؟

قلت: للعالم الثالث.. وبعضهم يصنفهم في العالم الرابع.. وبعضهم لم يضع لهم تصنيفا بعد.

قال: أليس قبولكم بهذا التصنيف جزءا من الانبهار؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا تطمحون لأن تصبحوا العالم الأول؟

قلت: لا حرج علينا في أن نطمح، فالله يحب أصحاب الهمم العالية.

قال: فمن هو العالم الأول في نظر قومك؟

قلت: العالم الأول هو العالم الأول.

قال: وهو عالم عاد وثمود وسبأ والروم والفرس والأندلس والروس والـــ..

قلت: حسبك لقد وعيت ما قلت.

قال: لا يكفي أن تعي.. بل عش الحقائق، وبشر بها.

قلت: فلأي عالم ننتمي.. أللعالم الأول؟

قال: لا.. لن تصلوا إلى هذا العالم حتى تتخلصوا من الحجب التي تحول بينكم وبين عوالم السلام.

قلت: فأين ننتمي الآن؟

قال: لا انتماء إلا بعد سير.. فإن سرتم انتميتم.. وكانت أول خطوة صحيحة تسيرونها هي مفتاح وصولكم.

٤ ـــ جوهرة الدعاء

اقتربنا من الباب الرابع من أبواب الفضل، فرأيت أيد كثيرة ممدودة إلى السماء.. ورأيت خيرا كثيرا يتساقط على تلك الأيدي.. لست أدري كيف انشغلت عن المرشد والمعلم.. ولم أجد نفسي إلا وأنا أمد يدي مع أيديهم.. وأصيح بما بصيحون.. وأجأر إلى الله بما يجأرون.

بينما أنا كذلك نبهتني يد ، قال لي صاحبها: ردد معي هذا الدعاء ، فقد كان من أدعية السلف الصالح ﷺ.. فقد روي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال:(ما دعا عبد قط بهذه الدعوات، إلا وسع الله له في معيشته، يا ذا المن ولا يمن عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول، لا إله إلا أنت ظهر اللاجين وجار المستجيرين ومأمن الخائفين، إن كنت كتبتني في أم الكتاب شقيا فامح عني اسم الشقاء، وأثبتني عندك سعيدا، وإن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب محروما مقترا علي رزقي، فامح حرماني ويسر رزقي وأثبتني عندك سعيدا موفقا للخير، فإنك تقول في كتابك الذي أنزلت ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:٣٩))

قلت: يا هذا اعرف ما تقول.. فابن مسعود ﷺ أفقه من أن يصح عنه هذا.

قال: وما الذي منعك من تصديقه؟

قلت: أولا ابن مسعود ﷺ كان يطلب الله ، ويرشد إلى الله ، ولم يكن يطلب الدنيا ، ولا يرشد إليها.

قال: وطلب الدنيا وسعتها حجاب الغافلين عن الله، أما العارفون الفاقهون عن الله ، فلو وضعت الدنيا جميعا في خزائنهم ما شغلتتهم عن الله لحظة واحدة.. ألم تسمع مقالة سليمان عليه السلام؟

قلت: أي مقالة؟

قال: لقد قال لله ، وبإلحاح متضرع:﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (صّ: من الآية٣٥)

قلت: بلى.. ولا زلت محتارا في سر هذا الطلب العجيب.

قال: ستفقه سره الأوفى في مفاتيح المدائن.. أما هنا فاعلم أن سليمان عليه السلام في غمرة ثقته بحبه الله، وامتلاء قلبه به ، قال: يا رب ابتلني بما شئت.. بالمال.. بالملك.. بل بالملك الذي لا يوجد نظيره.. فلن يزيغ بصري عنك ، ولن يطغى.

قلت: لقد فقهت هذا.. ولكني لا أفقه أن أسأل الله الرزق.. مع أنه رزاق بذاته.. فما حاجتي للطلب؟

قال: الله رزاق ، ومجيب.. فلا ينبغي أن يحجبك اسم عن اسم.. اعبد الله بأسمائه جميعا.

قلت: اشرح لي مرادك من هذا.

قال: لله في كل اسم من أسمائه الحسنى عبودية تليق به.. والكامل هو الذي نظر إلى كل اسم من أسماء الله، فبحث عن أسرار العبودية المرتبطة به.

قلت: اضرب لي مثالا يوضح هذا.. فإني أكاد أفهمه.

قال: أرأيت لو أن شخصا آتاه الله قدرات عجيبة، فهو فقيه طبيب فلكي مهندس.. وفوق ذلك هو مصارع قوي، ووجيه له من الوجاهة ما يجعل الخلق يبادرون لرغباته ، فلا يرفضون له طلبا، ولا يردون له شفاعة.. ومع كل هذا كان قريبا منك محبا لك.. وكان مع ذلك كله كريما خدوما يحب أن تسأله وتتعلم على يديه، وتستشفع به.

قلت: أراه كنزي الذي منه أنهل.. وبه أستعز ، وعلى يديه أتعلم، بل وبه تبرأ عللي ، وترفع أسقامي.

قال: فأنت تلاحظ كل وصف فيه ، ثم تستفيد منه بقدر طاقتك.

قلت: لا شك في ذلك.. وكلهم يفعله.. فمن الغباء عدم استثمار الطاقات.

قال: فتره ربك عن التشبيه.. ثم ارم بجنود هذا المثال على ما ذكرت من شبه، ولا أراك يصعب عليك تطبيقه.

قلت: هذا مثال قد يغرقني في مستنقعات التشبيه.. فحدثني بكلام الله، ودعني من كلام الخيال.

قال: ألم تسمع قوله تعالى في الحديث القدسي:(يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا. يا عبادي ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي ، كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم

أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[1]

قلت: بلى.. هذا حديث عظيم.. وقد قال سعيد: كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه.. وروي عن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ أنه قال: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث.

قال: لقد قصرا كثيرا في وصف شرف هذا الحديث.. فهذا الحديث يعبر عن حقائق عظيمة يقصر اللسان عن وصفها.. وقد فهم ابن المنكدر بعض حقائقه فراح يعيشها.

قلت: فأخبرني خبره.. فما أعظم أخبار الأولياء.

قال: حدث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: (خرج قوم غزاة ، وخرج معهم محمد بن المنكدر ، وكانت صائفة ، فبينا هم يسيرون في الساقة قال رجل من القوم: أشتهي جبنا رطبا فقال محمد بن المنكدر: استطعموه يطعمكم ، فإنه لقادر على كل شيء فدعا القوم فلم يسيروا إلا قليلا حتى وجدوا مكتلا مخيطا ، كأنما أتي به من الروحاء ، فإذا هو جبن فقال بعض القوم: لو كان عسلا؟ فقال محمد: فإن الذي أطعمكم جبنا هاهنا قادر على أن يطعمكم عسلا ، فاستطعموا يطعمكم فدعا القوم ، فساروا قليلا ، فوجدوا قافزة عسل على الطريق ، فنزلوا فأكلوا وحمدوا ربهم وشكروا)

وبمثله حدث النضر الحارث بن النعمان قال: (كان إبراهيم بن أدهم يجتني الرطب من شجر البلوط)

وبمثلهما حدث أبو سفيان المعمري قال: قال مغضب اليمامي: (اللهم ارزقنا عنبا ، فإذا بجفنة مملوءة عنبا)

قلت: لقد وعيت ما ذكرت ، فبورك فيك.

انصرف عني.. واستمر في دعائه.

أمسكت يد بيدي ، ورفعتها مع يدي ، وهي تقول: ردد معي دعوة العلاء بن الحضرمي.

قلت: لن أرددها حتى تعلمني خبرها.

قال: لقد ذكر الثقة عن سهم بن منجاب قال: سمعت سهما يقول: غزونا مع العلاء بن الحضرمي دارين ، قال: فدعا بثلاث دعوات ، فاستجاب الله له فيهن كلهن قال: سرنا معه فنزلنا منزلا ، وطلبنا الوضوء فلم نقدر عليه فقام فصلى ركعتين ، ثم دعا الله فقال: (اللهم يا عليم يا حكيم ، يا علي يا عظيم ، إنا عبيدك ، وفي سبيلك نقاتل عدوك ، فاسقنا غيثا نشرب

---

(١) مسلم.

منه ونتوضأ من الأحداث ، وإذا تركناه فلا تجعل لأحد فيه نصيبا غيرنا قال: فما جاوزنا غير قليل ، فإذا نحن بنهر من ماء سماء يتدفق ، قال: فنزلنا فتروينا ، وملأت إداوتي ، ثم تركتها ، فقلت: لأنظرن هل استجيب له؟ فسرنا ميلا أو نحوه ، فقلت لأصحابي: إني نسيت إداوتي فذهبت إلى ذلك المكان ، فكأنما لم يكن فيه ماء قط فأخذت إداوتي فجئت بها فلما أتينا دارين – وبيننا وبينهم البحر – فدعا أيضا فقال: اللهم يا عليم يا حليم ، يا علي يا عظيم ، إنا عبيدك ، وفي سبيلك نقاتل عدوك ، فاجعل لنا سبيلا إلى عدوك، ثم اقتحم بنا البحر ، فوالله ما ابتلت سروجنا حتى خرجنا إليهم فلما رجعنا اشتكى البطن فمات ، فلم نجد ما نغسله به ، فكفناه في ثيابه ، ودفناه ، فلما سرنا غير بعيد إذا نحن بماء كثير فقال بعضنا لبعض: ارجعوا لنستخرجه فنغسله فرجعنا فطلبنا قبره ، فخفي علينا قبره ، فلم نقدر عليه ، فقال رجل من القوم: إني سمعته يدعو الله يقول: اللهم يا عليم يا حليم ، يا علي يا عظيم ، أخف جثتي ، ولا تطلع على عورتي أحدا، فرجعنا وتركناه)

قلت: هذا رجل عظيم مستجاب الدعوة.. وقد حدثني الثقاة عن أبي هريرة ﷺ قال: (رأيت من العلاء بن الحضرمي ثلاث خصال لم أشهدها من أحد قبله ولا بعده: كنا في سفر ، فعطشنا عطشا شديدا في يوم حار ، فدعا الله فأمطرنا ، فسقينا وأسقينا وكنت معه فانتهينا إلى مكان فيه ماء فلم نقدر على العبور ، فدعا الله ، فمشى على الماء حتى عبر ذلك الجانب وشهدت موته ، فحفرنا له قبرا ، ووضعناه في اللحد ، فذكرنا أنا لم نحل العقد، فرفعنا اللبن فلم نر في اللحد شيئا)

قال: فتشبهوا به في الثقة بفضل الله.. واسألوا الله ، فلن يخيب الله من سأله.

قلت: ولكن هذا ولي من أولياء الله.. وأنى لنا مرتبته.

قال: دعك من هذا الجدل.. فالله رب الخلق جميعا.. كن مع الله يكن الله معك.. فالله قريب مجيب.

قال ذلك ، ثم انصرف.. فأمسكت بيدي يد آخر، قال صاحبها: أنا عمر بن ثابت الخزرجي ، من أهل البصرة.

قلت: ما حديثك؟

قال: سمعتكما تتحدثان عن العلاء.. وقد رأيت رجلا من بلدنا دخلت في أذنه البصرة حصاة ، فعالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صماخه ، فأسهرت ليله ، ونغصت عيش نهاره ، فأتى رجلا من أصحاب الحسن ، فشكا ذلك إليه فقال: ويحك ، إن كان شيء

ينفعك فدعوة العلاء بن الحضرمي التي دعا بها في البحر وفي المفازة ، قال: وما هي؟ قال: يا علي يا عظيم ، يا عليم يا حليم قال: فدعا بها ، فوالله ما برحنا حتى خرجت من أذنه ولها طنين حتى صكت الحائط ، وبرأ)

قلت: أراكم ترغبون عن نور الشمس إلى نور الأقمار.

قال: الكامل من جمع بينهما.. نحن نرغب فيهما جميعا.. نحن نرغب في كل ما يوصلنا الله.. وما نور القمر إلا فيض من نور الشمس.

قلت: ولكن الكامل من جعل دعواته طلبا لله.. لا طلبا لما في يد الله.

قال: الكامل لا يفرق بين الأمرين.. وقد دعا أشرف الخلق من الأنبياء والأولياء الله تعالى لأجل أرزاقهم.. ألم تسمع قول الخليل عليه السلام:﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (ابراهيم:٣٧)

قلت: بلى..

قال: ولا زال السلف والخلف من الأولياء والصالحين يتضرعون إلى الله بهذا ومثله.. ألم تسمع دعوات الاستسقاء.. فهي من هذا الباب.. فالمطر هو أصل الرزق وبذره.

قلت: بلى.. هي كثيرة.. وأنا راغب في تعلمها.

قال: فاذهب إلى أولئك القوم يخبروك من شأنها.

اقتربت منهم، فسمعت أحدهم يقول: أصاب الناس قحط شديد على عهد عمر ، فخرج عمر بالناس ، فصلى بهم ركعتين ، وخالف بين طرفي ردائه ، فجعل اليمين على اليسار ، واليسار على اليمين ، فقال: (اللهم إنا نستغفرك ونستسقيك، فما برحوا حتى مطروا فبينا هم كذلك إذا أعراب قدموا ، فأتوا عمر ، فقالوا: يا أمير المؤمنين ، بينما نحن في بوادينا يوم كذا ، في ساعة كذا ، إذا أظلنا غمام ، فسمعنا منها صوتا: إياك الغوث أبا حفص ، إياك الغوث أبا حفص)

قال آخر: كنت مع أنس فجاء قهرمانه[1]، فقال: (يا أبا حمزة ، عطشت أرضنا قال: فقام أنس وتوضأ ، وخرج إلى البرية ، فصلى ركعتين ، ثم دعا ربه ، فرأيت السحاب يلتئم وقال: ثم أمطرت حتى ملأت كل شيء فلما سكن المطر ، بعث أنس بعض أهله ، فقال:(انظروا أين بلغت السماء؟)، فنظر فلم تعد أرضه إلا يسيرا)

---

(١) القهرمان: الخازن الأمين المحافظ على ما في عهدته.

قال آخر: روي أن أهل المدينة ، قحطوا وكان فيها رجل صالح لازم لمسجد النبي ﷺ ، فبينا هم في دعائهم إذا أنا برجل عليه طمران خلقان ، فصلى ركعتين أوجز فيهما ، ثم بسط يديه إلى الله ، فقال: يا رب ، أقسمت عليك إلا أمطرت علينا الساعة فلم يرد يديه ، ولم يقطع دعاءه حتى تغشت السماء بالغيم ، وأمطروا ، حتى صاح أهل المدينة مخافة الغرق فقال: يا رب ، إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فارفع عنهم ، فسكن وتبع الرجل صاحب المطر حتى عرف صومعته ، ثم بكر عليه ، فنادى: يا أهل البيت فخرج الرجل ، فقال: قد أتيتك في حاجة ، قال: وما هي؟ قال: تخصني بدعوة قال: سبحان الله ، أنت أنت ، وتسألني أن أخصك بدعوة؟ قال: ما الذي بلغك ما رأيت؟ قال: ورأيتني؟ قلت: نعم ، قال: أطعت الله فيما أمرني ونهاني ، فسألته فأعطاني.

قال آخر: حدث السري بن يحيى ، قال: بلغنا أن ملكا من الملوك الأعاجم أقبل في جيش ، فلقي عصابة من المسلمين ، فلما رأوه اعتصموا بربوة، فصعدوا فوقها ، فقال ذلك الملك: ما أحد ولا شيء أشد عليهم من أن نحيط بهم ثم نتزلهم مكانهم حتى يموتوا من العطش فأحاطوا بهم ، فأصابهم حر شديد وعطش ، فاستسقوا الله عز وجل ، فأقبلت سحابة ، فجعل الرجل يحمل برنسه يتلقى به الماء ، حتى يمتلئ ، ثم يشرب حتى يروى ، فقال ذلك الملك: ارتحلوا ، فوالله لا أقتل قوما سقاهم الله من السماء وأنا أنظر.

الخاتمة

قال لي معلم السبلام: لم تسألني عن موقع هذه المدائن، عهدي بك سؤولا؟

قلت: أعلم أن ملك الله عظيم، وقد أخبرتني بأنا لم نبرح الأرض، فاكتفيت بهذا، وقلت:(لعلها جزيرة من الجزائر المجهولة، كتلك الجزيرة التي تحدث عنها تميم الداري)

قال: لا.. لقد ذهبت بعيدا، فلا أحسب أن هناك جزيرة لم تدسها أقدام قومك، وهم يبحثون عن الذهب.

قلت: فأين كنا إذن، أفي المريخ، أم في القمر؟

قال: لقد كنا في مدينة واحدة من مدائن الغنى بالله، وكل تلك الكنوز التي رأيتها، والتي سال لعابك لها كنوز رجل واحد.

قلت: كل تلك الثروة لرجل واحد.. ما اغناه، لا أرى أن على البسيطة من هو أغنى منه.. هذا حقيق أن يحسد.. بل أخاف أن يقتل.

قال: لا تخف.. فالناس جميعا يحتقرون ثرواته ولا يتلفتون لها، بل يضحكون منها، ويهزؤون منه.

قلت: ما أبعدهم.. أليس لهم أعين يبصرون بها، أو آذان يسمعون بها.

قال: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾(لأعراف: من الآية١٧٩)

قلت: ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ ﴾ (لأعراف: من الآية١٧٩) إذن.

قال: ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(لأعراف: من الآية١٧٩)

قلت: فما حاله معهم؟

قال: هو منشغل بمدائنه يسوسها ويحفظها.

قلت: وحق له ذلك، فمن كان له مثل ثورته وملكه لا يلتفت للسوقة والرعاع.

قال: لا تفهم كلامي خطأ، هو يلتفت إليهم ويحبهم ويمد يده إليهم بالعطاء، ولكنهم يقبضون أيديهم، ويطلب منهم أن يعمروا صناديقهم بكنوزه، ولكنهم يأنفون من كنوزه، ويضحكون منه.

قلت: فهلا ذهب إلى الفقراء، فللأغنياء من عزة النفس ما يحول بينهم وبين تقبل الصدقات ولو كانت كنوزا.

قال: ذهب للفقراء والأغنياء، فالكل عنده سواء، فالغنى غنى الروح.

قلت: فما فعل الفقراء؟

قال: رموه بالحجارة، وسخروا من دعواته لهم بدخول مدائن الغنى.

قلت: فماذا فعل؟

قال: هو منشغل عنهم بمدائنه وفأسه.

قلت: وما علاقة فأسه بمدائنه؟.. وأي فأس هذا؟.. أنا لم أر أي فأس في مدائن الأغنياء.

قال: لقد رأيته في بيته.

قلت: أي بيت؟

قال: بيت المرشد الذي كان دليلك في هذه المدائن.

قلت: نعم.. المرشد موظف في تلك المدائن، ولكن ما علاقة ذلك بفأسه.

قال: لم يكن المرشد موظفا في تلك المدائن، بل كان هو المدائن.

قلت: والكنوز.

قال: تلك هي ثروته.

قلت: فأين كنا نحن؟

قال: في أعماقه.. ألم أقل لك: هيا نبحث في أعماق ذلك الفقير الذي حزنت له عن كنوز الفقراء.

قلت: أكل ذلك الجمال، وتلك الثروة في أعماق فقير واحد؟

قال: نعم.. ويمكنها أن تكون لك جميعا.. بل لكل راغب فيها.. فجود الله عظيم.

قلت: فكيف لي أن يكون في أعماقي ما رأينا في أعماقه؟

قال: بالحب والإرادة والعزيمة.

قلت: فأنا أحب وأريد.

قال: لا يكفي ذلك، بل لا بد أن تعزم، ألم تسمع إلى الحق تعالى وهو يقول:﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(طـــه:١١٥)، فقد أحب آدم عليه السلام وأراد، ولكن الله عاتبه على أنه لم يعزم.

قلت: فقد عزمت.

قال: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران: من الآية١٥٩)

قلت: قد توكلت.

قال: حق التوكل، ألم تسمع إلى قول نبيك ﷺ:(لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله

لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا، وتروح بطانا)[1]

قلت: قد توكلت على الله حق توكله.

قال: لا تتخط رقاب الصديقين.. قل إن شاء الله.. فالتحقق عظيم.

أحسست بأني لا شيء، وأن منه كل شيء، فنطقت من أعماقي:﴿ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(الانبياء: من الآية٨٧)) وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(هود: من الآية٤٧))

قال لي: أما الآن، فانزل إلى أعماقك، وقل لي: ماذا ترى؟

نزلت إلى أعماقي، فلم أجد الظلمة التي كنت وجدتها من قبل، قال لي المعلم: لقد انجلت ظلمة الاعتراض، فاهتد بنور اليقين إلى مدائن الغنى التي تعمر أعماقك.

أخذت قطعة من نور التسليم التي وجدتها في أعماقي، وسرت بها، فإذ بي أرى مدائن الغنى، عليها رايات كنوز الفقراء، وعلى بابها رجل في جمال المرشد وبهائه، فقلت له: أنت يوسف، أم المرشد؟

فقال لي: أنا أنت.

قلت: أنت أنا؟.. كيف هذا؟

قال: اسأل المرشد.

قلت: كيف هذا؟

قال: هذا درس من دروس السلام.. ستعرفه في حينه.

ثم التفت إلي، وقال: هل أعجبتك مدائن الغنى التي جعلها الله في أعماقك.

قلت: بلى، فلله الحمد والمنة، ولك الشكر والفضل.

قال: فاشتغل بالدعوة إليها، كما يشتغلون بالدعوة إلى مصنوعاتهم.

قلت: كيف، وليس لي أي وسيلة إعلام.

قال: انشر هذه الرسالة، ودعها لوسائل الإعلام.

قلت: وما أسميها.

قال: ما رأيته في أعماقك، وما بحثت عنه في رحلتك.

قلت:كنوز الفقراء؟

قال: نعم.. (كنوز الفقراء)

---

(١) أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم عن عمر.

ثم انصرف عني أو انصرفت عنه، و لم ألتق به إلا بعد مدة في (مفاتيح المدائن)

الفهرس